

حضـارات مصر ونهضاتها

من قبل الأسرات القديمة حتى الثورات الحديثة

عوامل قيامها وأسباب انهيارها وماذا بقي منها

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

الناشر : دار زهور المعرفة والبركة

٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة

٠١٠٠٠٧٤١١٦٤ - ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩

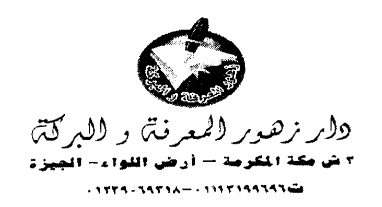
البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

محمد يونس هاشم

حضارات مصر ونهضاتها

من قبل الأسرات القديمة حتى الثورات الحديثة

عوامل قيامها وأسباب انهيارها وماذا بقي منها



دار زهور المعرفة و البركة
٢ ش مكة المكرمة – أرض اللواء- الجيزة
ت٠١١١٢١٩٩٦٦٩٦ –٠١٢٢٩-٦٩٣١٨

هاشم ، محمد يونس
حضارات مصرية ونهضاتها من قبل الأسرات القديمة حتى الثورات
الحديثة ، عوامل قيامها وأسباب انهيارها وماذا بقي منها / محمد يونس هاشم
الجيزة : دار زهور المعرفة والبركة ، ٢٠١٣
ص ٣٢٠، ٢٤×١٧ سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٥١٧٢٢١١
١- الحضارة الفرعونية
٢- مصر - تاريخ - ثورات
أ- العنوان
٩٣٢
رقم الإيداع / ٢٣٢٧٦ التاريخ ١٢/١٢ / ٢٠١٣

إهداء

* إلى أجدادنا العظماء صانعي الحضارات المُعْجِزَة وحاملي الرسالات المُقَدَّسَة ، سامحونا فقد قصَّرنا في حن مجدكم التليد ، وأخشى أن نكون قد بدَّدنا إرثكم العظيم .

* إلى شبابنا الأحرار الأوفياء هذا تاريخكم المجيد فماذا أنتم به فاعلون ؟ واعلموا أنكم عنه مسئولون .

* إلى ابنتي " مَلَك " نبع الحنان لتريف الأيام ، لم يعش أبوك يسعى وراء الشهرة والمال إنما عاش يبحث عن الحق والخير والجمال ، أتمنى ألا يكون قد خيَّب ظنك فيه ، وترك لك شيئاً نافعاً تفاخرين به .

* إلى زوجتي الحبيبة أتمنى أن يكون تقصيري في حقك وفاءً بحق الوطن علينا .

***

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

لقد كرَّم الله تعالى الإنسان ومن مظاهر هذا التكريم أن خلق الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه الأسماء كلها ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، وجعله سيداً على هذا الكوكب الأرضي، واستخلفه فيه ليقوم بعمارته وإصلاحه .

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَـاهُمْ مِـنَ الطَّيِّبَـاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا } [الإسراء : ٧٠]

كما كرَّم الله تعالى الإنسان بالاستعدادات التي أودعها فطرته؛ والتي استأهل بها الخلافة في الأرض ، يغيِّر فيها ويبدِّل ، وينتج فيها وينشئ ، ويركِّب فيها ويحلِّل ، ويبلغ بها الكمال المقدَّر للحياة .

وكرَّمه بتسخير القوى الكونيَّة له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونيَّة فـي الكواكب والأفلاك . (١)

ومن مظاهر تكريم الله تعالى الإنسانَ ، أنه خلقه في أحسن تقويم { لَقَـدْ خَلَقْنَـا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } وأنه ميزهم بالعقل والنطق والاستعدادات المتعدِّدة ، التي جعلته أهلاً لحمل الأمانة { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى الـسماوات والأرض والجبـال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان ... } [الأحزاب : ٧٢]

وأنه سخَّر الكثير من مخلوقاته لمنفعته ومصلحته .

{ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَـأَخْرَجَ بِـهِ مِـنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِيَ فِي البحر بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُـمُ الأنهـار وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم:٣٢- ٣٤]

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٥ ص ٣٥ .

وأنه سجّل هذا التكريم في القرآن الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكفاه بذلك شرفاً وفخراً . (١)

وينعدم تكريم الله تعالى الإنسانَ حينما يلغي عقله ، ولا يطيع رسل ربه ؛ ويعبد هواه ، ويتبع الشهوات ؛ فيصبح شراً من الحيوانات { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [الأعراف : ١٧٩]

والمتأمّل في كلمة إنسان في القرآن يجد أن الله تعالى قد قرنها دائماً بصفات الذم فالإنسان في القرآن : ظَلُومٌ جَهُول ، يَئُوس قَنُوطٌ ، خَصِيمٌ مُبين ، قَتُور ، هَلُوع ، جَزُوع ، عَجُول ، كَنُود .. فالإنسانُ بلا إيمان ناقصٌ ، ومثل هذا الإنسان حريص، سفّاك، وبخيل ومُقتِّر، كافر، وأضلّ من الحيوان .

ولا سبيل له للتخلُّص من هذه العيوب إلا بالإيمان بالله تعالى واتِّباع شرعه .

{ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } (العصر : ١-٣)

لقد أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمّل قوته العلميَّة بالإيمان وقوته العمليَّة بالعمل الصالح وكمّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه فالحق هو الإيمان والعمل ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما . (٢)

وإن تمام نعم الله تعالى للإنسان أن أرسل له الأنبياء والرسل لكي يعلمونه كيف يعبد الله تعالى ويعمِّر الكون ويصلحه .

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } [هود : ٦١]

ومن كمال تكريم الله تعالى للإنسان أن علمَّه كيف ينشأ حضارة مبنيَّة على العلم والإيمان ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل مصر أمّاً لهذه الحضارة ومهداً لها ؛

(١) د. سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ٢٦٥٧ .
(٢) ابن قيِّم الجوزيَّة " التفسير القيم " ج ١ ص ٥

فعلى أرض مصر أنشأ أنبياءُ الله ورسلُه عليهم السلام أوّلَ حضارة عرفتها البشرية ومن هديها اقتبست الأمم .

فما قصة هذه الحضارة الأمِّ التي جعلها الله تعالى النموذج المحتذى لكلِّ أمَّة تريد أن تبني حضارة تجمع بين المَدَنيَّة والثقافة والدين والخلق القويم ؟

كيف بدأت كاملة متطورة على غير مثال سابق ؟

كيف أتت بمعجزات في شتى العلوم والفنون والآداب ؟

وما تلك الأوهام التي أحاطت بها ؟ والأباطيل التي أُلْصِقَت بها ؟

ما عوامل هدمها ؟ وماذا بقي منها ؟

وفي هذا الكتاب بيانٌ لمعنى الحضارة والفرق بينها وبين المدنيَّة والثقافة ، وحلٌّ للغز الحضارة المصريَّة القديمة أمِّ الحضارات الإنسانيَّة الذي دوَّخ المؤرخين وعلماء المصريات ، ومدى ما وصلت إليه هذه الحضارة من تقدُّم ورقي غير مسبوق ولا ملحوق ، وعوامل انهيارها .

كما يبيِّن الكتاب أسس بناء الحضارة الهلينستيَّة (المصريَّة / البطلميَّة) وعوامل هدمها ، وكذا الحضارة المصريَّة الإسلاميَّة وأشهر علمائها ، ثم النهضة في عصر محمد علي ، والحقبة الليبراليَّة في الربع الثاني من القرن العشرين .

ويناقش لماذا توقَّف قطار النهضة عند الحقبة الليبراليَّة وأسباب قيام ثورة ٢٣ يوليو وموقفها من النهضة ، وأسباب قيام ثورة ٢٥ يناير ونهضتها المأمولة .

كما يناقش في الفصل الأخير الثابت والمتغير في الحضارات المصريَّة وانعكاس ذلك على الفلاح المصري الذي حافظ على بقاء واستمرار الجنس المصري ، كما حافظ على أرض مصر الزراعيَّة وإنتاجيَّتها .

محمد يونس هاشم

القاهرة

٢ ديسمبر ٢٠١٣

الفصل الأول

مفهوم الحضارة ونظريات نشأتها

قبل أن نتحدَّث عن الحضارات المصريَّة ومقوماتها وإنجازاتها ، وأسباب انهيارها لابد أولاً أن نتحدَّث بإيجاز عن معنى الحضارة ومقوِّماتها حتى يكون هناك معيار محدَّد نقيس على أساسه الحضارات المصريَّة وغيرها من الحضارات تجنيباً للهوى ومنعاً من ازدواجيَّة المعايير .

معنى الحضارة ومقوماتها

انتهى كثير من علماء الحضارة إلى أن كلمة حضارة تعني كل ما نجح الإنسان في إنتاجه ماديّاً أو عقليّاً نتيجةً لتفاعل الجماعة مع البيئة التي تعيش فيها . ويطلق البعض على النتائج الماديَّة كلمة مَدَنيَّة ، وعلى النتائج العقليَّة كلمة ثقافة . وتعتبر الحياة الدينيَّة ، والسياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والفكريَّة لأيِّ بلد بمثابة مظاهر لحضارته وتقدُّمه في سائر المجالات . (١)

ويرى بعض المفكرين أن هناك فرقاً بين مفهوم : المَدَنيَّة ، والثقافة ،والحضارة:

* **المَدَنيَّة** : هي الرقيُّ في العلوم التجريبيَّة كالطب والهندسة والكيمياء والزراعة والاختراع الآلي ، وسُمِّي الرقيُّ في هذه العلوم " مَدَنيَّة " لارتباط الرقيِّ فيها بالمَدَينة والاستقرار ، وعلى هذا فالمَدَنيَّة تستهدف السيطرة على الطبيعة ، وإخضاع ظروف البيئة للإنسان ،ومن هنا كانت الثقافة تحريراً للإنسان وتقويماً له.

---

(1) د. علي رضوان " مصر القديمة ، بلد التجربة والخبرة والحكم والعبرة " ص ١ مطابع الأهرام التجارية – قليوب .

الثقافة : فى اللغة هي التهذيب والصقل ، يقال ثقَّف الرمح أي قوَّمه وسوَّاه ، ومعناها الاصطلاحى : الرقىُّ فى الأفكار النظريَّة ، وذلك يشمل الرقىُّ فى القانون والسياسة والإحاطة بقضايا التاريخ المهمَّة ، والرقىُّ كذلك فى الأخلاق والسلوك ، وأمثال ذلك من الاتجاهات النظريَّة .

ولا يستغنى الرقيُّ في العلوم التجريبيَّة عن الحصول على قدر كاف من العلوم النظريَّة الداخلة فى نطاق الثقافة ؛ ولذلك نعيب على الطبيب أو المهندس الذي لا يعرف قضايا التاريخ أو اتجاهات السلوك الضروريَّة ، ونصفه بأنه غير مثقَّف ، ويعد ذلك وصفاً قاسيًا يحاول كل إنسان أن يتحاشاه .

أما الحضارة فتشمل الرقي في المجالين جميعاً ، فهي على العموم الإنجازات التي تحققت للبشريَّة أو حققتها البشريَّة . (١)

وإذا كانت المَدَنيَّة هي وسائل وأدوات الإنسان الماديَّة وهي دوليَّة صالحة للتطبيق في سائر دول العالم وتسعى كل الأمم إلى امتلاك الجديد المتطور فيها متى وجدت لذلك سبيلاً ، فإن الثقافة موضوعها الإنسان نفسه والإبداع في مجال المعنويات (الدين ، الأخلاق ، القيم ، والعادات ..) وهي محليَّة فكل أمَّة لها ثقافتها الخاصة التي تعتز بها وتحرص على بقائها واستمرارها ، وتقاوم الغزو الثقافي الخارجي .

وإذا كانت الحضارة تشمل الثقافة والمدنيَّة ، أي تشمل الأخلاق والسلوك والمعارف النظريَّة ، كما تشمل العلوم التجريبيَّة كالطب .. ، فإن أيَّة دولة مهما ضربت في مجالات التقدُّم المختلفة يمكن أن تسمى أنها غير متحضِّرة لو أنها عبثت بالقيم الإنسانيَّة والسلوك ، أو كانت مستعمرة غاشمة ، أو ظالمة جائرة ، فكل ذلك يتنافى مع مدلول الحضارة . (٢)

مقوِّمات الحضارة

يشترط علماء الحضارة عاملين رئيسيين لنشأة أي حضارة :

العامل الأول : المقوِّمات الطبيعيَّة التي تتمثل في :

---

(1) د. أحمد شلبي " موسوعة الحضارة الإسلاميَّة " ج١ ط٦ مكتبة النهضة المصريَّة ص ١٩ ، ٢٠ .
(2) نفسه ص ٢١ .

١- أحواض الأنهار الكبرى كالنيل في مصر ، ودجلة والفرات في العراق ، والسند في الهند ...

٢- المُناخ وهو من أكثر العوامل الطبيعيَّة تأثيراً في حياة الإنسان وفي تقدُّمه ، فلابد من توفر مُناخاً مُعتدلاً ، وشمساً مُشرقة ، وسماءً صافيةً ، وهواءً عليلاً ، ورياحاً لا بالعاصفة ولا بالساكنة ، واختلافاً في حرارة فصول السنة .

٣- الموقع الذي يمكّنها من الاتصال بالعالم الخارجي والتفاعل معه والتَّأثُّر به والتأثير فيه .

٤- الحدود الآمنة من العدوان الخارجي .

٥- الثروات المعدنيَّة من حديد ونحاس وذهب ...، والصخور كالجرانيت والرخام ... والأحجار الكريمة كالماس والعقيق ...

العامل الثاني : المقوِّمات البشريَّة وهي السمات التي تميز الشعوب المتحضرة والتي تمكّنهم من استخدام المقوِّمات الطبيعيَّة أحسن استخدام ومن أهم هذه السمات : الفطنة والذكاء ، والجد والاجتهاد ، والتضحية والفداء ، والإخلاص والإتقان ، والتعاون والإيثار ...

وأن هذه العوامل قد توَّفرت جميعها في مصر القديمة لذا تمكَّنوا من إنشاء أول حضارة عرفها التاريخ فقد كانت مصر قبل أن يسكنها المصريون القدماء في حالة بدائية ليس فيها من مظاهر المَدَنيَّة أو الحضارة شيء ، وقد تعجب كيف تحوَّلت هذه البلاد من هذه الحالة البدائيَّة إلى ما هو مشهور عنها من مظاهر الحضارة المصريَّة القديمة ؟ والجواب عن هذا ، هو أن هذا التحول العظيم يرجع إلى عاملين رئيسيين :

أولاً : أن مصر مع ما كانت عليه في العصور القديمة من حالة بريَّة إلا أنها كانت تحتوي على المقوِّمات الأساسيَّة اللازمة لقيام حضارة عظيمة (نهر النيل ، المُناخ المعتدل ، الموقع المتميز ، الحدود الآمنة ، الثروات المعدنيَّة)، ولم يكن ينقصها إلا جهد الإنسان وتفكيره لإقامة هذه الحضارة .

ثانياً : أن قدماء المصريين ، الذين استوطنوا هذه البلاد ، كانوا على جانب كبير من الفطنة والجد والاجتهاد ، وقد استخدموا هذه الميزات في التغلب على الطبيعة ،

فأقاموا حضارتهم العظيمة على مسرح البريَّة والتوحش ، وبذلك اجتمعت في مصر المقوِّمات الطبيعيَّة والمقوِّمات البشريَّة مما هو ضروري لقيام أي حضارة . (١)

لا حضارة حقيقيَّة بغير هداية سماويَّة

والحقيقة أن مقوِّمات الحضارة : الطبيعيَّة منها والبشريَّة غير كافية وحدها لإنشاء حضارة وهي تفسير نظري حَدْسي لنشأة الحضارة المصريَّة القديمة أوَّل حضارة عرفتها البشريَّة .

إن مقوِّمات الحضارة الحقيقيَّة – وليست المَدَنيَّة أو العمران أو الثقافية – لا بد أن يتوفَّر فيها جانبان :

١– دين سماويٌّ (عقيدة ، وعبادة ، وشريعة ، وأخلاق) .

٢– إبداع إنساني : علميّ (علوم : إنسانيَّة ، وطبيعيَّة ، ورياضيَّة ، وفلكيَّة ...) وتِقَني (اختراعات متطورة) ومادي (تشييد وبناء ...) وفني (أدب ،ورسم ،ونحت ، وموسيقى ، وتصوير) وبدني (رياضة : فروسيَّة ، رماية ، سباحة ، عدو، ..) .

فالحضارة إذن لابد أن تشبع جميع كيان الإنسان روحيّاً (عقيدة وعبادة) وعقليّاً (علوم ومعارف) وقلبيّاً (فنون وآداب) وإنسانيّاً (مكارم في الأخلاق ، واستقامة في السلوك) وجسديّاً (صحة ونشاط ، وخلو من الأمراض) كما لابدَّ أن تكون هادية لغيرها ، ناشرة لخيرها ، محافظة على توازن الإنسان والكون ولم تكتمل هذه العناصر مجتمعة إلا في الحضارة المصريَّة القديمة والحضارة الإسلامية الوسيطة ." (٢)

فمقوِّمات الحضارة الطبيعيَّة والبشريَّة فحسب لا يصنعان حضارة حقيقيَّة قد يصنعان تقدُّماً علميّاً وتكنولوجيّاً ، يغزوان البلاد ويذلاَّن العباد ولا يحققان إلا البؤس والشقاء ، ومصيرهما الهلاك والفناء ؛ قد يُحقِّق التقدُّم العلميُّ والتكنولوجيُّ مكاسب ماديَّة ومغانم اقتصاديَّة لكنه أبداً لن يحقِّق سعادة النفس ولا طمأنينة القلب

---

(1) د. علي رضوان " مصر القديمة ، بلد التجربة والخبرة والحكم والعبرة " ص ٢ .

(2) " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " للمؤلف ص ٣٠٩ ، ٣١٠ مكتبة مدبولي .

ولا غذاء الروح ؛ فإن لم تُقم المَدَنيَّة على دين صحيح فإنها لن تصنع إنساناً سويّاً، ولن تقيم حضارة خالدة تنفع الإنسانيَّة . وهذا هو حال جميع مَدَنيَّات الممالك والإمبراطوريات التي لم تُبْن على تعاليم السماء (الحق والعدل وحسن الخلق) كلها زالت غير مأسوف عليها بسبب ضلالها وظلمها .

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [الروم : ٩]

وهي دعوة إلى النظر في أحوال الأمم القديمة والحديثة التي شيَّدت مَدَنيَّتها على المقومات الطبيعيَّة والبشريَّة فحسب دون تعاليم السماء ، نعم ملكوا القوة الباطشة {كانوا أشدَّ منهم قوَّة} وحرثوا الأرض وشقُّوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها {وأثاروا الأرض} وعمَّروا الأرض ؛ فأقاموا المدن الكبيرة وبنوا فيها القصور الفخمة وزيَّنوها بالحدائق الجميلة ونحتوا فيها التماثيل الضخمة وأحاطوها بالأسوار الجميلة ذات الأبراج العالية { وعمروها أكثر مما عمروها } لكنهم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه : { وجاءتهم رسلهم بالبينات } .

فلم تتفتح بصائرهم لهذه السيئات؛ ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذي يكشف الطريق . فمضت فيهم سنَّة الله في المكذِّبين؛ ولم تنفعهم قوَّتهم؛ ولم يُغْن عنهم علمهم ولا حضارتهم؛ ولقوا جزاءهم العادل الذي يستحقُّونه : { فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون } . (١)

قال تعالى : { أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ } [الأنعام : ٦]

ألم ير أصحاب المدنيات العلمانيَّة اللادينيَّة إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكَّنهم الله في الأرض ، وأعطاهم من أسباب القوَّة والسلطان ما لم يُعْط مثله لهؤلاء

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٥ ص ٤٨١ .

وغيرهم ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق .. ثم ماذا ؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، ورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون! فما أهون المكذبين المُعْرِضين أصحاب القوَّة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله ؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً! لقد أُهْلِكُوا وغَبَروا فما أحسَّت هذه الأرض بالخلاء والخواء؛ إنما عمَّرها جيل آخر؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!

وهي حقيقة ينساها البشر حين يمكِّن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تمَّ بمشيئة الله ، ليبلوهم فيه : أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبوديَّة له وحده ، والتلقي منه وحده – بما أنه هو صاحب المُلْك وهم مُستخلَفون فيه – أم يجعلون من أنفسهم طواغيت ، تدَّعي حقوق الألوهيَّة وخصائصها؛ ويتصرَّفون فيما استُخْلِفُوا فيه تصرَّف المالك لا المُستخلَف .

إنها حقيقة ينساها البشر – إلا من عصم الله – وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف ؛ ويمضون على غير سنَّة الله ؛ ولا يتبيَّن لهم في أوَّل الطريق عواقب هذا الانحراف ، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون ، حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله ، ثمَّ تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال – بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام – ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام – ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذِّب بعضهم بعضاً ، ويدمِّر بعضهم بعضاً ، ويؤذي بعضهم بعضاً ، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلِّط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة– يكسرون شوكتهم ، ويقتلعونهم مما مُكِّنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السُّنَّة .. السعيد من وعى أنها السُّنَّة ، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما استُخْلِف فيه . والشقي من غفل عن هذه الحقيقة ، وظنَّ أنه أوتيها بعلمه ، أو أوتيها بحيلته ، أو أوتيها جزافاً بلا تدبير!

وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستهتر الفاسد ، أو الملحد الكافر ، مُمَكَّناً له في الأرض ، غير مأخوذ من الله ، ولكنَّ الناس إنَّما يستعجلون ، إنهم يرون أوّل الطريق أو وسطه؛ ولا يرون نهاية الطريق ،ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء ! لا ترى إلا في مَصَارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث والقرآن الكريم يوجِّه إلى هذه المَصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون - في حياتهم الفرديَّة القصيرة - نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق !

إن هذا النص في القرآن : { فأهلكناهم بذنوبهم } وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم إنما يقرِّر حقيقة ، ويقرِّر سنَّة ، ويقرِّر طَرَفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ .

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقاديَّة التي يقوم عليها .

والتفسير الإسلاميُّ - بشموله وجدِّيته وصدقه وواقعيته - لا يغفل أثر العناصر الماديَّة - التي يجعلها التفسير الماديُّ هي كل شيء - ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة؛ ويبرز العناصر الفعَّالة الأخرى التي لا ينكرها إلاّ أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود ، يبرز قَدَر الله من وراء كل شيء؛ ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات؛ ويبرز السلوك الواقعيَّ والعنصر الأخلاقيَّ ، ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنَّة الله في الحياة .[1]

إذن لا حضارة حقيقيَّة إلا وكانت شريعة السماء أساساً لها ، فغايات شريعة السماء ثلاث : عبادة الله ، وتعمير الكون ، وتزكية النفس .

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ }[هود:٦١]

([1]) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٢ ص ٤٧٠- ٤٧٣ بتصرف .

ومن يتبع الرسل ويقوم بشريعة الله يحظى بالحسنين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

{ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

[آل عمران : ١٤٨]

فمن ثواب الدنيا للذين آمنوا وعملوا الصالحات النصر على الأعداء ، والتمكين في الأرض : سعادة النفس وطمأنينة القلب والانتصار علي الأعداء والرِّفعة في كل مناحي الحياة ، وثواب الآخرة غفران الذنوب ودخول الجنة والخلود فيها ورضوان من الله أكبر .

أما من بنى مجده على العسف والقهر فمآل ما بنى إلى الخراب والدمار وغضب الجبار { فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى }

[النازعات :٢٥، ٢٦]

{ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ } [الحج: ٤٥]

{ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ } [الحج:٤٨]

{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام:٤٤، ٤٥]

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [يونس:١٣، ١٤]

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود : ١١٧]

{ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ } [إبراهيم : ٤٥]

{ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [النمل: ٥٢]

{ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود : ١٠٢]

إن أُسُس الحضارات الحقيقيّة جميعها التي ظهرت على الأرض أسس دينية النشأة

علّمها الله تعالى أنبياءه ورسله الذين راحوا يبنون هذه الحضارة ، ويشيّدون بناءها وهذا ما يفسر لنا عجز علماء الحضارة العلمانيين وفلاسفة التاريخ الماديين عن تفسير نشأة الحضارة المصريَّة القديمة نشأة كاملة متطورة على غير مثال سابق !!

نظريات المؤرخين في فلسفة التاريخ

أولاً : النظريَّة الدينيَّة (غير الإسلاميَّة)

تفترض النظريَّة الدينيَّة وجود قوَّة عظمى هي المشيئة أو القدرة الإلهيَّة التي تحدِّد مصائر الأفراد والشعوب ، إذ أن الآلهة تبعاً لتلك النظريَّة كان لها دور المشرِّع والقاضي ففي عصر البرونز تصوَّرت الشعوب آلهتها في صورة الإنسان الصانع الذي يملك بيديه سلطة قوية إلى الحد الذي تخلق معها قانوناً يُسيِّر شئون البشر ، وهكذا اعتقد كثير من فلاسفة اليونان القديمة ، وتاريخ كهذا ينصح الحكام بكيفيَّة كسب إرضاء الآلهة أو على الأقل يوحي بالخضوع للإرادة المقدسة .

ويتفق منهج تاريخ الكنيسة المسيحيَّة مع هذا المبدأ السابق ، ولكنه بصورة أعمق إذ تعتبر حركة التاريخ الحقَّة ، هي خطَّة لخلاص العالم موضوعة سَلَفاً وبالتالي تكون مهمة المؤرِّخ هي تتبع خطوات تنفيذها ، ويعد القدِّيس أوغسطين من أبرز الممثلين لذلك المنهج الصوفي داخل الحضارة المسيحيَّة . (١)

وهذا النظريَّة المفسِّرة لنظام التاريخ وتطوره فيها حق وباطل فالحق فيها أنَّ لهذا الكون إلهاً خلقَهُ وأبدَعَهُ ، وخَلَقَ الإنسانَ وشرَّعَ له ، وسوف يحاسبه على عمله .

{ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } (الزلزلة : ٦-٨)

فهذا حقٌ أما أن الإنسان مُسَيَّر ولا حيلة له فيما يفعل فهذا باطل فالله تعالى جعل الإنسان في هذه الدنيا مختاراً .

{ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ } (الكهف : ٢٩)

ولم يجبر الله تعالى أحداً على فعل شيء .

---

(١) نيقين جمعة علم الدين " فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي " الهيئة المصرية العامة للكتاب . ص ٥

{ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } (يونس : ٩٩)

كما أن الخضوع لله ليس عملاً سلبيّاً كما ترى هذه النظرية إنما الخضوع لله معناه القيام برسالته وهي إخلاص العبادة لله وفق ما شرع وتعمير كونه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وعدم الإخلال بالميزان الإلهي الذي خلق الكون به .

{ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } (الرحمن : ٩)

وأن القيام بمنهج الله تعالى يحقِّق رُقيّاً وتقدُّماً وسعادة في الدنيا والآخرة .

{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا } (مريم : ٥٨)

وأن الخروج عن هذا المنهج بعبادة القوى الطبيعيَّة ، أو الأصنام ، واتباع الشهوات ، والطغيان في الأرض يهلك صاحبه في الدارين .

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [القصص : ٥٩]

كما أن هذه النظريَّة لا تفسِّر لنا نشأة الحضارة ، واضمحلالها ، وموتها ، ولم تكشف لنا عن لغز الحضارة المصريَّة القديمة الذي احتار فيه المؤرخون قديماً وحديثاً .

ثانياً : النظريَّة السحريَّة :

ويعتبر المفهوم السحريِّ في تفسير حركة التاريخ أكثر قدماً من النظرية الدينيَّة فقبل أن يعرف البشر الآلهة كانت القبائل البدائية تعتقد بأن الطبيعة " مسكونة " بقوى وأرواح واعتقد هؤلاء الأقوام بأنهم يمكن أن يسيطروا على هذه القوى من خلال أعمال السحر ولهذا لم يكن الملك في عصور الملكيات الوثنيَّة واضعاً للقانون فحسب بل كان في نظر الرعيَّة ، مسئولاً عن توفير الرخاء الماديِّ في مملكته ، فكان ملوك مصر على سبيل المثال يضمنون شروق الشمس وفيضان النيل عن طريق ممارستهم لطقوس سحريَّة لا يمكن لأحد أن يمارسها سواهم ، ومن الطبيعي - بناءً على ذلك - أن يصبح الملك هو العامل الوحيد المؤثر في جميع الأحداث

التاريخيَّة وبالتالي نجد أن سجلات الملوك القدامى ما هي إلا تعبيـر عـن نظريَّـة الرجل العظيم في التاريخ .

واعتقد اليونانيون بأن رخاء واستقرار مدنهم لا يعود إلى الدساتير وحدها بل إلى حكمة واضعيها وهكذا كان أفلاطون يعتقد أنه بمجيء الملك الفرد ستتخلص الحيـاة السياسيَّة من أسقامها ، لأن ذلك الملك هو وحده الذي يمكنه أن يفعـل ذلـك ، أمَّـا بالنسبة للعصر الحديث فيقف " توماس كارليـل " علـى رأس المنـادين بنظريَّـة " الرجل العظيم " إذ يعتقد أن التاريخ الإنساني الذي تحقق إنما هو تـاريخ الرجـال العظماء . (1)

والنظريَّة السحريَّة تستبعد وجود الله تعالى ورسالاته في تقدُّم الحياة وتعزو كـل استقرار ومَدَنيَّة إلى قدرات الأفراد الذين يستخدمون السحر في تسخير الطبيعة ، و يستخدمون عبقريتهم في سياسة الناس ، والحقيقة أن اللجوء إلى تفـسير الحـضارة إلى استخدام أصحابها السحر تفسير بدائي لا يتفق مع العلم ولا الـدين ، فهـذا مـا يسمِّيه علماء النفس التفكير الخرافي فكل إنسان يعجز عن تفسير ما يجهله يردُّه إلى السحر والأرواح ، وأحياناً كنوع من التعمية يشيع أصحاب الحضارة أن ما وصلوا إليه من تقدُّم علميٍّ مذهل إنَّما كان عن طريق السحر كما فعل كهنـة مـصر مـع هيرودوت وغيره من الأجانب غير المؤمنين بعقيدة قدماء المصريين .

والسحر الذي استخدمه المصريون في إنشاء حضارتهم هو سحر العلوم الإلهيَّـة التي أوحى الله تعالى بها إلى أنبيائه ورسله . وهذا السحر لم يبطل بمـوت قـدماء المصريين إنما هو باق ببقاء شرائع الله تعالى .

ثالثا : التفسير الأنثروبولوجي :

وتُرْجِع هذه النظريَّة التقدم والتحضر للتفوق العنصري فهناك شعوب قادرة على صنع هذا التقدم وشعوب غير قادرة ، وعلى الشعوب المتحضِّرة أن تقهر وتضطهد وتستغل الشعوب المتخلِّفة ، واستُغلِّت هذه النظريـة لتبريـر القهـر والاضـطهاد العنصري الذي يمارسه الرجل الأبيض على الزنوج والأقليات وقـد أدخلـت هـذه

---

(1) نفسه ص ٦ .

النظرية الزائفة بعض الاستعارات من مبدأ " دارون " عن الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح .(١)

وهذه النظريَّة تخالف كل الأديان السماوية الداعية إلى الرحمة والحب والتعاون بين سائر البشر وأن يرحم القوي الضعيف ويعطف الغني على الفقير .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (الحجرات : ١٣)

وهناك نظريات أخرى لتفسير التاريخ باعتباره فرعاً للاقتصاد السياسي ، وأخرى على اعتباره علم مقارن ، وثالثة وفقاً للماديَّة الجدليَّة .

وجميعها لا تُشِر من قريب أو بعيد لدور الأديان السماوية في صناعة الحضارات الإنسانيَّة التي يجمع المؤرخون المنصفون على أنها بدأت من مصر القديمة .

وفيما يلي نعرض لأهم النظريات التي تكهَّنت بنشأة الحضارة المصريَّة القديم أمَّ الحضارات الإنسانيَّة .

نظريَّة اليوت سميث في نشأة الحضارة المصريَّة

وبؤرة نظريَّة سميث في نشأة الحضارة المصريَّة القديمة تنحصر في أن الإنسان البدائي الذي كان يجمع الطعام جمعاً من الغابات رأى في مصر على توالى السنين أن فيضان النيل يَعُم الوادي في مواعيد معينة كل عام ، حتى إذا انحسر الفيضان انطلقت النباتات وكست الأرض بالخضرة النضرة التي كان يجد فيها طعاماً كما كان يجد فيها صيداً لوفرة الحياة الحيوانيَّة . ففهم بالتكرار أن الماء هو أصل الحيويَّة ، وهو أصل النبات ؛ فشرع يحتجز الماء هنا ويطلقه هناك . ويضبط الري وهذه كانت الهندسة الأولى .

وظهر عندئذ التخصص : مهندسون ينظِّمون الري ، وفلكيُّون يعيِّنون الأوقات الزراعيَّة ، وهؤلاء لا يزرعون وإنما يعيشون بالفائض من المحصول ، وهنا تنشأ

(١) نفسه ص ٩ .

الحكومة التي يرأسها مهندس أو فلكي تُنسب إلية صفات الألوهيَّة لأنة يدرى ما لا يدريه غيره من الهندسة أو الفلَك . وهو يعيش كأنَّة مَلِك بل هو مَلِك يطاع فإذا مات أصبح قبره معبداً .

وأرض مزروعة تحتاج إلى حدود تُحترَم من الجيران ، وإلى أوصاف تعين الزراعة ، وإلى محكمة تعاقب المعتدى على الحدود أو المحصول ،وإلى صناع يصنعون الآلات الزراعيَّة . وكل هؤلاء لا يزرعون فنشأت من ذلك الحكومة والتجارة والفنون وهذه هي الحضارة .

ويجب ألا ننسى أن كلمات " القمح " و " البُرُ " و " الحنطة " هي جميعاً فرعونيَّة. وذلك لأن المصريين القدماء هم الذين زرعوها لأوَّل مرَّة في التاريخ وعيَّنوا أسماءها ولعلَّه كانت هناك فروق بين بذور القمح أدَّت إلى تعدد هذه الأسماء.

والزراعة هي الأساس الأوَّل الذي نبتت عليه الحضارة الأولى . أما قبل الزراعة فلم يكن هناك غير التجوال للبشر ، بلا ثقافة غير المعارف القليلة الخاصَّة بالصيد والتقاط الثمار واقتلاع الجذور .

فالزراعة أوجدت الاستقرار بدلاً من التجوال ، وبسطت الآفاق لثقافة الفنون والعلوم ونظام الحكم . (1)

ويفسِّر اليوت سميث ظهور الأفكار الدينيَّة والدين في مصر القديمة بنشأة القريَّة فعلى حين كان الرُّحَّل يتركون الميت موضع موته فقد استحال ذلك في القرى لأسباب صحيَّة واقتصاديَّة فكان لابد من دفن الموتى بعيداً في الصحراء ، ولكن الصحراء " فريجيدير " طبيعي ممتاز حفظ الأجسام فَخُيِّل لعقلية المصري البسيط أن الميت لم يمت حقيقة ما دام جسده كما هو ، ومن ثَمَّ اتجه إلى الاهتمام به في حياته الأخرى يضع الطعام والشراب والأدوات معه في القبر ، وذلك مع التحنيط زيادة في حفظه ، ومع الاهتمام " بمساكن " الموتى هذه ، كان تشييد المقابر التي تحوَّلت إلى مصاطب ثم أهرامات .. الدين وعقيدة الحياة الأخرى وحفظ الموتى إذن أدَّت إلى دَفْع النِّجارة إلى (صنع الأكفان) وإلى فن البناء (المقابر بأشكالها) كذلك فإنَّ

---

(1) سلامة موسى " هؤلاء علموني " دار المعارف ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

إدراك العلاقة بين النهر والزراعة خلقت الحساب والتقويم حين ربطوا بين الفيضان وبين الشمس والنجوم وحيث الشِّعْرَى اليمانية تعين على بدء الفيضان ، وهنا سلبت الشمس الأهمية من القمر الذي ربما كانوا يربطون بينه وبين النهر في السابق مثلما سلبت من النهر قدسيته فيما بعد فأخذت عبادة الشمس وأشعتها تحلّ محلّ عبادته ذلك سيناريو نشأة الزراعة والحضارة والدين كما يصوره اليوت سميث . (¹)

وإلى هذا تفسِّر لنا نظرية سميث نشأة الحضارة الأولى والدين في مصر ، وبقي علينا أن نعرف كيف خرجت هذه الحضارة من مصر إلى سائر العالم ؟

ويجيبنا سميث عن هذا السؤال فيقول : إن بعض البعثات المصريَّة كان ينقطع بها الطريق فلا تعود . بل تبقى في قُطْر ناءٍ بين شعب غريب بدائي لا يعرف الزراعة فتنقل هذه البعثة إلى هذا الشعب الفنون المصريَّة وتعيش هناك إلى الأبد .

ومن هنا نعرف لماذا وُجد تمثال الرب آمون في روسيا بالقرب من جبال أورال. ولماذا عبدوا رب الشمس في المكسيك كما عُبد في مصر ولماذا حُنِّطت الجثث في أمريكا على الطريقة المصريَّة . ولماذا وُجدت الأهرام في إيطاليا والسودان . ولماذا توجد في اللغة الفنلندية كلمات فرعونيَّة ولماذا ترجع أبجديَّة الخطوط في جميع اللغات إلى الهيروغليفيَّة المصريَّة . ولماذا يعمُّ التقويم المصري أوربا بل العالم كله إلى الآن . ولماذا بُنيت المعابد وذُكرت الأساطير على الطريقة المصرية. بل لماذا يوصف إمبراطور اليابان بوصف الفراعنة " ابن الشمس" أي "ابن رع". وأخيراً لماذا تكون الحبوب الأولى التي يأكلها الإنسان ولا يزال يأكلها مصريَّة الاسم مثل قمح ، وبُرّ ، وحنطة .

وشارة الكاهن المصري القديم ذلك الثعبان الذي كان يحيط بالرب " رع " والثعبان لا يزال شارة الأسقف القبطي ، وهو يُرى على رأس عصاه إلى الآن .

ولما كان الكاهن المصري طبيباً وساحراً أيضاً فإن الثعبان هو الآن شارة الطب، وفي اللغة العربيَّة لا يزال معنى الطب هو السحر والكهانة .

(¹) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ دار الهلال ص ٣٩٦ .

واذْكُرْ البقرة هاتور (حتحور) المصريَّة واذْكُرْ تقديس البقرة في الهند . واذْكُرْ أيضاً ملوك أفريقيا المتوحشين ، وكيف يضربون الجهات الأربع بالقوس كما كان يفعل الفراعنة عندما كانوا يتولون العرش رمزاً للاستيلاء على العالم .

وكذلك رجَّح اليوت سميث أن معظم الأسر المالكة في العالم ترجع إلى أصل فرعوني ، وذلك لأن كل بعثة كانت تخرج من مصر لجلب المواد والأطياب للتحنيط كان يرأسها أحد أفراد أسرة فرعون . فإذا لم ترجع البعثة صار هذا الشخص ملِكاً على البقعة التي تحتلها بعثته . حتى إذا استقرَّ العرش الجديد خرجت بعثات أخرى ... إلخ (١)

يعلِّق جمال حمدان على نظرية سميث فيقول : " وهذه النظرية الكاسحة – وكاسحة هي بالتأكيد – لقيت رواجاً كبيراً واكتسحت الميدان العلمي في حين ما ولكن الانتقادات لم تلبث أن وُجِّهَت إليها بعنف وكانت أهم هذه الانتقادات ثلاثة :

أولاً : إن القول بأن كل أركان وعناصر وأفكار الحضارة برمتها قامت في موطن واحد هو مصر قول بالغ التطرف والمغالاة .

ثانياً : إن النظريَّة تنفي إمكان إعادة أي اختراع أو فكرة مرة أخرى مما يتنافى مع وحدة العقل البشري وحتى مع قانون الصُدَف .

ثالثاً : استحالة وصول الآثار الحضاريَّة من مصر إلى المناطق البعيدة كأطراف القارات كالعالم الجديد مثلا بسبب عامل البعد الجغرافي السحيق " (٢)

نظريَّة دانيكن الهابطون من السماء

وللباحث السويدي " أريك فون دانيكن " عدة أبحاث أثارت ضجَّة عالميَّة عند نشرها أشهرها " العودة إلى الكواكب ، والهابطون من السماء ، وألغاز الحضارات" لقد حاول في تلك البحوث إثبات أن جميع الحضارات البشريَّة وما يحيط بها من

---

(1) سلامة موسى " هؤلاء علموني " دار المعارف ص ١٥٩ ، ١٦٠ .
(2) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٣٩٨ مرجع سابق .

الغاز هبط بها كائنات أو أقوام من كواكب أخرى أرقى عقــلاً وعبقريَّــة ومعرفــة وحضارة ، وأنهم هم الذين بنوا الهرم الأكبر ليكون وسيلة اتــصال بيــنهم وبــين الأرض ، كما وضعوا أسس الحضارة الفرعونيَّة التي نشأت متكاملة ومتطوِّرة بمــا حوته من معجزات في علوم : الفلك والرياضيات ، والطب ، والهندسة ، والفنــون والكتابة . " (١)

ولقد توصَّل دانيكن إلى آرائه بعد دراسة الوثائق المستندات التاريخيَّــة لقــدماء المصريين ، وبرديات كتاب الموتى .

وإذا كان المؤرخون فشلوا في الاهتداء إلى نشأة الحــضارة المــصريَّة النــشأة الصحيحة فإنهم يكادون يجمعون على أن الحضارة المصريَّة هــي أمُّ الحــضارات ولقد انتشرت الحضارة من مصر إلــى ســائر البلــدان الأخــرى " إن الانتــشار الحضاري من مصر في حدود إقليميَّة معينة هو حقيقة تاريخية لا تقبل الجدل . " (٢)

نظريات المؤرخين في معرفة المصريين البعث والخلود

وكما عجز المؤرِّخون العلمانيون عن تفسير نشأة الحضارة المــصريَّة عجــزوا أيضاً عن تفسير معرفة المصريين القدماء فكرة البعث والخلود مبكراً فقد كانوا أوَّل المتدينين . (٣)

ودونك نظريتهم في كيفيَّة اهتداء المصريين القدماء لفكرة البعث والخلود .

حاول بعض المؤرخين أن يربط معرفة المــصريين للبعــث والخلــود بالبيئــة المصريَّة الجافة : الرمل والشمس على افتراض أن المصري الأول كــان يــدهش حين يرى أجساد أجداده المدفونة في بطن الصحراء في حالة حفظ جيدة فجعله يعتقد في حياة خالدة بعد الموت وبالتالي آمن بالبعث !

وردَّ آخرون فكرة الخلود إلى إحساس المصريين ببهجة الحياة في بيئتهم الرخيَّة الرغدة وبالتالي تعلقهم بها إلى حد إسقاطها على حياة أخرى بعد الموت ، وتمديدها

---

(1) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " ص ١٩٣ الهيئة العامة للكتاب .
(2) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٤٠٠ دار الهلال
(3) نفسه ص ٤٢٨ .

فيها ، ومن ثم كان إعدادهم الغريب لها ابتداءً من التحنيط إلى مراكب الشمس إلى أثاث المقابر وأطعمتها !

كما فسَّر البعض ظهور فكرة الخلود عند قدماء المصريين بوجود الفراغ الآمن الذي أعان عليه الموقع الجغرافي والغنى الحافز والترف لذا فكّروا في الخلود ولو كانت مصر قطعة مكررة من الصحراء المشابهة تحيا حياة محرومة متنقلة ما كانت هذه الحياة تستحق الحرص عليها والسعي إلى تخليدها ! (1)

ديورانت ونشأة الدين في مصر القديمة

يفسِّر " ول ديورانت " نشأة الدين فيقول : " لما كان لكلِّ شيء روح ، أو إله خفي، إذن فالمعبودات الدينيَّة لا تقع تحت الحصر، وهي تقع في ستة أقسام: ما هو سماويٌّ، وما هو أرضيٌّ، وما هو جنسيٌّ، وما هو حيوانيٌّ، وما هو بشريٌّ، يوماً هو إلهيٌّ؛ وبالطبع لن يُتاح لنا قط أن نعلم أي الأشياء في هذا العالم الفسيح كان أول معبود للإنسان؛ وربما كان القمر بين المعبودات الأولى؛ فكما أننا اليوم نتحدَّث في أغانينا الشعبيَّة عن "الرجل الذي يسكن القمر" كذلك صوَّرت الأساطير الأولى القمر رجلا شجاعاً أغوى النساء وسبب لهن الحيض مرة كلما ظهر؛ ولقد كان القمر إلهاً محبباً للنساء، عَبَدْنَه لأنه حاميهن بين الآلهة؛ وكذلك اتخذ القمر الشاحبُ مقياساً للزمن، فهو في ظنهم يهيمن على الجو، ويُنزل من السماء المطر والثلج، حتى الضفادع تضرع للقمر بالدعاء لينزل لها المطر.

ولسنا ندري متى حلَّت الشمس محل القمر سيدة على دولة السماء، عند الديانة البدائيَّة؛ وربما حدث ذلك حين حلَّت الزراعة محل الصيد، فكان سير الشمس محدِّداً لفصول البذر وفصول الحصاد، وأدرك الإنسان أن حرارة الشمس هي العلَّة الرئيسيَّة فيما تدِّره عليه الأرض من خيرات؛ عندئذ انقلبت الأرض في أعين البدائيين إلهة تخصبها الأشعة الحارَّة، وعبد الناس الشمس العظيمة لأنها بمثابة الوالد الذي نفخ الحياة في كلِّ شيء حيٍّ ومن هذه البداية الساذجة هبطت عبادة الشمس إلى العقائد الوثنية عند الأقدمين ولم يكن كثير من الآلهة فيما بعد سوى تشخيص للشمس وتجسيد لها .

---

(1) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٤٢٨ دار الهلال .

وكلُّ نجم شأنه شأن الشمس والقمر، يحتوي إلهاً وهو بذاته إله، ويتحرك بأمر روح كامن في جوفه؛ وهذه الأرواح في ظلّ المسيحيَّة أصبحت ملائكة تهدي سواء السبيل .. والسماء نفسها كانت إلهاً عظيماً، تُقام لها العبادة في تبتّل لأنها هي التي تنزل الغيث أو تحبسه؛ وكثير من القبائل البدائيَّة يستعمل كلمة "الله" لتعني "السماء" ولفظ الله عند "اللوباري" و "الدنكا" معناها المطر . " (١)

المصريون ونظريات الغرب في نشأة الديانة المصريَّة

يؤكّد د. جمال حمدان هذه النظريات الغربيَّة في نشأة الديانة المصريَّة فيقول :

" الواقع إنَّ هذه الديانة كانت ديانة جغرافيَّة محليَّة أو بيئيَّة إلى حد بعيد فقد بدأت ديانة طوطميَّة كديانات أفريقيا البدائيَّة الحالية بل يجزم إليوت سميث أن مصر هي الوحيدة في العالم التي تساعد فيها الظروف البيئيَّة على خلق الطوطمية غير أنها لم تلبث أن أصبحت أيضاً ديانة استحيائية تكاد ترى الحياة في كل عناصر الطبيعة .

ومن هنا تعدَّدت الآلهة بالمئات والمئين معظمها مستمد من عناصر ومعالم البيئة المحيطة من حيوان ونبات إما لكثرتها أو لندرتها .

ويختم كلامه في هذا الموضوع فيقول : إذا كانت الديانة الوثنيَّة المصريَّة القديمة تعد أكثر بدائيَّة نوعاً عن مثيلتها الإغريقيَّة مثلاً فقد كادت مصر الفرعونيَّة من ناحية أخرى تتوصل فيما بعد إلى إرهاصات التوحيد (إخناتون) بقدر وكادت تكون هي عِرَاق إبراهيم الأولى في العالم قبل الرسالات " (٢)

وهكذا جارَى عالمنا الكبير جمال حمدان – وكذا السواد الأعظم من المؤرخين المصريين – المؤرخين الغرب في نشأة الحضارة المصريَّة ، وفكرة البعث والخلود، ويجب أن نلتمس للمؤرخين المصريين العذر في تقليدهم أساتذتهم الغربيين؛ أليس هؤلاء الغربيون هم الذين اكتشفوا حجر رشيد ، وفكّوا رموزه ، وأوّل من أنطق الآثار المصريَّة القديمة بعد صمت دام آلاف السنين ،وأوّل من حفر ونقّب عن المقابر والمعابد والتماثيل المصرية القديمة ورمّموها ، وأوّل من ألّف الكتب العلميَّة المتخصصة في الحضارة المصريَّة واللغة المصريَّة القديمة .

---

(1) ول ديورانت " نشأة الحضارة " ج١ ص ١١٤، ١١٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(2) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٤٢٨ دار الهلال .

يقول د. سليم حسن : " أما أكبر عالم خدم التاريخ المصري القديم فهو الأستاذ "برستد" [1] الذي جمع كل المتون التاريخيَّة واستخلص منها تاريخاً لمصر يعتبر رغم قدمه من أكبر المراجع في التاريخ المصري القديم إلى الفتح الفارسي ، أمَّا المصريون فلم يقوموا بدراسة لغة بلادهم وآثارهم إلا منذ عهد قريب وعلى رأسهم المرحوم أحمد كمال باشا . " [2]

لكن ما يؤخذ على المؤرخين المصريين – مسلمين ومسيحيين – حقّاً هو تسليمهم بالنظريات الأجنبيَّة في نشأة عقيدة البعث والخلود وغضِّهم الطرف عمَّا جاء في الكتب السماوية من عقائد دينيَّة .

يقول مهدي مصطفى في تقديمه لكتاب " الدين في مصر القديمة " للكاتبة أبكار السقاف : " وقعت النخبة تحت سيطرة مفاهيم الآخر ، خاصة بعد ذيوع وانتشار مدارس التنوير الأوربيَّة ، فما كان من تلك النخبة – في البداية – إلا أن قلَّدت المناهج الأوربيَّة وأخذت عنها فجاءت بعض أفكارها مشوشة وتابعة إلا القليل النادر منها نجا من تلك المحرقة وظلّ " مسكوتاً عنه " ولم ينتشر ولم يدخل في النسخ العام " [3]

***

---

(1) برستد هو جيمس هنري برستد (١٨٦٥–١٩٣٥م) عالم آثار ومؤرخ وعالم مصريات أمريكي الجنسية أهم إنجازاته كتابه الضخم Egypt, Historical Documents Ancient Records of. الذي ضمنه أكثر من عشرة آلاف وثيقة مصرية قديمة قام بترجمتها ونشرها فى مجلدات أربع، وأخيرا نشرت بالعربية وصدرت في أربع مجلدات أيضا بعنوان "سجلات تاريخية من مصر القديمة " .

(2) د. سليم حسن " مصر القديمة " ج١ ص ١٣٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(3) " الدين في مصر القديمة " إبكار السقاف تقديم مهدي مصطفى . العصور الجديدة ص ٨ .

الفصل الثاني

الحضارة المصريّة القديمة

سر نشأة الحضارة المصرية

إن العلمانيين من المؤرخين ينطلقون من عدة مُسلَّمات يبنـــون عليهـــا أفكـــارهم ومعتقداتهم ، وفَحوى هذه المسلمات هو أن الكفر وعبادة قوى الطبيعـــة أو عبـــادة الطوطم هو الأصل ، وأن البشريَّة لم تعرف التوحيد الخالص إلا على يـــد موســـى عند أحبار وكهنة اليهود ، وعلى يد عيسى عند قساوسة ورهبان المـــسيحيين ، وأنَّ الحضارة المصريَّة التي ولدت كاملة النمو إنما هي من صنع الطبيعة ، أو من صنع الملوك السحرة ، أو من صنع كائنات من كواكب أخـــرى أرقـــى عقـــلاً وعبقريَّـــة ومعرفة وحضارة عند علماء المصريات !!

ولم يهتم الباحثون بربط الرسالات السماويَّة بالوثائق والآثار التي تؤكِّد أن أنبياء الله عليهم السلام هم الذين بنوا هذه الحضارة بواسطة العلوم الإلهيَّة التي أمـــدَّهم الله تعالى بها ، لكي يعبدوا الله تعالى بتعمير أرضه ، كما أمـــدَّهم بالعقيـــدة والـــشريعة ليعبدوه تعالى وحده ويقيموا شرعه .

ويستنكر الكثيرون هذا القول ، ويتساءلون في دهشة :

هل أرسل الله تعالى إلى المصريين القدماء أنبياءً ورسلاً ؟! وهل لدى المصريين القدماء كتب سماوية منزّلة من عند الله كالتوراة والإنجيل والقرآن؟!!

والحقيقة أن المصريين القدماء قد أكَّدوا أن الله تعالى أرسل فيهم أنبياء ورســـلاً وأرسل معهم كتباً وصحفاً كما يذكرون أن كلَّ العلوم التي أنشئوا بها حضارتهم قـــد جاءتهم وحياً من السماء في صحف مقدَّسة .

يذكر د. أحمد بدوي في كتابه " تاريخ التربية والتعليم في مصر " أن علْم قدماء المصريين – في اعتقادهم – مَرْجعه إلى السماء ، جاء به رُسُل من حكماء الماضي، وهو مُدَّخر في الصحف يتناقله الناس جيلاً بعد جيل " .

ويقول د. عبد العزيز صالح : " رأى المتدينون – المصريون القدماء – في التَّزوُّد من مناهل العلم والعمل بهَدْيها نوعاً من التعبد في الدنيا ؛ فكان الداعي إلى دراسة هذه العلوم يعتبر نفسه داعياً إلى أقوال الرب . " (1)

ونسب كتاب الموتى (برديات الكتاب المقدس للحكيم آني) بناء الهرم الأكبر الذين أطلق عليه اسم (بيت الأماكن الخفية) إلى الإله تحوت إله المعرفة وكاتم الأسرار الإلهيَّة وحارس كلمات العدالة والحق . ناقل الكلمة والحرف وقياس الوقت والزمن ، ليكون معبداً وهيكلاً للخالق الأعظم وينقل منه رسالته إلى البشر ، وهو ما فسَّر للعلماء والباحثين " لغز الهرم الأكبر " فيما يختص بالغرض الذي بني من أجله ." (2)

والإله " تحوت " ما هو إلا نبي الله " إدريس " عليه السلام أو " هرمس " عند اليونان كما سنبين بالأدلة .

والسبب في خطأ كثير من علماء المصريات في تفسير نشأة الحضارة المصريَّة القديمة يرجع إلى الخطأ في الترجمة عن اللغة المصريَّة القديمة فلو ترجمت الوثائق ترجمة صحيحة عن الأصل الذي كتبت به لأكَّدت أن ما أتت به الحضارة المصريَّة وغيرها من الحضارات إنما هو من المعجزات التي أيَّد الله تعالى بها أنبياءه ورسله، ومما أوحى لهم به من علوم علَّموها الناس ليصلحوا بها دينهم الذي هو عصمة أمرهم ، ويصلحوا بها دنياهم التي فيها معاشهم ، ويصلحوا بها آخرتهم التي إليها معادهم .

ضاعت الحقيقة ، ولم يعد هنالك من يحكي عن عقائد المصريين القدماء وعبادتهم سوى بعض الرحَّالة والمؤرِّخين بكل ما فيها من زيف وجهل وخرافات .

---

(1) د. نديم السيار " قدماء المصريين أوَّل الموحدين " الطبعة الثانية ص ١٩٥ ، ١٩٦
(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة " ص ١٩٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

قال المؤرِّخ شمبليون : " وعندي أنه لا يعتدُّ بما قاله بعض أهل التاريخ من الأغراب الذين تطفَّلوا على محافل مصر فنقلوا من أخبار عباداتهم كلاماً اكتفوا في نقله بالظاهر دون الحقيقة لجهلهم بعادات المصريين ولغتهم ، ومبلغ علمهم بالديانات الصحيحة " .

كما ذكر مترجم كتاب " الحياة الاجتماعية " لبتري : " لقد تعرَّضت حياة الشعب المصري في الأزمان الغابرة لكثير من المسخ والتشويه على يد المؤرِّخين الأجانب وقد ظلَّت هذه الصورة المشوَّهة والروايات الكاذبة التي أذاعها الجُهَّال والمغرضون يردِّدها الناس مئات السنين . "

وهكذا شاءت الأقدار ألا يبقى من عقائد مصر القديمة سوى كتب أولئك المؤرِّخين القدماء بكل ما فيها من خرافات وجهل وأكاذيب يقرأها الناس فيسخرون أو يشمئزُّون ، ولا يعرفون عن مصر القديمة وأهلها سوى أنهم كانوا كَفَرة مشركين عُبَّاد أوثان وأصنام !!! (١)

يقول د. سليم حسن : " إن من يعرف اللغة المصريَّة القديمة وصعوبة فهمها واحتمال اللفظ من المعاني يلتمس العذر لعلماء الآثار في اختلافهم وتعدد آرائهم وتباين مذاهبهم موضوعات كثيرة " (٢)

وإن المرء ليعجب أن ينسب العلماء لامحوتب الألوهيَّة وينفوا عنه النبوَّة ، نعم إن ما عجز العلماء عن تفسيره في منجزات الحضارة المصريَّة القديمة إنما هو من ثمار العلوم المقدَّسة التي أوحى الله تعالى بها إلى رسله ليعلموها أقوامهم أو من معجزات السماء التي أيَّد الله تعالى بها أنبياءه ورسله ، والفرق بين معجزات الأنبياء التي أخبرنا الله تعالى بها ومعجزات الحضارة المصريَّة القديمة أن معجزات الأنبياء لا دليل عليها إلا إخبار القرآن الكريم بها ، بعكس معجزات الحضارة المصريَّة التي مازالت قائمة تتحدى أن يأتي أحد بمثلها أو حتى يفكَّ لغزها إنه تحدي من الله تعالى لكلِّ البشر كما تحداهم بأن يأتوا بسورة من القرآن .

---

(1) د. نديم السيار " قدماء المصريين أوَّل الموحدين " الطبعة الثانية ص ٤
(2) د. سليم حسن " مصر القديمة " ج١ ص (ب، ج) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وكما أرسل الله تعالى الأنبياء بشريعة تعلِّم الناس كيفية عبادة الله تعالى ، أرسل الأنبياء بالعلوم المقدسة التي تعلم الناس كيف يعمرون الأرض .

{ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا } (البقرة : ٣١)

{ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } (العلق : ٤، ٥)

فالله تعالى مصدر كل علم نافع عَرَّفه البشر فعلَّم آدم الأسماء كلها ، علَّمه أسماء الذوات ، وأفعالها ، مكبرها ومصغرها ، كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما . " (١)

لقد علَّم الله تعالى آدم أسماء عناصر الأرض وما بها من مخلوقات كما علَّمه كُنْهَ الأشياء وخصائصها ، وكيف يستخدمها وينتفع بها ، كما علَّم تعالى إدريس عليه السلام – نبي المصريين وأوَّل الأنبياء والرسل بعد آدم وشيث – فوق كل ذلك الكتابة بالقلم ، وحياكة الثياب ، وعلم النجوم ، والحساب وغيرها مما كان سبباً في النشأة الحضارة المصريَّة كاملة متطورة .

يقول الإمام القرطبي : " إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسُمِّي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة " (٢)

وأما عن كون إدريس مصري ، ومرسل من الله إلى المصريين فدونك شذرات من أقوال العلماء في ذلك :

يقول القرماني في " إخبار العلماء بأخبار الحكماء " : " إدريس عليه السلام كان نبيّاً عظيماً وقد ولد بمصر " .

وفي دائرة معارف البستاني : " وأمَّا ترجمة إدريس على قول العرب فهي أنه كان نبيّاً عظيما ولد بمصر " .

ويقول الألوسي في تفسيره روح المعاني : " وكان إدريس قد ولد بمصر "

ويذكر ابن إياس في " بدائع الزهور " تحت عنوان " ذكر من كان بمصر من الحكماء في أوَّل الدهر " : " قال الكندي : كان بمصر من الحكماء إدريس وقد جمع بين النبوَّة والحكمة . " (٣)

---

(1) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١ ص ٧٨

(2) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١١٧ .

(3) نقلاً عن د. نديم السيار " قدماء المصريين أوَّل الموحدين " ص ١٨٧ .

وحتى العلماء والمؤرخون الذين ذكروا أن إدريس ولد ونشأ في بابل ذكروا أنــه هاجر إلى مصر ونشر فيها دين الله وعلومه المقدسة .

إذن كانت نشأة الحضارة المصريَّة القديمة نشأة دينيَّة ، وأن أوَّل علوم عرفهــا البشر علوم ربانيَّة ، وإنجازات المصريون القدماء الباهرة كانــت ثمــرة اتبــاعهم العلوم المقدَّسة التي جاء بها الأنبياء .

وهذا ما تؤكده الدراسة المتأنيَّة لتاريخ هذه الحــضارات ، وآثارهــا الخالــدة ، ونصوص الدين الإسلامي المعجزة .

المصريون القدماء والتوحيد

جمهور علماء المصريات والمؤرخين يجمعون على أن أهمَّ ما تميزت به الديانة المصريَّة القديمة هو تعدد الآلهة ، وهؤلاء الذين يقرُّون بتعدد الآلهة المعبودة لــدى المصريين القدماء يقرُّون في ذات الوقت معرفــة المــصريين القــدماء بالتوحيــد الخالص فيقولون : " رغم أن هذه الآلهة تبعاً لبلادها كانت تختلف في الشكل والاسم وفي طريقة السلوك فمن المدهش أن نجد خارج هذه الاختلافات فكرة " الألوهيَّــة " المجردة التي لا تتكر ممثَّلة في شعار على هيئة لواء معلق في طرفه ساق خــشبية تغرس عند مداخل المعابد البدائيَّة .

وكلمة " نتر " أو " الألوهية " هي الاسم الذي كان يصف أي واحد من تلك الآلهة مهما كان اسمه ؛ كما استعملت لتصف كل سمة ربانيَّة . ومن الطبيعي أن تــستعمل هذه الكلمة لتصف كل إله على حدة دون تكرار اسمه ، وســرعان مــا أدَّى هــذا الاستخدام إلى فكرة وجود قوَّة إلهيَّة مستقلَّة اشترك فيها كل إله .

كان الاعتقاد في " قوَّة إلهيَّة " غير شخصيَّة ولا نهائيَّة موجودة في كل إله علــى حدة (ولكنها عامة ومنتشرة في حيز واسع وراء أشكالها المرئية المختلفة) عنصراً أساسيا في الفكر الديني المصريِّ .

لهذا يمكن أن نقول إن التوحيد المصري موجود دائماً مع تعدد الآلهة الواضــح في العبادات الماديَّة .

كثيراً ما يُذْكر الإله في أدب الحكمة دون أي صفات : " ليست إرادة الإنسان هي التي تحقق بل تدبير الإله " (بتاح حوتب) الدولة القديمة .

" يَعْرف الإله من يعمل من أجله " (مير يكارع) الأسرة الحادية عشرة .

" كل من يفعل هكذا سيمجد الإله اسمه " (الحكيم آني) الأسرة الثامنة عشرة.

" الإنسان طين وقش وصانعه هو الإله " (أمينيموبي) نهاية الدولة الحديثة .

"سعيد من يسير في طريق الرب " (بيتوسيريس) القرن الرابع قبل الميلاد. (١)

كيف يستقيم أن يعبد المصريون القدماء آلهة متعدِّدة في نفس الوقت الذي يعترفون فيه بوجود إله واحد أحد لا اسم له معروف ، ولا تمثال له منحوت ، ولا صورة له مرسومة ؛ لأنهم يعتقدون أن هذا الإله ليس كمثله شيء ، وأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ؟!!

هذا هو اللغز الذي دوَّخ العلماء والمؤرِّخين .

والحقيقة التي أكدتها البرديات القديمة أن المصريين موحِّدون ، نعم موحدون يؤمنون بالله الواحد الأحد – الذي نؤمن به – وبكل العقائد الإلهيَّة التي جاءت بها الكتب المقدسة بعد ذلك .

سعياً وراء البحث عن أصول الديانة المصريَّة وأسسها وفلسفتها نجد عباس محمود العقاد يؤكد في دراسته لمفهوم الألوهيَّة . في هذه الديانة أنه في هذه العهود السحيقة " وصل المصريون إلى التوحيد " وهو برأيه هذا ليس فريداً فيبدو أنه بذلك يسير على نفس درب بعض ذوي التخصص في الدراسات المصريَّة القديمة لأن "برستد " قد سبقه وأشار إلى نفس المعنى حيث بيَّن " .. وقوع بعض الناس في الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ، ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن في أصل ديانتهم " ، وذهب معه " رودلف أنتس " إذ أكَّد أنه قد " .. عُرفت فكرة وجود الإله الأزلي منذ أوَّل بدء التاريخ المصري " وقد دعَّم هذا الرأي وعلا به أكثر د. أحمد بدوي بتأكيده : إن المصريين قد ".. عرفوا أن الله واحد لا شريك له " بل إنهم " قد نزَّهوا الخالق عن طبيعة الأشياء ". (٢)

---

(١) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " ترجمة أمين سلامة ، مراجعة د. سيد توفيق . الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية . ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) د. سيد القمني " عقيدة الخلود في مصر القديمة " المركز المصري لبحوث الحضارة ص ٩١

وليس فقط هؤلاء من أكدُّوا توحيد المصريين القدماء فهناك العديد من العلماء والباحثين الذين أكَّدوا هذه الحقيقة منهم العالم الفرنسي شمبليون مكتشف ومترجم نصوص حجر رشيد حيث يقول : " لقد استنتجنا مما هو منقوش على الآثار صحَّة ما رواه "جامبليك "وما ذكره غيره من المتأخرين من أن الأمَّة المصريَّة كانت أمَّة موحِّدة في عبادتها لله ، وأنهم لمَّا توغَّلوا في سبيل التوحيد وقطعوا آخر مرحلة علموا أن الروح أبديَّة واعتقدوا بصحَّة الحساب والعقاب " .

وفي عام ١٨٣٩ بعد وفاة " شمبليون " نشر أخوه " فيجاك " نقلاً عنه خلاصة ما كان قد توصَّل إليه بعد طول بحث ودراسة : "إن الديانة المصريَّة توحيد خالص"

ويذكر العالم البريطاني " والس بدج " : { إن أكثر المؤيِّدين لنظريَّة التوحيد في مصر القديمة هو " د. بروجش " الذي جمع عدداً هائلاً مدهشاً من الفقرات المصريَّة الأصليَّة ، ومن هذه الفقرات نختار ما يأتي :

" الإله واحد لا ثانيَ له "

" الإله باطن خفي" (الذي لا تدركه الأبصار)

" وهو خالق يعرف تكوينه ولا أحد يمكنه أن يدرك كنهته وماهيته ،ولا شبيه له"

" هو خالق الكون وكل ما فيه ، خالق السموات والأرض والأعماق (ما تحت الثرى) والمياه والجبال .. إلخ "

وهذا القول قال به العالم الفرنسي " دي روجيه " ، وعالم الآثار " دي لاروج " ، وعلماء الآثار : " مارييت " ، و" بيريت " و " ماسبيرو " .

لقد نشر " والس بدج " كتاباً فيه تلخيص لخلاصة ما توصل إليه هؤلاء العلماء وغيرهم جاء فيه " ومن الصفات المنسوبة إلى الله " God " في النصوص المصريَّة من كل العصور انتهي بروجش ، ودي روجيه ، وعلماء المصريَّات الكبار الآخرون إلى فكرة أن سكَّان وادي النيل من أبكر وأقدم العصور عرفوا وعبدوا إلهاً واحداً .. أزليّاً .. أبديّاً .. لا تدركه العقول ،ولا يمكن استكناه ماهيَّته" .

ونشر والس بدج كتاباً آخر أكد فيه ما سبق أن ذكره من تماثل توحيد قدماء المصريين وتوحيد اليهود والمسلمين يقول فيه : " إنه لا توجد صعوبة في إظهار

أن فكرة التوحيد التي وجدت في مصر منذ العصور المبكرة لا تختلف في ملامحها عن تلك التي نمت بين العبرانيين (اليهود) والعرب (المسلمين) " (١)

وقد قام د. وسيم السيسي بعقد مقارنة بين شريعة المصريين القدماء والشرائع السماوية الأخرى في مقال له بعنوان " النبي إدريس المثلث بالعظمة " جاء فيه :

" لم يترك الله أمَّة بلا رُسل : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل :٣٦]

وقد ذكر منهم القرآن الكريم نبي الله إدريس :

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } [مريم : ٥٦]

وكان من ألقابه هرمس (٢) كما يذكر القفطى " إدريس النبي ﷺ ولد بمصر وسموه هرمس (٣)

وكان المصريون يلقِّبونه «عا.. عا.. عا.. ورَّ» أي مثلث العظمة . (٤)

وقد عُثِرَ على بعض الكتابات الهرمسيَّة، تقول عنها دائرة معارف الدين إنها أثرت في العقائد اليهوديَّة، واللاهوت المسيحي ، كما تذكر لنا دائرة المعارف البريطانيَّة أنَّ هذه الكتابات الهرمسيَّة دُرست جيداً بواسطة العرب وأثرت فيهم . (٥)

عرف القدماء البعث بعد الموت، نجد كلمة موت مصريَّة، منيَّة.. مصريَّة، نشرو " النشور" مصريَّة، أخرت " آخرة " مصريَّة، قر " المستقر " مصريَّة في القرآن {وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [غافر : ٣٩]

نجد في كتاب «الخروج إلى النهار» المسمى خطأ «كتاب الموتى» في فصل إنكار الخطايا، تدخل نفس المتوفى إلى قاعة الحساب «كلمة مصريَّة» يسوقها أحد

---

(١) لمزيد من أقوال علماء المصريات حول توحيد القدماء المصريين راجع د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " الفصل الثاني " إشراق الحقيقة " .
(٢) دائرة المعارف البريطانية ج ٥ ص ٨٧٥ .
(٣) القفطي " إخبار العلماء بأخبار الحكماء " ص١
(٤) والاس بادج " آلهة المصريين " ٤٧٨.
(٥) دائرة المعارف البريطانية ج ٥ ص ٨٧٥ .

الملائكة، وفى القرآن الكريم {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } [ق : ٢١] ، ثم يقول المتوفى: لم أرتكب إثماً، وفى القرآن: { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ } [الأعراف : ٣٣]

وفى برديَّة آنى يقول المتوفى: لم أرتكب الفحشاء (١) ، وفى القرآن { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ } [الأعراف : ٣٣]

كما كان المصري القديم يقول: لم أقتلْ، لم أسرقْ، لم أسلبْ، لم أسرقْ بالإكراه، لم أرتكبْ الزنا، لم أشته زوجة قريب أو صديق، لم أرتكبْ الفاحشة في حرم الإله، وجاء في القرآن: { وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا } [البقرة : ١٨٧] ، وكان المصريُّ أو المصريَّة يقول في محاكمة الروح: لم أكن متنصتاً أو متجسساً، وفى القرآن الكريم: { وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا } [الحجرات : ١٢] وكان يقول: لم أنطق بالأكاذيب، ولم أكن شاهد زور، ولم أغْتَبْ " الغيبة " أحداً ، ولم أكن نمَّاماً ، ولم أسخر من أحد، ولم أشتم، ولم أكن عالي الصوت، ولم أظلم.. بل عشت للعدل، وبالعدل عشت، والقرآن الكريم يقول :{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل : ٩٠] كما كان المصري القديم يقول : لم أُلْحق أذى بمخلوق، والقرآن: { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا } [الأحزاب : ٥٨] إلى آخر هذا القانون الأخلاقي الرائع، والذي يقول عنه برستد " إنه أسمى بكثير من الوصايا العشر" (٢)

فإذا ذهبنا لسِفْر الأمثال الذي كتبه سليمان الحكيم بعد إمنوبى الحكيم المصري بآلاف السنين نجد التطابق العجيب الذي يؤكد أن المصدر الإلهي واحد منذ آلاف السنين، هوذا إمنوبى يقول: أمل أذنيك لتسمع أقوالي، وأعكف قلبك على فهمها، وسليمان الحكيم بعد آلاف السنين يقول: أمل أذنيك واسمع كلام الحكماء، ووجه قلبك لمعرفتها !

---

(١) والاس بدج " كتاب الموتى " ص ٢٠١.
(٢) برستد " فجر الضمير" ص ١٠.

ويقول أمنوبى: لا تتعب نفسك في طلب المزيد، مادمت حصلت علـــى حاجتـــك، فالمال المسروق لا يمكث معك بل تصبح له أجنحة ويطير كـــإوزة إلـــى الـــسماء، ويقول سليمان الحكيم: لا تتعب نفسك حتى تصير غنيّاً، فالمال يصنع لنفسه أجنحـــة كالنسر ويطير إلى السماء !

ويكتب لنا برستد عشرات الصفحات المقارنة بين أمنوبى وسفر الأمثال، وبـــين أناشيد أخناتون ومزامير داوود النبي .

لقد صبغت الحضارة المصريَّة القديمة كل ما ومن حولها ! إليك مـــثلاً تهامـــة مصرية معناها الأرش شديدة الحرارة، خيبر= خيَّالة من ألف جواد، يثرب= ملجـــأ الهاربين، هوازن= رافعو الأعلام، جبل حراء= جبل الأطلال، قريظـــة= حـــاملو الدروع، أقرأ هذا كله.. وهو قطرة في محيط، فأتذكر تنبؤات تحوت عن مـــستقبل مصر: آه يا مصر.. لن تلقى تصديقاً حتى مـــن أبنائـــك، ستـــصبحين مهجـــورة.. موحشة، محتلة من الأجانب الذين سيتنكرون لتقاليدنا المقدَّسة (١) ، ولكـــن الكـــاهن نفرا بهو، ختم بردياته في وصف الثورة وعصر الاضمحلال، بظهور قائد منقذ من أبناء الصعيد، سيحرر البلاد ويعيد لها مجدها: سوف يعود الأمن للـــبلاد، وجـــيش مصر لمصر ويحمل سلاحه ضد أعداء الوطن الذين باعوه للأعداء " (٢)

إن المصريين القدماء عرفوا التوحيد الخالص منذ فجر التاريخ إن لم يكن علـــى يد آدم عليه السلام فعلى الأقل على يد حفيده إدريس عليه السلام أو هـــرمس كمـــا يسميه اليونان وصحفه المقدسة المنزّلة من السماء .

يقول ديورانت في " قصة الحضارة : " كان من المألوف في الأزمان القديمة أن تُعْزى كتب القوانين إلى الوحي الإلهي ،وكانت قوانين مصر تعزى إلى تحوت " .

وتحوت هو نفسه هرمس عند اليونان .

يقول د. سليم حسن : " أطلق اليونان على تحوت اسم هرمس " (٣)

---

(١) عاطف عزت " دراسات وأبحاث في الحضارات القديمة " .

(٢) د. سيد كريم لغز الحضارة المصرية " ص ٣١٨ ، لمزيد من التفاصيل حول سيدنا إدريـــس راجـــع د. وسيم السيسي " النبي إدريس المثلث العظمة " موقع د. وسيم السيسي بتاريخ ٢/ ٤ / ٢٠١٣ .

(3) د. سليم حسن موسوعة " مصر القديمة " ج١ ص ١٨٦ مرجع سابق .

ويقول ول ديورانت " كان اليونان يعظمون تحوت ويسمونه هرمس المثلث العظمة " (١)

فتحوت هو هرمس ، وهرمس هو نبي الله إدريس .

يقول ابن تغر بردي : " إن هرمس الموصوف بالحكمة والذي تسميه العبرانيون خنوخ هو إدريس عليه السلام " (٢)

يقول النويري : "هرمس: نبي، وحكيم، وملك قيل: هو إدريس عليه السلام"(٣)

وتشير برديات هرمس إلى العلاقة بين ظهور عقيدة التوحيد وظهور جذور المعرفة في الحضارة المصريَّة القديمة والتي ارتبطت جميع عناصرها بالعقيدة ، تقول برديات هرمس " عندما آمن المخلوق برب السماء أنعم عليه بنعمة المعرفة التي حملها تحوت رسول الإله الذي ينقل رسالته إلى البشر "(٤)

ويقول ول ديورانت " كان معظم علماء مصر من الكهنة، ذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها، يتمتعون بما في الهياكل من راحة وطمأنينة؛ فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصريَّة ،وهم يقولون في أساطيرهم إنَّ العلوم قد اخترعها من ٨,٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصري في خلال حكمه على ظهر الأرض " (٥)

الإسلام يؤكد كلام المصريين القدماء

لقد جاء في حديث أبي ذر الغفاري الطويل في عدد الأنبياء عليهم السلام ذكر الصحف الثلاثين التي أوحى الله تعالى بها إلى إدريس نبي المصريين .

قال أبو ذر الغفاري : {... قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك ؟ قال: "ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب". قلت: فمن كان أولهم ؟ قال: "آدم" قلت: أنبي مرسل ؟ قال: " نعم، خلقه الله " بيده، ونفخ فيه من روحه، سواه قبيلاً " .

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " مرجع سابق ج١ص ٣٢٦ .
(2) ابن تغر بردي " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ص ٦٦ .
(3) النويري " نهاية الأرب في فنون الأدب " ص ٦٣٨ .
(4) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٧٠
(5) ول ديورانت " قصة الحضارة " مرجع سابق ج١ص ٣٢٥ .

ثم قال : "يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم، ونوح، وأربعة من العرب: هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول الرسل آدم وآخرهم محمد" قال: قلت: يارسول الله، كم كتاب أنزله الله ؟ قال: "مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة، ... } (١)

وذكر القرطبي في تفسيره : " إدريس عليه السلام أوَّل من خطَّ بالقلم وأوَّل من خاط الثياب ولبس المَخيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر . " (٢)

هذا ما قاله المفسِّرون في حق إدريس ، فماذا قال علماء المصريات عن تحوت؟

الحقيقة أن الكلام يكاد يتطابق مما يؤكد أنهما شخص واحد .

يقول علماء المصريات : " تحوت إله العلم والحكمة والأدب ، وكاتب الآلهة ومخترع اللغة الهيروغليفيَّة وواضع القوانين ومخترع علم الحساب والفلك " (٣)

وإذا كانت دعوة التوحيد قد بدأت في مصر واعتنقها المصريون منذ عهد إدريس عليه السلام . فإنها قد ظلت عقيدة راسخة نجد أصداءها تتردد بقوة على مر العصور والعقود .

إن كثيراً من الوثائق المصريَّة القديمة ككتاب الموتى ، ونشيد الشمس لا تملك أن تقول فيه إلا كما قال النجاشي عندما سمع القرآن " هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة " .

يقول رع (٤) عن نفسه : " إني أنا الذي خلقت السماء والأرض وأرسيت الجبال . أنا الذي خلقت الساعات ومن ثَمَّ جاءت الأيام إلى الوجود .

أنا الذي خلقت نار الحياة . " (١)

---

(1) ذكر الحديث ابن كثير في تفسيره ج ٢ ص ٤٧٢
(2) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٤٧٢ .
(3) عبد القادر حمزة " على هامش التاريخ المصري القديم " مطابع الشعب ٤٧٧ .
(4) اسم " رع " عند المصريين القدماء معناه رب الأرباب أو إله الشمس .

ويقول " رع " عن نفسه أيضاً إنه : " الإله المقدَّس الذي جاء إلى الوجود بنفسه .. الإله الأزلي الذي وُجد في البدء والذي رفع السماء وسوَّى الأرض .. الإله الذي لا ينازع سلطانه منازع ذو القول الفصل . " (٢)

و" رع " هو الاسم الأشهر الذي عُرف به الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وهو ما يقابل عندنا لفظ الجلالة " الله ".

و" رع " عند المصريين القدماء ليس اسم الله الأعظم ، فاسم الله الأعظم لا يعرفه أحد . جاء في كتاب الموتى وهو أقدم كتاب مقدَّس عرفه المصريون القدماء في عصور ما قبل الأسرات : " لا يعرف الإنسان اسم الخالق " .

وفي متون الأهرام : " إن الخالق لا يمكن معرفة اسمه لأنه فوق مدارك العقول "(٣)

إنه من المستحيل أن يصل المصريون القدماء إلى هذا التوحيد بعقولهم المجردة مهما بلغوا من الذكاء والعبقريَّة .

إن تاريخ المصريين القدماء تاريخ التوحيد ابتداءً من إدريس عليه السلام إلى الألف الأولى قبل الميلاد على لسان حكيم – وقيل أنه نبي – من النوبة أقصى صعيد مصر أو سودان مصر ألا وهو حكيم الحكماء لقمان الذي سمَّا الله تعالى سورة من سور القرآن الكريم باسمه جاء فيها .

{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : ١٢ ، ١٣]

جاء في تفسير القرطبي " لقمان بن عنقاء بن سرون كان نوبيّاً من أهل أيلة " (٤) وقال سعيد ابن المسيب : " كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوَّة؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيًّا. وقال بنبوته عكرمة والشعبي؛ وعلى هذا تكون الحكمة النبوَّة. " (٥)

---

(1) نقلا عن إيكار السقاف " الدين في مصر القديمة ". العصور الجديدة ص ٤٥ .
(2) نفسه ص ٤٦ .
(3) د. نديم السيار " ليسوا آلهة ، ولكن ملائكة " ص ٣٢٠.
(4) تفسير القرطبي لقوله تعالى : "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ " [لقمان : ١٢]
(5) نفسه .

إذن لا شكَّ في أن المصريين القدماء كان لديهم كتب سماوية ، وأن الله سبحانه قد أنزلها وحياً على نبيهم إدريس في بداية الخليقة ، ووعظ بها لقمان الحكيم قبل الميلاد بألف عام .

كما نجد في الوثائق المصريَّة القديمة العديد من الشواهد على أن تلك الكتب المنزّلة كانت لها في نفوسهم قداسة هائلة ، وأنهم كانوا يلتزمون التزاماً كاملاً بكل ما جاء فيها ونجد هذا على سبيل المثال في نصائح ووصايا الحكيم " آني " إذ يقول: " إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزّلة ".[١]

ويقول عالم المصريات الكبير د. سيد كريم " إن ما جاءت به الكتب المقدسة من عقيدة وشريعة وعبادة " وُجدَت مُفصّلة في " كتاب الموتى " الذي يعتبره كثير من المؤرخين وعلماء الأديان أوّل دين سماوي عرفته البشريَّة خاصة وأن أقدم آثاره ترجع إلى ما قبل فجر الحضارة نفسها أي قبل الأسرات سنة ٤١٠٠ ق. م "[٢]

إذن وبناءً على ما تقدم فإنَّ المصريين القدماء لم يكونوا مشركين يعبدون آلهة متعدِّدة كما هو مشهور بل كانوا أوّل شعوب الأرض يؤمن بالله الواحد الأحد وبشريعته وعلومه المقدسَّة وذلك التوحيد هو الذي بنوا به حضارة مصر وفي كل مرة حاولوا إقامة الدولة كانت الفكرة الأساسيَّة فيها توحيد العقيدة والإيمان بالإله الواحد وهذا ما يحل لنا اللغز الذي حيَّر المؤرخين وعلماء الآثار وهو ظهور الحضارة المصريَّة القديمة كاملة النمو بمعرفة متكاملة في مختلف العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة والفلكيَّة والطب والفنون والآداب والعمارة ، والأعجب من ذلك – أو ربما ما يُفسِّر ذلك – تكامل العقيدة " بتوحيد الإله " رع " رب الأرباب وخالق الكون ورمزوا لقدرته بقرص الشمس وعبَّروا عنه بالقوة الخفيَّة الكامنة التي تهب الحياة وتسيِّر الكون . "[٣]

نظام الحكم عند المصريين القدماء

إن دين الله تعالى ليس مجموعة من الشعائر التي تؤدى في بيوت الله ولا علاقة لها بحياة الناس ومعاشهم ، هذه فكرة قاصرة لدين الله فدين الله الذي شرع للناس شامل لكل مناحي الحياة ، فكل حياة المرء لابد أن تكون لله تعالى

---

(1) د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " ص ١٩٧ مرجع سابق .
(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة " ص ٥٣ مرجع سابق .
(3) نفسه ص ٦٦

" قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " [الأنعام : ١٦٢]

ونظام الحكم منصوص عليه في الشرائع السماويَّة ، وأمر الله تعالى النــاس أن يحتكموا إليه .

يقول تعالى : {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} [المائدة:٤٤]

فمن كتم حُكْم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حَكَماً بين عباده ، فأخفــاه وحَكَــم بغيره "فأولئك هم الكافرون " .

وقد كان نظام الحكم عند قدماء المصريين يسير وفق شرع الله ولا يخرج عنــه يقول د. سليم حسن : " لم تكن الحكومة المصريَّة في نظر الشعب المصري نظاماً اخترعه الإنسان أو أنه جاء نتيجة تطور سياسي – كما زعم المؤرخون العلمــانيون – بل كان هبة الله لشعبه أُسِّس عند خلق الدنيا " (1)

وكان الحاكم في مصر القديمة ليس مطلق اليد بــل هــو مُقيَّــد بــشريعة الله ، لا يخرج عليها ، وإلا خرج الناس عليه .

ودونك دستور الحكم في مصر : " إنَّ المصري القديم اعتقد إنَّ أوَّل مــن حكــم على الأرض والعالم بأجمعه هو " رع " إله الشمس ، وقد وضع هذا الإلــه قانونــاً يسمى " ماعت " ومعناه الصدق والعدل والحق والعدالة الاجتماعيَّة والحكم الصالح، ولما رَفَع " رع " نفسه إلى السماء حكم ابنه (2) علــى الأرض ولقبــه " بــابن رع " (خليفته) وهو الملك ، وقد كان على كل ملك يَتَبوَّأ عرش مصر العظيمة منذ الأسرة الرابعة (أسرة بناء الأهرام) أن يسير في حكمه تبعاً لقانون " ماعت " فإذا ما حــاد عنه قَيْد أُنْمُلَة فلشعبه ألا يعتبره ابناً " لرع " ولا يحكم البلاد .

لذلك نرى أن البلاد سارت تحكم بقانون " ماعت " مدة طويلة وهي تنعم بالرخاء طوال عهد الدولة القديمة حتى إذا ما انتصف حكم الأسرة الــسادسة أخــذ الملــوك يحيدون عن الحكم بقانون " ماعت " حتى انهارت البلاد وهوت إلى مزالــق الذلــة

---

(1) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج١ ص ٢٣٨ مرجع سابق
(2) " ابنه " هنا ليس بالمعنى الحقيقي إنما معناها خليفته مصداقا لقوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَــةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة : ٣٠)

ولذا قامت في مصر ثورة اجتماعيَّة قلبت جميع الأوضاع ونادت بالإصلاح الشامل وتقويم فساد المجتمع من الانحطاط . " (١)

لكن ما هو قانون " ماعت " هذا الذي أمر الله تعالى بـه الإنسان أن يطبّقه ، وعلى أساسه يوم القيامة سيحاسبه .

يقول د. سليم حسن : { كلمة " ماعت " تعني في متون كثيرة العدالة ولكنها فكرة تشترك في أسباب شرائع الكون ، كما يشترك فيها علم الأخلاق ، فهي العدالة بوصفها نظام إلهي للمجتمع ، ولكنها كذلك نظام إلهي للطبيعة كما وضعت عند بدء الخليقة .. وكلمة " ماعت " تحوي في طياتها معاني دقيقة خلقيَّة واجتماعيَّة فهي النظام الذي يسير على هديه الفرعون في حُكم شعبه كما كان يفعل " رع " ومن ثمَّ قَبِل الشعب المصري الحكم الملكي لا بوصفه نظام حكم أفضل من غيره بل لأنه من وضع الإله الخالق للعالم وعلى ذلك خضعوا له لأنه عادل ولم يكن للفرعون الحق في تغييره فإذا حاد عنه فإنه يعد خارجاً على نظام خالق الخلْق ، وقد استمرت ملوك مصر من أول مينا حتى نهاية الأسرة السادسة يسيرون حسب تعاليم " ماعت " ولما حادوا عن تعاليمها خرج عليهم الشعب ومن ثمَّ كانت أول ثورة اجتماعيَّة في تاريخ البشريَّة استمرَّت أكثر من قرن من الزمان إلى أن عاد قانون "ماعت" أي العدالة المطلقة على يد ملوك الدولة والوسطى " (٢)

وفي موضع آخر يقول د. سليم حسن عن قانون ماعت : " ذلك القانون الذي سنه " رع " أوّل من حكم على الأرض وقوامه العدل والصدق والحق وتأدية الواجب على الوجه الأكمل دون تقصير أو تراخ وهو الذي سارت على سننه كل فراعنة مصر حتى أن من يحيد عن سبيله لا يكون جديراً بأن يدعى " ابن رع " وقد ارتضى المصريون هذا النظام عن طيب خاطر ، وقنعوا بالملَكيَّة نظام حكم لهم طوال مدَّة تاريخهم ، اللهم إلا فترات انحرف فيها الملوك عن " ماعت " فانفضَّ الشعب من حولهم وهبَّت في وجوههم الثورات تطالب بعدالة " ماعت " التي كانت غذاء الآلهة وقوام حياتها (أي شريعة الله ونظامه الذي بنى عليه الحياة والأحياء) كما كانت طعام الشعب وعماد حياته ، ولا غرابة إذن في أن نرى الشعب المصري

(1) محمد صابر " مصر تحت ظلال الفراعنة " مكتبة الأنجلو المصرية ص ١١١
(2) د. سليم حسن " تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج١ ص ٢٣٩ مرجع سابق .

كان يخضع للفراعنة خضوعاً تاماً ، ويعتقد أن ما كانوا ينطقون به هو الصواب الذي لا مرية فيه ، لأنه من وحي " ماعت " التي سنّها " رع " أوّل من حكم العالم ثم ثار على نهجه الفراعنة من بعده . من أجل ذلك نرى في الصور الفرعونية أن أهم قربان وأثمن هدية يقدّمها الفرعون للآلهة هي صورة " ماعت " التي تمثّل في هيئة امرأة ترتدي على رأسها ريشة يرمز بها للعدالة " ماعت" كما أنه كان لزاماً على كل قاضٍ ممن يفصلون في قضايا الشعب أن يحلّي صدره بصورة " ماعت " وعند النطق بالحكم كان يقبض على هذه الصورة بيده ويتوجّه بها نحو من في جانبه الحق فكأنه يقول له " إن العدالة في جانبك " (١)

وكانت فترة فرعون حاكم مصر في عهد سيدنا موسى من تلك الفترات التي خرج فيها حاكم مصر على توحيد الله واتباع قانون " ماعت " ولقد عاقبه الله تعالى هو ومن أطاعوه بأن أغرقهم أجمعين ؛ ليكونوا عبرة لكل من تسوّل لهم نفسه الخروج عن توحيد الله تعالى وعن قانون "ماعت " .

{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ } [الزخرف : ٥٤ – ٥٦]

الحياة الاجتماعية للمصريين القدماء

كان المصريون يؤلّفون طبقتين : الطبقة الحاكمة وطبقة الشعب .والطبقة الحاكمة مكوّنة من الحاكم وأهله ، وملئه وهم الكهنة والوزراء وكبار رجال الدولة وهم قلة في المجتمع .

أما طبقة الشعب فكانت تتكون من صغار موظفي الدولة والفلاحين والعمال والتُجار والصُناع وكان وضعهم التالي .

الفلاحون : كانوا يمثلون معظم السكان وهم مرتبطون بالأرض ويشتغلون بالفلاحة وبالخدمة في الأراضي الملَكيَّة وضياع الأمراء وعظماء الدولة .

العمال وهم دون الفلاحين في العدد ويعملون في البناء والتشييد وصناعة الأدوات والحياكة وغيرها من الحرف التي لا يستغنى عنها مجتمع متحضر .

---

(١) د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة ، عصر رعمسيس الثاني " ج ٦صفحة ط ، ي .

أما بقية المهن كالتجار والصيادين والجنود النظاميين فنسبتهم قليلة إذا قيست بالفلاحين والعمال .

والذي يهمنا أن جميع أفراد الطبقة الشعبيَّة كانت سعيدة بعملها " فليس من شك في أنها تعبر عن المثل الأعلى في إدراك أولي الأمر معنى معاملة الأتباع بالحسنى والعدل . ويبدو في كثير من مناظر الحقول والمصانع المصورة على جدران المقابر أن ذلك كان عملاً ساراً بهيجاً ، كثيراً ما تصحبه النكات المتبادلة .. وكثيراً ما يقترن بالأنغام الموسيقية إذ أن أولي الأمر كانوا بطبيعتهم يميلون إلى المرح والسرور والتنعم بأكبر قسط من متع الحياة ، وكانوا يحبُّون أن يروا بيئتهم سارة بهيجة وليس هناك على كل حال مجال للقول بأن هؤلاء الأتباع كانوا يستغلون استغلالاً سيئا خالياً من الرحمة.

كما أنه لا مجال للقول كذلك بأن المصريين كانوا فريقين : أغنياء ينغمسون في متع الحياة ، وعامة الشعب الذين أضر بهم شظف العيش وقسوة الحياة ، فإنه لا أساس لما يذهب إليه الكثيرون من أن عهد الدولة القديمة كان عهد ظلم واستبداد لمصلحة الملك ومصلحة الدولة استعبد فيه آلاف من أفراد الشعب في بناء الأهرام والمباني الضخمة . ليس هناك دليل واحد يمكن الاعتماد عليه للأخذ بهذا الرأي . على أن هذه المباني الضخمة تدل على نقيض ذلك وما تدل عليه من حسن تنظيم وإدارة يمكن أن تشير إلى نقيض ذلك ، ويدعم ذلك ما تمثله سائر الفنون وصناعات ذلك العصر من حضارة راقية تكفي للتدليل على انتفاء أي وظلم واستعباد وقع على أصحاب هذه الحضارة " (١)

إن ما قدَّمته مصر للعالم في مختلف علوم التشريع وقوانين المجتمع وحقوق المرأة كذلك في علوم الري والزراعة ومختلف الحرف والصناعات وفنون الحياة ، كذلك في الرياضة وألعابها القديم منها والحديث وقد خرجت كلها من مصر ، لا تقل أي منها أهمية عما قدمته الحضارة المصرية من أسس وعراقة في علوم الطب والفلك والعمارة . (٢)

---

(1) د. نجيب ميخائيل إبراهيم " مصر " ص ١٩١ مؤسسة المطبوعات الحديثة الطبعة الثالثة .
(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٨٦

منجزات الحضارة المصرية القديمة سحر أم تكنولوجيا ؟

الحقيقة تكمن فيما وصفه أحد علماء متحف برلين الذي اهتم بدراسات برديات السحر الموجودة بالمتحف فتوَّج أبحاثه بقوله إذا حاولنا أن نزيح الستار عن حضارة مصر القديمة التي لم يصل إلينا منها إلا القليل إلى اليوم فما علينا إلا أن نترجم كلمة " سحر " إلى تكنولوجيا .

إن أيَّة حضارة في العالم إلى يومنا هذا كانت مقوِّمات قيامها تتركز على نوعيَّة القوى المحركة لها والطاقة التي تحكمها وتحركها كالنار والبخار والكهرباء والإشعاعات بأنواعها التي يمكن التحكم فيها سلكيّاً أو لا سلكيّاً والتي انتقلت إلى الأقمار الصناعيَّة ومختلف عناصر الطاقة المسيطرة عليها . وكان لكل منها دور فعال في انتقال الحضارة من مرحلة إلى مرحلة.

بدراسة برديات السحر المصري القديم من ذلك المنطق وفي إطار ذلك المنطق وجدناها ترمز وتعبر عن معادلات تكنولوجية عميقة ودقيقة تؤكد أن قدماء المصريين منذ بدء الحضارة قد توصلوا إلى السيطرة على الكثير من القوى الكونيَّة واستغلال طاقاتها في تحقيق الكثير من أغراضهم العلميَّة والعمليَّة . كالطاقة الشمسيَّة ومختلف أنواع الإشاعات والذبذبات ومجالاتها المستمدة من القوى الكونيَّة والسيطرة عليها بدء باستعمال البندول والإبر الصينيَّة والطب الروحاني والتي تفسر ما توصلوا إليه من إعجاز في الطب والجراحة وخاصة في عمليات جراحة المخ التي قاموا بها وكشفت عن تفاصيلها أكثر من ممياء من المومياوات المحفوظة بالمتاحف العالميَّة والتي وصفها أحد اكبر الجراحين في مؤتمر جراحة لمخ الذي انعقد أخيراً بأمريكا بأنها لا تختلف عن آخر ما توصل إليه العلم الحديث في عمليات جراحة المخ أكد أن تلك العمليات لا يمكن إجراؤها بدون الاستعانة بأحدث الأجهزة الإلكترونيَّة ومختلف أنواع الأشعة الملازمة لها وخاصة الأشعة الملونة .

لقد لعب شحن الأجسام بالإشعاعات دوراً مهمّاً في التحنيط وكشف ناحية من نواحي أسراره الغامضة فقد توصلت الأبحاث التي قام بها الدكتور إبراهيم كريم الخبير في علم البندول بتعاونه مع المعاهد الفرنسية المتخصصة في اكتشاف علاقة التحنيط بالإشعاعات الكونيَّة ووجود إشعاعات صادرة من بعض المومياوات المحفوظة بالمتحف المصري وفي بعض المومياوات التي تم اكتشافها حديثاً في

حفريات المقابر والتي وجدناها لازالت تحتفظ بشحنات الأشعة الخضراء مما يثبت أن الفراعنة قد مارسوا عملية شحن الجثث بشحنات الأشعة الخضراء مما يثبت أن الفراعنة قد مارسوا عملية شحن الجثث بالأشعة الخضراء لحفظها من التحلل ولقتل البكتيريا التي تعمل على سرعة تحللها فشحن المومياوات بالإشعاعات كان لها دور أساسي في عملية التحنيط وكشف سراً هاماً من أسراره . (١)

حقيقة الحضارة المصريَّة القديمة

إن الوثائق المصرية تؤكد وتُلِحُّ في التأكيد على أن ما وصل إليه المصريون القدماء من علوم ومعارف إنما كان من وحي السماء " إن المصريين القدماء أنفسهم إذ يذكرون أن كل العلوم – الدينيَّة والدنيويَّة – قد جاءتهم وحياً من السماء عن طريق الرسل ويذكر د. أحمد البدوي " كان علم المصريين – في اعتقادهم – مرجعه إلى السماء جاءهم به رُسُل من حكماء الماضي " (٢)

يقول أرنولد توينبي فيلسوف المؤرخين في هذا المعنى " إن الله تعالى الواحد الحق قد اغتنم فرصة الصدام والانهيار اللذين أصابا التقاليد المحلية القديمة ففتح أذهان أصحابها واستغل هذه التجربة الأليمة فأنار هذه الأذهان التي تفتحت مؤقتاً وبصَّرها بمعرفة ذاته ، ومقاصده على وجه أكمل ، وأقرب إلى الحق مما يتسنى لهم معرفته من قبل " (٣)

ولا عجب إذن أن يكون شعب مصر أول المُوَحِّدين هم أنفسهم أصحاب أقدم تكنولوجيا عرفها التاريخ فهم الذين اخترعوا المحراث ، والمنجل ، والمطرقة ، الجاروف ، والمِكْنَسة ، المنخل ، الغربال ، والمِغْزَل ، والنَّوْل ، والبَكَرَة...

يقول د. وسيم السيسي عن بعض المنجزات العلمية التي توصَّل إليها المصريون القدماء : " لجأت مصر القديمة للكيمياء الحيوية لمعرفة الحَمْل من عدمه، بوضع بول المرأة المشتبه في حملها على القمح، والشعير، وقد قام بهذه التجربة أ.د. أحمد عمار، أستاذ النساء والتوليد بجامعة عين شمس، وأ.د. بول غليونجى، أستاذ الغدد

---

(1) د. سيد كريم " لغز الهرم الأكبر" نهضة مصر للطباعة والنشر ص ٢٠- ٢٣
(2) د. نديم السيار " ليسو آلهة ، ولكن ملائكة " ص ٤
(3) أرنولد توينبي " الحضارة في الميزان " ترجمة أمين محمود الشريف ص ١٩٣ دار إحياء الكتب العربية .

الصماء بنفس الجامعة، وثبتت صحتها، جدير بالذكر أن أوروبا ظلّت تستخدم هذه الطريقة حتى القرن الثامن عشر .

كما لجأت مصر إلى طريقة عبقريَّة بالكيمياء الحيوية لمعرفة سبب عقم النساء بزيوت الثوم الطيارة، حين كانت تضع بعض فصوص الثوم مهبليّاً، ثم بعد ٨ ساعات يشم الطبيب رائحة التنفس، فإن كانت أنابيب فالوب سليمة، ظهرت رائحة الثوم، وإن كانت مسدودة، لا تظهر رائحة للثوم! هذه الطريقة العبقرية في الفحص، ذكرها أ.د .محمد فياض، في مؤتمر سنغافورة، فكان تعليق رئيس الجلسة: هذا يدل دلالة واضحة على دراية قدماء المصريين بدقائق الجسم البشرى، والتي اكتسبوها من علم التحنيط .

أما الجروح في مصر القديمة فكانت تخاط «SUTURED» في الست ساعات الأولى، أما بعد ذلك، فكانوا يضعون العسل الأبيض لقتل البكتيريا أو لباب خبز الشعير المتعفن، واكتشفنا أن هذا العفن، هو عفن فطر البنسلين، الذي اكتشفه ألكسندر فلمنج ١٩٢٨ !!

كما استخدمت مصر كبد الثور.. لعلاج العَشَى الليلي، والأنيميا، ذلك لأن كبد الثور يحتوى على فيتامين B ١٢، فيتامين A " (١)

ويقول د. وسيم السيسي في مقال آخر موجِّهاً كلامه لأجدادنا المصريين القدماء: " عثرنا في مكتبتك يا جدي على ٣٦ بردية في الرياضيات المصرية «٣٥٠٠ ق.م أرشيبال- تشيز- مانج بل» وعلى هذه القوانين الرياضيَّة- كان المعمار الشاهق الذي أصاب العالم بالذهول .

عرفت يا جدي أنكم أهديتم العالم السنة الشمسيَّة «٤٢٤١ ق.م» بعد أن كان الصيف يدخل في الشتاء بسبب التقويم القمري الذي كان العالم يسير عليه، فأنتم من عرَّف العالم بالشعْرَي اليمانية " سبدت " وأن السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً + ٦ ساعات !

---

(١) من مقال د. وسيم السيسي " مصر القديمة والكيمياء الحيوية " موقع د. السيسي بتاريخ ٢٠١٣/٣/٣٠

عرفت يا جدي أنــك عالجــت البلهارســيا بالأشــيمون، والــصداع النــصفي والاضطرابات النفسية بالكهرباء «سمك EEL أو الرعاد» كما أجريت جراحات المياه البيضاء في العين، والبتر في الأطراف، والتربنة في إصابات الرأس!

تركت لنا يا جدي علوماً لا حصر لها.. كسوة الهرم «سور صلاح الدين الآن»، برديات ..استعملناها كوقود للأفران.. إلا القليل الذي تم إنقاذه، ولكن كما يقول أمير الشعراء: " وما ذنب الورود إذا المزكوم لم يطعم شذاها " !

تركت لنا يا جدي ما نصبح به أغنى أغنياء العــالم، ولكــن حقــد جــون بــول "إنجلترا " مع العم سام " أمريكا " ، مع ابن صــهيون " إســرائيل " مــع جــرذان الصحراء كما كنت تسميهم، تحالفوا علينا، فأصبحنا نسمع من يقول عن حــضارتك أنها عفنة، وآخر يقول نهدم آثارك، ولا يعرف هؤلاء الجهلة.. أنه ما من كلمة فــي حلوقهم عن الله أو الإيمان إلا وأنت صاحبها. " (١)

فضل الحضارة المصريَّة القديمة على البشريَّة

كانت الحضارة المصريَّة القديمة أوَّل حضارة حقيقيَّة زاوجت بــين الجــانبين : الروحي ، والمادي . أو بين الثقافة والمَدَنيَّة ، أو بين الدين والعلم والتكنولوجيا منــذ فجر التاريخ ، وتشابكت جذورهما فلم ينفصل أحدهما عن الأخر ؛ لذا فقــد أطلقــوا على العلوم اسم العلوم المُقدَّسة ، ونسبوا كلَّ شيء للخالق عندما كانوا أوَّل من آمن بوجوده فارتبطت المعرفة وعلومها بالسماء فنبتت جذورها في المعابــد وأصــبحت ضمن مقدساتها ، لم تخضع لمبدأ التجارب والخضوع لسنَّة النشوء والتطــوُّر بــل خرجت إلى النور متكاملة يعززها البحث العلميُّ ونسبوها إلى "تحــوت" (إدريــس عليه السلام) .

يفسِّر " ساونيرون " في كتابه عن أسرار المعرفة المقدسَّة أن " تحوت " ما هــو إلا رمز يعبِّر عن الكهنة المبجَّلين الذين نزلوا أرض مصر فــي عهــد مــا قبــل الأسرات وأسَّسوا معبد أمون " عين شمس " بمعاهده ومرصده الذي أطلــق عليــه قدماء الإغريق " قلعة المعرفة المقدَّسة " .

---

(١) من مقال د. وسيم السيسي " سامحني يا جدي " موقع د. السيسي .

ومن تلك القلعة خرجت عناصر الحضارة المصريَّة بمقوِّماتها ومنجزاتها في مختلف علوم الحياة وفنونها وآدابها ، وأسرار العقيدة وتشريعاتها ونظمها .

فماذا قدَّم " تحوت " لمصر من وقود لشعلة حضارتها ، وماذا قدَّمت مصر للعالم عندما رفعت شعلة تلك الحضارة ؛ ليصل ضوءها إلى مختلف أمم العالم القديم ويستمر العطاء إلى عصرنا الحديث .

في مجال الثقافة : أنزل " تحوت " (سيدنا إدريس) الحرف والكلمة والنطق وأسماء الأشياء جميعها وعلَّم الإنسان الكتابة والقراءة ليقرأ تعاليم الآلهة وينعم بالحكمة والمعرفة (كتاب الموتى) .

فكانت الكتابة الهيروغليفية (النقش المقدَّس) التي دوَّنوا بها كتابهم المقدس ثم مختلف الخطوط الهيراطيقية والديموطيقية التي دوَّنوا بها آدابهم وفنونهم ومختلف علوم الحياة .

وبنزول الكتابة ابتكر المصري القديم الورق ذلك الابتكار الحضاري الفذ قوام الحضارات جميعها ، ومازالت تنعم به الإنسانية إلى الآن . صنعوه من البردي (بابي أور) هو الاسم الذي احتفظ به العالم الحديث وأطلقه على الورق في جميع اللغات .

ومع اختراع الورق اخترع المصري القديم القلم الذي صنعه من غاب النيل والحبر من نبات النيلة والفرشاة من الريش لرسم الخطوط الزخرفيَّة والحِبْر الأحمر والألوان وانتقلت كل منها لتترك بصمات مصر على جميع الحضارات وامتدادها .

وقرأ وسجل ودوَّن .. أوَّل من كتب التاريخ كتبه على الورق والألواح الإرتواز والفخار والأحجار الصلبة لإيمانه بحق الأجيال القادمة في حمل رسالة الثقافة .

وأعظم تجربة في نشر الثقافة ومحو الأميَّة في الدولة المصريَّة القديمة رسالة الإعجاز التي سجَّلها التاريخ لإخناتون عندما نادى : " أوَّل أركان الإيمان بالله هو العلم ، والجهل كفر " وهي الرسالة التي تمكن بواسطتها من محو الأُمِّيَّة ولأوَّل مرة في تاريخ البشريَّة يفرح الشعب بأكمله خلال عام واحد والتي حدد فيها العقوبات التي أمر بها الإله لمن يقصِّر في تعليم أولاده والتي وصلت إلى حد مصادرة أملاك الأب وقيام الدولة بصرفها على التعليم .

اشتهرت مصر بجامعاتها العلميَّة التي تعتبر من أقدم عصور حضارتها وأقدم جامعة فوق أرض مصر جامعة " أون " وقد ازدهرت جامعة " أون " القديمة بمختلف علوم اللاهوت والفلك والطب والهندسة والرياضيات والزراعة والفنون والآداب في وقت واحد وفيها نشا أول مذهب ديني لتفسير نشأة الوجود والتوحيد ومنها تخرج ايمحوتب وإخناتون وانتسب إليها أكثر الأنبياء والفلاسفة والعلماء الذي وضعوا أسس الحضارة وأنظمة المجتمع للعالم أجمع .

ومنها خرج التقويم الشمسي المربع الذي قسَّم السنة إلى ٣٦٥ يوماً وربع ، كما نسب إليها معجزات العلوم الرياضية الهندسية وعلوم ما وراء الطبيعة التي بنوا فيها الأهرام والتي وقفت تتحدى العصر الالكتروني الحديث الذي مازال يقف حائراً وعاجزاً عن تفسير ألغازها أو حل رموز أسرارها .

ومن معبد " أون " خرجت بعثات الكهنة ابتداء من الأسرة الأولى لنشر عقيدة التوحيد في جميع أنحاء الوادي ، وإقامة المعابد ، والمعاهد العلميَّة التابعة لها لنشر العلم والمعرفة .

وقد استمر معهد " أون " يؤدي رسالته العلميَّة والحضاريَّة تلك الفترة التي استمرَّت ما يقرب من ثمانية آلاف عام حتى بداية الغزو الفارسي عندما دخل " قمبيز " مصر عام ٥٢٥ ق.م فحرق معبد " أون " وهدم معاهده ومرصده وحرق وثائقه وأمر بتحطيم بوابات الشمس وجميع مسلاَّت المدينة .

وآخر جامعة في تاريخ الحضارة المصريَّة جامعة الإسكندرية ومكتبتها المشهورة والتي بنيت ٢٩٦ ق.م في عهد بطليموس ولعبت دوراً كبيراً في نقل الحضارة المصريَّة وعلومها إلى الإغريق والرومان فكانت وسيلة الاتصال المباشر بين مصر وأوربا خصوصاً أن التعليم بها كان باللغتين المصرية واليونانية . (١)

لماذا اندثرت علوم الحضارة المصريَّة القديمة ؟

الحقيقة أن مكتبة الإسكندرية التي أنشأها بطليموس عام ٢٩٦ ق.م وكانت همزة الوصل بين المعابد الفرعونية وخزائن أسرارها وعلمائها وانفتاح علوم المصريين

---

(١) د.سيد كريم " لغز الحضارة المصريَّة " مرجع سابق ص ٣٧٩ – ٣٨٢ بتصرُّف .

على العالم الخارجي ، كانت تحتوى على أكثر من نصف مليـون لفافـة وبرديَّـة وموسوعة في مختلف العلوم ولفنون والآداب والعقيدة ، وقد تخرج فيها عـدد مـن علماء الإغريق والرومان ممن حملوا شعلة المعرفة إلى بلادهم كما أسهمت جامعة الإسكندريَّة في قيام كل من جامعات الإغريق والرومان وتزويـدها بالمخطوطـات والمؤلفات والعلماء .

وقد احترقت مكتبة الإسكندريَّة عام ٤٧ ق.م في الحرب بين يوليـوس قيـصر وبوبيوس في حريق الأسطول في ميناء الإسكندرية التي كانت المكتبة تطـل عليـه ومن بين المخطوطات التي كانت تحتفظ بها مكتبـة الإسـكندرية والتـي يعتبرهـا المؤرخون اختفاءها أكبر خسارة في أسرار علـوم المعرفـة وتـاريخ الحـضارة موسوعة تحوت (الذي يطلق عليه الإغريق موسوعة هـرمس) وكانـت سـجِّلاً ضخماً يتكون من ٤٢ جزءاً تحتوي على أسرار جميع العلوم والمعارف في مختلف نواحي الحياة وعلوم ما وراء الطبيعة وأسرار الوجود . باختفائها اختفـت أسـرار مقوِّمات الحضارة المصرية وأسرار ما وصلت إليه من قمة في المعرفة . لقد كـان كل جزء من أجزائها الاثنين والأربعين موسوعة كاملة سواء في الطب أو الصيدلة أو الهندسة أو العلوم ، وما وراء الطبيعة أو الفلك والطبيعيات بجانب جميع فنـون الحياة من موسيقى ورقص وعادات وتقاليد وتحتفظ متاحف العالم ومعاهـد آثـاره بعدد لا يزيد على أصابع اليد من برديات أجزاء هذه الموسوعة التي حيرت علمـاء العصر الحديث بما وصلت إلى من مستوى علمي خلاّق .

والخسارة الثانية كانت موسوعة أخرى لا تقل أهمية عن موسـوعة " تحـوت " وهي موسوعة وثائق تاريخ مصر – من بدء الخليقة إلى نهاية عهد الأسرات التـي وضعها الكاهن والمؤرخ المصري مانيتون ، وقد كشف ما أمكن جمعه مـن بقايـا عن طريق افريكانوس وسنشللوس ومقارنتها بما سجله بقية مؤرخي تاريخ مـصر من الإغريق والأجانب فداحة الأخطاء التي ترددوا فيها سواء مـن ناحيـة تحديـد التاريخ الزمني أو السياسي أو تتابع الأسرات . (١)

***

(1) د. سيد كريم لغز " الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٩٦ .

الفصل الثالث

الحضارة الهلينستية

بعد ضعف الحضارة المصريَّة واضمحلالها بسبب الفتن الداخليَّة والتدخلات الخارجيَّة انتقلت شعلة الحضارة المصريَّة إلى الإغريق الذين أنشئوا حضارتهم كما نشأت الحضارة المصرية القديمة حضارتها على العلم والإيمان ، ولا عجب فقد كان جميع صانعي الحضارة الإغريقيَّة ، قد جاءوا إلى مصر واعتنقوا عقيدة التوحيد المصريَّة قبل أن ينهلوا من علومها المقدَّسة ، فقد كان كهنة جامعة " أون " أقدم جامعة في التاريخ يشترطون إيمان المتعلم بعقيدة التوحيد حتى يتاح له الالتحاق بهذه الجامعة والاغتراف من علومها .

فتح الإسكندر مصر

وشاءت حكمة الله تعالى أن ينقذ مصر من براثن الفرس الذين دمَّروا حضارتها ونهبوا ثرواتها وحاربوا عقيدتها بأن يرسل إليها الإسكندر الأكبر فاتحاً ، والإسكندر الأكبر تلميذ " أرسطو " أكبر فلاسفة الإغريق الذي قام برحلات إلى مصر وزار معابدها وتتلمذ على يد كهنتها وتأثَّر بالعقيدة المصريَّة واعتنقها ونادى بعبادة " أمون رع " (رب الأرباب الذي لا تدركه الأبصار) وتابع تعاليمه .

وحدث أن عهد الملك فيليب المقدوني إلى أرسطو تعليم ابنه الإسكندر وتربيته ، ولقد تأثَّر الإسكندر بما كان يسمعه من معلمه ؛ لذا فقد وضع في برنامج فتوحاته المشهورة زيارة مصر وتقديم الولاء إلى الإله " آمون " (الذي لا تدركه الأبصار)[1]

([1]) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٩٥ .

سار الإسكندر نحو مصر ، وكانت إذ ذاك تحت حكم الفرس ، ودخل مصر في خريف عام ٣٣٢ ق.م ، ولم يجد صعوبة في دخولها ؛ إذ كان المصريون يرون فيه حليفاً لهم في ثورتهم وقتالهم ضد الفرس لا محتلاً غازيّاً كالفرس ؛ لذا استقبلوه استقبال الصديق ، مما جعل الوالي الفارسي يستسلم بدون مقاومة .

وصل الإسكندر إلى منف ، حيث أظهر ولاءه للديانة المصريَّة فقدَّم القرابين في معبد الإله بتاح (اسم الله الخالق) ... ورسم نفسه فرعوناً في معبد بتاح طبقاً للطقوس المصريَّة .. وأبى الإسكندر إلا أن يدمج نفسه في الديانة المصريَّة وكان آمون (الذي لا تدركه الأبصار) في سيوة يعتبر إلهاً عالميّاً يحجُّ إليه أبناء العالم القديم كله ويعرفه الإغريق ليسألوه بصفة خاصة عن حاجاتهم .

فاخترق الصحراء من الإسكندرية حيث وصل إلى معبد آمون في واحة سيوة في رحلة شاقة مليئة بالأخطار واعتبر وصوله في خاتمة المطاف إحدى المعجزات ومظهر حفظ الآلهة له .. وفي معبد آمون نودي بالإسكندر ابناً لآمون .. مؤكداً بذلك قصة أمه أوليماس من أنه ابن زيوس إله اليونان .

وقد حرص الإسكندر ما عاش بعد ذلك على أن يحمل اسم ابن آمون وقضى بأن تزين صورته على النقود التي سكَّها بقرني المقدس آمون ، ولعل ذلك مصدر تسميته " بذي القرنين " . (1)

وهناك كثير من العملات الموجودة في مصر وغيرها من البلاد التي نقشت عليها صورة الإسكندر وجميعها تصوره بقرنين .

ولا ينبغي أن تفزعنا عبارة الإسكندر ابن آمون ، أو ابن إله اليونان فإن هذه العبارة لا تعني معناها الحرفي بل المقصود بها التشريف وكان هذا الأمر شائعاً عند أهل الكتاب . وهي تعني في شريعتهم أنبياء الله ورسله ، وكثيرة هي النصوص في التوراة التي تطلق على الأنبياء والصالحين أبناء الله .

---

(1) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ ص ١٧٨ مرجع سابق .

الإسكندر الأكبر وسر التمكين في الأرض

يبيِّن الله تعالى بجلاء ووضوح لا يقبلان الشك ولا الجدال سر قوة وتمكين ذي القرنين (الإسكندر الأكبر) في الأرض وهو أخذه في أسباب العلم الإلهي الذي أعطاه له الله تعالى ليبني به الحضارة .

{ وآتيناه من كل شيء سببا } قال ابن عباس: يعني علماً (وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسُّدي وقتادة والضحّاك وغيرهم) .

لقد أعطى الله تعالى ذا القرنين العلم المقدس – كما أعطى إدريس من قبل – فأخذ في أسبابه وبالعلم والإيمان ملك ذو القرنين الأرض .

ويؤكد القرآن أخذ ذي القرنين بأسباب العلم ثلاث مرات {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} [الكهف : ٨٥] { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا } [الكهف : ٨٩] { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا } [الكهف : ٩٢]

إذن التمكين في الأرض لا يكون إلا بالأخذ في أسباب العلم الإلهي الذي يستنبط السنن الكونية ولا يجور عليها ، ذلك العلم الذي يبني ولا يهدم ، يُصنع ولا يلوث الكون .

فإذا أراد الإنسان الجمع بين سعادة الدارين فعليه أن يضيف إلى إصلاح الدنيا صحة الإيمان بالله بل عليه أولا أن يؤمن بالله تعالى ويؤدي ما فترضه عليه وينتهي عما نهاه عنه ثم يترجم هذا الإيمان بالعمل الصالح في الدنيا فإن فعل ذلك فقد استحق وعد الله بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين له وإبداله من بعد خوفه أمنا

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
[النور : ٥٥]

فالعلم والإيمان هما أساس أي حضارة تحققت على ظهر هذه الأرض بدءاً من الحضارة المصريَّة القديمة " فالإيمان والعلم كانا أساس حضارة مصر الخالدة في مختلف عصورها الذهبيَّة ، والتخلِّي عنهما كان السبب المباشر في انحلال الحضارة وانطفاء شعلتها وترديها في عهود الاضمحلال " [1]

---

(1) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٢٢

وهؤلاء اليونانيون خالدو الذكر: هوميروس ، وسولون ، هيكاته ، وهيلانيكوس، وطاليس ، وفيثاغورس ، وإينوبيدس ، وأناكسمندر ، أناكساجوراس ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأويكسودس ، وديوجين ، وأرسطو ، والإسكندر الأكبر ...

هؤلاء العظماء الذين بنوا الحضارة الإغريقيَّة هذه الحضارة التي هي بمثابة الحضارة الأمّ بالنسبة لأوربا ، والتي ظلَّت نحو عشرين قرناً هي السائدة في أوربا وفي أمناطق كثيرة في العالم . كنت أقول هؤلاء العلماء جميعاً تعلَّموا في مصر واعتنقوا الديانة المصريَّة ، والملفت للنظر عند دراسة تاريخ حياة كل واحد منهم نجد أن معظمهم ذهب إلى مصر ليدرس ناحية معينة من نواحي المعرفة سواء في الفلك أو الرياضيات أو الطب أو العقيدة وعاد إلى بلاده بعلمه الغزير الذي خلَّد به نفسه وبلاده بتخصص آخر مخالف تماماً لما حضر لدراسته بعد اتصاله بمعاهد مصر ومعابدها واقتناعه بسطحيَّة ما جاء به من معارف بلاده . (١)

الأخطاء الشائعة حول الحضارة الإغريقيَّة

ومن الأخطاء الشائعة في عصرنا ما روي عن الحضارة الإغريقيَّة من أنها أمُّ الحضارات الغربيَّة وأنَّها لم تكن في حاجة إلى غيرها من المَدَنيَّات التي سبقتها ، وأنها هي أصل كل الحضارات التي تلتها في جميع ميادين العلم والفنون والآداب والفلسفة .

إن هذه الفكرة كما وصفها الدكتور سليم حسن – عالم المصريات الكبير – في موسوعة مصر القديمة خاطئة من أساسها . فبلاد الإغريق كغيرها من البلاد الأخرى كانت من حيث أصول الفلسفة بوجه خاص والبحث العلمي بصفة عامَّة مَدينة لمصر بدرجة عظيمة يظهر ذلك واضحاً من تاريخ نشأة الحضارة الإغريقيَّة ومراحل تطورها وارتباطها الزمني بمصر .

فالحضارة الإغريقيَّة لم تر النور إلا في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد عندما كانت الحضارة المصريَّة تمر خلال إحدى عصور إمبراطوريتها الذهبيَّة والتي

(1) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع العودة إلى الكتب الآتية : لغز الحضارة المصرية . د.سيد كريم ، والماضي الحي د. إيفار ليستر ، ومقالات د. وسيم السيسي على موقعه الالكتروني .

وصلت فيه فتوحاتها إلى أطراف آسيا وشواطئ جنوب أوربا والبحر الأسود وجزر البحر المتاخمة لبلاد الإغريق .

لقد دلَّت البحوث العلميَّة الحديثة وكشوفها الأثريَّة على أن الشعب الإغريقي قد اتخذ كل مبادئ علومه ومعارفه عن مصر .

ويحدد كثير من المؤرخين بدء الحضارة الإغريقية بالفعل بين عامي ٧٥٠ ، ٦٥٠ ق.م حيث ازدهرت الفنون والآداب وارتقاء الصناعات واصطباغها بصبغة جديدة مبتكرة بعد تعلمهم من الكريتيين – نسبة لجزيرة كريت – والحضارة الكريتيَّة يرجع تاريخها إلى ٢٠٠٠ ق.م وقد أخذت جميع أصولها وفنونها وتشريعاتها من مصر حيث ارتبطت بمصر ارتباطاً وثيقاً وبلغت أوج ازدهارها من ١٦٠٠ق.م إلى ١٥٠٠ق.م أي في عهد الأسرة الثامنة عشرة المصريَّة وفي عهد تحتمس الأول والملكة حتشبسوت بالذات .

وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد خضع الكريتيون للسيادة المصريَّة وقد أخذ الكريتيون أشياء كثيرة من الحضارة المصريَّة التي تمثلت في الحرف وصناعة الأثاث وآنيتهم تشبه الآنية المصريَّة وكتابتهم مأخوذة من الرموز الهيروغليفيَّة وأصبحت لهم علاقة كبيرة بمصر .

ولقد كانت نهاية الحضارة الكريت على يد الإغريق فدمَّروا مدينة كنوسس وحرقوا قصرها العظيم ، ولم تقم للجزيرة وحضارتها قائمة بعد ذلك . فالإغريق هم الذين محو حضارة كريت . [1]

ونحن إذ نقول إن الفضل لمصر في حضارة الإغريق لا ننكر على علمائها جهودهم العظيمة في فهم واستيعاب ما تعلموه في مصر وفي العمل على تطبيقه والاستفادة منه حتى صاروا إلى ما صاروا إليه ، إنما نقول ذلك :

أولاً : لنردَّ على الأجانب الذين نفوا صلة الحضارة الإغريقيَّة بالحضارة المصريَّة، وتتلمذ علمائها جميعاً على يد علماء مصر أو على يد من تعلم في مصر من الإغريق .

([1]) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٨٨

ثانياً : لنردَّ على المتبجِّحين الذين يقلبون الحقائق ويزورون التاريخ ، يقولون منكراً من القول وزوراً أن الحضارة الإغريقيَّة هي أقدم حضارة في التاريخ وعنها نقلت جميع الحضارات الأخرى ومنها الحضارة المصريَّة !!!

ثالثاً : للردِّ على من زعم أن الفضل في قيام الحضارة الإسلاميَّة إنما يعود إلى الإغريق حيث ترجم العرب كتبهم وبنوا عليها حضارتهم ، والحقيقة إن الإغريق والصين والهند وغير ذلك من الأمم والممالك ممن استفاد المسلمون بعلومهم ليس لهم فضل إلا رد الأمانة إلى أهلها – إلى جانب مجهوداتهم في الاستفادة بهذه العلوم قدر جهدهم – فهذه بضاعتنا رُدَّت إلينا .

رابعاً : لنبيِّن للمسلمين أننا أولى بهذه العلوم من الغرب ، وما علينا إلا الأخذ في أسباب العلوم النافعة مع تقوية الصلة بالله تعالى حتى نعيد مجدنا القديم .

الحضارة الهلينستية (المصريَّة / البطلميَّة)

عندما فتح الإسكندر مصر ولمس ترحيب المصريين بمقدمه ورضاهم بحكمه فكَّر الإسكندر في تكوين حضارة جديدة تجمع بين مزايا الحضارات الشرقيَّة العريضة والحضارة الإغريقيَّة الناشئة ؛ ولتحقيق ذلك عمل على فتح أبواب الشرق على مصراعيها أمام الإغريق للإقامة بها كما أقام بعض المدن الجديدة كالإسكندريَّة في مصر وغيرها لتصبح مراكزاً لنموِّ تلك الحضارة الجديدة ولتعمل على نشرها في كل مكان ، وقد سميت هذه الحضارة الجديدة باسم الحضارة " الهلينستيَّة " .

وقد ازدهرت الحضارة الهلينستية (المصريَّة / البطلميَّة) في مصر إذ وجد الإغريق في مصر تربة خصبة للنموِّ على نحو لم تشهده في بلاد الإغريق نفسها ، كما أنهم أفادوا من حضارة المصريَّة العريقة حيث وجدوا فيها أنظمة راسخة وثروة بشريَّة وماديَّة عظيمة فضلاً عن موقعها الفريد وسط العالم المتمدِّن في ذلك الوقت ، فكانت مصر بذلك بمثابة المصنع ومواد التصنيع والصنَّاع لهذه الحضارة الجديدة واقتصر دور البطالمة على الأشراف عليها وتنظيم إدارتها وتطعيمها ببعض الخبرات الإغريقيَّة ، وأصبحت مدينة الإسكندريَّة النموذج الأمثل لها . ومنها أشَعَّت تلك الحضارة على باقي أجزاء العالم ، وفيها احتفظ أجدادنا بعناصرها مئات السنين.

ولم يعش الإسكندر طويلاً ليحقِّق آماله بالإشراف على بناء تلك الحضارة وترك لخلفائه في مصر تحقيق ذلك الأمل ، ويتفق المؤرِّخون على أن العصر الهلينستي يبدأ بموت الأسكندر الأكبر ٣٢٣ ق.م وينتهي باستيلاء روما على مصر ٣٠ ق.م

ولا عجب أن يتعاون المصريون مع البطالمة أو أن يعملوا تحت إشرافهم ؛ فقد كانوا لا يعتبرونهم غزاة محتلِّين إنما اعتبروهم ، كما سيعتبرون المسلمين العرب بعد ذلك ، فاتحين صالحين لذا تعاونوا معهم على طرد المحتلِّين الفرس وساهموا بحبٍّ وإخلاص معهم في بناء حضارة جديدة تعدُّ امتداداً طبيعيّاً لحضارتهم القديمة .

وعمل البطالمة على التقرُّب من المصريين فاحتفظوا بمعظم نواحي التنظيم الإداري التي خلَّفها لهم المصريون القدماء مع إدخال تعديلات طفيفة اقتضتها الظروف ، ولم يحاولوا التدخل في شئون المصريين المَدَنيَّة أو عاداتهم أو تقاليدهم أو طرق حياتهم حرصاً منهم على كسب مودَّتهم وقد احتفظ المصريون كعادتهم بما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من مظاهر الحضارة المصريَّة القديمة ولم تكن للحضارة الإغريقيَّة من سبيل إليها إلا فيما ندر .

كما تبع الإسكندر والبطالمة من بعده سياسة تجاه الحضارة المصريَّة بوجه عام والديانة المصريَّة بوجه خاص تنطوي على الاحترام الكامل فتسابقوا على حمل الألقاب الملكيَّة القديمة ومثَّلوا أنفسهم في المناسبات الرسميَّة مرتدين زي الفراعنة(1)

مظاهر الحضارة الهلينستية (المصريَّة / البطلمية)

حلَّقت الحضارة الهلينستيَّة (المصريَّة / البطلميَّة) بجناحيها : المعنوي ، والمادي في آفاق التقدم والرقيِّ متأسِّية بالحضارة المصريَّة الأمِّ ؛ فلم تكتف بالنهضة العمرانيَّة الماديَّة وإلا صارت جسداً بلا روح مثل النهضة الغربيَّة الحديثة إنما اهتمَّت كذلك بالجانب المعنوي الديني والثقافي والمعرفي الذي لا تكون الحضارة حضارة إلا به فأنشأت المدن الجديدة ، وجدَّدت المعابد المصريَّة القديمة ، كما نهضت بالزراعة والصناعة والتجارة نهضة واسعة .

---

(1) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٤ .

مدينة الإسكندرية

أسس الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندريَّة قبل مغادرته مصر لتكون المركز الرئيسي للحضارة الهلينستيَّة في العالم القديم ، ولقد عهد الإسكندر إلى أحد المهندسين الإغريق بتخطيط المدينة فأتمَّه في شكل شوارع مستقيمة متقاطعة كما قُسِّمَت المدينة إلى عدَّة أحياء كان بينها الحي الملَكي والحي الوطني وحي الميناء ، وقد أتمَّ بطليموس الأوَّل بناء مدينة الإسكندريَّة وفقاً لتخطيط الإسكندر كما اهتمَّ ملوك البطالمة التاليين بهذه المدينة واتخذوها عاصمة لبلادهم فبنوا بها القصور والمنشآت وغرسوا الحدائق وأوصلوا إليها مياه النيل العذبة عن طريق ترعة "شيديا" .

ولقد أصبحت مدينة الإسكندريَّة منذ عهد بطليموس الثاني أعظم مدن العالم القديم مثلما كانت طيبة في عهد الدولة الحديثة الفرعونيَّة ، وقامت مدينة الإسكندريَّة بوظائف متعدِّدة إذ كانت عاصمة للبلاد ومركزاً للحكم والإدارة طوال العصر البطلمي الذي استمر قرابة ثلاثمائة عام ، كما كان لها وظيفة اقتصاديَّة إذ ازدهرت فيها العديد من الصناعات حتى أصبحت أهم مدن مصر الصناعيَّة ، كما أصبحت ملتقى التجارة الوافدة من العالم القديم ، وأكبر مركز للتبادل التجاري الخارجي وكان على رأس مهام المدينة مهمَّة ثقافية إذ أنشأت بها الجامعة المكتبة والمسرح وغيرها من المنشآت الثقافيَّة التي لعبت دوراً كبيراً في الإشعاع الثقافي في العالم القديم ، وخاصة في مجالات : الآداب ، والعلوم ، والفنون ، وأخيراً كانت لها مهمة عسكريَّة دفاعيَّة .(1)

مكتبة الإسكندرية

ارتبطت شهرة الإسكندريَّة الثقافيَّة والعلميَّة بدار البحث العلمي التي أقامها على الأرجح بطليموس الأول سنة ٢٩٠ ق.م ، وقد أعدَّ لها مبنى فخماً في الحي الملَكي بالإسكندريَّة كان مركزاً للدراسات والبحث للدارسين والباحثين في نفس الوقت ، وكان العلماء يقومون بالدراسات والبحوث العلميَّة ، كما كانوا يشتغلون بتصحيح

(1) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٢، ١٩٣ بتصرف .

المؤلَّفات الإغريقيَّة القديمة ، لقد تفرَّغ العلماء للبحث العلمي يعاونهم في ذلك نخبة من تلاميذهم يتحاورون مع أساتذتهم العلماء في شكل ندوات وحلقات بحث .

مدرسة الإسكندريَّة

آخر المدارس الفلسفيَّة الإغريقيَّة الكبرى في التاريخ القديم ظهرت عقب إنشاء مدينة الإسكندريَّة فكان موقعها الجغرافي المتوسط بين الشرق والغرب ، وأحوالها التاريخيَّة التي دفعت البطالمة إلى منافسة أثينا ، سبباً في زعامتها الأدبيَّة والعلميَّة والدينيَّة والفلسفيَّة زمناً طويلاً .

عُمِرت مدرسة الإسكندريَّة تسعة قرون يمكن قسمتها إلى عهدين : عهد في حكم البطالمة (٣٠٦- ٣٠ ق.م) ، وعهد تالٍ يمتد إلى فتح العرب مصر .

وقد اتَّسم العهد الأوَّل بالأدب والعلم ، وفيه أنشئ المُتْحَف والمكتبة المشهورة ، فاجتذبا إلى الإسكندريَّة الأدباء والعلماء والفلاسفة . وفي هذا العهد نبغ أقليدس الرياضيّ ، وأَرِستار خُوس الفلكيّ ، وأرشميدس وغيرهم .

واتَّسم العهد الآخر بما غلب عليه من تعاليم دينيَّة وآراء فلسفيَّة ، في نزعة تَوْفيقيَّة انتقائيَّة وميل إلى التصوُّف كانا أصلاً للأفلاطونيَّة الحديثة .

واقتصرت حركة حكماء الإسكندريَّة في العصر الأخير على ترتيب كتب المتقدمين وشرحها واختصارها وتبويبها وإعدادها للتعلم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات من حساب وهندسة وفَلَك . وعن هؤلاء نقل العرب الفلسفة والعلوم القديمة في عصر الترجمة ، وكان لمدرسة الإسكندريَّة شأنها في التفكير الإسلامي . [1]

لم يقتصر اهتمام الحضارة الهلينستيَّة (المصريَّة / البطلميَّة) على النواحي العلميَّة الثقافية بل امتدَّ ليشمل النواحي الاقتصاديَّة ، فقد سعت إلى تنمية موارد الدولة ، وقد انعكس هذا الاهتمام على كافة المرافق الإنتاجيَّة وخاصة فيما يتعلق بالزراعة والصناعة والتجارة .

---

(1) مجمع اللغة العربية " المعجم الكبير " ج ١ حرف الهمزة ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

الزراعة

كانت جميع مقومات النهضة الزراعيَّة متوفرة في مصر ؛ الأرض ، المستوية شاسعة الاتساع في الوادي والدلتا ، ذات التربة عالية الخصوبة بفضل الطمي الذي يحمله النيل إليها كل عام فيكسو وجهها ، والماء العذب الفرات الذي يفيض به النيل العظيم ، والفلاحون ذوو الكفاءة والخبرة الذين علَّموا الدنيا فنون الزراعة ، ولا ينقص النهضة الزراعيَّة إلا حسن الإدارة والعدالة وقد قامت الحضارة الهلينستيَّة بهذا خير قيام فقد حسَّنوا وسائل الري وأقاموا الجسور وحفروا القنوات ، وأدخلوا أدوات زراعيَّة جديدة كالساقية والطنبور فسارع الفلاحون إلى الإفادة منهما إلى جانب الشادوف المصري ؛ فزاد الإنتاج الزراعي وتنوَّعت محاصيله .

الصناعة

كما أن مصر كانت تملك مقوِّمات النهضة الزراعيَّة فإنها كذلك كانت تملك مقوِّمات النهضة الصناعيَّة من وفرة في المواد الخام الزراعيَّة ، والمعدنيَّة ، والحجريَّة بالإضافة إلى العمالة المصريَّة الماهرة أحفاد ايمحوتب ، وقد أدَّى كل هذا إلى ازدهار كثير من الصناعات مثل صناعة ورق البردي والمنسوجات الكتانيَّة والزيوت والفخار والزجاج والصناعات الخشبيَّة والجلديَّة وغيرها مما كانت تصدِّره إلى مختلف بلاد العالم القديم ، كما أنَّ ما قام به العلماء من أبحاث واختراعات بدار البحث العلمي (الجامعة) بالإسكندريَّة قد زاد من تقدُّم الصناعة ورفع من مستواها ، وكانت الإسكندريَّة في مقدمة المدن الصناعيَّة التي ازدحمت بأعداد كبيرة من العمَّال والصنَّاع ، وكان لهم نقابات تنظم أحوالهم وترعى شئونهم ، وقد قُدِّر عدد العمال الذين كانوا في مصانع الإسكندريَّة حينئذ بما لا يقل عن ٢٠٠,٠٠٠ عامل (١)

التجارة

ساعدت النهضة الزراعيَّة والصناعيَّة على رواج التجارة الخارجيَّة والتي اهتمَّت بها الحضارة الهلينستيَّة اهتماماً كبيراً وقد شجَّعها على ذلك موقع مصر الجغرافي

---

(١) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٩ .

في قلب العالم القديم وولع الإغريق بالنواحي التجاريَّة فأنشأت الموانئ على ساحل البحر المتوسط والأحمر ، وأقامت المصانع لبناء السفن ، وبَنَت المنارات لإرشادها، ونظَّمت شئون الجمارك وسكَّت العملة لتسهيل التبادل التجاري ، وقد وصل التبادل التجاري إلى الهند والصين شرقاً وإلى أسبانيا غرباً وإلى أواسط أفريقيا جنوباً وإلى أوروبا شمالاً . (١)

لقد شهد العصر الهلينستي إنجازات عظيمة في الثقافة، والعلوم، والفنون. مثال ذلك، طوَّر الرياضي إقليدس أساسيات الهندسة، واكتشف المخترع أرشميدس عددًا من القوانين الأساسيَّة في الفيزياء، وطرح الفلكي أريستاركوس، من بلدة ساموس، الفكرة القائلة بأن كل الكواكب، فيما في ذلك الأرض، تدور حول الشمس. وأجرى الرياضي أيراتوسثينيز حسابات، صحيحة تقريبًا، لمحيط الكرة الأرضيَّة. وأصبح التصوير التشكيلي والنحت أكثر واقعيَّة. وأبدع النحَّاتون أعمالاً نَحْتِيَّة، مثل لاوكون والنسر المجنح لساموثريس .

والسؤال الآن إذا كان المصريون قد تحالفوا مع البطالمة بل تآلفوا معهم إلى حد الاندماج الحضاري والديني فلماذا ثاروا عليهم في آخر عهدهم ؟ ولماذا انهارت الحضارة الهلينستيَّة ؟

ثورات المصريين ضد البطالمة

حكم البطالمة وهم السلالة التي انحدرت من بطليموس أحد قادة الإسكندر المقربين مصر منذ ٣٣٣ حتى ٣٠ ق.م ، حيث تولَّى حكم مصر ١٥ ملكاً بطلمياً،ويمكن تقسيم تاريخ حكم البطالمة لمصر إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأول : وهي فترة حكم البطالمة الأوائل من ٣٢٣ إلى ٢٢٢ ق.م وهي فترة رخاء وثراء وقوة ، وهي التي تمَّت فيها معظم الإنجازات الحضاريَّة .

المرحلة الثانية / وهي من ٢٢٢ إلى ١١٧ ق.م تبدأ خلالها البلاد في التخلُّف ، أو هي بداية الانهيار ، حيث انقسمت العائلة المالكة على نفسها بسبب طموحات

---

(١) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٩ .

بعضهم الزائدة ، مما أدَّى في النهاية إلى كثرة تدخل الرومان في أحوال مصر الداخلية ، وبدأ الحضارة الهلينستيَّة في هذه المرحلة في الضعف والتحلل .

المرحلة الثالثة : من ١١٧ إلى ٣٠ ق.م وهي التي وصلت البلاد في نهايتها إلى الانهيار الكامل ، وخلال هذه الفترة نجد أن بعض الحكام يلجئون إلى الرومان للتدخل لإبقائهم على العرش . (١)

وفي المرحلة الأخيرة من الحكم البطلمي كانت الحضارة الهلينستيَّة قد دبَّ فيها الوهن ووصلت إلى مرحلة التحلل الحضاري الذي تحدَّث عنها " تونبي " بسبب ضعف الحكام واستبدادهم ، واضطراب الأحوال الداخليَّة ، والتدخلات الخارجيَّة والحضارة لا تنمو في هذا المناخ الفاسد .

وبرغم أن المصريين اعتبروا الإسكندر رسول الله إليهم فأحبُّوه وأطاعوه ، واعتبروا البطالمة الأوائل حلفاء لا محتلين دخلاء وتعاونوا معهم بشكل فعَّال في بناء صرح الحضارة الهلينستيَّة إلا أن هذا لم يمنع المصريين من الثورة على البطالمة لما خرجوا عن شريعة ماعت ، شريعة الحق والعدل ، وظلموا واستبدُّوا .

وأخذت دولة البطالة تنهار سريعاً بعد أن وصلت ثورات المصريين عليهم إلى ست ثورات قوَّضت دعائمها ، وأنهكت قواها الغزوات الخارجيَّة المتلاحقة . فضلاً عن التدخل الروماني الذي أخذ يتزايد بصورة واضحة حتى غدا الملوك البطالمة مجرَّد أدوات في أيدي الساسة الرومان ومجلس الشيوخ الروماني .

وانتهى أمر البطالمة بتولي العرش بطليموس الثاني عشر مشتركاً مع أخته كليوباترا الشهيرة التي حاولت بكل السبل أن تعيد إلى دولة البطالمة سابق مجدها وعزها ، فباءت بالفشل ، واضطرت إلى الانتحار لتجنب نفسها مرارة الوقوع في أسر القائد الروماني . (٢)

مصر تحت الحكم البيزنطي

قضت الأحوال السياسيَّة بتقسيم المملكة الرومانيَّة إلى مملكتين شرقيَّة وعاصمتها القسطنطينيَّة وغربية وقاعدتها روميَّة . أما مصر فكانت تابعة للمملكة

---

(1) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٦٠ .
(2) د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٢٤ .

الشرقيَّة ولكن لم يغيِّر هذا التقسيم في حالتها شيئاً بل زاد في الطنبور نغمةً أن ملوك القسطنطينيَّة كانوا يحاولون توحيد العقائد وإزالة الخلاف بإلزام جميع الرعايا التابعين لهم بالتمسُّك بمذهب واحد وهو مذهب الروم أو بالحري التمسُّك بمذهب القوَّة الحاكمة ولذا كان الروم يُسَمَّوْن ملكيين ، ولكن لم يُجْدِ هذا نفعاً ولا فائدة بل كان سبباً للنفور منهم أكثر فأكثر ليس في مصر فقط بل وفي غيرها من الولايات التابعة للمملكة الشرقيَّة ؛ ولهذا السبب كثرت القلاقل والفتن داخل البلاد وصغرت الحكومة الرومانيَّة في عيون المصريين فاستعمل الحكام والولاة العسف والقوَّة في تنفيذ أوامرهم وأغراضهم فكان هذا داعياً إلى انقلاب الأهالي على الحكام وتعديهم عليهم وإخراجهم من بلادهم . (١)

وكان سوء حال مصر وسائر الممالك الرومانيَّة الشرقيَّة سبباً في تجرؤ الفرس على تلك الممالك وانتزاعها من قبضة الرومان فهل تغيَّر حال مصر تحت الحكم الفارسي الشرقي عنه تحت الحكم الرومان الغربي ؟

لقد بقيت مصر في يد الفرس نحو عشر سنوات ساموا فيها المصريين الخسف والعذاب أشكالاً واستمرُّوا على ذلك إلى أن قام هرقل ملك الروم وقاتلهم وهزمهم واسترجع البلاد من يدهم ، ولكن لم ينل أقباط مصر مع الأسف من هذا التغيير خيراً بخلاف ما كانوا يتوقعونه من أن الحوادث علَّمته والتجارب ربَّته بل كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار فإن هرقل بعد ما خلَّص البلاد من يد الفرس حوَّل نظره إلى تنفيذ الغرض الأصلي الذي كان يسعى وراءه الملوك أسلافه وهو توحيد العقيدة النصرانيَّة وجعلها واحدة في كل المملكة ولما لم يجد منهم إلا الرفض والإباء التجأ في تنفيذ غرضه هذا إلى القوَّة والشدَّة وحد السيف فقتل كثيراً من

---

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مؤسسة مار مرقس لدراسات التاريخ القبطي ط٢ سنة ٢٠٠٠ ص ٢٩

السوريين والمصريين واستباح دماءهم وسلب أموالهم وعزل البابا بنيامين بطريرك الأقباط وعيَّن بدله ممن على مذهبه ثم طلبه (بنيامين) ليقتله فهرب واختفى من وجهه في دير صغير بالصعيد وبقي مختفياً فيه إلى مجيء العرب واستيلائهم على مصر ، ولمَّا لم يعثر عليه قبض على أخيه المدعو مينا وألقاه في اليم لأنه أصرَّ على عدم الإرشاد إلى محل أخيه وأنكر معرفة محل وجوده .

ومن جرَّاء هذه الاضطهادات والقلاقل والفتن الداخلية المُسَبَّبة عن انقياد ولاة الأمور لأئمة الدين انقياداً أعمى وإذعانهم لمشوراتهم الفاسدة وانصياعهم لتمويهاتهم التي كانوا يتخذونها ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الذاتية وكذلك سوء سياسة وتدبير الملوك باهتمامهم بجعل جميع الرعايا على دين ومذهب واحد واشتغالهم بالأخذ بناصر الرؤساء الذين كانوا على شاكلتهم ومعتقداتهم والانتقام للواحد من الآخر بسفك دماء محازبيه بغير تبصُّر في عواقب الأمور وما ينجم عن ذلك من الخراب والدمار أصبحت المملكة الرومانيَّة الشرقيَّة في انحطاط زائد وأصيبت بداء عضال تعذر البرء منه وهذه عاقبة كل مملكة تكثر فيها التعصبات الدينيَّة والاختلافات المذهبيَّة .

وبينما كان الملك هرقل مهتمَّاً بتأييد مذهبه واضطهاد مخالفيه في سوريا ومصر متشاغلاً بذلك عن إجراء ما فيه حفظ البلاد وصونها وراحة العباد وتنظيم أحوال مملكته ولَمِّ شعثها ظهرت الدولة العربيَّة الإسلاميَّة في شبه جزيرة العرب في أوائل الجيل السابع للميلاد وكان ظهورها قاضياً على مملكة الروم الشرقيَّة بالويل والخراب لأن الاختلال كان ضارباً أطنابه في كل أنحائها . "(١)

---

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٣٤- ٣٧ بتصرف .

كانت هذه هي حال مصر قبل الفتح العربي ، فكيف تمَّ الفتح العربي الإســـلامي لمصر ؟ وكيف ساهم المصريون في بناء الحضارة المصريَّة الإسلاميَّة ؟ وما أهــم سمات تلك الحضارة وأهم أعلامها ؟

هذا ما نتعرَّف عليه في الفصل التالي .

***

الفصل الرابع
الحضارة المصرية الإسلامية

الفتح العربي الإسلامي مصر

لقد كان لمصر قبل فتحها مكانة كبيرة في الإسلام وعند المسلمين فقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم تصريحاً أربع مرات :

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ }[يوسف : ٢١]

{ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ } [يوسف : ٩٩]

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا } [يونس:٨٧]

وقال تعالى حاكياً عن فرعون : { أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ } [الزخرف:٥١] .

ليس هذا فقط بل تحدَّث الله تعالى عن بعض معالمها ورجالها في نحو ٣٠ موضعاً كقوله تعالى : { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ } [القصص:١٥] يعني : مصر ، وقوله جل وعلا : { قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } [الأعراف:١٠٩] إلى آخر هذه المواضع .

ولم يصرِّح القرآن الكريم باسم أحد كما صرَّح باسم فرعون حاكم مصر حيث ذكره الله تعالى ٧٤ مرة . (١) كما لم يصرِّح الله تعالى باسم نبي كما صرَّح باسم "موسى" الذي أرسله إلي فرعون وسكَّان مصر حيث جاء ذكر كلمة موسى في القرآن الكريم ١٣٦ مرة . (٢)

كما توقَّف سيدنا محمد ﷺ عند مصر في رحلة الإسراء وصلَّى فوق جبل طور سيناء ركعتين بأمر من سيدنا جبريل ، وقد بشَّره جبريل بفتح المسلمين لها .

---

(١) محمد عبد الباقي " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " دار الحديث ص ٥١٥ ، ٥١٦ .
(٢) نفسه ص ٦٨٠– ٦٨٢ .

عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : " أُتِيتُ بِدَابَّةٍ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ خَطْوُهَا عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهَا فَرَكِبْتُ وَمَعِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَسِرْتُ فَقَالَ انْزِلْ فَصَلِّ فَفَعَلْتُ فَقَالَ أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ صَلَّيْتَ بِطَيْبَةَ وَإِلَيْهَا الْمُهَاجَرُ ثُمَّ قَالَ انْزِلْ فَصَلِّ فَصَلَّيْتُ فَقَالَ أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ صَلَّيْتَ بِطُورِ سَيْنَاءَ حَيْثُ كَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام " (رواه النسائي والبيهقي والطبراني)

كما كاتب النبيُّ ﷺ المقوقسَ حاكمها وقَبِلَ هداياه ، وأوصى بأهلها خيراً ، وبشَّر بأن جندها خير أجناد الأرض ذلك أنهم في رباط إلى يوم القيامة .

لذا اتَّجهت أنظار المسلمين إلى مصر التي بشَّرهم النبي ﷺ بفتحها .

عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيراً فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال أبو بكر ولم يا رسول الله قال لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة . " (١)

كما اتجهت أنظار المسلمين ناحية مصر لفتحها لأنها مهد الحضارات ودرَّة التاج البيزنطي .

يقول أحمد أمين : " فتحت مصر مهد المدنيَّة القديمة ، والوارثة لحضارة المصريين واليونان والرومان ، وبها الإسكندريَّة مجمع المذاهب الفلسفيَّة والطوائف الدينيَّة ، ملتقى الآراء الشرقيَّة والغربيَّة " (٢)

وبعد أن فتح المسلمون الشام استقَّر رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على فتح مصر ، واختار لهذه المهمَّة عمرو بن العاص الذي أسرع نحو مصر واستطاع بجيشه الصغير ، الذي يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف مقاتل ، أن يخترق سيناء دون جهد ، فوصل من رفح حتى بلبيس لم يقابله إلا حاميات قليلة من البيزنطيين ، كان أهمها في العريش التي استولى عليها في ذي الحجة ١٨ هـ / ديسمبر ٦٣٩ م ثم تقدَّم حتى وصل إلى أقوى الحصون البيزنطيَّة في شرق مصر عند بلدة "الفرما" وهناك وقع التحام بين جيش المسلمين والبيزنطيين واستمرَّ القتال شهراً أو شهرين

---

(1) ذكره ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وأخرجه ابن عساكر .
(2) أحمد أمين " فجر الإسلام " دار الكتاب العربي بيروت ط١٠ ص ٨٥

حتى اقتحمه المسلمون في المحرم ١٩ هـ ، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى قلب مصر ، فاتجه عمرو بجيشه إلى بلبيس .

وقد مال سكان مصر من الأقباط مع المسلمين على البيزنطيين نتيجة للإدارة السيئة لهؤلاء ، بالإضافة إلى السياسة الدينيَّة التي سارت عليها الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة في اضطهاد مسيحي مصر الأقباط ، حتى انحاز عدد كبير من السكان الأصليين إلى جانب المسلمين ، وهاجموا أحياناً الجنود البيزنطيين أينما صادفوهم وسلَّموهم للمسلمين بعد تجريدهم من سلاحهم .(١)

لماذا رحَّب المصريون بالفتح الإسلامي ؟

لم يعتبر المصريون الفتح العربي الإسلامي غزواً واحتلالاً إنما اعتبروه منقذاً لهم من الظلم الروماني ، فقد سمعوا بعدل المسلمين في الأمم التي فتحوها ، وقد كان حالهم مع الفاتحين المسلمين كحالهم مع الإسكندر الأكبر " ذو القرنين رسول الله " .

والذي يؤكد ترحيب المصريين بالمسلمين ومساعدتهم في حربهم ضد البيزنطيين هو دخول المصريين في الإسلام أفواجاً وهم الذين قاوموا بل استشهدوا في سبيل الدفاع عن عقيدتهم ضد الرومان وغيرهم .

أتمَّ عمرو بن العاص فتح مصر عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م وأظهر عمرو بن العاص بعد الفتح تسامحاً شديداً في معاملة المصريين فسمح للبطريك بنيامين بالعودة إلى الإسكندريَّة ، بعد أن ظلَّ مختبئاً حوالي ١٣ سنة في عهد البيزنطيين مما أدَّى إلى لم شمل الأقباط الذين حصلوا على حرية كاملة في إقامة شعائرهم ، فلم يحفل المسلمون بالخلافات الدينيَّة بين المسيحيين ، والتي كانت تميِّز الحكم البيزنطي ، ولم يعد الأقباط يخشون أظهار عقيدتهم ، فقامت الكنيسة القبطيَّة بأنشطتها الدينيَّة دون تدخل من السلطة الحاكمة . (٢)

لقد فرح الأقباط بخروج الروم (البيزنطيين) من مصر ، وعبَّر البطريك بنيامين لعمرو بن العاص عن فرح المسيحيين بقوله : " كنت في بلدي وهو الإسكندرية

---

(1) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٩٥ .
(2) نفسه ص ٩٦ .

فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء ، وقد صرف الله عنَّا اضـطهاد الكفرة (يقصد الروم) وبأسهم " وقال أيضاً عن نفسه وعن بقية القبط : " لقد فرحـوا كما يفرح السِّخال (١) إذا ما حُلَّت لهم قيودهم وأطلقوا ليرشفوا من ألبان أمهاتهم " (٢)

لقد عامل المسلمون أقباطَ مصر معاملة الأهـل والأصـهار لا معاملـةِ الـذل والصَّغار التي كان يعاملهم بها الرومان ، ولم تكن معاملة المـسلمين هـذه أقبـاط مصر نابعة من تعاليم الإسلام العامة فحسب إنما من توصية خاصة من رسـول الله ﷺ للمسلمين بأهل مصر خيراً .

فأقباط مصر لهم شأن خاصٌ ومنزلة متميِّزة، فقد أوصـى بهـم رسـول الله ﷺ وصية خاصَّة، يعيَها عقل كلِّ مسلم ويضعها في السويداء من قلبـه، فقـد روت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقـال: " اللهَ اللهَ في قبط مصر ، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدَّة وأعوانًا في سبيل الله" [رواه الطبراني]

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال : " ... استوصوا بهم (يعني قِبْط مصر) خيرًا، فإنهم قوَّة لكم، وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله " [رواه أبو يعلى]

روى مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : " إنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا ".

وفي رواية: "إنكم ستفتحون مصر، وهـي أرض يـسمَّى فيهـا القيـراط، فـإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا "، أو قال : " ذِمَّة وصِهرًا "

الذمة: هي الحرمة والحق، وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هـاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر، فلكون مارية أم إبراهيم منهم . (٣)

وقد صدَّقَ الواقع التاريخي ما نبَّأ به الرسول ﷺ فقد رحَّب الأقبـاط بالمـسلمين الفاتحين لما بينهم من ذمَّة ورحماً وصهراً ، وفتحوا لهم صدورهم، رغم أن الـروم الذين كانوا يحكمونهم كانوا نصارى مثلهم، ودخل الأقباط في دين الله أفواجًا، حتـى

---

(1)(السخلة) الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد (ج) سخل وسخال وسخلان . المعجـم الوسيط .
(2) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ٣١ .
(3) شرح النووي على صحيح مسلم . دار إحياء التراث العربي – بيروت ج١٦ص ٩٧ .

إن بعض ولاة بني أميَّة فرض الجزية على مَن أسلم منهم، لكثرة مَن اعتنق الإسلام.

يقول د. ميلاد حنا : " في القرن السابع دخل العرب إلى مصر في ظروف خاصة غير متكررة إذ لم يتم الغزو بحد السيف ، بل رحَّب المصريون بالعرب كجزء من الخلاص في " عهد الاضطهاد العظيم " والذي كان قد سنه هرقل إمبراطور الرومان لإخضاع المصريين لعقيدة ومذهب مسيحي يختلف عن المذهب الأرثوذكسي الذي تمسكوا وناضلوا في سبيل الاحتفاظ به . " (١)

يقول المؤرخ الكبير يعقوب نخلة : " ولما تَثَبَتَ قدم العرب في مصر شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهلين واستمالة قلوبهم إليه واكتساب ثقتهم به وتقرب سراة القوم وعقلائهم منه وإجابة طلباتهم وأول شيء فعله من هذا القبيل استدعاء بنيامين البطريرك الذي اختفى من أمام هرقل ملك الروم وذلك أنه كان بين رؤساء الأقباط المتقربين من عمرو واحد يسمى " شنودة " فتقدم إليه وأعلمه بخبر البطريرك وما كان من أمر هروبه واختفائه وطلب منه أن يأمر بعودته فلبَّي طلبه وكتب أماناً وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور ولا خوف عليه ولا تثريب . ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع أكرمه وأظهر له الولاء وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته وعزل البطريرك الذي كان أقامه هرقل وردَّ بنيامين إلى مركزه الأصلي معزَّزاً مكرَّماً وهكذا عادت له المياه إلى مجاريها وبعد اختفاء مدة طويلة قاسى فيها ما قاساه من الشدائد وكان بنيانين هذا موصوفاً بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم (بالحكيم) وقيل أن عمراً لما تحقق ذلك منه قرَّبه إليه وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيره في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها ، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منّة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو ." (٢)

لقد أعاد عمرو بن العاص الحق لأصحابه فأعاد كنائس المصريين وأديرتهم التي اغتصبها منهم الرومان إليهم وبذلك زالت أسباب الشقاق بين مسيحيي مصر والمستوطنين الرومان الذين آثروا البقاء في مصر على الرحيل عنها .

---

(١) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " نهضة مصر ص ٢٥ .
(٢) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مصدر سابق ص ٥٥ .

يقول د. ميلاد حنا " ويبدو أن عمرو بن العاص كان متفهماً ومقدِّراً لموقف المصريين الأقباط من ترحيبهم به لسخطهم على النظام البيزنطي وأتصور – بمفهومي سياسي – أنه لا بد من أن يكون قد قطع على نفسه وعوداً بأن يترك الأقباط وشانهم فيما يتعلق بالعقيدة الدينيَّة ، فضلاً عن أنه قد خفف الضرائب عن الأهالي .

وتتفرد مصر في أن لها علاقة مع الإسلام منذ الأيام الأولى إذ يروي المؤرخون أن الرسول ﷺ قد بعث برسائل إلى الحكام البارزين في ذلك العهد في السنة السادسة من الهجرة وكان من بينهم مقوقس مصر .

ومن المعروف أن المقوقس قد أرسل هدية إلى " الرسول " جاريتين ودابتين وعسل وثياب وأن " الرسول " قد تزوج من " مارية القبطية " وقد ولدت له " إبراهيم " الذي مات قبل أن يبلغ ستة عشر شهراً .

أما " أخت مارية " فقد تزوجها " جهم بن قيس العبدري " وهي " أم زكريا بن جهم " والذي كان خليفة " عمرو بن العاص " في حكم مصر .

وهكذا توجد لمصر علاقة خاصة ومتميزة منذ فجر الإسلام ولكن بسرعة تحوَّل الإسلام إلى قوة سياسيَّة وعسكريَّة هائلة ولذلك فإن الحكام العرب – في نشوة انتصاراتهم وفتوحاتهم وفي السنوات الأولى من عهد الخفاء الراشدين – لم يحاولوا أن يفرضوا الدين الجديد مع الغزو ذاته ، إذ كان هدفهم الأساسي هو تثبيت أقدام الحكم في المناطق المفتوحة ثم تجهيز الجيوش لتوسيع الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة . (١)

كيف حكم عمرو بن العاص مصر ؟

عرفنا كيف ساعد المصريون المسلمين في حربهم ضد الاحتلال الروماني ، وكيف أحسن عمرو بن العاص إليهم ، ولبَّى طلباتهم ، وأجاب رغباتهم ، والآن نذكر كيف حكم عمرو بن العاص مصر .

يقول يعقوب نخلة : " أخذ عمرو في تنظيم البلاد وإذ كان يعلم أن صاحب الدار أدرى بما فيها استعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن

---

(١) د. ميلاد حنا " الأعمدة السبعة للشخصية المصرية " مرجع سابق ص ٩٩ .

راحة الأهالي والوالي معاً فقسَّم البلاد إلى أقسام يرأس كل منها حاكمٍ قبطي له اختصاصات وحدود معينة ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة وعيَّن نواباً مخصوصين من القبط ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصَّة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية فكانوا بذلك في نوع ما من الحرية والاستقلال المدني وهي ميزة كانوا قد جُرِّدوا منها في أيام الدولة الرومانية ولذا لم يجعلوا الحكومة في راحة بال .

وضرب الخراج على البلاد بطريقة عادلة وولَّى عليه مُتولياً من ذويه يقبضه أقساطاً في آجال معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد .

ورتَّب الدواوين فاختص الأقباط بمسك الدفاتر وسائر الأعمال الكتابيَّة والحسابيَّة وكانت كلها تجري باللغة القبطيَّة وبلغ ما جباه عمرو من الخراج في السنة اثني عشر مليوناً من الدنانير مع أن الذي كان يجبيه المقوقس في أيام الروم لم يكن أقل من ثمانية عشر مليوناً .

وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ أزمان "(١)

أرأيتم كيف حكم المسلمون مصر عند الفتح لقد عرفوا قدر مصر وعظمة أهلها فلم يتركوهم يقيمون شعائرهم الدينية التي اضطهدهم الرومان بسببها فحسب بل منحوا فضلاءهم حرية إدارة شئون المحليات الدينيَّة التي حرَّمها الرومان عليهم ، وإدارة شئون المحليات المدنيَّة التي حَرَمَهم الرومان منها .

كيف دخل المصريون في الإسلام أفوجاً ؟

إن من أهمِ أسباب دخول أقباط مصر في الإسلام هو الخلافات المذهبيَّة المسيحيَّة المعقَّدة التي أثيرت عبر المجامع المسكونيَّة والتي أدَّت إلى التقاتل والتناحر ، في مقابل يسر الإسلام ووضوح عقيدته وسهولة شريعته فجميع المسلمين يتفقون على أصول دين واحدة ، ويعذر بعضهم بعضاً في اختلاف التنوع الذي قد يقع في بعض الفروع ففي هذا الاختلاف سعة ورحمة .

---

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مصدر سابق ص ٥٦ ، ٥٧

كما أن الإسلام لا يفرض " مؤسسة دينيَّة دنيويَّة " وأن العلاقة الدينيَّة مباشرة بين العبد وربه تعالى فلا كهنوت في الإسلام ولا رجال دين يتوسطون بين العبد وربه { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة : ١٨٦] .

لقد استفاد المصريون من الفتح العربي الكثير ، استفادوا توحيد الله الخالص وشريعة الله الخاتمة الغراء ، وسيرة النبي العطرة القدوة الحسنة ، وسير الخلفاء الراشدين المهديين ، ومعاشرة صحابة رسول الله والتتلمذ على أيديهم .

كما استفادوا بمصاهرة العرب قوَّة في النسل وإثراء في الثقافة والمعرفة ، وانفتاحاً أكثر على شعوب إسلاميَّة عربيَّة ومُسْتَعْجَمَة ، وتعلُّم لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وعلماء الإسلام .

وفَتْحُ المسلمين مصر وما صاحب ذلك من فوائد جمَّة للمصريين لم يغيِّر طبيعتهم ويجعلهم عرباً عاربة أو مُسْتَعْرِبة إنما أيقظ همتهم ، وشحذ عقولهم ، وأسقط نير الاحتلال الغربي عن كاهلهم ، وحطَّم القيود التي كانت تكبلهم ، وأصقل معدنهم النفيس فانطلقوا يصنعون الحضارة الإسلاميَّة متعاونين مع إخوانهم من المسلمين .

فلم يكن الفتح العربي مصر أبداً احتلالاً استيطاناً بغيضاً اغتصب البلاد واستذَّل العباد ونهب ثرواتها ، إنما كان فتح خير وبركة حرَّر البلاد وأكرم العباد ونمَّى الثروات .

أما الحديث عن أن عمرو بن العاص حرق مكتبة الإسكندرية فهو حديث خرافة فعندما دخل عمرو بن العاص الإسكندرية عام ٦٤٢م لم تكن مكتبة الإسكندريَّة موجودة حتى يحرقها حيث إنه ثبت أن مكتبة الإسكندريَّة تمَّ إحراقها عن آخرها في زمن الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر عام ٤٨ ق.م " ، ولم يرد ذكرها في كتب الأقدمين كاليعقوبي، والبلاذري، وابن عبد الحكم، والطبري، والكندي، ولا في تاريخ من جاء بعدهم وأخذ منهم كالمقريزي، وأبي المحاسن، والسيوطي، وغيرهم .

الحضارة الإسلاميّة

لقد اشتملت حضارة الإسلام على جميع مقوّمات الحـضارة الحقيقيَّة بجانبيها المعنوي والمادي ، كما جاءت لتسمو بكل كيان الإنسان : روحاً ، قلباً ، عقلاً ، نفساً ، وجسداً ، وتسعد كل البشر .

ولا عجب فهي وإن كانت ربَّانية المصدر والمنهج والغاية فإنها إنسانيّة الغاية والهدف أيضاً ؛ فإذا كانت الربانيَّة هي غاية المجتمع المسلم كما هي غاية الفرد المسلم فإن مضمون هذه الغاية هو سعادة الإنسان ، وفوزه بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين .

وإذا كانت الربانيَّة هي رسالة المسلم فإن أهداف هذه الربانيَّة هي تحقيق الخير للإنسان والسمو به ، والحيلولة بينه وبين الانحراف والسقوط . (١)

ونبدأ الحديث عن الحضارة الإسلاميَّة بذكر الجانب المعنوي : الديني الأخلاقي السلوكي ، ثمَّ نعقبه بالحديث عن قضيَّة مهمة لها علاقة بهذا الجانب وهي علاقة الإسلام بالعروبة ، ثمَّ نتحدَّث عن مدنيَّة الإسلام والمنجزات الحضاريَّة ودور مصر في هذا المجال فيها .

الخصائص العامة للشريعة الإسلاميّة

للشريعة الإسلامية خصائص عامة تميزها عن غيرها من الشرائع، لأنها شريعة الله الخاتمة لكل الشرائع والأديان الباقية ما دامت السموات والأرض ومن أهم هذه خصائصها :

أولاً : ربانيَّة المصدر والمنهج

إن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه منهج رباني خالص؛ لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ .

قال تعالى: { ياأيها الناس قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصدور وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [يوسف: ٥٧]

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " مكتبة وهبة ص ٥٣ .

وربانية المصدر أكسبت الشريعة الإسلاميَّة العصمة من التناقض والتطرف ، والبعد عن التحيز والهوى، وحررت الإنسان من عبوديته لبشر مثله أو مخلوق شبهه . (١)

وكما أن الله تعالى هو مصدر الشريعة فهو جلّ وعلا الذي حدد الغاية منها وهي توحيد الله تعالى وحسن عبادته ، وتزكية النفس وعمارة الأرض .

قال تعالى : { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ } [هود : ٦١]

إنها شريعة مقدسة فهي من عند الله تعالى، وقد تترك هذه القدسيَّة الأثر الكبير في حياة المسلم بحيث تجعله يحرص على تنفيذ أحكام الشريعة بصدق وأخلاق ويحذر كل الحذر من مخالفتها ولو كان في ستر من أعين الناس ولا يطلع عليه أحد، لأنه يعلم أن الله العليم الخبير يطلع عليه ويراه . (٢)

ثانياً : إنسانيَّة

الله تعالى غني عن العالمين لا تنفعه طاعة الطائعين كما لا ضره معصية العاصين . { وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } [إبراهيم: ٨]

وعقائد الإسلام وأحكامه وأهدافه إنما جاءت لإسعاد الإنسان في الدنيا والعناية به وبحقوقه، بطرق مباشرة تظهر لعامة الناس، وغير مباشرة يدركها العارفون منهم.

فشريعة الإسلام : العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق تعود كلها بالنفع على الإنسان في الدنيا والآخرة فلا يضل الإنسان بها ولا يشقي بل يسعد في الدارين .

{ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى } [طه: ١٢٣]

ثالثاً : اليسر ورفع الحرج

دين الله يسر لا مشقة فيه، فلا يطلب الله من عباده ما لا يطيقونه .

{ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا } [البقرة : ٢٨٦]

---

(١) أحمد أبو وائل أكرم " من خصائص شريعتنا الإسلامية " ص ١٢
(٢) نفسه ص ١٢

فالله تعالى لم يكلفنا حسب طاقتنا بل خفف عنا فكلفنا حسب وسعنا والوسع ما تسعه قدرة الإنسان أو ما يسهل عليه من المقدور وهو ما دون مدى طاقته أي سنته تعالى أنه لا يكلف نفساً من النفوس إلا ما تطيق وإلا ما هو دون ذلك كما في سائر ما كلفنا به من الصلاة والصيام مثلاً فإنه كلفنا خمس صلوات والطاقة تسع ستاً وزيادة . وكلفنا صوم رمضان والطاقة تسع شعبان معه وفعل ذلك فضلاً منه ورحمة بالعباد أو كرامة ومنه على هذه الأمة خاصة . (١)

وحتى ما فرضه الله تعالى على الإنسان ، وهو سهل ميسور ، إن عجز الإنسان عن فعله أو أوقعه فعله له في حرج ، لعذر شرعي مؤقت أو دائم ، أعفاه الله منه وتجاوز عن تقصيره فيه .

يقول تعالى : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ } [الحج : ٧٨]

رابعاً : جمع الشريعة بين الثبات والمرونة في أحكامها

قال ابن القيم : " الأحكام نوعان : نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهاد الأئمة كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه .

والنوع الثاني : ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة فشرع التعزير بالقتل لمدمن الخمر في المرة الرابعة " (٢)

فالأحكام الثابتة هي المعلومة من الدين بالضرورة التي أجمع عليها المسلمون قديماً وحديثاً ، وهي قطعية الثبوت قطعية الدلالة أما الأحكام قطعية الثبوت ظنية الدلالة أو ظنية الثبوت والدلالة فهي مجال الاجتهاد من أهل للاجتهاد لذا تتغير بحسب اقتضاء المصلحة زماناً ومكاناً وحالاً .

وبهذه الخاصية تستوعب الشريعة الإسلامية كل ما جد من وقائع وما تبدل من عرف وعادة صالحين فلا يستطيع أحد أن يصفها بالجمود .

---

(١) تفسير الألوسي " روح المعاني " ج ٢ ص ٤٠٤
(٢) ابن القيم " إغاثة اللهفان " ج ١ ص ٣٣١

خامساً : الشمول

لقد كان لكل نبي شرعة ومنهاج وشاءت حكمة الله تعالى أن تكون شريعة الإسلام التي جاء بها خير الأنام لكل البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأزمنتهم وأمكنتهم ولغاتهم ؛ فقد وحَّدت وسائل الاتصال العالم كله وجعلته قرية صغيرة يجمع أهلها خصائص واحدة ، لذلك جعل الله الشريعة الخاتمة ليست قاصرة على قوم بعينهم إنما شاملة لجميع البشر .

ومن مظاهر الشمول التي تميز بها دين الإسلام:

أ- أنه شامل لكل الناس : العربي والأعجمي ، والذكر والأنثى ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والقوي والضعيف ....

يقول تعالى : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [الأعراف: ١٥٨]

ويقول عز وجل: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [سبأ: ٢٨]

ب- شمول شريعة الإسلام لجميع مراحل حياة الإنسان وجميع نواحيها .

فالإسلام وضع نظاماً لحياة الإنسان وهو في بطن أمه حملاً، ثم عندما يكون طفلاً، فبيَّن الذي له من حقوق الحضانة والرضاعة والرعاية، ثم لمَّا يبلغ ويتزوج، ثم عندما يكون أباً أو أمّاً، ثم لما يكون شيخاً كبيراً، فشريعة الإسلام ترعى الإنسان وتدير شئونه من قبل ولادته حتى وفاته وبعد وفاته وتنظم حياته كلها في نفسه وعلاقاته مع غيره، في بيته وفي عمله وفي كل أحواله .

{ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام :١٦٢]

ج- تشمل كل العصور والأزمنة من يوم مبعثه عليه الصلاة والسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهي خالدة لا يلحقها تبديل ولا تغيير قال تعالى :{ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [يونس :٦٤] وقال أيضاً : " وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }] الرعد: ٤١]

فهي إذا تتماشى مع الواقع البشري المتغير عبر الأزمنة والأمكنة ومسايرة لواقعهم (١) لجمعها بين ثبات الحكم الشرعي وتغير فتوى العلماء المجتهدين حسب الزمان والمكان والحال .

سادساً : الوسطيَّة

دين الإسلام دين وسط لا غلو فيه ولا تقصير، ولا إفراط فيه ولا تفريط ، والإسلام وسط في الاعتقاد والتصور ، ووسط في التعبد والتنسك ، ووسط في الأخلاق والآداب ، ووسط في التشريع والنظام .

فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط ، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبد الأوثان والأحجار . (٢)

فالإسلام يدعو للإيمان بإله واحد لا شريك له لم يلد ولم يولد ، ولا مماثل ولا مشابه فليس كمثله شيء سبحانه وتعالى .

{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [سورة الإخلاص]

وتواترت الأدلة على وجوده سبحانه وتفرده بالعبادة ووجوب الطاعة .

قال تعالى: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ } [الطور: ٣٥، ٣٦]

{ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [النمل : ٦٤]

والإسلام وسط بين العبادات والشعائر بين الأديان والنحل التي ألغت جانب العبادات الربانية من فلسفتها وواجباتها كالبوذية ، وبين الأديان التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج كالرهبانية المسيحية . (٣)

{ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ } [الحديد : ٢٧]

---

(١) أحمد أبو وائل أكرم " من خصائص شريعتنا الإسلامية " ص ١٥
(٢) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " مكتبة وهبة ص ١٢٢
(٣) نفسه ص ١٢٤ .

والإسلام وسط في فهم طبيعة الإنسان فالإنسان في نظر الإسلام ليس روحاً فقط كما فهم غلاة المثالية ودعاة الرهبانية ، وليس عقلاً فقط كما فهم الفلاسفة الماديون الملاحدة ، وليس جسداً فقط كما فهم الإباحيون عبيد غرائز الجسد .

ولكن الإنسان روح وجسد وعقل وقلب .

{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } [الروم : ٣٠]

" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ " [متفق عليه]

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين الجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية . (١)

والإسلام وسط في الشريعة بين اليهودية التي أسرفت في التحريم مما حرموه على أنفسهم أو حرمهم الله عليهم جزاء ظلمهم ، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت ما نصت التوراة على تحريمه مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة .

والتشريع الإسلامي وسط في شئون الأسرة بين الذين شرَّعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد وبين الذين رفضوه وأنكروه .

وهو وسط في الطلاق بين الذين حرَّموا الطلاق لأي سبب ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق كالكاثوليكية ، وبين الذين أرخوا العنان في أمر الطلاق فلم يقيدوه بقيد أو شرط .

والإسلام وسط في تشريعه ونظامه الاجتماعي بين " الليبراليين " الذين يدللون الفرد على حساب المجتمع بكثرة ما يعطى له من حقوق يطالب بها ، وقلة ما يفرض عليه من واجبات يسأل عنه ، وبين الماركسيين الذين يضخمون دور المجتمع بالضغط على الفرد والتقليل من حقوقه والحجر على حريته .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول توازن مكونات الإنسان وكيف تعاملت معها شريعة الإسلام راجع كتابنا " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " مكتبة مدبولي .

لقد أعطى الإسلام للفرد حقوق وحريات كثيرة فحفظ للفرد حق الحياة ، وحق الكرامة ، وحق التملك ، وحق الاستقلال الشخصي ، وحق النقد والمعارضة ، وحرية الرأي والفكر .. ومع هذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها ، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة وألا يكون فيها ضرر للغير ، وليس للفرد أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ويضرها إذ " لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ " في الإسلام أي لا يضر الإنسان نفسه ولا يضر غيره . (١)

إن من أهم صفات الشريعة الإسلاميَّة ومميزاتها أنها شريعة عادلة لا تميل للحاكم على حساب المحكوم، ولا تميز بين قوي أو ضعيف، بل وتحرم الظلم أيضًا وتحاسب عليه في الدنيا والآخرة، بخلاف القوانين الوضعية، والتي لا بد وأن يكون فيها ظلم وجور وتمييز لمجموعة على حساب الأخرى. (٢)

سابعاً : الواقعيَّة

المراد بالواقعية في شريعة الإسلام: أنها تراعي مكونات الإنسان التي فطره الله تعالى بها : الروح والقلب والعقل والجسد والنفس . كما تراعي طبيعة الكون والبيئة التي يعيش الإنسان فيها فشرائع الإسلام ملائمة لفطرة الإنسان وواقعه وحياته، كما هي مناسبة لطبيعة الكون الذي يعيش فيه ويؤثر فيه ويتأثر به ؛ ولهذا فهي الشريعة القادرة على إسعاد البشرية كلها وتعمير الكون .

فالله تعالى كما خلق الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ توازن الإنسان والكون .

لقد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بالكتب المقدسة تلك الكتب المتوازنة مع كيان الإنسان كله والتي تجعل نظرته لحقوق الله وحقوق خلقه متوازنة وبهذا يقام ميزان العدل .

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }
[الحديد : ٢٥]

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " مرجع سابق ص ١٣٧
(٢) د. عمر سليمان " خصائص الشريعة الإسلاميَّة "

وتدبر معي هذه الآيات العجيبة التي جمع الله تعالى فيها بين تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وخلق الكون، وأمره تعالى الإنسان بالتزام الميزان في كل ذلك وتحذيره تعالى من عدم مراعاة الميزان في فهم القرآن والإنسان والكون .

يقول تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } [الرحمن : ١- ٩]

فشريعة الله تعالى التي أنزلها في كتابه العزيز { الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ } هي الميزان الإلهي لفهم الإنسان والكون {ووضع الميزان} وحذر الله تعالى من عدم تطبيق شرعه فيختل توازن الإنسان والكون {ألا تطغوا في الميزان } وأمر الله تعالى الإنسان بإقامة شرعة وتطبيقه بالعدل بين الإنسان وخالقه ، وبين الإنسان وأخيه الإنسان ، وبين الإنسان وعناصر الكون {وأقيموا الوزن بالقسط} ثم يعود الله تعالى فيحذر الإنسان من الإخلال بشرعه أو استبدال غيره به مما يترتب عليه سخط الله تعالى ، وفساد الكون ، وتعاسة الإنسان {لا تخسروا الميزان} .

ثامناً : الوضوح والسهولة

مما تميز به الإسلام الوضوح في عقيدته وشريعته وأحكامه، فأصول الدين لا يجهلها مسلم أيّاً كان حظه من التعليم فالمسلم يعتقد بأن إلهه واحد لا شريك له ، وهو الله سبحانه وحده المستحق للعبادة دون سواه، وهو وحده الذي يقصد في الحاجات ، وهو وحده الذي بيده الضر والنفع ، وأنه تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: ١١]

كما يؤمن المسلم بأن الملائكة كائنات نورانية خلقها الله تعالى لعبادته وتنفيذ أوامره . {لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : ٦]

ويؤمن المسلم بأن الله تعالى اصطفى من البشر رسلاً ليوحي إليهم بدينه ليعلموه للناس ويطبقوه في الحياة وهم معصومون من الخطأ المخل بمهام الرسالة .

{ رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ }

[النساء : ١٦٥]

وأرسل معهم الكتب المقدسة التي تشتمل على العقيدة والشريعة .

{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة :٢٨٥]

كما أن المسلم يؤمن بالبعث والنشور والحساب

{ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ } [المؤمنون : ١٥ ، ١٦]
وأن من يفعل مثقال خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .
{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }
[الزلزلة: ٧، ٨]

وتكون النتيجة المنطقية أن الأبرار يدخلون الجنة ، والأشرار يدخلون النار .
{ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار: ١٣ ،١٤]

أن الجزاء في الشريعة الإسلامية مختلفٌ عن باقي الشرائع، فهو يوجه أنظار الناس الذين يتهربون من العقوبة بأن العقاب قد ينزل على الجميع، على شكل تدمير يأخذ الله فيه الظالمين، أو قحط يمنع الله فيه القطر من السماء، كما أنه يعلِّمهم أن هناك جزاءً أخرويًا بجانب العقاب الدنيوي، وهو أعظم منه، وأشد إيلامًا، مما يدفع الإنسان لأن يتقي ربه، ويخلص في عمله، ويتجنب ما نهى الله عنه. (١)

وكل الغيبيات التي أخبر الله عز وجل بها من أمر الآخرة كالجنة والنار وما فيهما من نعيم أو عذاب. وكذلك وحدانية الله تعالى وخلقه الملائكة وبعثه الأنبياء الرسل وإنزاله الكتب المقدسة ، تدرك العقول معناها وإن كانت لا تدرك كيفيتها لأنها غيب، قال عز وجل .

ومن وضوح هذه الشريعة: أن جميع عباداتها سواء البدنية أو المالية كلها معلومة وواضحة؛ فالصلوات خمس في اليوم والليلة والصيام هو شهر واحد في رمضان، والزكاة معلومة مقاديرها وأنصبتها، والحج معلومة أركانه وشروطه وواجباته، يعرفها كل من تعلمها ولا تعجز العقول عن فهمها.

---

(١) د. عمر سليمان " خصائص الشريعة الإسلامية " .

وأخيراً فإن من وضوح هذا الدين: أن قراءة دستور هذه الأمة ومصدر تشريعها وهو القرآن الكريم وحفظه وفهمه ميسر سهل لكل راغب، قال عز وجل: { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [القمر: ٤٠]

وسنة النبي ﷺ محفوظة بالإسناد، وسيرته مضبوطة محررة. ومن هذه المصادر يؤخذ الإسلام، وإليها يرجع عند الاختلاف. وهذا كله مما لم يتوافر لدين من الأديان.

وبهذه الخصائص يتأكد لدى الجميع صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان، وخلوها من النقائص والعيوب الموجودة في الشرائع الوضعيَّة، وبالتالي أحقيتها في حكم البشر وسيادتهم.

- وبعد الحديث عن خصائص الشريعة الإسلاميَّة هناك قضيَّة يجب تجليتها ، وهي علاقة الإسلام بالعروبة ، وهل الإسلام خصوصيَّة عربيَّة أم ديانة عالميَّة شارك في نشرها وقيام حضارتها العرب المُسْتَعْرِبَة : عرب الجزيرة العربية ، والعرب المُسْتَعْجَمَة : غير العرب الذي تعرَّبوا كالعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس ؟

الإسلام والعروبة

بداية يجب أن نقرر أنَّ الإسلام ، كدين ، ومن حيث أصوله الاعتقاديَّة ، ليس "خصوصيَّة عربيَّة" حتى يكون قسمة من قسمات العرب القوميَّة ، وإنما هو من هذا الجانب ، وفي هذه الأصول – علاوة على كونه وضعاً إلهيّاً وليس إفرازاً بشريّاً – ذو قسمة عالميَّة وإنسانيَّة ، وذو طابع عام يتعدَّى الأمم والشعوب والقوميَّات والحضارات .. إنه في مجاله كالقوانين العامة التي – لعلْميَّتها – تتعدى بصلاحياتها وتوجهها كل ما علي الأرض من حدود وفواصل وتقسيمات وسدود .

والإسلام الدين رغم عالميته التي تتعدَّى وتتخطَّى حدود القوميَّات والحضارات والأجناس . نجده يطلب من أتباعه إن هم أرادوا فقه معجزته ووعي آيته الكبرى أن يتعرَّبوا ؟! وتلك ولا شك خصوصيَّة عربيَّة للإسلام لا ريب فيها ولا إبهام رغم " عالميَّة الدين " ! (١)

---

(١) د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص١٠ ، ١١ .

وفي مصر قدَّم الإسلام الحضارة مفهوماً للعروبة يتجاوز عصبيَّة الجاهليَّة ويرفضها . ويتجاوز النعرات العرقيَّة وينهي عنها ويضع محل كل ذلك مفهوماً حضاريًا ، يعتمد الفكر واللغة والعلائق القوميَّة بين أبناء هذه الجماعة البشريَّة معياراً لمن هو العربي .

فيخطب الرسول ﷺ في الناس قائلاً : " يا أيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أبٍ ولا أمٍّ ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلَّم بالعربية فهو عربي. "

وروي في مناسبة هذا الحديث أن قيساً بن مطاطية جاء إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ، فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلبيبه ، ثم أتى به النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام ﷺ قائماً يجر ردائه حتى دخل المسجد ثم نودي : أن الصلاة جامعة ، وقال : (ذكر هذا الحديث) ، فقام معاذ بن جبل وهو آخذ بتلبيبه ، قال : فما تأمرنا بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : دعه إلى النار ، فكان قيس ممن ارتد في الردة ، فقتل .(رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق)

وهذا الحديث – ضعيف السند صحيح المعنى – يسحب بساط العنصريَّة المقيتة من العرب المُسْتَعْرِبَة وينفي استئثارهم باللسان العربي دون العرب المُستَعْجَمَة ، وينزع نبرة الاستعلاء ونزعة العنصريَّة التي كانت لدى بعض العرب – كالأمويين ومن جاراهم – في التفاخر بأنهم أفضل البشر لأنهم هم العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول آخر الزمان من بينهم .

{ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [سورة الحجرات : ١٧]

وبعض العرب في العصر الأموي فاخروا بعروبتهم وسيادتهم على غيرهم من المسلمين من غير العرب وقسَّموا المجتمع إلى طبقات ثلاث وجعلوا أنفسهم على رأس هذه الطبقات وجعلوا العرب المُسْتَعْجَمِين مواليًا لهم ثم جعلوا العبيد – وإن كانوا مسلمين – في الطبقة الدنيا .

وهذا التقسيم لم يقل به القرآن الكريم ولم يعلِّمه رسوله الأمين إنما القرآن الكريم يقرِّر في بيان واضح لا يقبل تأويلاً ولا تعطيلاً .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات:١٣]

يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأُمٍّ واحدة هي حواء، فلا تفاضل بينكم في النسب، وجعلناكم بالتناسل شعوبًا وقبائل متعدِّدة؛ ليعرف بعضكم بعضًا، إن أكرمكم عند الله أشدكم اتقاءً له. إن الله عليم بالمتقين، خبير بهم .

إن اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، تنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويُعْرَف به فضل الناس : { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } والكريم حقاً هو الكريم عند الله تعالى . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : { إن الله عليم خبير } .

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

وقد حارب الإسلام هذه العصبيَّة الجاهليَّة في كل صورها وأشكالها ، ليقيم نظامه الإنسانيَّ العالميَّ في ظلِّ راية واحدة : راية الله .

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية : « دعوها فإنها مُنْتِنَة » .

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلاميُّ . المجتمع الإنسانيُّ العالميُّ ، الذي تحاول البشريَّة في خيالها المحلِّق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم الطريق إلى الله ؛ ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة راية الله . (١)

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر وقد ضرب ابنه مصريّاً وافتخر بآبائه قائلاً : خذها من ابن الأكرمين . فاقتصَّ منه عمر وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً أمهاتهم ؟!!

وابن الأكرمين – العرب – ليس كلَّ من لبس الجلباب والغترة وسكن جزيرة العرب فليست العربيَّة بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربيَّة فهو عربيٌّ لا يتميز عليه غيره إلا بالتقوى وحسن العمل والخُلُق وتعمير الأرض .

فالعربيَّة ليست عرقاً ونسباً إنما هي لغة ولسان فمن تكلَّم العربيَّة فهو عربيٌّ وإن لم يكن أصله عربي وإسماعيل أبو العرب كان أبواه أعجميين ولم يكونا عربيين .

ويُقسم ابن خلدون العرب إلى أربع طبقات متعاقبة في المدى الزمني: العرب العاربة وهم البائدة، ثم العرب المُسْتَعْرِبَة وهم القحطانية، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج والغساسنة والمناذرة، ثم العرب المُسْتَعْجَمَة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلاميَّة. (٢)

ويقول الجاحظ " إن العرب قد جعلت من إسماعيل وهو ابن أعجمين – إبراهيم وهاجر – عربيّاً لأن الله فتق لهاته بالعربية المبينة ، ثم فطره على الفصاحة (٣) وعلى ذلك فسكان العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا وكل من يتكلم العربيّة هم عرب يجمعون بين فضائل أصولهم العرقيَّة وحضاراتهم الإنسانيَّة وفضائل الإسلام التي لا يجنيها إلا من تعرَّب لسانه ليفهم الدين في نصوصه الأصليَّة وليس من

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٧ ص ٣ .
(٢) راجع تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ .
(٣) نقلاً عن د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " مرجع سابق ص٢٣ .

المترجمات ولقد أفسدت المترجمات الديانات السابقة وكانت سبباً من السباب تحريفها والخروج بها عن هديها فالترجمة خيانة كما يقول المترجمون أنفسهم لذا حفظ الله تعالى القرآن الكريم من التحريف كما حفظ العرب المؤمنون اللغة العربيَّة وآدابها من الفساد عن طريق تأليف معاجم اللغة ، وعلم النحو والصرف والبلاغة وعلوم اللغة) وحفظوا الحديث الشريف ونقُّوه مما علق به من موضوع وضعيف عن طريق علوم الجرح والتعديل والرجال ولقد ساهم بالجهد الأكبر –ويا للعجيب– في حفظ اللغة العربيَّة وآدابها ونشأة علومها وحفظ الحديث الشريف ونشأة علومه مسلمو العرب المُسْتَعْجَمَة وليس العرب المُسْتَعْرِبَة وهذا يدل على أن الحفاظ على اللغة العربيَّة صيانة للإسلام وليس عصبيَّة جاهليَّة كالتي وقع فيها بعض من تفاخر بعروبته أو بقرشيته .

ومن تعلَّم العربيَّة من غير العرب تعلَّم العربيَّة الإسلاميَّة التي تحمل الثقافة الإسلاميَّة وتمجد قيمه وتنفر من عادات الجاهليَّة المذمومة فاللغة العربيَّة التي تعلمتها الشعوب المُسْتَعْجَمَة لغة الإسلام ذات القيم الدينية والرشاد وليست لغة الجاهليَّة التي ترسخ قيم الجاهلية الأولى ، تعلموا لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف ولغة الخلفاء الراشدين وفقهاء الإسلام وعلمائهم ؛ لذا لا عجب أن يقول سيدنا محمد ﷺ على سلمان الفارسي " سلمان منَّا أهل البيت " (١) ومن المعلوم أن سلمان فارسيٌّ غير عربي وفي هذا بيان أن رابطة الدين بما تشتمل عليه من قيم إلهيَّة عالميَّة خالدة أهم من الرابطة العرقيَّة المحليَّة العنصريَّة الضيقة .

وكان من الطبيعي أن نجد فهم العرب المُسْتَعْجَمَة – أصحاب الحضارات العريقة– الإسلام فهماً يختلف عن فهم البدويِّ ، فإسلام العرب المُسْتَعْجَمَة إسلاماً حضاريّاً سمحاً وسطيّاً راقياً بعكس الإسلام البدويِّ المتشدِّد المتطرِّف الشكليِّ العنصريِّ .

وكما أن روافد النهر تعمِّق مجراه وتزيد غزارة مياهه وقوَّة جريانه لكنها لا تغير مساره ولا تحرفه عنه مصبه فكذلك اختلاط غير المصريين بالمصريين

---

(١) هذا الحديث في رفعه إلى النبي ضعف ، والصحيح وقفه على عليِّ بن أبي طالب .

(بالزواج والمعاشرة والاختلاط) قوَّى العنصر المصري وغزَّاه ولم يغيِّر طبيعته وذلك مثل عروبة مصر ثقافيًا ، أما إسلام مصر فقد ردَّها إلى مجراها الطبيعي الذي فُطِرَت عليه واقتلع الحشائش الضارة التي كانت تعيق الحركة المياه وبعض الجراثيم والميكروبات التي كانت تشوب صفائه وتغيِّر من طعمه ولونه ورائحته لذا أصبحت الشعوب المُستَعْجَمَة أنقى عنصراً باختلاطها بالجنس العرب فمن المعروف أن التزاوج من غير الأقارب يقوِّى النسل بعكس زواج الأقارب .

الخلافة الإسلاميَّة

الخلافة في الفقه السني هي رئاسة عامة للمسلمين جميعاً في الدنيا لإقامة أحكام الشرع الإسلاميِّ وحمل الدعوة الإسلاميَّة إلى العالم، وهي عينها الإمامة .

يقول أبو الحسن الماوردي: الإِمَامَةُ مَوْضُوعَةٌ لِخلافَةِ النُّبُوَّةِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا ، وَعَقْدُهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا فِي الأُمَّةِ وَاجِبٌ بِالإِجْمَاعِ " (١)

وسمِّيَت خلافة لأن الذي يتولاها يخلف النبيَّ في إدارة شئون المسلمين . وتسمَّى الإمامة لأن الناس كانوا يسيرون وراءه كما يصلُّون وراء من يؤمُّهم في الصلاة .

ودلَّت الأحاديث الواردة في كتب أهل السنَّة أن الخلافة يجب أن تنحصر في قبيلة قريش، وأنها ستستمر بعد سيدنا محمد لفترة ٣٠ عاماً ، وهي فترة حكم الخلفاء الأربعة : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم تحولّت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض (فيه عسف وظلم) وهي فترة تشمل الدولة الأمويَّة والدولة العباسيَّة والدولة الفاطميَّة والدولة العثمانيَّة وغيرها. ويُعتقد أن الدولة ستصبح حكما جبريًّا، ثم ستعود مرة أخرى خلافة على منهاج النبوة حسب المفهوم السني .

عن سَعِيدُ بْنُ جُمْهَانَ قال حَدَّثَنِى سَفِينَةُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ " الْخِلاَفَةُ فِى أُمَّتِى ثَلاَثُونَ سَنَةً ثُمَّ مُلْكاً بَعْدَ ذَلِكَ ". ثُمَّ قَالَ لِى سَفِينَةُ أَمْسِكْ خِلاَفَةُ أَبِى بَكْرٍ وَخِلاَفَةُ عُمَرَ وَخِلاَفَةُ عُثْمَانَ وَأَمْسِكْ خِلاَفَةُ عَلِىٍّ . قَالَ فَوَجَدْنَاهَا ثَلاَثِينَ سَنَةً "

(صححه الألباني)

---

(١) أبو الحسن الماوردي " الأحكام السلطانيَّة " ص ٣ .

قَالَ حُذَيْفَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : "تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّـهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّة، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّـهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّة ثُمَّ سَكَتَ "

(صححه الألباني)

ونظام الخلافة الإسلاميَّة يجعل جميع البلاد التي فتحها المسلمون ومنها مصر ولايات تابعة لخلفاء المسلمين الراشد منهم والظالم كأنها محافظات في دولة مركزيَّة يتحكَّم في كل شئون الولايات التابعة له ابتداء من تعيين الوالي وعامل الخراج (وزير المالية) حتى التحقيق في شكوى آحاد الرعيَّة ، كما جعل نظام الخلافة الولايات الإسلامية كالأواني المستطرقة(1) يفيض غنيِّها على غَيْض فقيرها ؛ فلا حدود جغرافيَّة سياسيَّة ولا قيود على حركة سكانها ؛ فحريَّة التنقُّل والسفر والإقامة الدائمة أو المؤقتة مكفولة لكل الناس في بلاد الإسلام لكل المسلمين ، وقد نتج عن ذلك انصهار الولايات الإسلاميَّة في دولة الخلافة لذا لا نستطيع القول إن هناك ولاية من الولايات الإسلاميَّة أنشأت حضارة خاصة اعتمدت فيها فقط على عواملها الطبيعيَّة والبشريَّة ، لذا دأب المؤرخون على الحديث عن الحضارة الإسلاميَّة بصفة عامَّة ، ولم يتحدَّثوا قط عن حضارة بغداد أو القاهرة أو خراسان أو مكة ... كحضارات مستقلَّة كالحضارة المصريَّة القديمة ، الحضارة السومريَّة ، الحضارة البابليَّة ، الحضارة الآشوريَّة ، الحضارة الفينيقيَّة ، الحضارة الأكديَّة ، الحضارة الساسانيَّة ... فأصحاب كل هذه الحضارات وغيرها صارت تجمعهم حضارة واحدة في الخلافة الإسلاميَّة ذلك النظام الديني السياسي الذي خضعت له البلاد الإسلاميَّة طائعة أو كارهة أكثر من ألف سنة ، وإن كانت هناك بعض الولايات لها وضع متميز في العلم والثقافة ومظاهر الحضارة كمصر ودمشق وبغداد وقرطبة ... لذا

(1) تنص نظرية الأواني المستطرقة على أننا إذا ما وضعنا سائلاً ما في مجموعة أوان يتصل بعضها ببعض فإن المستوى العلوي للسائل سيكون متساوياً في الأواني جميعها، على الرغم من اختلافها في الشكل والحجم .

نجد لزاماً علينا أن نتحدَّث ، بإيجار شديد ،عن الحضارة الإسلاميَّة بصفة عامَّة ثــمَّ نتحدَّث عن موقع مصر من تلك الحضارة .

الحضارة الإسلاميَّة

لقد استفاد المسلمون من مَدَنيَّة الحــضارات الــسابقة كمــا اســتفاد أصــحاب الحضارات الأخرى بالحضارة المصريَّة القديمة وغيرها ، فتاريخ العلم يشهد بــأن الذين صنعوا الحضارة الإسلاميَّة هم المسلمون من أصحاب الحــضارات الــسابقة يقول ابن خلدون : " إن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد النــاس عنهــا فصارت العلوم لذلك حضريَّة وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهــد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئــذ تبــع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحــضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارســي مــن بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللــسان العربــي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعــدهم وكــذا حملــة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربــي وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكــذا أكثــر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم " [1]

وهكذا قامت الحضارة الإسلاميَّة على أكتاف كل المسلمين فمسلمو العرب فتحوا البلاد ونشروا الدين ، ومسلمو الأمم الأخرى كمصر والشام والعراق والأنــدلس .. أقاموا صرح الحضارة على هدى الإسلام وتعاليمه ، وبما تعلَّموه من حضارة أممهم والأمم الأخرى من أصحاب الحضارات القديمة ، وكان مسلمو العرب من الــذكاء بحيث أبقوا على النظم الإداريَّة والسياسيَّة والماليَّة التي كانت مُتَّبَعة سابقاً في الــبلاد المفتوحة ذات الحضارة ، كما حافظوا على التقاليد الفنيَّة والصناعيَّة لدى أهلها .

وتعدُّ الحضارة الإسلاميَّة واحدة من أعظم الحضارات التي عرفها العالم " بسبب الدور الذي لعبته في تاريخ الإنسانية ، ففي بوتقــة الحــضارة الإســلاميَّة التقــت

---

[1] مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٤

حضارات عديدة متباعدة نجحت في اختيار العناصر الصالحة منها ثم مزجت بينها وأكملت نواحي النقص فيها . "(١)

ولاغرو أن استفادة الحضارة الإسلاميَّة من الحضارات السابقة فهي تعد نفسها الوريثة الشرعيَّة للحضارة المصريَّة القديمة أمِّ الحضارات كما أنها انتفعت بكل العلوم الأخرى التي تتفق وشريعة الإسلام ، فالعلوم العقليَّة كالطبيعة والرياضة والتكنولوجيا (٢) لا وطن لها ولا دين " العلوم العقليَّة كالطبيعة والرياضة والطب فأكثر ما تعتمد على معقوليَّة الحقائق وامتحانها إما عن طريق المنطق ، وإما عن طريق تجربة الحقائق وامتحانها عمليّاً ، فإذا ذكرت حقيقة فقلما يعنون بقائلها ، ولكنهم يعنون بوضع قواعد المنطق ، هل من قوانينه ما يؤيدها أو ما ينقضها ، وكذلك يمتحنونها عمليّاً ليرقبوا نتيجتها فيحكموا عليها بالخطأ أو الصواب " (٣)

هل درس المسلمون الحضارة المصريَّة القديمة ؟

والعجيب ألا يذكر المؤرِّخون تأثير الحضارة المصريَّة القديمة في الحضارة الإسلاميَّة الوسيطة وهي أقرب الحضارات إليها .

فهل كان المسلمون من السذاجة بحيث يهملون الحضارة المصريَّة الأم ، وقد فتحوا مصر ، ويتَّجهون إلى غيرها من حضارات وليدة وبعيدة ؟

ألم يحاول المسلمون قراءة الحضارة المصريَّة القديمة وقد أحاطت بهم من كل اتجاه ؟

ألم يستلفتهم – وهم الأذكياء اللمَّاحون – الهرم الأكبر المعجزة الخالدة ؟

ألم يجذبهم التاريخ المصري القديم وهم الذين أرَّخوا لكل الأمم ؟

هل عجزوا عن فكِّ رموز اللغة المصريَّة – لغة حضارتهم –حتى جاء الفرنسي شامبليون لكي يفكَّها لهم ويعلمهم تاريخهم ؟

---

(1) د. أحمد عبد الرازق أحمد " الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى " دار الفكر العربي ص ١١

(2) التكنولوجيا : التطبيق العملي للعلم ، وجميع ما اخترعه الإنسان من آلات تكونولوجيا سواء أكانت أدوات قديمة كالفأس والساقية والقدوم والمنشار .. أم كانت أدوات وأجهزة حديثة كالتلفون والراديو والكومبيوتر وسفن الفضاء ...

(3) أحمد أمين " ضحى الإسلام " ص ١٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

في عام ٢٠٠٤ م كشف عالم المصريات عكاشة الدالي (١) أن العرب هم أوّل من فكّوا رموز اللغة الهيروغليفيَّة قبل شامبوليون ، ولقد كشف د. عكاشة الدالي في الحوار الذي أجرته معه مجلة " آخر ساعة " عن صفحة مجهولة في كتاب الحضارة الإسلاميَّة الخالدة ؛ فأكدَّ بالأدلة القاطعة معرفة المسلمين اللغة المصريَّة القديمة واستفادتهم من الحضارة المصريَّة القديمة مباشرة فضلاً عما استفادوه مترجماً من الحضارات الأخرى .

في بداية اللقاء أكد الدكتور عكاشة الدالي أن علماء العرب لهم اجتهادات علميَّة كبيرة في مختلف مناحي الحياة العلميَّة سواء في الطب أو العلوم أو الهندسة والفلك وهو ما يعترف به العالم الغربي المستعد دائماً للاعتراف بفضل العرب عليهم وتقدمهم في هذا المجال.. كما لا ينسي الغرب للعرب فضلاً آخر هو الحفاظ علي التراث اليوناني ونقله للأوربيين ولولا جهود العرب في هذا المجال لفقدت إلي الأبد الآداب والعلوم والحضارة اليونانيَّة مع الأخذ في الاعتبار أن العرب لم يكونوا مجرد نقلة لهذه العلوم والمواد العلميَّة للكتابات اليونانيَّة بل تشرَّبوها وأضافوا إليها وطوَّروها .

والغرب إذا كان يعترف بفضل العرب في كل المجالات إلا أنه لا يذكر العرب إطلاقاً ولا المسلمين إذا تعلَّق الأمر بدراسة الحضارة والآثار المصريَّة القديمة بل ويروِّجون لأفكار غير حقيقيَّة هي أن الإسلام يحارب الحضارات ويعتبر أن كل ما سبقه جاهليَّة وأن الإسلام يمحو ما قبله ويكفر الدارسين والمهتمين بالحضارات

([1]) عكاشة الدالي عالم مصري استقر في لندن قبل ربع قرن حصل خلالها علي الدكتوراه عن رسالة بعنوان (مصر القديمة في المصادر الإسلاميَّة العربيَّة في العصور الوسطى) أثبت فيها أن العرب سبقوا شامبليون في فك رموز الكتابة الهيروغليفية بثمانمائة عام . وقالت لجنة التحكيم إن الرسالة تؤسس لعلم جديد ، وقررت الجامعة الإنجليزية طبع الرسالة ونشرها على نفقتها الخاصة .
ويعتبر د . عكاشة الدالي من أساتذة التاريخ المصري بمعهد بتري للآثار المصرية التابع لكليَّة (ucl) جامعة لندن وهى رابع أهم جامعة في العالم طبقاً للتصنيف الدولي .
ألقى د. عكاشة الدالي عدة محاضرات في مصر، وبريطانيا، وهولندا، والسويد، والولايات المتحدة؛ كما يقوم بتنظيم الرحلات العلمية إلى مصر. قام بترجمة كتاب موريس بيربراير (بناة مقابر الفراعنة) إلى العربية تحت عنوان (صناع الخلود)، كما ترجم كتاب جيفري سبنسر (مصر في فجر التاريخ: مشرق الحضارة في وادي النيل)؛ وصدر له عام ٢٠٠٤ عن جامعة يونيفرستى جامعة كوليدج(علم الآثار المصرية، الألفية الغائبة: مصر القديمة في المصادر العربية الوسطى) . راجع الحوار الذي أجراه نجاد فكري لموقع البدرشين اليوم مع د. عكاشة الدالي .

السابقة.. والحقيقة أن الإسلام بريء من هذه الاتهامات ونصوص القرآن صريحة في مجال رفع العلم والعلماء ونصوص القرآن الكريم تحضُّ المسلم علي السير في الأرض والنظر والتفكر في كيفية بدء الخلق وشجع العلم ورفع العلماء علي الذين لا يعلمون.. وأضاف أنه بالرغم من أن الإسلام يأمرنا بالسعي في الأرض ومعرفة كيف بدأ الخلق نجد هناك من يحاول خلق الصراع بين المسلمين والحضارة الفرعونيَّة بالرغم من عدم وجود صراع بين الحضارتين فنحن أبناء الحضارتين نعيش كمسلمين نعلم تماماً تعاليم ديننا ونزهو بحضارتنا القديمة التي امتدت إليها الحضارة الإسلاميَّة .

وأكَّد الدكتور عكاشة الدالي علي عدم وجود أي صراع بين كوني مسلماً متحمِّساً للإسلام ومهتمّاً بالحضارة المصريَّة القديمة أو تناقض بين اهتمامي باللغة العربيَّة أو اللغة المصريَّة القديمة 'الهيروغليفيَّة' وبنظرة فاحصة للتاريخ العربيِّ الإسلاميِّ في مصر نؤكد أن المسلمين في القرون الوسطي أخذوا علي عاتقهم القيام بدراسات علميَّة مكثَّفة لكل ما سبقهم من حضارات وعلي رأسها الحضارة المصريَّة القديمة كما كان لهم السبق في اكتشاف مغاليق الكتابات المصرية القديمة وعلي رأسها اللغة الهيروغليفية وذلك قبل شامبليون نفسه بمئات السنين وعندي الدلائل الكثيرة عن هذا الموضوع وقد سجلتها في رسالتي للدكتوراه والتي حصلت عليها وكانت بعنوان "مصر القديمة في الكتابات الإسلامية والعربية في العصور الوسطي .

واستطرد .. أما الدليل عن المبحث الأول وهو اهتمام العرب والمسلمين بالدراسات الأثرية فواضح حيث إنَّ المعابد المصريَّة القديمة أغلبها كان قائماً عند الفتح الإسلامي وحرص العرب الأقدمون علي زيارة الآثار المصريَّة .

الشريف أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الإدريسي المتوفى عام ١٢٥١م وهو فقيه ومحدِّث ورث العلم عن والده فقد قام بتأليف كتاب يعد من أهمِّ الكتب العلميَّة عن تاريخ الأهرام وعنوانه " أنوار علوم الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام " وهو عبارة عن رسالة من سبعة فصول ناقش فيها الطريق إلي الأهرام وسبب بناء الأهرام ومتى تم بناؤها والوظائف المرتبطة ببنائها والذين زاروا الأهرام وهي دراسة عظيمة جداً استخدم في مصادره لهذه الدراسة مالا يقل عن ١٣٠ كتاباً ٣٠

كتاباً منها علي الأقل له علاقة مباشرة بموضوع الدراسة.. الأهرام والشريف الإدريسي، له ٣ كتب مكرَّسة لتاريخ مصر القديمة منها كتاب " الجوهرة اليتيمة في تاريخ مصر القديمة " . وهذا بالطبع يؤكد أن الإسلام لم يقف أبداً أمام علوم الآثار والحضارة المصرية وإلا ما بقيت هذه الآثار وما كان لفقيه محدث متبحِّر في علوم الفقه والحديث الشريف أن يكرِّس حياته لدراسة وكتابة تاريخ مصر القديمة وهو ما ينفي شائعة أن المسلمين ليس لهم اهتمامات وأنهم يرفضون دراسة الحضارات القديمة بصفتها وثنية .

ويضيف د.عكاشة الدالي بأن العرب والمسلمين إذا كان لهم باع كبير في دراسة الآثار والحضارة المصريَّة فإنه يحسب لهم السبق في حل سر اللغة المصريَّة القديمة وخاصة الهيروغليفية وقد نجح في هذا المجال العديد من العلماء العرب ويأتي علي رأسهم العالم العربي أيوب بن سلمة من القرن التاسع الميلادي والذي يقال إنه اصطحب الخليفة العباسي المأمون حين زار مصر عام ٨١٦ م وقرأ له الكتابات المصرية الموجودة علي الآثار المصرية سواء في عين شمس أو الأهرام وجاء من بعد أيوب بن سلمة العالم الصوفي الكبير ذو النون المصري الذي كان يقرأ الكتابات الفرعونية التي علي جدران المعابد .

ثم جاء بعدهما العالم العراقي ابن وحشية الذي زار مصر في القرن العاشر الهجري وكان أحد علماء الكيمياء إلا أنه كتب رسالة علمية قيمة جداً وعلي درجة كبيرة من الأهمية تحدث فيها بالتفصيل عن الكتابة الهيروغليفية وتمكَّن لأول مرة أن يعطينا صفحات فيها ترجمة للحروف الهيروغليفية ولم يكتف بذلك بل توصل إلي ما يعرف في اللغة بالقيمة الصوتية للحروف وذكرها كما تمكَّن من إدراك أن بعض هذه الأشكال ما أسماه بالمخصصات وهي عبارة عن أشكال تضاف إلي الحروف لتوضح معني وتوضع بعد نهاية الكلمة وهذا اللفظ مخصصات يتم استخدامه في التعبير عن الكتابة الفرعونية حتى الآن وهذا إنجاز علمي غير مسبوق وهو أول عالم في التاريخ يصل إلي هذا الاكتشاف .

والشيء الجميل أن العالم الكبير ذكر في أحد كتبه أنه من أراد التوسع في موضوع الدراسات اللغويَّة فليرجع إلي كتاب حل الرموز للعالم الفقيه جابر بن

حيان الصوفي والمعروف بأنه مؤسس علم الكيمياء والجبر ولكن ما يهمني كباحث في اللغة أن أذكر أن جابر بن حيان زار مصر وتحدث عن معبد دندرة وزيارته للكريبت (السرداب) المشهور تحت المعبد عن تعليمه وتلقيه العلم في دندرة وهو ما ذكره ابن وحشية في كتابه المفقود ويؤكد فيه أن ابن حيان زار المعبد وتلقي العلم فيه .

والجدير بالذكر في هذا المجال أن العلماء العرب كانوا يحرصون علي دراسة اللغات الأخرى خاصة اللغة اليونانية والفارسية والتركية والقبطيَّة ورغم علمهم بأن العلوم اليونانيَّة ترجمت إلي العربية والسريانية إلا أنهم حرصوا علي معرفة اللغة اليونانيَّة وكثير من العلماء تخصصوا فيها مثل : الكندي ،والفارابي ،والبيروني الذي كان يجيد اليوناني ،والفارسي ،والتركي ،وسنسكريت وهي لغة الهند القديمة وله كتاب مشهور في وصف الهند .

ولوجود كثير من الكتابات المصرية القديمة كتبت في العصر المتأخر بالديموطيقي وأحياناً تجد نفس النص مترجماً بالقبطي أو اليوناني كما هو الحال في المسلة الناقصة التي كانت في معابد فِيلَة التي اقتطعها بانكس عالم الآثار وموجودة حالياً في دوبست بانجلترا وعليها نصوص لأربع لغات وكذلك تمثال داريوس أيضاً باللغات الأربعة ولدينا عشرات القطع عليها نصوص بأكثر من لغة كما هو الحال مع حجر رشيد ولأن العلماء العرب كانوا علي دراية باليونانية والقبطيَّة فقد استطاعوا أن يتعرفوا بسهولة علي اللغة المجهولة سواء أكانت ديموطيقية أم هيروغليفية .

سألت الدكتور عكاشة تري ما هو دور شامبليون وإنجازه العلمي المنسوب إليه؟ فأجابني بقوله إن الإنجاز العلميَّ لشامبليون إنجاز عظيم جداً ونحن مدينون بكل الفضل له فهو كثير وليس في اللغة فقط بل له دراسات أخري كثيرة ولكن بما أود ذكره أن شامبليون ليس أول من فك رموز اللغة المصرية القديمة ولكنه أول أوربي ينجح في ذلك وقد سبقه العرب وهو ما أكدتُه من خلال بعض المخطوطات التي عثرتُ عليها وحققتُها من خلال رسالتي العلمية التي تناولت من خلالها عدة مئات من المخطوطات ولكن يوجد هناك عدة آلاف من المخطوطات لم أدرسها ولم أعثر

عليها ولدي إحساس كبير أن الذي استطاع أن يقرأ الكتابة المصرية لابد أن يكون قد توصّل لحقيقة حروفها .

وأكد الدكتورعكاشة الدالي أن مصر كانت مصدر إشعاع فكريٍّ وعلميٍّ وأدبيٍّ لأوربا في العصور الوسطي وأن الدارسين العرب واليونانيين كانوا يترددون علي معابدها وأديرتها للنهل من علومها حتى هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسا حيث يقول: مصر بلد الأطباء أحكم بلاد العالم .

ونحن إن كنّا نشكر للدكتور عكاشة دراساته المصرية القديمة ، ودفاعه عن العلماء المسلمين الذين سعوا إلى فك رموز اللغة المصريَّة القديمة ، فكثير مما جاء في مقالاته وكتبه يحتاج إلى مزيد من الدراسة ، والبحث ؛ لأن دعواه بمعرفة المسلمين قبل شامبليون باللغة المصريَّة القديمة ، وقراءتهم الوثائق المصرية القديمة دعوى تحتاج إلى مزيد من الأدلة والبرهان ، ولكن لا يعني هذا أن ننكر على بعض العلماء العرب سعيهم لدراسة الحضارة المصريَّة القديمة ، وفك رموز لغتها.

ولم يكن للحركة العلميَّة – إبان مجد المسلمين – أن تزدهر إلا إذا كان وراءها تشجيع من الخلفاء ، وولاة الأمر فقد " فتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء وتنافس الخلفاء والحكام في رعاية العلم والعلماء وتسابقوا في الإنفاق في سخاء على العلم والعلماء ، وقبل الرشيد الجزية كتباً ، كما دفع المأمون وزن ما ترجم ذهباً ، وقبل إنشاء المدارس كانت قصور الخلفاء ، ومنازل العلماء ودور كتب المساجد بمثابة جامعات يحج إليها طلاب العلم من كل أرجاء الأرض ، وجاء وقت كان كل طالب علم يجد معهداً يتعلم فيه ، ومُعَلِّماً يقوم على تعليمه ، وراتباً يقوم بأوده ، وكان الجامع المنصور في بغداد ، والجامع الأموي في دمشق ، والجامع الأزهر في القاهرة ، وجامع القيروان بتونس ، وجامع القرويين في فاس ، وجامع قرطبة بالأندلس ، والجامع الكبير بصنعاء إلى جانب بيت الحكمة في بغداد، ودار العلم في الموصل ، ومكتبة ابن سوار بالبصرة ، كانت في رعاية الخلفاء الحكام من أمثال المأمون ونظام الملك ونور الدين محمود زنكي والحاكم بأمر الله وصلاح الدين الأيوبي ممن يوضعون على القمة من حيث رعاية العلم والعلماء .

وفي هذه البيئة العلميَّة الصالحة ، وفي هذا الجو العلمي الحافل ، نشأ عدد من العلماء يقرنون إلى أعاظم العلماء في كل عصر وأوان ، وكانت العربيَّة لغة العلم يكتب بها العلماء ليقرأ الناس في أي صقع من أصقاع الوطن العربي الإسلامي ، وازدهرت حركة الترجمة أيما ازدهار ، ثم أقبل العلماء على التأليف والكتابة في مختلف فروع المعرفة العلميَّة ، نقلوا علوما وابتكروا أخرى وأضافوا كثيرا من الآراء والنظريات التي نسبت إلى غيرهم " (١)

أسس بناء الحضارة الإسلامية

وبناء على مسبق يتبيَّن لنا الأسس التي بنيت عليها الحضارة الإسلاميَّة وهي كالتالي : أسباب تعود إلى الإسلام نفسه ، وأسباب تعود إلى المسلمين .

١- دين قويم عمل على توحيد العرب والمسلمين ، ونزع من نفوسهم أدران الشرك والعصبيَّة الجاهليَّة ، والسمات السلبيَّة .

٢- دعوة الإسلام إلى التفكير والإبداع وإعمال العقل ، ذم التقليد والتكرار واتباع الهوى .

٣- دعوة الإسلام للتفكر في الآفاق وفي النفس ،وهما مجال البحث العلمي الحديث.

٤- دعوة الإسلام لدراسة سير الأمم السالفة واستخلاص العبرة منها .

٥- ربط الإيمان بالعمل الصالح الذي يعني كل عمل يعود بالنفع على الإنسان أو غيره سواء أكان دينيّاً أو دنيويّاً .

٦- الانفتاح على الحضارات الأخرى وترجمة علومها ومعارفها وفنونها إلى العربيَّة .

٧- تشجيع الخلفاء والأمراء العلم والعلماء ، والإنفاق عليهما بسخاء .

٨- علو منزلة العلماء بين الناس بفضل تعاليم الدين الإسلامي الذي رفع درجتهم ، وجعلهم ورثة الأنبياء ، وجعل تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

٩- إنشاء المدارس والجامعات والمكتبات ودور العلم وجعلها جميعاً بالمجان لطلاب العلم والمعرفة .

١٠- الإنفاق على طلاب العلم وتأمين معاشهم ، وإتاحة حرية السفر لهم.

---

(١) د. عبد الحليم منتصر " أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية " الهيئة العانة للكتاب ص ١٨٤-١٨٥

١١- عدم الحجر على آراء العلماء ، وفتح باب الاجتهاد أمامهم واسعاً .
١٢- أدب الاختلاف ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وعدم الاحتكام للعنف في نشر العلم .

موقع مصر من الحضارة الإسلاميَّة

لمصر موقع متميز في الإسلام ، كما بيَّنا ، قبل أن يفتحها المسلمون وتأكَّد هـذا التميز بعد أن فتحها المسلمون وأسلم معظم أهلها ونترك الحديث لعالم إسلامي غير مصري ليحدثنا عن مكانة مصر في الإسلام ودورها في الحضارة الإسلاميَّة .

ألقى الشيخ محمد بن عبد الرحمن العريفي خطبة عدَّد فيها فضائل مـصر فـي مسجد البوادي بالسعودية بتاريخ ١٤ ديسمبر ٢٠١٢ وقد اعتمد في هـذه الخطبـة على مقالات صديقه العزيز الباحث السعودي د. محمد موسى الشريف التي نشرها في مجلة المجتمع تحت عنوان " فضائل مصر ومزايا أهلها " .

وفيما يلي عرض لأهم ما جاء في هذه الخطبة التي ذاعت في الآفـاق وتقبَّلهـا المصريون بقبول حسن وأكبروا صاحبها . بدأ العريفي خطبته بقوله : " شهادة فـي بلد الأنبياء، إنها شهادة في مسكن العلماء إنها رسالة إلى بلد العلم والجهـاد ، إننـي أتحدَّث اليوم عن أمِّ الدنيا، دعوني اليوم أتحدَّث عن مصر .. إنه من شـاهد الأرض وأقطارها والناس أنواعاً وأجناساً ، ولا رأى مصر ولا أهلها فمـا رأى الـدنيا ولا الناس ، هي أمُّ البلاد وهي أمُّ المجاهدين والعُبَّاد قهرت قاهرتهـا الأمـم ووصـلت بركاتها إلى العرب والعجم، هي بلاد كريمة التربة ، مؤنسة لـذوي الغربـة، فكـم لمصر وأهلها من فضائل، ومزايا، وكم لها من تاريخ في الإسلام وخفايـا منـذ أن وطئتها أقدام الأنبياء الطاهرين ومشت عليها أقدام المرسلين المكـرمين والـصحابة المجاهدين ..

إذا ذَكَرْتَ المصريين ذَكَرْتَ الكعبة والبيت الحرام فإن عمر رضـي الله تعـالى عنه، أرسل إلى عامله في مصر أن يصنع كسوة للكعبة المشرفة ، فصُنِعَتْ الكسوة من عهد عمر رضي الله عنه وظلَّت كسوة الكعبة تصنع هناك في مصر سـنة تلْـوَ سنة حتى مرَّ أكثر من ألف سنة وكسوة الكعبة تُرْسَل من مصر إلى مكة ولم يتوقف ذلك إلا قبل قرابة المائة سنة .

سأخطب عن كوكبة العصر، وكتيبة النصر وديوان القصر، سأتكلم عن أمِّ الحضارة وأمِّ المهارة ومنطلق الجدارة ، نعم سأخطب عن أرض العِزَّة وعن بلاد القطن ..

إنَّ مصر أيها المسلمون هي الأرض الطيبة التي قال الله تعالى عنها لما طهَّرها سبحانه من فرعون وقومه مدح الله تعالى مصر فقال : { كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ } [الدخان : ٢٥ -٢٧]

إن مصر فيها خزائن الأرض بشهادة ربنا جلَّ وعلا لما قال عن يوسف عليه السلام : { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف : ٥٥] ولم يذكر الله تعالى قصة نهر في القرآن إلا نهر النيل قال جلَّ وعلا : { أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } [القصص:٧] يعني في نيل مصر .

قال الكندي : " لا يُعلم بلد في أقطار الأرض اثني الله تعالى عليه في القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه الله بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر " ..

نعم إنني أتكلم عن مصر ، وصَّى النبي ﷺ الأمة كلها بمصر وبأهلها فقال بأبي هو وأمي : " إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا أَوْ قَالَ ذِمَّةً وَصِهْرًا " [رواه مسلم]

فهي وصيَّة للأمَّة كلها لكلِّ من تعامل مع المصريين أنْ يحسن إليهم وأنْ يكرمهم وأنْ يعرف قدرهم وأنْ يقف معهم عند حاجتهم وأنْ ينصرهم عندما يؤذون، الهدية إليهم من أفضل الهدايا ، وأذيتهم من أعظم الرزايا ،ولم يكتف نبينا ﷺ بمدح مصر وأهلها بل أمر بالإحسان حتى إلى أقباطها فقال ﷺ : " الله الله في قبط مصر فأنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله " [رواه الطبراني وصححه الألباني]

أيها المصريون : الإسلام فيكم وَجَدَ أعياده.. وكنتم يوم الفتح أجناده.. وكنتم عام الرَّمادة مدَاده .. وأحرقتم العدوان الثلاثي وأسياده.. وحطمتم خط بارليف وعتاده .. وكنتم يوم العبور أسياده وقواده .. يا أهل مصر.. يا أهلي ويا مشايخي ويا من أخذتُ عنهم الأسانيد في قراءة القرآن.. يا أصحابي إنَّ في أرضكم الوادي المقدس طوًى، وفيها الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام، وفيها الجبل الذي تجلَّى

الله سبحانه إليه فانْهَدَّ الجبل دكّاً ، وهي مَبْوَء الصدق الذي قال الله تعالى عنه : { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [يونس:٩٣] .

وفي أرضكم يجري نهر النيل المبارك الذي ينبع من أصله من الجنة ، قال عليه الصلاة والسلام : " سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ "
[رواه مسلم]

وفي أرض مصر الرَّبْوَة التي أَوَى إليها عيسى عليه السلام وأمّه قال جل وعلا: {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}
[المؤمنون : ٥٠]

وعلى أرض مصر ضرب موسى عليه السلام بعصاه فانفلق الحجر له ماءً وانشق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم .

نعم إنها مصر.. إذا أردت القرآن وتجويده فالتفت إلى مصر .. إذا أردت اللغة والفصاحة فإنك تنتهي إلى مصر .. إذا أردت الأخلاق الحسنة وحلاوة اللسان وحلاوة التلاوة والقرآن فالتفت لزاما إلى مصر .. إننا لا نتحدث عن بلد عادي، إننا نتحدث عن بلد عظيم القدر جليل الجناب أشار الله تعالى لِكِبر مصر، وأشار لعظَم مساحتها فقال جل وعلا : { فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ } [الشعراء : ٥٣]

قال عمر بن العاص رضي عنه : " ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة " يعني أنَّ كلَّ بلاد الإسلام في كفَّة، وإنَّ الذي يَلِي على مصر يكون أخذ الكفَّة الأخرى .

وقال سعيد بن هلال : " إنَّ مصر أمَّ البلاد وغَوْث العباد ، إنَّ مصر مُصَوَّرَة في كتب الأوائل وقد مدت إليها سائر المدن يدها تستطعمها وذلك لأن خيراتها كانت تفيض على تلك البلدان " .

قال الجاحظ : " إنَّ أهل مصر يستغنون بما فيها من خيرات عن كل بلد حتى لو ضُرِبَ بينها وبين بلاد الدنيا بسور ما ضرهم " وفي مصر رباط الإسكندرية الذي رابط فيه العلماء، والزُّهاد والعُبَّاد ،والمجاهدون والأبطال والشجعان .

قال أبو الزناد صاحب أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : " خير سواحلكم رباطاً الإسكندرية "

وعند المصريين جامع عمر بن العاص صاحب رسول الله ﷺ وهو أوّل جامع بُنِيَ في قارة إفريقيا وقد ضَبَطَ قبلته جماعة من الصحابة قُدِّرُوا بثمانين صحابيٍّ اجتمعوا عنده عند بنائه وقَدَّرُوا قبلته ، وعند المصريين جامع الأزهر الذي له الفضل لمشهور، العلم المنثور والتقدم الكاسر، والارتفاع القاهر، العلماء فيه متكاثرون، والعُبَّاد فيه قائمون والزُّوار إليه متوافدون .

مصر قادت الأمَّة الإسلاميَّة أكثر من ٢٦٥ سنة كانت الخلافة في مصر من بعد انقطاع الخلافة من بغداد في عام ٦٥٦ هـ إلى انتقال الخلافة إلى العثمانيين بتركيا في عام ٩٢٤ هـ بينهما أكثر من ٢٦٥ سنة كانت الخلافة في مصر وهي التي تقود بلاد الإسلام .

أمَّا أهل مصر فيكفيهم شرفٌ وفخرٌ أنَّ الله تعالى اختار منهم الأنبياء وجعل الله تعالى الأنبياء يسكنون بين ظهرانيهم، فهذا الخليل إبراهيم شيخ الموحدين، وجدُّ خاتم النبيين أتى مصر مع زوجه سارة وتزوج هاجر المصريَّة، وهذا يعقوب عليه السلام دخلها مع أبنائه الأنبياء فيها تُوُفُّوا ودُفِنُوا فيها ، وهذا يوسف عليه السلام سكن مصر وحكَم فيها وتُوُفِّي ودُفِنَ فيها، وهذان موسى وهارون -عليهما السلام وُلِدَا في مصر وعاشا فيها، وهذا يُوشَع بن نون وُلِد في مصر وعاش فيها ، وهذا الخَضِر ، وهذا أيوب وأشعيا وأرميا -عليهم أفضل الصلاة والسلام - كلهم دخل مصراً ومنهم من مات فيها .

وقد ضرب الله تعالى أبطال مصر أمثلة في كتابه فمن المصريين مؤمن آل فرعون البطل الثابت على الحق الذي قال الله جلَّ وعلا عنه : { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ .. } [غافر:٢٨] وهو مصري الرجل المؤمن الذي حذَّر موسى عليه السلام {وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } [القصص:٢٠]

ومن المصريين السَّحَرَة الذين ذكر الله تعالى قصتهم لمَّا آمنوا وصدَّقوا وكانوا في أوَّل النَّهار سَحَرَة فَجَرَة، وصاروا في آخر النَّهار شُهَدَاء بَرَرَة .. إنها بلاد الأبطال .

أمَّا نساء مصر فيكفي المصريات فَخْراً ، وعزّاً ، وشَرَفاً أنَّ سيِّد الأنبياءﷺ كانت جَدَّته هاجَر مصريَّة، وأمُّ ولده مارية مصريَّة، ويكفي المصريات فَخْراً أن ماء زَمْزَم تفجَّر إكراماً لامرأة مصريَّة ولابنها، ويكفي المصريات فَخْراً أنَّ هاجَر المصريَّة عندما سَعَتْ بين الصفا والمروة خلَّد الله تعالى فعلها، وأمر الأنبياء وسائر الأولياء والحُجَّاج والمُعْتَمِرين بأنْ يسعوا كسعيها .

ويكفي المصريات فَخْراً أنَّ أمَّ موسى عليه السلام مصريَّة، وأنَّ آسيا امرأة فرعون مصريَّة، التي قال الله عنها : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [التحريم:١١]

ويكفي المصريات فَخْراً أنَّ المرأة الصالحة التي كانت ماشطة لبنت فرعون كانت مصريَّة، وقد قال نبينا ﷺ : " لما كانت الليلةُ التي أسري بي فيها وجدتُ رائحةً طيبةً فقلتُ : ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل ؟ قال : هذه رائحة ماشطَة بنت فرعون وأولادها " [رواه الحاكم وصححه]

أيها الناس : إنَّ أهل مصر هم من ألْيَن الناس تعاملاً وأحسنهم أخلاقاً وأدباً ، قال تاج الدين الفزاري : " من أقام في مصر سنة واحدة وجد في أخلاقه رقَّة وحسناً "

وقال ابن ظهيرة عن أهل مصر : " حلاوة لسانهم وكثرة مودتهم للناس ومحبتهم للغرباء ولين كلامهم وحسن فهمهم للشريعة، مع حسن أصواتهم وطيب نغماتهم وشجاها، وطول أنفاسهم وأعلاها، فمُؤَذِّنوهم إليهم الغاية في الطيب ووعَّاظهم إليهم المُنْتَهى في الإجادة والتَّطْريب ، ونساءها أرَقُّ نساء الدنيا طبعاً ، وأحلاهن صورة ومَنْطقاً وأحسنهن شمائل، وأجملهن ذاتاً ، ومازلت اسمع قديماً عن الشافعي إنَّه قال : " من لم يتزوَّج بمصريَّة لم يَكْمُل إحْصانُه " .

أيها المسلمون : ولقد سكن مصر بعد فتحها جماعة من صحابة سيدي رسول الله ﷺ حتى لمَّا أُحْصِيَ عدد الصحابة الذين دخلوا مصر، أو سكنوا فيها، أو زاروها أو حكموها أو دُفِنُوا في ترابها فَتَعُدُّوا أكثر من ٣٥٠ صحابيٍّ .

كلهم قد أَتَوْا إلى مصر منهم من جاءها رسولاً إليها أو حاكماً لهـا، أو مجاهـداً فيها أو مُعلِّماً لأهلها منهم عمرو بن العاص، عبد الله بن أبي السرح، عبـد الله بـن عمر، وكلهم قد ولُوا مصر، منهم جابر بن عبد الله بن حرام ،ومـنهم الزبيـر بـن العوام وعبد الله بن الزبير، منهم سعد بن أبي وقاص ومنهم عبادة بن الصامت وعبد الله بن عباس وعمَّار بن ياسر، وأبو أيوب الأنصاري، وأبـو ذر الغِفَـاري، وأبـو الدرداء ، وأبو هريرة، عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي وهو آخـر صـحابي مات بمصر .

٣٥٠ صحابيّاً تخيَّرتُ أبرزهم لكن كلهم قد سكن مصر أو زارها، في مصر ولد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى .

أيها المسلمون : إذا تكلَّمنا عن مصر فإننا نتكلَّم عن بلاد العلماء الـذين وصـل أثرهم إلى كل الدنيا، منهم صحابة كِرَام وتابعون أعْلام ، منهم الليث بن سعد وهـو إمام المصريين ،الذي قال فيه الشافعي : " الليث بن سعد أعلم من مالـك " ومـنهم القارئ " وَرْش " ، إذا سمعت من يقول على قراءة " وَرْش " فاعلم إنَّه مصريٌّ .

اليوم أكثر أهل لإفريقيا وأهل المغرب يقرءون بقراءة هذا المـصريِّ ومـنهم ، ومنهم الشافعي الإمام وله أئمة كُثُر كلهم من طلابه وكلهم من المـصريين، ومـنهم سعيد بن كثير بن عفير وكان إمامًا عالماً ، قال عنه يحيى بن مَعين إمـام الجـرح والتعديل لما سؤل عن مصر قال : " رأيت في مـصر ثـلاث عجائـب : النيـل، والأهرام، وسعيد بن كثير بن عفير " وكان عالماً إماماً .

ومنهم عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المـشهورة ومـنهم الإمـام الطحاوي الذي ألَّف العقيدة الطحاوية وهي تدرس اليوم في كـل الـدنيا وتدرسـها الجامعات هنا في المملكة العربية السعودية ، ومنهم الإمام بن النحاس والقاضي عبد الوهاب المالكي، وشيخ الحنابلة الحافظ عبد الغني المقدسي، فإذا ذكـرت الحنابلـة وذكرت الفقه الحنبلي رجعت لِزاماً إلى عبد الغني المقدسي وكان قد خرج من الشام وسكن في مصر .

ومنهم الإمام البطل العز بن عبد السلام ومنهم ابن خَلَكَـان صـاحب وفِيَّـات الأَعْيان، ومنهم والقارئ العظيم الذي تحفظ منظومته طلاب وطالبات كُثُر في أنحاء

الدنيا الإمام الشاطبي ، ومن الذي لا يعرف الشاطبي وهو الذي ألَّف منظومة في ألف بيت في تلاوة القرآن وقراءته .

ومن المصريين مُؤَلِّف كتاب " الترغيب والترهيب " عبد العظيم المُنْذِرِيّ ، ومن المصريين الإمام القرَافِيّ وهو من أذكياء العالم، ومن أئمة الدنيا ومن أعيان المذهب المالكي ومن المصريين " ابن دَقِيق العِيْد " الذي لم تر الدنيا مثله أبداً ، ومنهم خليل المالكي إذا سمعت " بمختصر خليل" الذي يُعَوَّل عليه المالكية اليوم في دروسهم وجامعاتهم فاعلم إنَّه مصريٌّ ،ومنهم ابن هشام النحوي ومنهم الإمام الهيثمي صاحب كتاب " مجمع الزوائد " ومنهم ابن حَجَر العَسْقَلاني الذي ألَّف " فتح الباري في شرح صحيح البخاري " ومنهم محمود العيني الذي ألَّف " عمدة القاري في شرح صحيح البخاري " .

ومنهم المقريزي (شيخ المؤرخين المصريين وصاحب كتاب " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " المعروف باسم خطط المقريزي) والإمام صاحب كتاب " تفسير الجلالين " الإمام جلال الدين المحلي الذي أتمَّه بعد ذلك الإمام السيوطي وكلاهما مصري ومنهم الحافظ السيوطي ومنهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (القاضي والفقيه والمحدِّث والمفسِّر) ومنهم الشيخ أحمد الدردير وكان عبداً علماً صالحاً .

أما أبطال مصر ومجاهدوها فالكلام عنهم يَطُول كثير من القادة مع صلاح الدين الأيوبي كانوا من المصريين منهم القائد: حسام الدين لؤلؤ كان قائداً للأسطول البحري المصري، كان شوكة في حلق الفرنجة . قال عنه الإمام ابن كَثِير : كان البحر في البحر فَكَمْ من شجاع أسر، وكَمْ من مَرْكَب انكسر، وكَمْ من أسطول فرَّق شمله، وقارب غرق أهله مع كثرة الصدقات، قال : ولمَّا عمل إرناط الصليبي مراكب وأسطول، وجعلها في البحر الأحمر ليغزو مدينة -رسول الله صل الله عليه وسلم- انطلق إليه حسام الدين بأسطوله المصري ودكَّ أسطول الفرنجة حتى قتلهم عن آخرهم ومن أبطال مصر الذين سكنوها صلاح الدين الأيوبي الذي فتح بيت المقدس .

أيها الناس : بل أيتها الدنيا كلها لن ينسى التاريخ أبطال مصر الذين ردُّوا الحملة الصليبية التي قادها ملك فرنسا واستولى على دمياط فَكَمَن له أبطال مصر وأذاقوه سوء العذاب ، وأبادوا جيشه وكانوا عشرات الآلاف ثم اخذوا هذا القائد الفرنسي (لويس التاسع) وحبسوه في دار تسمى دار ابن لقمان في المنصورة ووضعوا القيود في يديه ورجليه، ووكلوا به حارس يسمى صبيح ثم فَدَى نفسه بأموال كثيرة عظيمة.

ومن المصريين الأبطال سلطان المماليك قطز، وهو الذي قاد معركة عين جالوت، ومن المصريين الأبطال ضباط وجنود شاركوا في حروب فلسطين وغيرها من مواضع الجهاد في سبيل الله .

وإذا ذَكَرْتَ مصر وتاريخها ذَكَرْتَ العُبَّاد والزُّهاد، ذكرت حَيْوَةَ ابن شريح (الإمام، الفقيه، شيخ الديار المصريَّة، الزاهد العابد ، الثقة في الحديث) ، وذكرت ابن محمد بن سهل وكان عابداً صالحاً آمراً بالمعروف داعياً إلى العقيدة الصحيحة (ومنهم ثَوْبان بن إبراهيم، "ذو النون"، أحد أعلام التصوُّف في القرن الثالث الهجري ومن المحدثين الفقهاء) .

وفي مصر أيها المسلمون من الأدباء والكتاب والشعراء أعداد لا يُستَهان بها ممن زاروها أو كانوا من أهلها ، فإذا قرأت الشعر الرائق لجميل بثينة وهو من أفصح الشعراء فاعلم إنَّه مصريٌّ ، وإذا قرأت الشعر الرائق لكُثيِّر عَزَّة ،واعلم إنَّه مصريٌّ وإذا قرأت للشاعر الشهير المتنبي أحمد بن الحسين فاعلم إنَّه أقام بمصر ٤ سنوات .

إنك تتكلم عن بلد عظيم لا يزال له إلى اليوم ما يُؤَمَّل له قيادة للأمة ومن السير على منهاج أجدادك من صحابة رسول الله ﷺ .

المصريون لا تكاد تجد من القُرَّاء في العالم من قُرَّاء القرآن وممن معهم إجازات وأسانيد إلى رسول الله ﷺ في حفظ القرآن، إلا وجدت للمصريين عليه يَداً . إمَّا أقْرَأهم مصريٌّ أو حَفَظ القرآن على مصريٍّ أو ضَبَطَ تجْويده مصريٌّ أو كتب له هذا السَّند مصريٌّ، وما تكاد تجد إلى اليوم حتى المشايخ والعلماء في الأرض

كلها إلا تجد منهم من قرأ على مصريٍّ، أو درسه في الجامعة مصريٌّ أو صلَّى به إماماً يوماً من الأيام مصري ، ولا ينكر فضل هؤلاء العلماء أحد ، مدرسوها وأساتذتها لهم فضل كبير على العرب وعلى المسلمين بل على جميع العالم في مساجدهم وجامعاتهم ومدارسهم، ولمصر من العلماء في الطب وفي الذرة وفي الهندسة وفي الدَّعوة وفي الأدب وفي غير ذلك أمر لا يُدْرك شئوه أبداً ."

ونشكر للشيخ العريفي وغيره حبهم مصر ومعرفتهم منزلتها واعترافهم بفضلها ولكن الحقيقة أن كثيراً من العلماء الذين ذكرهم العريفي في خطبته ليسوا مصريين خُلَّص فبعضهم قد وُلد في غير مصر ثمَّ رحل إليها وبقي فيها زمناً وربما رحل عنها بعد ذلك ودُفن في بلد آخر ، وهكذا كان العلماء المسلمون إبان الخلافة الإسلاميَّة كل بلاد المسلمين بلادهم ؛ يولد في بلد ويرحل في سبيل العلم إلى بلد آخر (أو بلاد) وينبغ في بلد ثالث وقد يموت في بلد رابع .

يقول احمد أمين : " كانت المملكة الإسلاميَّة في سهولة انتقال العلماء من مكان فيها إلى مكان ، كأنها رقعة شطرنج وهم بيادقها (عساكرها) ، فترى العالِم في المشرق فإذا هو في الأندلس ، وفيما هو في الأندلس إذا هو في العراق ، وفيما هو في العراق إذا هو بمصر والشام ؛ لا يعوقهم فقر ، ولا يفت في عزمهم صعوبة الطريق وأخطاره ، سواء عليهم الصحراء وحرها ، والبحار وأمواجها ، إذ تغلغل في نفوسهم اعتقاد أن طلب العلم جهاد ، فمن مات في سبيله مات شهيداً " (١)

علماء مصر زمن الحضارة الإسلاميَّة

ودونك ترجمة موجزة لأهم علماء مصر الذي ساهموا في الحضارة الإسلاميَّة بجهد وافر .

الليث بن سعد (٩٤ – ١٧٥ هـ)

ولد في قرية مصريَّة سنة : ٥هـ اسمها قلقشندة وتعلَّم على شيوخ مصر ، ثمَّ رحل إلى الحجاز وسمع من شيوخها ، ثم رحل إلى العراق وسمع علماءها ، وكان

---

(١) أحمد أمين " ضحى الإسلام " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٧٣ .

غنيّاً ثريّاً ، وناحيته العلميَّة كناحيته الماليَّة غزيرة فيَّاضة ، والمحدِّثون يثقون بحديثه كلَّ الثقة ، روت عنه كل الكتب الستة الصحيحة قال فيه أحمد بن حنبل : "ما في المصريين أثبت من الليث .. ما أصحَّ حديثه" ، وقدرته الفقهيَّة قدرة فائقة فهو يقرن بمالك ، بل يقول الشافعي : " الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به " وفي الواقع لو تعصَّب المصريون لمن نبغ منهم لاحتفظوا بمذهبه ، ولكانوا أتباعه ، وكان مما أعان على ذلك أنه لم يدوِّن مذهبه في كتب ، ولم يرزق بأصحاب كما كان أبو يوسف ومحمد لأبي حنيفة ، والبويطي والمزني والربيع للشافعي فضاع مذهبه . طلبه الخليفة المنصور للقضاء فأبى ، وكان له المنزلة الكبرى عند الأمراء يستشيرونه في مهام الأمور جاء في النجوم الزاهرة : " كان الليث كبير الديار المصريَّة ورئيسها ، وأمير من بها في عصره ، بحيث أن القاضي والنائب من تحت غمرته ومشورته ، وكان الشافعي يتأسَّف على فوات لُقيِّه " ويؤثر عنه أنه لقي هارون الرشيد فسأله الرشيد : " ما صلاح بلادكم قال يا أمير المؤمنين ، صلاح بلادنا إجراء النيل ، وصلاح أميرها ، ومِنْ رأس العين يأتي الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت العين " . وعلى الجملة فكان رجل مصر في علمه ونبله وفضله مات ١٧٥ هـ . (١)

الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤ هـ)

وُلِد بعسقلان وهي من قرى غزَّة ، ثمَّ سافرت به أمَّه إلى مكَّة حتى لا يضيع نسبه وينشأ على ما ينشأ عليه ضرباؤه من قبيلته قريش فقدم مكة وعنده قريباً من عشر سنوات ، ثمَّ أخذ في دراسة الفقه على يد شيوخه بمكة وبرع فيه ، وأراد أن يلتقي الإمام مالك فرحل إلى المدينة ولازمه حتى وفاته سنة ١٧٩ هـ ، ثم سافر إلى اليمن فارتفع شأنه بها ، وطار صيته فيها ، وبسبب مؤامرة دُبِّرت له استدعاه الرشيد إلى العراق وعفا عنه بعد محاورته ، وفي بغداد درس الشافعي الفقه الحنفي فجمع بين الإمامين الكبيرين : أبو حنيفة ، ومالك ، وحقد عليه بعض العلماء المقربين إلى الخليفة فخرج من بغداد إلى مكة وأقام بها مدَّة ينشر علمه على

(١) أحمد أمين " ضحى الإسلام " مرجع سابق ص ٨٨– ٩٠ بتصرف .

الحجَّاج القادمين إلى مكة ، وفي سنة ١٩٥ هـ عاد إلى بغداد ، وأقام بها سنتين يدرِّس فيها العلم ، وفي عام ١٩٨ هـ خرج إلى مصر إذ أنه سمع شيئاً عن مصر وأهلها فحبب إليه الذهاب إليها ؛ ليقوم بنشر علمه ، وكان الليث ابن سعد الفقيه المصري الكبير قد مات من قبل ، وفرح المصريون بالشافعي ورحَّبوا به ترحيباً عظيماً واحتفوا بقدومه وأنزلوه منزلاً كريماً لما عرفوا عنه من علم وفضل ، وقد تزوج الشافعي في مصر ولم يغادرها حتى توفيَّ فيها عام ٢٠٤ هـ ، واغتمَّ المصريون لموته غمّاً عظيماً ، وجزعوا لوفاته جزعاً شديداً . (١)

وعلى الجملة كانت في مصر حركة كبيرة دينيَّة ، تدرِّس القرآن والحديث والفقه والقراءات ، وتعنى بالقَصَص ، وما يتضمن من ترغيب وترهيب ، وكان مركزها مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ، ونرى أن بعض المصريين الصميمين ممن دخلوا في الإسلام تأثَّر بهذه الحركة تأثُّراً كبيراً فنرى عثمان بن سعيد المصري المعرف بورْش من أصل قبطي اشتهر بإحدى القراءات المنسوبة إليه ، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصريَّة في زمانه ، وكان ماهراً في العربيَّة ؛ مات بمصر سنة ١٩٧ هـ ونرى بعده ذا النون المصريّ الأخميمي النوبي الأصل وهو أحد رءوس الصوفيَّة الصوفيَّة ومؤسسها في الديار المصريَّة توفي سنة ٢٤٥ وقد قارب التسعين . (٢)

وكان من الأعلام في التاريخ والنحو والأنساب أبو محمد عبد الملك بن هشام ، صاحب السيرة المنسوبة إليه توفي سنة ٢١٣ هـ ، وإلى جانب الحركة العلميَّة الدينيَّة كانت هناك ناحية علميَّة هي امتداد مدرسة الإسكندريَّة قبل الفتح هي حركة لاهوتيَّة طبيَّة فلسفيَّة معاً ، وقد بقيت هذه الحركة مدة العهد الأموي واستمرت إلى العباسي ، وقد ازدهرت هذه الحركة في العهد الطولوني أيضاً .

ثقافة دينيَّة مختلفة الأنواع ، وثقافة لسانيَّة من نثر وشعر ، وثقافة فلسفيَّة لاهوتيَّة طبيَّة مما خلفته الإسكندريَّة كل ذلك كان في مصر في ذلك العصر . (٣)

---

(1) انظر د. علي جمعة " موسوعة أعلام الفكر الإسلامي " المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .
(2) أحمد أمين " ضحى الإسلام " مرجع سابق ص ٩٢ بتصرف .
(3) نفسه ص ٩٥، ٩٦ بتصرف .

ولم يقتصر علماء مصر على علوم الدين واللغة والعلوم الإنسانيَّة بل كان هناك علماء مصريون بارزون في مجال العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة والفَلَكيَّة ارتبطت أسماؤهم بمصر حيث نبغوا في ربوعها وحققوا شهرته فيها ومن هؤلاء العلماء .

الحسن بن الهيثم (٣٥٤- ٤٣٠ هـ)

أعظم علماء مصر والعالم في الفيزياء والفلك والرياضيات في العصور الوسطى وأحد ثلاثة يزدهي بهم تاريخ العلم العربي ، وهم ابن سينا ، وابن الهيثم ، والبيروني ، بلغت الحضارة العلميَّة الإسلاميَّة في عهدهم الذروة ، وذلك من منتصف القرن العاشر إلى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ولعلّه بين علماء الطبيعة الإسلاميين أرفعهم شاناً وأعلاهم كعباً وأرسخهم قدماً ، وربما عُدَّ في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور . (١)

هذا العالم العظيم ولد حوالي ٣٥٤ هـ وعاش أول أمره بها ثمَّ انتقل إلى القاهرة بدعوة من الحاكم بأمر الله ، وفيها عاش أغلب عمره وألَّف معظم كتبه وتوفي بها عام ٤٣٠هـ .

ابن النفيس (٦٠٧- ٦٨٧هـ)

مكتشف الدورة الدمويَّة الصغرى وأحد رواد علم وظائف الأعضاء ولد في بلدة (القرَش) التي تقع بقرب دمشق عام ٦٠٧هـ درس ابن النفيس الطب في دمشق وكانت وقتئذ قد ورثت شهرة بغداد ، وأنشأ فيها نور الدين محمود بن زنكي مكتبة ضخمة ، والبيمارستان النووي ، ودعا إليها أمهر العلماء ثمَّ انتقل ابن النفيس إلى القاهرة حوالي عام ٦٣٣هـ وتدَّرج في مراكز الأطباء حتى أصبح رئيس أطباء مصر قاطبة ولم تقتصر شهرته على الطب فقط، بل كان يعد من كبار علماء عصره في اللغة والفلسفة والفقه والحديث. وتوفي القاهرة عام ٦٨٧هـ . (٢)

ابن يونس المصري (القرن الرابع الهجري)

ولد بقرية صدفا بصعيد مصر حوالي عام ٣٤١هـ وهو سليل بيت اشتهر بالعلم فقد كان جدُّه من كبار العلماء وأبوه من كبار الحفاظ والمحدِّثين ، أما هو فقد عني بالفَلَك ودراسة سير الكواكب وعُدَّ من كبار الفلكيين العرب . أسس مرصد ابن

---

(1) د. عبد الحليم منتصر " معجم أعلام الفكر الإنساني " ج ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٣١٣ .
(2) انظر بول غليونجي " معجم أعلام الفكر الإنساني " ج ١ مرجع سابق ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

يونس الذي كان جزءاً من دار الحكمة في القاهرة التي شيدها الفاطميون لينافسوا بها دار الحكمة في بغداد ، وكان مزوداً بكثير من آلات الرصد . وضع ابن يونس جداول فلكيَّة جديدة هي أدق ما عرف في عصره ووضع " الزج الحاكمي الكبير " وأدَّت أرصاده إلى تحسين قيم الثوابت الفلكيَّة وحلّ قدراً من مسائل الفلك الكروي بالإسقاط والتعامد . (١)

سبق ابن يونس جاليليو في اختراع بندول الساعة وهو الذي رصد كسوف الشمس وخسوف القمر عام ٩٧٨م في القاهرة، وأثبت فيها تزايد حركة القمر، وحسب ميل دائرة البروج فجاءت أدق ما عرف قبل إدخال الآلات الفلكيَّة الحديثة. وتقديرا لجهوده الفلكية، تم إطلاق اسمه على إحدى مناطق السطح غير المرئي من القمر.(٢)

كمال الدين الدميري (٧٢٤ – ٨٠٨ هـ)

ولد بصعيد مصر في دميرة عام ٧٢٤ هـ درس بالأزهر الشريف حتى أصبح من أبرز علماء جماعة الأزهر القديمة الذين أرسوا علم الحياة ، وقد أولع بدراسة المخلوقات التي ابتدعها الخالق عز وجل فتوفر على دراسة الحياة الحيوانيَّة وتوفي عام ٨٠٨ هـ من أهم مؤلفاته كتاب " حياة الحيوان الكبرى " وقد تحدَّث فيه عن النواحي العلميَّة المتعلقة بسلوك الحيوانات وتوالدها وخصالها ، ويعتبر كتاب الدميري هذا مزيجاً من العلم والأدب والتاريخ والفلسفة والحديث والقصص وقد تُرْجِم إلى عديد من اللغات ويمكن اعتبار الكتاب بمثابة أوّل مرجع علمي شامل في علم الحيوان ظهر في القرن الرابع عشر الميلادي في وقت لم تكن فيه علوم الحياة قد ظهرت بعد . (٣)

ابن خلدون (٧٣٢- ٨٠٨ هـ)

هو المفكِّر العبقري الذي كان فيلسوفاً اجتماعيّاً مبتكراً ، ولذا يُعدُّ بحق مؤسس علم فلسفة التاريخ ورائد علم الاجتماع ولد في تونس وتلقَّى العلم على يد علماء

---

(1) انظر د. عبد اللطيف محمد العبد " موسوعة أعلام الفكر الإسلامي " مرجع سابق ص ٣٣٣
(2) موقع المعرفة على الإنترنت .
(3) انظر د. عبد الفتاح غنيمة " موسوعة أعلام الفكر الإسلامي " مرجع سابق ص ٨٦٤

المغرب والأندلس ثمَّ رحل إلى غرناطة بالأندلس ثم عاد إلى المغرب ليظلَّ بها أربع سنوات ثمَّ رجع إلى الأندلس ثمَّ إلى المغرب ثانية حيث أخذ يدوِّن مؤلفه الكبير " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " ومقدمته الشهيرة ثمَّ سافر بعد ذلك إلى مصر عام ٧٨٤ هـ وعمل بالتدريس بالجامع الأزهر ثمَّ تولى القضاء وظلَّ بمصر يعمل بالقضاء حوالي ثلاثة وعشرين عاماً حتى وافاه أجله عام ٨٠٨ هـ وأثناء وجوده في مصر قام بعدة تعديلات في مؤلفه الكبير . (١)

وهناك علماء مصريون كثيرون غير هؤلاء أثروا الحضارة الإسلاميَّة وساهموا بجهد وافر في إنشائها ورفعتها .

والشيء الملفت للنظر هو أنَّ تحضُّر مصر وتقدُّمها ونبوغ علمائها ومفكِّريها كان مرهوناً باستقلالها سياسيًّا ، لا علميّاً لا وثقافيًّا ، عن الخلافة العباسيَّة وقيام دولة مستقلَّة فيها (طولونيَّة ، إخشيديَّة ، فاطميَّة ، أيوبيَّة ، مملوكيَّة) حيث لا يراعي حكامها إلا مصلحتها ولا ينفقون خيرها إلا على أهلها ، كما يلاحظ أنَّ سقوط مصر في يد العثمانيين كان بمثابة شهادة وفاة لحضارتها ونهضتها ، وفور استقلالها عن الدولة العثمانية في أوائل القرن التاسع عشر أخذت طريقها إلى النهضة والتقدم ثانية .

وفي الصفحات التالية نستعرض في إيجاز شديد تاريخ مصر من الفتح الإسلامي إلى الغزو العثماني ؛ لبيان عوامل ازدهارها وأسباب تخلُّفها في تلك الفترة .

مصر من الفتح الإسلامي إلى الغزو العثماني

بعد الفتح العربي الإسلامي أصبحت مصر جزءاً مهماً من الخلافة الإسلامية ، كما قلنا ، يجري عليها ما يجري على غيرها من أحكام وظروف ، وظلَّ الولاة يتوافدون على مصر من قِبَل الخليفة بعد موت عمر بن الخطاب في عهد عثمان بن عفان من (٢٣ – ٣٥ هـ) ثم في عهد علي بن أبي طالب من (٣٥ – ٤٠ هـ)

---

(١) انظر د. عبد الحليم منتصر " معجم أعلام الفكر الإنساني " ج ١ مرجع سابق ص ٣١٣ ، وانظر د. عبد اللطيف محمد العبد " موسوعة أعلام الفكر الإسلامي " ص ٣٢٩ ، ٣٣٠.

والذي بوفاته انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، وانتقل الحكم إلى معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأمويَّة ، ويستمر الحكم في الأسرة الأمويَّة من (٤١ - ١٣٢هـ) حتى تغلَّب عليهم العباسيون وآل إلى الدولة العباسيَّة (١٣٢ - ٦٥٦ هـ) جميع الممالك الإسلاميَّة .

وتعتبر فترة الحكم الأموي فترة استقرار ونظام ورخاء بالنسبة لمصر ، وكان أغلب ولاة مصر يتَّسمون بالعدل والقدرة وحسن الخلق ، أما الفترة الأولى من الحكم العباسي وحتى مجيء ابن طولون إلى مصر فهي فترة تتَّسم بالقلق السياسي والفوضى الإدارية ، وارتفاع مبالغ الجبايات وتعددها ، وجَأر فيها المصريون بالشكوى من الظلم ، ومن تُعَرُّض أمور البلاد كلها للفساد . (١)

أما فترة أحمد بن طولون وأسرته (٢٥٤- ٢٩٢هـ) فكانت مصر فيها ولاية شبه مستقلَّة تأسست فيها نظم حكم جديدة مشابهة لتلك الموجودة في دولة الخلافة العباسيَّة ذاتها ، فبدأ ابن طولون بتخفيف المغالاة التي كانت تُتَّبع في جباية الخراج ، وكفَّ عماله عن الجبايات الظالمة ، كما عمل على حماية الفلاح وبثَّ الطمأنينة في نفسه ؛ بالإصلاحات الإداريَّة ، والقضاء على الفتن والاضطرابات والفوضى ، وبتوفير موارد المياه له ، كما استخدم النصارى وعمل على كسب وُدِّهم أيضاً حيث كانوا من الأقليات الكبرى التي لها وزنها ، فاستخدم منهم أهل الفن والصناعة في بناء جامعه وتخطيط " القطائع " وصناعة السفن وغيرها ، وكذلك فعل مع اليهود .

وانعكس أثر هذه الإصلاحات الاقتصاديَّة والإداريَّة الحاسمة في مضاعفة الإنتاج في ميادين الزراعة والصناعة وازدهار التجارة ، فظهرت معالم الثراء على البلاد وأهلها . (٢)

وبعد انهيار الدولة الطولونيَّة عام ٢٩٢ هـ عادت تبعيَّة مصر المباشرة للخلافة العباسيَّة وكانت الدولة العباسيَّة تمر بعواصف من الاضطرابات وعدم الاستقرار .

---

(1) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٩٦ ، ٩٧ .
(2) نفسه ص ١٠٨ .

وبعد الدرس الذي تلقَّته الدولة العباسيَّة من أحمد بن طولون، فقد حاول الخلفاء السيطرة على مصر من خلال كثرة تعيين الولاة وتغييرهم وباقتطاع جزء من اختصاصاتهم ومنحه إلى عمال الخراج ، ففي خلال ثلاثين عاماً من سقوط الدولة الطولونيَّة إلى تولية الإخشيد توالى على مصر أحد عشر والياً، بل وصل الأمر إلى تغيير أربع ولاة في سنة واحدة كما وصلت المنافسة بين الولاة وعمال الخراج إلى حد أن بعض عمال الخراج كان يتحكم في تغيير الوالي عن طريق الخليفة العباسي في بغداد .

فتحت تجربة ابن طولون ودولته العيون على ما يمكن أن تقدِّمه مصر لمن يتولاها من إمكانيات فهي قاعدة عسكريَّة اقتصاديَّة كبرى، من تمكَّن منها استطاع أن يحصل على مال وفير متصل، وبهذا يقيم لنفسه مُلكاً يدوم بدوامه ويورثه لذريته لذلك حرص الأذكياء من ولاة مصر في هذه الفترة أن يثبِّتوا أقدامهم فيها .(١)

وبعد ثلاثين عاماً من سقوط الدولة الطولونيَّة نجح محمد بن طفج الإخشيد في أن يؤسِّس في مصر دولة شبه مستقلة دامت ٣٤ عاماً . من عام (٣٢٣ – ٣٥٧هـ) .

حاول الإخشيديون أثناء حكمهم مصر أن يتشبَّهوا بالطولونيين من جميع النواحي خاصة في مراسم البلاد وفي المواكب الرسميَّة وفي منظمات الدولة ، وإن كانوا قد حقَّقوا نجاحاً في استقرار مصر ورخائها فإنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه الطولونيون .

وبعد وفاة كافور الأخشيد اضطربت أحوال الدولة الإخشيديَّة ، وانتهز المعز لدين الله الفاطمي ذلك الاضطراب وعدم الاستقرار الموجود في مصر بالإضافة إلى ضعف الدولة العباسيَّة في بغداد لانشغالها بصد غارات البيزنطيين الذين توغلوا في البلاد ، فبعث جيشاً لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلِّي في سنة ٣٥٨ هـ ، وتمكَّن بهذا الجيش من أقامة الدولة الفاطمية في مصر . (٢)

والملاحظ أن مصر كانت في معظم الفترة الواقعة بين (١٣٢- ٣٥٨هـ) شبه مستقلَّة ولا تتبع الخلافة العباسيَّة إلا تبعيَّة شكليَّة فقط ، تتمثل في ذكر اسم

---

(1) موقع الهيئة العامة للاستعلامات " الدولة الإخشيدية " .
(2) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ١١٣ .

الخليفة قبل الوالي عند الدعاء على منابر المساجد أو ضرب العملة باسمه ، ثمَّ أخيراً إرسال مبلغ من المال إلى عاصمة الخلافة سنوياً ؛ مما أعطى مصر تَفَرُّداً عن سائر الولايات العباسيَّة الأخرى ؛ فقد كانت هي الأغنى والأكثر ثراء ، وكان إقليمها هو الأوسع مساحة ، وكان جيشها هو الأقوى ، وكانت أرضها هي الأخصب والأكثر عطاء . (١)

وبانتهاء الدولة الإخشيديَّة على يد الفاطميين خرجت مصر من التبعيَّة للدولة العباسيَّة لتصبح عاصمة للخلافة الفاطميَّة التي أقامت إمبراطوريَّة واسعة قويَّة ذات حضارة مزدهرة ضمَّت إلى جانب مصر المغرب والشام والحجاز واليمن وصقليَّة.

دام حكم الفاطميين لمصر نحو قرنين من الزمان من (٣٥٨- ٥٦٧ هـ) ويمكن أن نطلق على القرن الأول من هذين القرنين عهد الاستقرار ؛ ففيه تمَّ تنظيم الشئون الداخليَّة ، ونشر الأمن ، ووضع النظم الإداريَّة الجديدة ، والعناية بالجيش ، وتنمية الزراعة ، والنهوض بالتجارة وتشجيع الآداب والعلوم والفنون .

أما القرن الثاني من حكم الأسرة الفاطميَّة في مصر فقد بدأت تظهر فيه الخلافات وبدأ الضعف والانحلال يدب في أجهزة الدولة . (٢)

بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد (أخر خلفاء الدولة الفاطميَّة) اجتمعت عناصر السيطرة على الحكم في يد صلاح الدين بن نجم الدين أيوب الذي كان وزيراً للعاضد وزادت قوته وتأكدت بوصول العائلة الأيوبيَّة كلها من الشام إلى مصر وتم إحلالهم في جميع الوظائف الكبرى بالبلاد محل كبار الموظفين الفاطميين، وقام صلاح الدين بدور كبير في إقامة الدولة الأيوبيَّة في مصر بالتدريج ، فبدأ بإضعاف الخليفة العاضد وإبعاد قواده عن القاهرة وأحلَّ محلهم رجالاً تابعين له ، وبدأ كذلك بتعميم حركة إنشاء المدارس ، وأوَّل مدرسة أنشأها هي المدرسة الناصرية في الفسطاط .

تولى المُلْك من الأسرة الأيوبيَّة في مصر ثمانية ملوك استمرَّت مدة حكمهم حوالي ثمانين عاماً من سنة (٥٦٧ – ٦٤٨ هـ) كان للدولة الأيوبيَّة أثار مهمة

---

(1) نفسه ص ١١٩ .
(2) نفسه ص ١٢٦ .

من الناحية السياسيَّة تتمثل في القضاء على الدولة الفاطميَّة الشيعيَّة بمصر ، والعودة بها إلى نفوذ الدولة العباسيَّة السنيَّة ، ومن الناحية العسكريَّة تتمثل آثارها في استعادة قوَّة البلاد ، والوقوف في مواجهة الجيوش الصليبيَّة ، أما من الناحية الدينيَّة فكان الأثر المهم هو العودة إلى المذهب السُّني بدلاً من المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي كان الفاطميون يحاولون نشره في مصر .

في أواخر أيام الدولة الأيوبيَّة سيطر المماليك على معظم الوظائف الكبرى في مصر، ومع مقتل " توران شاه" آخر سلاطين الدولة الأيوبيَّة تزوجت شجرة الدر (زوجة الملك الصالح أيوب) من أحد زعماء المماليك وهو "أيبك التركمانى" وقامت بذلك السلطنة المملوكيَّة في مصر الإسلاميَّة وأمضى السلطان "أيبك" معظم سنوات حكمه (١٢٥٠ – ١٢٥٧ م) في دفع غارات ملوك الشام من الأيوبيين على مصر ، واتَّسعت السلطنة المملوكيَّة البحريَّة حتى شملت مصر والشام ، وتولى عرشها بعد " أيبك التركمانى " وابنه فئة من السلاطين يعرفون بالمماليك البحريين أشهرهم السلطان " قطز" (١٢٥٩ – ١٢٦٠ م) والذي ألحق بالمغول أوَّل هزيمة في تاريخهم في عين جالوت ، والسلطان الظاهر " بيبرس" (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) وهو الذي نجح في إقامة الخلافة العباسيَّة في القاهرة وجعل لمصر وسلاطينها من المماليك سيادة دينيَّة على أنحاء العالم الإسلامي .

وقد انتهى العصر المملوكي بدخول العثمانيين مصر بعد انتصارهم على السلطان " طومان باى" في موقعة الريدانية ١٥١٧م .

تمكَّن المماليك من حكم مصر مدة تزيد على القرنين ونصف بانفرادهم بالسلطة على أسرتين : المماليك البحرية من (٦٥٠ – ٧٨٤ هـ) ، ثم المماليك البرجية الشركسيَّة من (٧٨٤– ٩٢٣ هـ) ، كما كان للمماليك شأن عظيم في تقوية جيوش الأمَّة العربيَّة الإسلاميَّة في مختلف العصور بل إنَّ دورهم في مصر لم ينته بزوال دولتهم وسلطانهم المطلق مع الغزو العثماني سنة (١٥١٧م / ٩٢٣هـ) ؛ فقد تمكَّنوا من التغلغل في السلطة حتى كان النفوذ الشكلي للوالي العثماني ، أما النفوذ الفعلي فكان لبقايا طبقة المماليك لمدة ثلاثة قرون أخرى ، حتى أن محمد عليّ الذي

تولَّى حكم مصر في أوائل القرن التاسع عشر لم يجد أمامه سبيلاً للتخلص منهم نهائيّاً إلا بالقضاء عليهم قضاء مبرماً في مذبحة القلعة الشهيرة سنة ١٨١١ م .

والمماليك في عصر الحكم المملوكي قبل الغزو العثماني كان اهتمامهم الأكبر ، كقادة عسكريين ، هو تأمين حدود البلاد والسيطرة على زمام الأمور في الداخل وهم وإن لم يكونوا أصحاب حضارة أو راغبين في إقامتها إلا أن مصر كانت في عهدهم دولة مستقلَّة مستقرَّة خاصة كبار سلاطينها مثل : عز الدين أيبك الذي صدَّ مع أقطاي حملة لويس التاسع ، وسيف الدين قطز قاهر التتار ، والظاهر بيبرس الذي استأصل فلول التتار ، والناصر محمد بن قلاوون، والأشرف صلاح الدين خليل الذي استعاد عكا وآخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام .

فبرغم صراع الأمراء المماليك على الحكم وقتل بعضهم بعضاً من سبيله إلا أنهم قضوا على أخطر عدوين على مصر والعرب وهم التتار والصليبيين فيحمد لهم هذا كما يحمد لهم بعض الإصلاحات التي قاموا بها من إنشاء المدارس والمساجد والمكتبات وتشييد العمائر والجسور والقناطر وحفر الترع والخلجان ... والذي ساعدهم على هذه الإصلاحات رغم كثرة حروبهم أن مصر في عهدهم لم تكن ولاية مملوكيَّة خيرها لغيرها من الولايات الأخرى إنما كانت مصر هي مقر حكمهم فحرص ملوكهم الكبار على إصلاحها وتعميرها .

التتار والعثمانيون الأصل والطغيان وإظهار الإسلام

كان العثمانيون شراً مستطيراً على العرب عامة وعلى مصر خاصة ففي عهدهم أصبحت مصر ولاية من الولايات التسع والعشرين العثمانيَّة ؛ فنهبت ثرواتها لإثراء بلاط الخلافة وعاصمتها ، ورُحِّل علماؤها البارزون وعمالها المهرة فهدمت الحضارة المصريَّة لصالح النهضة العثمانيَّة ؛ فصار العثمانيون بذلك أشرَّ من التتار؛ فإذا كان التتار طغاة متوحشين ، أعداءً للحضارة ، نهَّابين لثروات البلاد فإن العثمانيين زادوا فوق ذلك أنهم حرموا البلاد من علمائها وعمالها وضربوا على مصر عزلة قاتلة ؛ فلَبِثَ المصريون في كهفهم ثلاثمائة سنين إلا اثنتي عشرة سنة (١٥١٧ – ١٨٠٥ م) ثمَّ بُعِثُوا ليعلموا كم جنى عليهم العثمانيون .

كنت أشبِّه العثمانيين دائماً بالتتار في الخراب والدمار حتى اكتشفت أنهم من جنس التتار فعلاً ، وسيرتهم هي نفس سيرة التتار حتى في اعتناقهم الإسلام ، والثابت تاريخيّاً أنّ القسم الأعظم من التّتار اعتنق الإسلام على المذهب السنى منذ دخول حفيد جنكيزخان "بركه خان " الإسلام ، وهذا لم يمنع ابن تيميَّة من الإفتاء بوجوب قتال التتار المسلمين بل إنه خرج بنفسه لقتالهم عندما جاءوا ليحتلُّوا بلاد الشام .

يقول ابن كثير في ذلك : " وقد تكلَّم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو، فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه .

فقال الشيخ تقي الدين بن تيمية: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد . "(١)

وبنو عثمان قبائل تتريَّة طرقت في القرن الأول للميلاد بلاد تركستان الواقعة شرقي بحر قزوين واستوطنتها ، ثمَّ اعتنقت الإسلام في منتصف القرن الرابع الهجري .

وفي القرن السابع الهجري وصل جنكيزخان بجيوشه إلى تلك البلاد فرحَّل بعض سكانها إلى أسيا تحت قيادة زعيمهم " أرطغل بن سليمان " وأقطعهم السلطان السلجوقي أرضاً واسعة يقيمون فيها ، وخلف " عثمان بن أرطغل " أباه فاستقلّ بالحكم وأسَّس السلطنة العثمانيَّة وتبعه في الحكم ابنه " أورخان بن عثمان " الذي ألَّف جيشاً من ستة آلاف من الأسرى أطلق عليهم " الإنكشاريَّة " أي الفرقة الجديدة، وعبر بهم مضيق " الدردنيل " ووسَّع مملكة أسلافه ، وقد سار من تلاه من

---

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١٤ ص ٢٧ ، ٢٨ بتصرف

السلاطين ، وهم مراد الأوّل ، ومحمد الأوّل ، ومراد الثاني على نهج من سبقهم في التوسعات حتى بلغت " الإنكشاريَّة " مائة ألف مقاتل ، وعندما آلت السلطنة إلى محمد الثاني تمكّن من الانتصار على جيوش الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الشرقيَّة في "بيزنطة" وفتح " القسطنطينيَّة " سنة ١٤٥٣م وأصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة لهم.(١)

الدولة العثمانيّة وانهيار الحضارة الإسلاميّة

لقد أصيبت الشعوب الإسلاميَّة في مراحل الدولة العثمانيَّة الأخيرة بالتبلد وفقد الإحساس بالذات، وضعف الإيمان ، فاستبدلت الخرافات والبدع بالإيمان الصحيح ، واستبدلت الدَّجَل والبحث في المُغَيَّبات بالعلم والبحث في أسرار الكون .

لقد انحرف سلاطين الدولة العثمانيَّة المتأخرين عن شرع الله فلم يقوموا بعبادة الله على الوجه الصحيح الذي يطهِّر القلب ويزكي النفس ويسمو بالأخلاق ، ولم يأخذوا في أسباب العلم النافع الذي يُعَمِّر الأرض ويصلحها ، ولم يسيروا في البلاد التي حكموها سير الخلفاء الراشدين بل ساروا فيها سير الحجاج بن يوسف الثقفي فكثرت الاعتداءات الداخليَّة بين الناس وتعرَّضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تَعَطُّل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن ، وبلايا تولَّدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والإنجليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصَّلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السلاطين والأمَّة العثمانيَّة، وحرموا التمكين ، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب ، وضاعت الديار ، وتسلط الكفار .

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلَّط الله عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلَّط الله الغرب على المسلمين في الدولة العثمانيَّة .

إن الذنوب التي يهلك الله بها الدولة ، ويعذب بها الأمم قسمان :

---

(١) د. ناصر الأنصاري " المجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ١٨٥ ، ١٨٦ بتصرُّف .

١- معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به .

٢- كفر النعم بالبَطَر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغني والثروة فهذا كله من الكفر بنعمة الله ، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه أواخر سلاطين الدولة العثمانية وأمراؤهم[1]

ولمَّا دبَّ في الدولة العثمانيَّة الوَهَن حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ، ومحاولة تأسيس أُسَر محلية كالمماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، ومحمد عليّ في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، القراmaليون في ليبيا . [2]

وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانيَّة ساهم في إضعافها ثم سقوطها .

الدولة العثمانيَّة والمشروع الصهيوني

لقد ساعد ضعف الدولة العثمانيَّة وتراجعها المستمر على إتمام المشروع الصهيوني ؛ فلقد اضطرت الدولة العثمانيَّة إلى تقديم التنازلات القانونيَّة الكثيرة مثل: الامتيازات الأجنبيَّة، ويمكن القول بأن نظام الامتيازات الأجنبيَّة هو المسئول عن تحويل يهود الدولة العثمانيَّة والعالم الإسلامي ككل إلى جماعات وظيفيَّة تابعة لدول أجنبيَّة تدين لها بالولاء وتتمتَّع بحمايتها. وحاولت الدولة العثمانيَّة التخلص من هذا النظام أو تقليل أضراره دون جدوى إذ أن نظام الامتيازات كان جزءاً لا يتجزأ من الهجمة الإمبرياليَّة الغربيَّة على الشرق، وساعد على إحكام قبضة الإمبرياليَّة على دول العالم العربي وعلى تحويل بنيتها السياسيَّة والاقتصاديَّة إلى بنية تابعة .

---

(١) انظر: دولة الموحدين لعلي محمد الصلابي، ص١٧٠.
(٢) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغي، ص٩٤.

وقد أُلغي نظام الامتيازات في مصـــر بمقتضـــى معاهـــدة مونتريـــه عـــام ١٩٣٧م التـــي نظَّمـــت فترة انتقالية (بقيت خلالها المحاكم المختلطة) حتـــى عـــام ١٩٤٩م مما نتج عنه اتساع الثغرة التي سمحت للفائض البشري اليهودي بالتسلل .

ومن المعروف أن الدولة العثمانيَّة كانت ترحب بهجرة اليهود إليها منـــذ عمليـــة طردهم من أسبانيا. ومع تَزايُد تَدخُّل الدول الأجنبيَّة، وتَزايُد الأطماع في فلـــسطين، بدأت الدولة العثمانية تحاول أن تمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين (مع استمرار فتح الأبواب خارجها). بل فتحت باب الهجرة أمام اليهـــود إلـــى فلـــسطين شـــريطة أن يتجنسوا بالجنسية العثمانية، أي شريطة أن يتحولوا من عنصر اســـتيطاني (قتـــالي) غريب إلى عنصر وطني محلي (وكانت هذه هي الـــسياسة الرســـميَّة حتـــى عـــام ١٩١٤). وكانت الدول الكبرى تتدخل لحمل الدولة العثمانية على الـــسماح لليهـــود بالاستيطان في فلسطين وملكية الأراضي فيها، فاضطرت الدولـــة العثمانيـــة إلـــى إصدار قرار عام ١٨٦٧م بمنح الأجانب حق ابتياع الممتلكات في فلـــسطين، وهـــو القرار الذي اســـتفادت منـــه الجمعيـــات التبـــشـــيرية المـــسـيحية والجماعـــات الاســـتيطانية المسيحية مثل فرسان الهيكل، كما استفاد منه المستوطنون الـــصهاينة في مراحل لاحقة. وحينما حاولت الدولة العثمانية منع اليهود من امتلاك العقـــارات في فلسطين (عام ١٨٨٤م)، ادَّعت الدول العظمى أن هذا خرق لنظام الامتيـــازات. وكان قناصل الدول الغربية يستخدمون نفوذهم لتسهيل عملية استيطان اليهود. وحين صدرت قرارات تحرِّم هجرة اليهود (غير العثمانيين) عام ١٨٨٨ ثم عـــامي ١٨٩١ و١٨٩٨، عبَّرت الدول الغربية عن استيائها وساعدت المهاجرين على التحايل على هذه القوانين .

وحينما اتُخذ قرار تقسيم أسلاب الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولـــى ، اتخذ أيضاً القرار بتأييد تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين ومن ثم صدر وعـــد بلفور. وانتهت المسألة الشرقية مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وســـقوط الدولـــة العثمانية . (١)

---

(1) د. عبد الوهاب المسيري " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " م٤ ج٢ الباب الثالـــث الدولـــة العثمانية .

كانت هذه نُبْذة يسيرة عن الدولة العثمانيَّة التي قضت على الحضارة الإسلاميَّة وساهمت في إنجاح الحركة الصهيونيَّة الشيطان الأكبر الذي يحارب العرب والمسلمين .

أسباب ضعف الحضارة الإسلامية

لقد تضافرت عدة عوامل أدَّت إلى تراجع الحضارة الإسلاميَّة وضعفها وعلى رأس تلك العوامل الاحتلال العثماني . فمنذ أن وطئت قدم العثمانيين أرض العروبة والإسلام وحل بها الخراب والدمار " حيث صارت البلاد مسرحاً للفوضى والاضطراب نتيجة تنازع الهيئات التي تقتسم الحكم فيها ، وسارت الدولة على سياستها التقليدية في تغيير الباشوات خوفاً من جنوحهم إلى الاستقلال تحقيقاً لأطماعهم الخاصة ، كما اتسم الحكم العثماني في بلاد المشرق العربي بالرجعيَّة وشمل البلاد التأخر إذ كانت فكرة الحكم عند العثمانيين بسيطة اقتصرت وظيفة الدولة في نظرهم على الدفاع عن البلاد وحفظ الأمن وجمع الضرائب والفصل في الخصومات أمَّا ما عدا ذلك من خدمات عامة فقد أهملت ولم تعتبرها الدولة من بين مسئولياتها وتركتها للأفراد والجماعات ، ولذلك ساءت أحوال الشعوب العربية اقتصادياً . " (١)

وإن المرء ليأخذه العجب من كتَّاب المقررات المدرسيَّة المصريَّة الذين يطلقون على الاحتلال العثماني الأجنبي اسم " الفتح العثماني " !! كما يطلقون على الحكم العسكري العثماني المستبد " الخلافة العثمانية " فكأن البلاد العربيَّة كانت بلاد كفر وإلحاد فجاء العثمانيون ففتحوها ونشروا فيها الإسلام !!

وهم بذلك يسوُّون بين الفتوحات التي قام بها صحابة رسول الله لتحرير الشعوب من قبضة الاحتلال الأجنبي الغاشم (الفرس والروم) وبين هذا الاحتلال الأجنبي العثماني الغاشم ، كما يسوُّون بين الأخلاق الإسلاميَّة النبيلة التي اتصف بها صحابة رسول الله وبين الأخلاق اللا إنسانية التي اتصفت بها الطغمة العسكريَّة العثمانيَّة

---

(1) د. محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣١ .

المستبدة كما يدنسون اسم الخلافة الإسلاميَّة الراشدة بإطلاقه على هذا الحكم العسكري المستبد .

يقول د. زكي البحيري [١] : " إن معنى قبول فكرة أن مجيء العثمانيين كان فتحاً ونصراً عظيماً في عقول تلاميذنا يعني ترسيخ فكرة قبول كلٍّ غازٍ يُوَلَّى علينا، والرضوخ لكل حاكم يحكمنا مهما كانت أهدافه ، أمَّا أن يعرف تلاميذ وطلاب مدارسنا أن مجيء العثمانيين كان غزواً فإنه يعني أن وجودهم لم يكن الوضع الأمثل الذي كان يجب أن تقبله شعوبنا العربيَّة ومنها مصر ؛ فالعثمانيون حكموا شعوبنا لصالح سلاطينهم ورعيَّتهم الخاصَّة وعوَّقوا بذلك مسيرة شعوبنا . " [٢]

والمثير للدهشة أن مبررات هؤلاء الكتَّاب الذين يدافعون عن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وحجَّتهم الرئيسة هي أن العثمانيين هم الذين حموا بلاد الإسلام من الدول الأوربيَّة بلاد الكفرة !! ونسي هؤلاء – أو تناسوا – أن الحروب الصليبية هي التي أيقظت روح الجهاد الإسلامي ووحَّدت الأمَّة بعد فترة من التمزُّق ونسي هؤلاء أن هذه الحروب هي التي ولَّدت أعظم من حكم وعدل وقاد وانتصر – بعد الخلفاء الراشدين – نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي .

فلو أن الغزو العثماني العسكري الغاشم لم يحطَّ على الأمَّة العربيَّة الإسلاميَّة كقطع الليل المظلم لاستمرَّت النهضة الإسلاميَّة ولما غرقت البلاد الإسلاميَّة في بحر الظلمات العثماني .

لقد استغلَّ العثمانيون اسم الخلافة الإسلاميَّة التي يعلمون مدى تأثيرها في نفوس المسلمين الذين كانت العاطفة الدينيَّة لديهم أقوى من أي رابطة أخرى ليقضوا بها على حضارة الإسلام ويحبطوا بها كل حركة تحرر " كان الحكم العثماني سيئاً فهو حكم أجنبي جامد متخلف أسدل على الشرق العربي أستاراً من التخلف والتأخر في

---

(١) أستاذ مساعد بقسم المواد الاجتماعيَّة بكلية التربية جامعة المنصورة .
(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " دار نهضة الشرق ص ٤٧ .

كافة المجالات ونواحي النشاط ، ومع ذلك فإن العرب في المنطقة لم يحاولوا الانتفاض عليه ويرجع ذلك إلى الرابطة الدينيَّة التي ربطت العرب بالعثمانيين فإن بلاد المسلمين كانت تعتبر دولة واحدة يطلق عليها (دار الإسلام) ولما كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية حملت لواء الحرب أول ما حملت على الدول الأوربيَّة (بلاد الكفر) ، وكانت العاطفة الدينية في تلك القرون من أقوى الروابط ، وكانت العاطفتان الدينيَّة والوطنيَّة ممتزجتين بحيث كان من الصعب الفصل بينهما ، ولم يكن للعروبة كيان منفصل عن الإسلام وإلى ما بعد قيام الحرب العالميَّة الأولى وفي مطلع العقد الثاني من القرن العشرين ظل هذا الرباط يشد جماهير كثيفة من العرب إلى الخلافة الإسلاميَّة " (١)

والذي يؤكد ارتباط العثمانيين الزائف بالخلافة الإسلامية واستغلالهم المقيت للدين الإسلامي تراجع الإسلام في عهدهم كدين حضاري نهضوي يجعل عمارة الأرض وإصلاحها عبادة ، والرقي بحياة الناس ورفع الظلم عنه بشتى أنواعه : (السياسي ، الاجتماعي ، الاقتصادي) في مقدمة أولويات خليفة المسلمين ، " وَإِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ " لحساب المفهوم السلبي للإسلام كدين يدعو إلى الزهد في الدنيا والتفرُّغ للعبادة والخضوع للحاكم وإن جلد ظهرك وأخذ مالك !!

لقد حفلت مصر تحت حكم العثمانيين بفرق المتصوِّفة وطوائفهم ، واكتظت الشوارع بمواكبهم والبيوت بولائمهم ، والمساجد والزوايا باجتماعاتهم ، وانتشر شيوخهم في الريف والحضر ، وتغلغل نفوذهم في المدن ، وقد انتهت بعض الدراسات الجامعيَّة إلى نتيجة مؤدَّاها أن الحياة المصريَّة خلال هذا العصر خاصة كانت تدين لتعاليم الصوفيَّة أكثر مما تدين لقواعد الدين أو حتى لأثر الحضارة الأوربيَّة التي هبَّت عليها بعد ذلك . (٢)

---

(1) د . محمود صالح منسي " حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي " ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " مرجع سابق ص ٥٣ .

لقد كان العثمانيون السبب ليس فقط في تخلف الأمَّة الإسلاميَّة وإفساد الدين الإسلامي كدين حضاري تقدمي بل كانوا السبب أيضاً في وقوع بلاد الإسلام في براثن الاحتلال الأجنبي : الإنجليزي والفرنسي والإيطالي لسنوات طويلة مما صيِّر الأمَّة الإسلاميَّة إلى هذا الوضع المهين في الوقت الراهن

أليس التخلف الحضاري والعزلة اللذان فرضهما العثمانيون على البلاد كانا هما السبب في الاحتلال الفرنسي ؟

والحقيقة أن البلاد العربية كانت مهد الإسلام وصانعة حضارته ، وإن كان في العثمانيين خيرٌ لكانوا تعاونوا مع إخوانهم المسلمين في إقالة عثرتهم ومواصلة نهضتهم إما الذي حدث فكان استعماراً بغيضاً استعبد الشعوب واستغل مواردها وجردها من عوامل نهضتها فأول شيء عمله السلطان سليم الأول أبطل النقود العربية القديمة " وضرب نقوداً جديدة تحمل اسمه ولكنها كانت أخف من القديمة بمقدار الثلث فخسر الناس في ذلك ثلث أموالهم " (١)

أهذا هو الفتح العثماني ؟! أهذه هي الخلافة الإسلاميَّة ؟!

إن السلطان سليم الأول اعتبر نفسه مالكاً لأراضي مصر ، وبذلك كان صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها ، وأنَّ المماليك بسطوا أيديهم على الكثير من أراضي مصر فصارت ملكاً لهم ، وباقي الأراضي موزَّع بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف ، وأن الفلاحين كانوا يملكون النزر اليسير من الأراضي ينتفعون بها ويتوارثونها ، لكن ملكيتهم لها متعلِّقة على دفع الضرائب والإتاوات ، وهذه الضرائب والإتاوات تدفع للملتزمين ، والملتزمون هم الملاك الذين يأخذون القرى " التزاماً " أي يتصرَّفون فيها تصرُّف المالك في ملكه على أن يلتزموا للحكومة بدفع نصيبها من الضرائب . (٢)

ولم يكتف العثمانيون وعمالهم من المماليك بالاستيلاء على أرض مصر وجني ثرواتها من دون المصريين بل أصدر سليم الأوَّل أمره " بترحيل طوائف من أعيان

---

(١) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " الجزء الثالث مرجع سابق ص ٨١٦
(٢) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " ط٥ دار المعارف ص ٥٢٧ .

الناس ، ما بين قضاة ونواب قضاة وأكابر من المسلمين والمسيحيين واليهود والتجار والورَّاقين إلى اسطنبول ليقيموا بها إقامة جبريَّة ، ليكونوا أشبه بالرهائن من ناحية ، لكي يألفوا الحياة العثمانية في عاصمة الدولة " (١)

أ ليس ذلك سبياً كالسبي البابلي والآشوري والروماني ، ولم يكتف سليم الأوَّل بذلك بل عمل على تجريد المسلمين من خيرة علمائها وعمَّالها " وكان من بين الذي قضى السلطان سليم بتسفيرهم إلى اسطنبول عدد كبير من أرباب الصنائع المهندسين والبناءين والنجارين والمرخمين والمبلطين ، وطائفة من الفعلة ، وقيل في تعليل هذه الهجرة الإجبارية لأصحاب الحرف ، أن السلطان سليم أراد أن ينشئوا له مدرسة في اسطنبول مثل مدرسة الغوري . وأيّاً كان الغرض من جمعهم وتسفيرهم ، فقد ترتب على هذه العملية تعطيل خمسين صناعة على ما يقول ابن إياس " (٢)

وكانت مصر خلال هذا العهد ترزح تحت الحكم العثماني المباشر ، وكان السلطان هو الذي ينصب الباشا ، أما خزانة مصر فكانت مرتبطة بخزانة السلطنة مباشرة . وبالجملة إن مصر لم تكن تتمتع تحت حكم العثمانيين بالاستقرار من جراء ما كان ينشب فيها بين القوى الثلاثة من فتن . كما أن الباشاوات أنفسهم لم يكونوا مطمئني النفوس على بقائهم في الحكم لأن أمر تثبيتهم أو نقلهم كان يرجع إلى قدر ما لكل من سند بين حاشية السلطان . فكان هَمُّ الباشا جمع المال لرشوة هذه الحاشية للبقاء في الحكم مدة أطول مما أضرَّ بمصالح البلاد والعباد إضراراً بالغاً . وقد بلغ عدد هؤلاء الباشاوات ٧٦ والياً في حقبة قدرها ١٩٠ سنة فقط .

هذا وكانت ولاية مصر خلال هذا العهد عوناً للسلطان عند كل أزمة ، وكثيراً ما سيَّرت مصر الحملات إلى الأقطار التي تثور على السلطنة كاليمن وسوريا والحركة المهدية في السودان ، والحركة الوهابيَّة في المملكة العربيَّة السعوديَّة ؛ وكثيراً ما جنِّدت النجدات مساعدة للدولة على أعدائها ، كما فعلت في حرب فارس.

---

(1) نفسه ص ٨١٦
(2) نفسه ص ٨١٧

لقد قام الاحتلال العثماني بأعمال دمَّرت فيها الحضارة الإسلاميَّة ، وقضت على الأمَّة العربيَّة منها :

١- إغلاق المدارس فانشر الجهل .

٢- ترحيل العلماء البارزين ، والصناع المهرة ، والفنانين المبدعين من بلادهم العربية ، وتوطينهم في استانبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية لكي يبنوا لهم فيها حضارة للدولة العثمانيَّة التي كانت تتسم بالقوة وتفتقر إلى الحضارة والعلم .

٣- استنزاف الموارد الاقتصاديَّة ، وحرمان بلاد المسلمين منها .

٤- العمل على القضاء على اللغة العربيَّة لغة الإسلام وحضارته ، لحساب اللغة التركيَّة ، وهو ما عرف بالتتريك : أي جعل اللغة التركيَّة لغة رسميَّة للبلاد الإسلاميَّة الخاضعة للحكم العثماني.

٥- إطلاق أيدي ولاتهم في البلاد العربية في أموال الناس يتخوضون فيها بالسلب والنهب . مما تترتب على ذلك انتشار الفوضى والفزع وعدم الاستقرار .

١٠- استبداد الحكام ، واستخدام العنف في مقاومة معارضيهم .

لهذه الأسباب وغيرها غرق العرب والمسلمون في مستنقع التخلف والجهل ، وأصبحوا صيداً سهلاً لبلاد أوربا الإمبرياليَّة الناهضة .

***

الفصل الخامس
النهضة المصرية الحديثة

عصر النهضة الأوربي

كان النصف الأخير من القرن التاسع عشر في القارَّة الأوربيَّة امتداداً لعصر الكشوف العلميَّة والنزعة الفكريَّة إلى التمرُّد على القديم ، وكان حقبة عامرة بأسباب القلق والاندفاع إلى المجهول حيثما وجد الطريق ، تمخضت عن أخطر مذاهب الفكر والأخلاق وأدعاها إلى الثورة والانقلاب ، ولا نطيل في شرح المذاهب الخاصَّة بتلك الحقبة فإننا نطوي الكفَّ على خمسة فلا نستكثر بعدها أن يحدث في بقية القرن التاسع عشر كل ما حدث فيها من عظائم الأمور وعوامل الحركة والانقلاب .

ففي القرن التاسع عشر شاع مذهب دارون عن التطور وتنازع البقاء ، ومذهب كارل ماركس عن رأس المال ، ومذهب نيتشه عن " السوبر مان " أو الإنسان الأعلى ، ومذهب المدرسة الطبيعيَّة عن حرية الفن والأدب ، ومذهب الديمقراطيَّة عن الحكومة الشعبيَّة ، وكل مذهب منها لا يستقرُّ حيث ظهر على حال من الأحوال الجمود والرضى عن التسليم والاستسلام .

وصلت فتوح العلم إلى السوق والطريق ، بل وصلت إلى الجهلاء الأمِّيين أهول وأضخم من صورتها التي وصلت بها إلى العلماء الدارسين .

سمعوا عن الجراموفون " الحاكي " فقالوا إن الإنسان ينطق الجماد .

وسمعوا عن البرق بأسلاكه وغير أسلاكه فجدَّد لهم خبر المردة والمُسخَّرين في نقل الأسرار بين السماء والأرض ، وبين المشرقين والمغربين .

وسمعوا صوت الهاتف بعد أن شهدوا الصورة التي يرسمها لهم شعاع الشمس فكادوا يلحقونها بالخوارق والمعجزات .

وكبرت في أيامهم مخترعات الأمس ، فأصبحت الطابعة والباخرة والبندقيَّة أشباحاً تطاول المردة بعد أن كانت في الحقبة الغابرة ألاعيب أطفال .

كذلك كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ميدان الفكر والصناعة .

أما ميدان العمل والحياة العامة فمجمل ما يقال فيه تلخص في كلمتين تترددان بلسان المقال أو الحال وهما : الحريَّة وحقُّ الأمَّة .

ففي البلاد الإنجليزيَّة كان سلطان الملوك يتقيَّد ويتبعه سلطان السادة النبلاء إلى القيد ، ولم تهدأ فيها المطالبة بالمشاركة في الحكومة بين أصحاب الأموال وجماعات العمال ، فكان العقد الثاني بعد منتصف القرن فاتحة العهد الذي برز فيه الأحرار وتمهَّدت فيه السبيل لطوائف العمال .

وفي البلاد الفرنسيَّة قضت حرب السبعين على الإمبراطوريَّة وتحوَّلت بالحكم إلى النظام الجمهوري على أساس المبادئ التي أعلنتها الثورة وتجاوبت معها أصداء العالم وهي مبادئ الحريَّة والإخاء والمساواة .

وفي البلاد الألمانيَّة ظفرت القوميَّة بالوحدة التي كانت تنشدها ، واجتمعت الولايات التي كانت موطن المغيرين من الشمال والجنوب ، ومن الشرق والغرب ، فأصبحت قوَّة القارَّة التي يخشاها المغيرون .

وفي البلاد الإيطاليَّة تجمَّعت تلك المتفرقات من قضايا العصر كله ، ومنها قضيَّة الاستقلال ، وقضيَّة الوحدة ، وقضيَّة السلطة الدينيَّة ، وقضيَّة الحكومة الشعبيَّة ، فكانت – وهي تضطرب بجميع هذه القضايا – كأنها الحلقة الوسطى بين الشرق والغرب ، وبين القارَّة الغالبة والقارَّات التي تشكو الغلبة عليها . فثارت إيطاليا قبل منتصف القرن تستردُّ الحريَّة من الدول الثلاث التي تنازعتها وهي النمسا ، وفرنسا، وأسبانيا .

وعند منتصف القرن ثارت على أمرائها الذين تنازعوها وفرَّقوا أرضها وأبناءها وجمعت شمالها في ظلِّ رايتها الموحَّدة على أرضها . وفصلت الوطنيَّة الإيطاليَّة في قضيَّة السلطة الدينيَّة كما فصلت في قضيَّة الملك والدولة ، ثم فصلت في قضيَّة الحكم فأقامتها على قواعد النيابة الشعبيَّة ، ولم ينقض القرن حتى دخلت في سباق الاستعمار طامعة في أسلاب غيرها .

هذه نبذة مختصرة عن حركات الغرب في النصف الأخير من القرن التاسع عشر أوجزنا فيها القول عن أمم أربع من أممها التي سرت أخبارها وأخبار قضاياها إلى الشرق العربي وبلاد الدولة العثمانيَّة ، وهي على تفاوتها في كل ظاهرة من ظواهر السياسة والثقافة تشترك في خصلة واحدة لا تغيب عن واحدة منها في خبر من أخبارها وهي المطالبة بالحقوق والحريات .

فإذا كانت قارَّة الاستعمار قد حصرت خطَّتها حيال الشرق في سياسة واحدة تريدها وتتعمَّدها لتقهره وتتغلَّب عليه ، فهناك سياسة أخرى لم تردها ولم تتعمَّدها تلقاها الشرق منها فهبَّ لمقاومتها وتيقظ لمطامعها ونزل معها في ميدانها الذي استفزَّته له باختيارها وبغير اختيارها .

في القارَّة الأوربيَّة حكم التاريخ حكمه بعد النزاع القائم بين السلطة الدينيَّة والسلطة السياسيَّة ، فوهم العلماء في مطلع الثقافة الحديثة أن هذه الثقافة حرب بين العلم والدين ، فلما انتقلت ثقافة الغرب إلى الشرق تلقَّاها المسيحي في المدارس من رجال دينه ، وتلقاها المسلم مستجيباً لنداء " العودة إلى الدين " على كل لسان يُسْمع منه الوعظ ويقبل منه الإرشاد ، فقد وقر في العقول أن المسلمين هجروا دينهم فحاق بهم بلاء الذل والضياع .

واتفق الجامدون منهم على القديم والمتطلِّعون إلى الجديد على هذا النداء ، فلا خلاف بينهم إلا على الرجوع كيف يكون ؟

وربما قال الجامدون قبل المجدِّدين إن الأوربيين عملوا بالإسلام فأعدُّوا العدَّة ونظروا إلى حكمة الله في خلقه فتقدَّموا وتأخَّر المسلمون .

وتباعدت الشُقَّة بين المحافظين أنصار النص والحرف ، وبين المجدِّدين أنصار المعنى والقياس فاختلفوا على الكثير ، ولكنهم مع اختلافهم هذا لم يتَّفقوا على شيء كما اتَّفقوا على حرب الخرافة وعقائد الجهل والشعوذة الدخيلة على الدين ، فحاربها المحافظون الحرفيون لأنها بدع مستعارة من بقايا الوثنيَّة ، وحاربها المجدِّدون لأنها سخافات وأباطيل ينقضها العلم الحديث ، وتراجعت هذه السخافات والأباطيل إلى غيابة الجهل لا تجترئ على التقدم إلى صفوف القيادة المسموعة بين أنصار القديم ولا بين أنصار الجديد .

كانت هذه الظاهرة النادرة إحدى حسنات التوفيق في صدر الدعوة إلى الإصلاح، وتلك ولا ريب إحدى العوامل القويَّة التي جعلت دعوة الإصلاح مهمَّة روحيَّة وثقافيَّة ، وجعلت رجلاً كالسيد جمال الدين الأفغاني داعياً مسموعاً حيثما حلَّ في قطر من أقطار الشرق بين المسلمين العرب والفرس والهنود ، وبين العرب المسلمين وغير المسلمين . (١)

بداية عصر النهضة المصريَّة

إن الشرق لم يكن سريع الخطى في انتقاله من دور الجمود إلى دور الخلاص ، لأنه قضى نحو قرن كامل يجاذب بعضه بعضاً عن الطريق القويم بين من يحسبون أن الخلاص كله في اتباع الجديد على علاَّته ومن يحسبون أن هذا الخلاص مطلب بعيد المنال علينا إذا نحن لم ننبذ الجديد بقضِّه وقضيضه .

وفي مصر كانت حملة نابليون هي الصدمة التي خصَّتها بدروسها العاجلة ، وكانت دروساً محتومة لا تمهل المتعلِّم أن يتردَّد بين الجمود والحركة ، ونابليون لم يزحف على المماليك بجيش واحد بل بجيشين : جيش يحمل السلاح ، وجيش آخر من جماعة العلوم والفنون يحمل الكتب والأوراق .

وربما كان من بواعث إحياء الثقة بعد موتها ، ومن بواعث الإقبال على هذه العلوم الغربيَّة بعد نفور منها والإعراض عنها ، أن أذكياء البلد فهموا أنها "بضاعتنا

---

(١) لمزيد من التفصيل حول سمات عصر النهضة الأوربيَّة ، الرجوع إلى عباس محمود العقاد " عبد الرحمن الكواكبي "مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ،فصل " العصر".

رُدَّت إلينا" وأن الفرنسيين إنما أخذوا من علومنا في الشرق ما أهملناه وضيَّعناه فبلغوا به من القوَّة حديثاً مثل ما بلغناه قديماً ، ولا يزالون يبحثون عن المزيد ليبلغوا فوق ما بلغوا ، وقد فارقت الحملة الفرنسية مصر ولم تفارقها فكرة التقدُّم العصري الذي سبق إليه القوم بعلوم ابتكروها أو بعلوم اقتبسوها منَّا ، وآن لنا أن نردَّها إلينا . (١)

عند المواجهة بين الحملة الفرنسيَّة ، والمقاومة المصريَّة ظهر الفارق الكبير بين ما وصلت إليه أوربا من تقدُّم ونهضة وديمقراطيَّة ، وما انحدرت إليه مصر من تخلف ورجعيَّة واستبداد .

فالمجتمع الفرنسي كان قد تقدَّم بالإنتاج اقتصاديّاً ووصل إلى مرحلة من التنوير سياسيّاً من حيث الثورة على الحكم المطلق وإقامة الجمهوريَّة ، وإعلان مبادئ الحريَّة والإخاء والمساواة لكافة المواطنين . أما المجتمع المصري الشرقي العثماني فكان لا يزال نظاماً عسكريّاً ، واقتصاديّاً راكداً بشكل عام وجد فيه الأجانب وسيلة سهلة للسيطرة . وبالمقارنة بين المجتمعين يلاحظ أن ميزان القوَّة الماديَّة والتفوُّق الحضاري كان في صالح الغرب الفرنسي . (٢)

وعلى الرغم من أنَّ الحملة الفرنسيَّة تعتبر أوَّل موجة استعماريَّة أتت إلى مصر والشرق فإنها قد حملت معها نسمات الحريَّة والديمقراطيَّة التي نادت بها الثورة الفرنسيَّة ؛ ولذلك فإن الحملة قد أوجدت في مصر مؤسسات برلمانيَّة شعبيَّة ولو أنها لم تكن منتخبة كما كان الأمر في فرنسا ذاتها إلا أنها تضمَّنت إشراك العنصر الوطني في الحكم وولَّدت عند المصريين روحاً جديدة .

فقد أنشأ نابليون دواوين أو مجالس مؤلَّفة من كبار العلماء والتجار وممثلي الطوائف ومشايخ الحِرَف للنظر في الشئون العامَّة وكان لذلك أثره في اشتداد ساعد العلماء والمشايخ مما ظهر أثره فيما بعد عام ١٨٠٥ .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول النهضة المصرية راجع عباس محمود العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مكتبة مصر ، فصل " العصر " .
(2) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٧٨ ، ٧٩ .

لقد عمل الفرنسيون على تحسين العاصمة " القاهرة " فأنشئوا طرقاً واسعة منتظمة في المدينة وغرسوا الأشجار على حافتيها وأرغموا السكان على الإضاءة ليلاً وردموا بركة الأزبكيَّة ومنعوا الدفن في مقابرها .

وكان من الآثار الإيجابيَّة للحملة الفرنسيَّة أيضاً أنها كشفت عن وضعيَّة العلماء ورجال الدين والمثقفين وعدم مواكبتهم للتقدُّم الحديث خاصة في أوروبا حيث كانت النخبة المصريَّة ، بسبب ما فرضه عليهم العثمانيون من عزلة ، يتوهَّم أنهم محيطون بالعلوم كافة فلما رأوا الفلكيين وأهل المعرفة ، والعلوم الرياضيَّة كالهندسة والهيأة والنقوشات والرسومات والمصوِّرين ، ورأوا المكتبة الجديدة التي أنشأها الفرنسيون ، رأوا المطبعة التي أتى بها بونابرت عَرَاهم شيء من الدهشة وحب الاستطلاع . (١)

مصر تختار حاكمها لأوَّل مرة

بعد خروج الفرنسيين من مصر حدث تنازع بين ثلاث قوى هي : الدولة العثمانيَّة، والإنجليز ، والمماليك ، وكانت هذه القوى الثلاث قد اتحدت من قبل ضد الفرنسيين ، لكن بعد خروج الفرنسيين أصبحت كل منها تتطلَّع إلى الانفراد بالحكم.

ولم يكن أيٍ من هذه القوى يحسب حساباً للقوى الوطنيَّة التي تبلوت أثناء الحملة الفرنسيَّة وقامت بدور بارز في مقاومتها ، وقد اتَّسعت خبراتها بالدخول في تجارب الحكم والسياسة مع الفرنسيين والإطلاع على المعارف الجديدة فبعد خروج الحملة الفرنسيَّة وتعرُّض مصر لكثير من الاضطراب والصراعات وتعدُّد الولاة من قبل السلطان العثماني الذين كان آخرهم خورشيد باشا .

اندلعت ثورة شعبيَّة، قادها "مجلس الشرع" – المكوَّن من علماء الأزهر– سنة ١٨٠٥م، ضد الوالي التركي" خورشيد باشا"، وخلعته عن حكم البلاد، رغم أنه مولًّى من قِبل السلطان ..ويومئذ أعلن السيد عمر مكرم باسم "مجلس الشرع" أن

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ٦٦ ، ٦٧ بتصرف .

الأمَّة هي مصدر السلطات، وقال: "إن أولي الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، ولقد جرت العادة من قديم الزمان، أن أهل البلد يعزلون الولاة، حتى الخليفة والسلطان، إذا ساروا فيها بالجور، فإن أهل البلد يعزلونه ويخلعونه."..

ولقد اختار "مجلس الشرع" -باسم أهل البلاد- محمد عليّ باشا واليًا على مصر، ونزل السلطان العثماني على إرادة أهل البلاد. (١)

واختيار مجلس الشرع محمد عليّ والياً على مصر حدث له ما بعده فهذه أول مرة في تاريخ مصر يُعزل فيها الوالي بإرادة الشعب ، ويعيَّن آخر بإرادة الشعب ، وأن يكون اختياره بمعرفة زعماء الشعب .

كذلك أوّل مرة توضع شروطٌ للولاية فقد أخذ زعماء الشعب من العلماء على محمد عليّ العهود والمواثيق التي تمثلت في :

١- أن يسير فيهم بالعدل .

٢- ألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم . (٢)

وفي ذلك يقول الجبرتي : " ركب الجميع وذهبوا إلى محمد عليّ وقالوا : له إننا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولابد من عزله من الولاية .

فقال : ومن تريدونه يكون والياً .

قالوا له : لا نرضى إلا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسَّمه فيك من العدالة والخير .

فامتنع أولاً ثم رضي ، واحضروا له كركاً وعليه قفطان وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فألبساه له وذلك وقت العصر ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة . (١)

---

(1) د. محمد عمارة " ثورات مصر الشعبية " موقع الإسلام اليوم .
(2) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٩٣ ، ٩٤ .

ولكن الوالي المخلوع رفض أن ينزل عن منصبه حتى يأتيه أمر من السلطان فقاد عمر مكرم المقاومة المسلَّحة حتى صدر فرمان السلطان بخلع خورشيد باشا وتولية محمد عليّ .

طموحات الحاكم الذاتيَّة والمصلحة الوطنيَّة

وهناك قضيَّة مهمَّة يجب تجليتها قبل الحديث عن النهضة التي قام بها محمد عليّ في مصر لأن عدم تجلية هذه القضية أغرت كلَّ حكَّام مصر بإلباس طموحاتهم الذاتيَّة الخاصَّة ثوب المصالح الوطنيَّة العامَّة . وبدلاً من يضحُّوا بأنفسهم في سبيل نهضة وطنهم ضحُّوا بوطنهم في سبيل طموحاتهم ورغبات أنفسهم !!

وأساس هذه السوءة الكبرى هو حكم الفرد وغياب الديمقراطيَّة ، والديكتاتوريَّة هي أمُّ الكبائر في مجال السياسة والحكم ، وهي الشيطان الأكبر الذي يأمر الحاكم بالسوء والفحشاء والكذب على الله والناس ، ويجمِّل سوءات حكمه ببعض الإنجازات الماديَّة وتلبية بعض المطالب العاجلة ، والإنجازات الماديَّة لا تساوي شيئاً بجوار الإنجازات المعنويَّة ؛ فالأولى تفنى والثانية تبقى ، ودولة الظلم ساعة ودولة الحقِّ إلى قيام الساعة .

ومحمد علي يُعَدُّ نموذجاً للحاكم المُستبد فبرغم أن شعب مصر هو الذي عيَّنه والياً عليهم ، وأعانوه على التخلُّص من مقاومة السلطان العثماني ، ودفعوا له ما أراد من المال ليدفع للجند المتمرِّد أجره وجرايته ، وأخذوا عليه المواثيق ، كما بينا، وأنهم وقفوا معه موقفاً بطوليّاً في صد حملة فريزر وإجلائها إلا أن محمد عليّ نَكَصَ على عَقِبَيْه ونقض ميثاقه مع قادة الشعب وتنكَّر لفضلهم عليه ، بل راح يتخلَّص منهم واحداً تلو الآخر ثم كبت الحريات وقمع المعارضة، واستبدَّ بحكم مصر .

وبعد أن أحكم محمد عليّ قبضته على نظام الحكم في مصر ، بقضائه على المماليك وإقصاء القوى المصريَّة الوطنيَّة أدرك – ككل حاكم مستبد – أنه لتحقيق

---

(1) عبد الرحمن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار " مرجع سابق ج ٣ ص ٦٢ ، ٦٣ .

أهدافه التوسعيَّة، كان لا بد له من تأسيس قوَّة عسكريَّة نظاميَّة حديثة، تكون بمثابة الأداة التي تحقِّق له تلك الأهداف فأنشأ جيشاً يضارع الجيوش الأجنبيَّة في قتالها، وقرر أن يستبدل بجنوده غير النظاميَّة جيشاً على النظام العسكري الحديث .

يقول عبد الرحمن الرافعي : " إن الجيش هو الدعامة الأولى التي شاد عليها محمد على كيان مصر المستقلة ، ولولاه لما تكوَّنت الدولة المصريَّة ولا تحقق استقلالها ، وهو الذي كفل هذا الاستقلال وصانه نيفاً وستين سنة ، فلا غرو أن خصَّه محمد عليّ بأعظم قسط من عنايته ومضاء عزمه ، وليس في منشآت محمد عليّ ما نال عنايته مثل الجيش المصري ، ويكفيك دليلاً على مبلغ تلك العناية أن منشآته الأخرى متفرِّعة عنه ، والفكرة في تأسيسها أو استحداثها إنما استكمال حاجات الجيش ، فهو الأصل وهي التَّبَع . فتقرير محمد عليّ إنشاء مدرسة الطبِّ مثلاً يرجع في الأصل إلى تخريج الأطباء الذين يحتاج إليهم الجيش ، وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج ، كان غرضه الأوَّل منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة والكساء ، واقتضى إعداد الأماكن اللازمة لإقامة الجنود بناء الثكنات والمعسكرات والمستشفيات ، واستلزم تخريج الضباط إنشاء المدارس الحربيَّة على اختلاف أنواعها ، وكذلك المدارس الملكيَّة كان الغرض الأوَّل منها تثقيف التلاميذ لإعدادهم على الأخصِّ لأن يكونوا ضبَّاطاً ومهندسين وإرسال البعثات إلى أوروبا كان الغرض الأوَّل منه توفير العدد الكافي من الضبَّاط ومن الأساتذة والعلماء والمهندسين ممن يتصلون عن بعد أو قرب بالأداة الحربيَّة ، صحيح إن هذه المنشآت وغيرها كان لها أغراض عمرانيَّة أخرى ، لكن خدمة الجيش كانت أوَّل ما فكَّر فيه محمد عليّ .

فالجيش إذن فضلاً عن مهمَّته الأولى من الدفاع عن استقلال البلاد كان أداة لتقدم العمران في مصر . [1]

إذن لم يكن محمد عليّ محبّاً مصرَ حريصاً على قوتها ونهضتها بقدر ما كان محبّاً نفسَه حريصاً على إقامة إمبراطوريَّة توسعيَّة تحقِّق له وأسرته مجداً خاصّاً ،

(١) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " ط٥ دار المعارف ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

فنهضة مصر التي سعى لإنشائها ليست بدافع وطني بل بدافع شخصي وليست غاية في ذاتها بل وسيلة لطموح ذاتي وينبغي أن نقيِّم كل أعمال محمد عليّ بهذا المعيار، وقد يقول قائل ومن أدراك بنيَّة الرجل فلعلَّه كان وطنيّاً مخلصاً .

إن الفرق بين الوطني المخلص ، وصاحب الطموح الشخصي أنَّ الوطني المخلص :

أولاً : لا يستبدُّ بالحكم بل يشرك معه كلَّ القوى الوطنيَّة وينتفع بكل صاحب رأي .

ثانياً : إذا تعارض طموحه الخاص مع المصلحة الوطنيَّة العامَّة غلَّب دون تردُّد المصلحة الوطنيَّة .

ثالثاً : أن يعدل في القضية ويحكم بالسَّوِيَّة ويسير مع السَّريَّة . (١)

ومحمد عليّ استبدَّ بالحكم ، وسخَّر الرعيَّة لتحقيق طموحه الخاص ، ولم يعدل بين الرعيَّة ولم يحكم بالسويَّة ، كما سنرى ، نعم نهض محمد عليّ بمصر عسكريّاً، وعلميّاً ، واقتصاديّاً في سبيل تحقيق طموحه في تكوين إمبراطوريَّة كبرى ، لكن انهارت هذه النهضة لمَّا فشل محمد عليّ في تكوين إمبراطوريته ؛ لأن هذه النهضة قامت بسطوة فرد وانهارت بضعفه ، ولم تقم على الحبِّ والعدل والشورى والتعاون؛ لذا سنرى أن المؤرخين عندما يذكرون إنجازات محمد عليّ العسكريَّة أو العلميَّة أو الاقتصاديَّة فإنهم يبدعونها بقولهم أنشأ محمد علي ... أقام محمد عليّ ... وجَّه محمد عليّ ... أسَّس محمد عليّ ... إلخ وذلك لأنَّ محمد عليّ قد احتكر كلَّ السلطات كما احتكر الزراعة والصناعة والتجارة كما سنبين .

(١) المقصود بـ "يسير مع السريَّة " أن يكون شجاعاً يتقدم صفوف القتال هذا هو الأصل فيها ، لكن الأمر لا يقتصر على الحرب والقتال إنما يمتد ليشمل سائر معايش الناس فالحاكم العادل يجب أن يكون قدوة حسنة للناس وأن يتقي الله في المنشط والمكره ، وفي الرضا والغضب ، والسر والعلانية .

محمد عليّ والنهضة المصريّة الحديثة

أولاً : النهضة العلميّة والتعليميّة

إذا ذكرت حسنات محمد عليّ كان من أجلّ أعماله توجيهه جزءاً كبيراً من جهوده إلى إحياء العلوم والآداب في مصر ، وذلك بنشر المدارس على اختلاف درجاتها ، وإرسال البعثات العلميّة إلى أوروبا ، وقد اتّبع في هذا السبيل تلك الفكرة التي اتبعها في إنشاء الجيش والأسطول ، ذلك أنه اقتبس النظم الأوربيّة الحديثة في نشر لواء العلم والعرفان ، فأسّس المدارس الحديثة ، وأخذ من الحضارة الأوربيّة خير ما أنتجته العلوم والقرائح ، فنهض بالأفكار والعلوم في مصر نهضة كبرى كانت أساس تقدُّم مصر العلميّ الحديث . (١)

كما وجّه محمد عليّ همّته إلى إيفاد البعثات المدرسيّة إلى أوربا ليتمّ الشبان المصريون دراستهم في معاهدها العلميّة ، وهذه الفكرة تدلّ على ناحية من نواحي عبقريّة محمد عليّ باشا ؛ فهو لم يكتف بأن يؤسّس المدارس والمعاهد العلميّة بمصر ليتلقّى فيها المصريون العلوم التي تنهض بالمجتمع المصري ، بل أن ينقل إلى مصر معارف أوروبا وخبرة علمائها ومهندسيها ورجال الحرب والصنائع والفنون فيها ، وأراد أن تضارع مصر أوروبا في مضمار التقدُّم العلميّ والاجتماعيّ ؛ فقصد من إرسال البعثات تكوين فئة من المصريين المثقفين لا يقلّون عن أرقى طبقة مهذبة في أوروبا .

وأراد من جهة أخرى أن تجد مصر من خريجي هذه البعثات كفايتها من المعلّمين في مدارسها العليا ، والقوّاد والضُبّاط لجيشها وبحريتها ، ومهندسيها والقائمين على شئون العمران فيها وإدارة حكومتها لكي لا تكون مع الزمن عالة على أوروبا من هذه الناحية .

ولو تأمّلت مليّاً في هذا العصر الذي نشأت فيه هذه الفكرة واختلجت في نفس محمد عليّ ، لعجبت لعبقريّة كيف أنبتت هذا المشروع ، ففي ذلك العصر لم يفكّر

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " مرجع سابق ص ٣٩٧ .

حاكم شرقيٌّ ولا حكومة شرقيَّة في إيفاد مثل هذه البعثات ، وهذه تركيا وسلطانها كان يملك من الحول والسلطة أكثر مما يملك محمد عليّ لم يفكِّر حينذاك أصلاً في إيفاد البعثات المدرسيَّة إلى المعاهد الأوربيَّة . (١)

كما أنشأ محمد عليّ العديد من الكلِّيات وكانت يطلق عليها آنذاك "المدارس العليا" مثل مدارس : الهندسة والطب والصيدلة والمعادن والألسن والزراعة والمحاسبة والطب البيطريّ ، والصنايع والفنون ، وقد بلغ مجموع طلاب المدارس العليا نحو ٤,٥٠٠ طالب ، كما أنشأ خمسين مدرسة ابتدائيَّة . (٢)

وجهود محمد عليّ في مجال العلم والتعليم مشكورة ولا ريب وإن كان هدفه الأساسي منها هو إعداد جيش قوي يخوض به حروبه التوسعيَّة ، وليس إعداد جيوش قويَّة من المصريين المتعلِّمين تكون قادرة على حماية بلادهم من أي اعتداء، وقادرة على بناء حضارة جديدة على الأساسين اللذين بني بهما أجدادهم حضارتهم وهما : العلم والإيمان أو المدنيَّة الحديثة والقيم السماويَّة الخالدة التي تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل : ٩٠]

ثانياً : البناء الاقتصاديّ والعمرانيّ

من القواعد الأساسيَّة في نهضة الأمم أن إنماء ثروة البلاد والمحافظة على كيانها المالي من أكبر دعائم الاستقلال ؛ لأن العمران مادة التقدُّم ، والثروة الأهليَّة هي قوام الاستقلال الماليِّ ، ولا يتحقَّق الاستقلال السياسيُّ ما لم يدعِّمه الاستقلال الماليُّ والاقتصاديُّ ، تلك الحقائق التي أجمعت الآراء على صحتها ووجوب العمل بها ، كان محمد عليّ أوَّل من قدَّرها قدرها ؛ فقد اتَّجهت أنظاره منذ أوائل حكمه إلى إصلاح حال البلاد الاقتصاديَّة وإنشاء أعمال العمران فيها لتنمو ثرواتها

---

(٢) نفسه ص ٤٠٧ .
(٣) نفسه ص ٤٠٤ .

القوميَّة، ولم تفتر عزيمته عن متابعة جهوده من هذه الناحية حتى خلَّف أعمالاً ومنشآت يزدان بها تاريخه . (١)

ولكن إصلاح محمد عليّ الاقتصاديّ وإنشاءاته العمرانيَّة كانت تخدم مشروعه أولاً كما سنرى وليس الثروة القوميَّة كما ذكر الرافعي .

نظام الاحتكار

نظَّم محمد عليّ الاقتصاد المصري في الزراعة والصناعة والتجارة على قاعدة الاحتكار ، والاحتكار يعني أن تقوم الحكومة ممثلة في محمد عليّ بتحديد نوع الغلات التي تزرع ونوع المصنوعات التي تُنْتج ، وتحديد أثمان شرائها من المنتجين ، وأثمان بيعها في السوق ، وبهذا الأسلوب يضمن محمد عليّ الدخول في سوق التجارة الدوليَّة منافساً لغيره من الدول ، وبمعنى آخر فالاحتكار نوع من التوجيه الاقتصادي تحت إشراف الحكومة لصالح الحاكم وحكومته وليس المواطنين الذين قاموا بهذا النشاط الاقتصادي .

ولنتعرَّف الآن على نظام الاحتكار في المجالات الاقتصاديَّة المختلفة :

احتكار الزراعة

مجمل النظم الزراعي في العصر العثماني في مصر كان الفلاح ينتج محصولاته ولا يعود عليه منها إلا ما يسد الرمق أو يبقى على الحياة ؛ بسبب الأعباء الضرائبيَّة الملقاة على عاتقه وقد أدَّى ذلك إلى هجر الفلاحين قراهم . (٢)

ولكي نعرف إلى أي مدى وصلت حال الفلاح المصري تحت الاحتلال العثماني المملوكي قبل محمد عليّ نقرأ ما كتبه علماء الحملة الفرنسيَّة عن الفلاح المصري

جاء في كتاب وصف مصر : " ثمة كثير من المزارعين الأحرار على ضفاف النيل قد أصبحوا مجرد فلاحين أُجراء ، أو عبيد مطحونين تحت وطْأة تلك

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " ط ٥ دار المعارف ص ٤٨٧ .
(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ٤٢

الضرائب الباهظة ، يفلحون هناك وفي حلوقهم غُصَّة ، أراضي خصبة ، لكنهم لا يستطيعون أن يجنوا لها ثماراً ، فهذا الوادي الخصيب في الفيوم ، وتلك السهول الخصبة في الدلتا التي كانت غزيرة الإنتاج تحت حكم الفراعنة والبطالمة ، لا تنتج الآن بالكاد ربع ما كانت تنتجه في الماضي . " (١)

هذا بسبب نظام الالتزام الجائر (٢) الذي سنَّه العثمانيون المحتلُّون وانتفع به المماليك والأعيان المستغلّون ، وعانى منه الفلاحون المصريون أصحاب البلد وأصحاب الإنتاج الزراعي والحيواني .

ويستشهد علماء الحملة الفرنسية على الجور الواقع على الفلاح المصري بشهادة المعلم يعقوب الذي أكدَّ لهم أن الفلاح لا يحصل من زراعته لفدان من القمح إلا على إردبٍّ واحد يخصم منه مصاريف زراعته !!

" لكي نقدِّم فكرة تقريبيَّة عن بؤس الفلاحين فسوف نعتمد على شهادة المعلم يعقوب المباشر القبطي الذي أكَّد لنا أن ١٠ فدادين من الأرض في الصعيد تنتج خمسين إردبّاً من القمح من بذور خمسة أرادب ، كما أكَّد لنا بالمثل أنَّ الأقساط التي يدفعها الفلاحون للملتزم عيناً لا تقلُّ مطلقاً عن ٣- ٣,٥ إردبّ من الحبوب عن الفدان ، فإذا قمنا بخصم مصاريف الحرث والبذر نجد أنه لا يتبقى شيء على وجه التقريب لهؤلاء الفلاحين التعساء ." (٣)

لقد أهمل العثمانيون وعمالهم المماليك الري وبناء القناطر والجسور وتنظيم استخدام مياه الفضيان مما كان سبباً في تقلُّص الرقعة الزراعيَّة ، كما أنَّ اتِّباع نظام الالتزام قلَّل من إنتاجيَّة الأرض المزروعة بسبب إهمال الفلاح أرضه التي أصبح خيرها لغيره فماذا فعل محمد عليّ لزيادة مساحة الرقعة الزراعيَّة ، وإنتاجيَّة الفدان، وتحسين وضع الفلاح ؟

---

(١) علماء الحملة الفرنسيَّة موسوعة " وصف مصر " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٠٢ .
(٢) نظام "الالتزام" يسمح لبعض الأفراد الذين يسمون بالملتزمين بدفع حصص الضرائب عن بعض القرى، ويخوِّل لهم جمعها بمعرفتهم، مما كان يرهق المزارعين لأن الملتزمين كانوا يجبون تلك الأموال بقيمة أكثر مما دفعوه من ضرائب .
(٣) علماء الحملة الفرنسية موسوعة "وصف مصر " مرجع سابق ص ٢٠٧ .

ألغى محمد عليّ نظام الالتزام وصادر أراضي الملتزمين خاصة بعدما تخلَّص من المماليك نهائيّاً في مذبحة القلعة وتمَّ تسجيلها باسم الدولة ، كما ضمَّ أراضي الأوقاف لصالح الدولة ، وكذلك المساحات التي عجز أصحابها عن إثبات حيازتهم لها .

بعد ذلك أعاد محمد عليّ توزيع مساحات الأرض على الفلاحين ، بحيث خصَّ كل أسرة ما بين ٣- ٥ أفدنة حسب قدرة كل منها ، وذلك للانتفاع بها بشرط دفع ما تقرره الحكومة من ضرائب وأموال ، ولا تنزع الأرض من المنتفع إلا إذا عجز عن دفع ما عليها من أموال . (١)

والحقيقة أن محمد عليّ قد حرَّر الفلاح من استغلال الملتزم ليستعبده هو ؛ فحكومة محمد عليّ هي التي تحدِّد نوع المحصول الذي يزرعه الفلاح ، والثمن الذي تشتري به هذا المحصول ، وهو ثمن بخس ، والثمن الذي تبيع به هذا المحصول في الأسواق المحليَّة والعالميَّة وهو ثمن غالٍ ، وفائض القيمة بعد أن كان يصبُّ في جيب الملتزم أصبح يصبُّ في خزانة محمد على أمَّا الفلاح نفسه بعد أن كان مُستَغلاً من الملتزم أصبح عبداً لحكومة محمد عليّ أو بالأحرى عبداً لمحمد عليّ نفسه !! وإذا كان سليم الأوَّل اعتبر نفسه مالكاً لأراضي مصر ، وبذلك كان صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها فإنَّ محمد عليّ ملك رقبة أرض مصر ولم يكتف بحق الانتفاع بها فحسب كما فعل الطاغية فرعون حاكم مصر زمن سيدنا موسى . (٢)

{ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ }[الزخرف : ٥١]

وقد نتج عن سياسة محمد عليّ في مجال ملكيَّة الأرض بعد إلغاء الالتزام ثلاثة أنواع من الملكيَّة الزراعيَّة :

---

(١) د. عبد العزيز نوار وآخرون " تاريخ مصر والعرب الحديث " مطابع روزاليوسف ص ١٢٤
(٢) فرعون اسم علم على حاكم مصر زمن سيدنا موسى وليس لقباً لكل حكام مصر في التاريخ المصري القديم ، ولمزيد من التفصيل حول هذا الموضع الرجوع إلى كتابنا " لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورومتوسطين ، فمن نكون " دار زهور المعرفة والبركة .

الملكيَّة الكبيرة : وهي أرض واسعة أنعم بها محمد عليّ على أفراد أسرته وكبار رجال حاشيته وكبار الموظفين وبعض الأجانب ، وتسمى بأرض الأبعاديَّة .

الملكيَّة المتوسطة : وتتكون من :

١- أراضي الوسيَّة [١] التي كانت للملتزم حيث تركها له محمد عليّ يحتفظ بهـا طوال حياته .

٢- أراضي المسموح ، وهي أرض أعطاها محمد عليّ لمشايخ الـبلاد وكبـار الأعيان بنسبة ٥ % تقريباً من زمام القرية معفاة من الضرائب مقابل الخدمات التي يقومون بها للحكومة .

الملكيَّة الصغيرة : وهي ملكيَّة الانتفاع للفلاحين من ٣- ٥ أفدنة [٢] والتي سـبق الحديث عنها .

كان هدف محمد عليّ توفير أكبر قدر من الدخل من الإنتاج الزراعي للـصرف منه على حروبه التوسعيَّة فاتبع الأساليب الآتية :

١- إحلال أساليب زراعيَّة جديدة من شانها زيادة الإنتاج وتقليل الجهـد ، وفـي هذا الشأن استقدم المدربين الماهرين من كل مكان .

٢- الاهتمام بالتعليم الزراعي ، حيث استقدم الخبراء الزراعيين مـن الخـارج وأنشأ مدرسة الزراعة .

٣- تحسين طرق الري بشق الترع فضلاً عن إقامة القناطر الكثيرة على النيل ، وأهمها القناطر الخيريَّة ، ونتج عن ذلك تحويل أراضي الوجه البحري إلـى الـري الدائم .

٤- إدخال أنواع جديدة من الغلاَّت الزراعيَّة ، وتحسين زراعة القطن . [٣]

---

(١) الوسيَّة : وهي الأرض التي يملكها الملتزم ملكيَّة كاملة ، ويستخدم فيها من يـشاء بالـشروط التـي تتراءى له ، وهي غير أرض الالتزام .
(٢) د. عبد العزيز نوار وآخرون " تاريخ مصر والعرب الحديث " مطابع روز اليوسف ص ١٢٤
(٣) نفسه ص ١٢٥

وقد كان الاحتكار يطبّق في الزراعة على النحو التالي :

١- كان للحكومة أن تنزع الأرض من تحت يد من تشاء إذا اقتضت المصلحة العامّة ذلك دون أن تدفع له تعويضاً .

٢- تعطي الحكومة للفلاحين ما يلزم الزراعة من آلات الري والحرث والمواشي ، ومأمور المركز هو الذي يحدّد لكل فلاح مساحة الأرض التي تعطي له مقدار ما يخصّص لكلّ نوع من الزراعات ، وإذا جاء الحصاد اشترت الحكومة من الفلاح حاصلاته بالثمن الذي تحدّده طبقاً لنظام الاحتكار ، ولا تترك إلا الحبوب ثم شمل الاحتكار الحبوب أيضاً . (١)

وعن نظام الاحتكار يقول عبد الرحمن الرافعي أحد المعجبين بمحمد علي وسياسته : " ولا نزاع في أنّ إلغاء الالتزام مع عدم تقرير حق الملكيّة لا يمكن أن يعدُّ إصلاحاً ، بل هو أبعد ما يكون عن الإصلاح ، قال المسيو مانجان ، وهو صديق لمحمد عليّ : إن التعديلات التي أدخلها الباشا في نظام الملكيّة ، لم تكن متّفقة مع الصالح العام ، فلا هو احترم الملكيّة الفرديّة ، ولا هو اعترف بها ، كما أن الذين عجزوا عن دفع الإتاوات والضرائب المختلفة التي فُرِضَت على أملاكهم اضطروا أن يتنازلوا عنها ، وقال إنه لما أمر محمد عليّ بمسح الأراضي في القطر المصري زاد عدد الأفدنة بسبب تغيير مقياس المساحة وإنقاص طول القصبة ، وزاد بالتالي ما يطلب على الأرض من الضرائب ، وإلغاء الالتزام حرم الملتزمون من الأملاك التي كانوا يستثمرونها ، فإلغاء الالتزام مع عدم إنشاء الملكيّة الفرديّة معناه إلغاء الملكيّة وامتلاك الحكومة لجميع الأراضي الزراعيّة ، ولئن كان محمد عليّ قد أمر بترتيب إيراد سنوي للملتزمين الذين نُزِعَت الأرض من تحت أيديهم إلا أن هذه الرواتب لا تتوارث فكانت تسقط بوفاة الملتزم ، ويقول المسيو مانجان أيضاً إن هذا النظام القاسي قد نشر الأحزان في العائلات ، وقد أسهب الجبرتي في

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " ط ٥ دار المعارف ص٥٢٩ .

وصف تذمُّر الناس من هذا النظام في حوادث ربيع الأول سنة ١٢٢٩هـ (١٨١٤م) . " [١]

والحقيقة أن نظام الاحتكار في الزراعة قد ألحق الظلم والحيف بالفلاح الذي أحسَ أنه لا يعمل لمصلحته وإنما لمصلحة الحكومة ؛ لذلك فإنه لم يحاول تحسين إنتاجه ، وأدى هذا الوضع إلى ضيق الفلاحين ومغادرة قراهم هروباً من الظلم الواقع عليهم ولجئوا إلى المدن والصحراء المصريَّة بل وإلى الشام ، واستمرَّ هروب الفلاحين من الاحتكار والظلم والجنديَّة رغم كثرة التشريعات التي صدرت لكي تجرِّم الفلاحين الهاربين . [٢]

لقد تسبب نظام الاحتكار الذي طبَّقه محمد على في هجر الفلاح المصري أرضه ولجوئه إلى المدن والصحراء المصريَّة بل إلى ترك مصر وفراره إلى الشام الأمر الذي لم يحدث في تاريخ مصر إلا أيام الرومان .

يقول الرافعي : " وقد ساءت حالة الفلاحين لدرجة اضطرار الكثير منهم إلى الهجرة من قراهم ، وخربت قرى عديدة بسبب هذه الهجرة ، واضطرت الحكومة إلى إصدار الأوامر المشددة برجوع المهاجرين وتهديد من لم يرجع بأشد أنواع العقاب " [٣]

لقد حوَّل محمد عليّ الفلاح المصري إلى عبد بعدما أخذ أرضه وسخَّره لزراعتها بغير عائد يذكر وعاقبه أشد أنواع العقاب إن ترك أرضه بحثاً عن رزقه في أرض الله الواسعة ، وأجبره على التجنيد للمشاركة في حروب توسعيَّة لا ناقة له فيها لولا وجمل ، ووصل به الطغيان أن يجرِّد جيوشه لغزو الشام ؛ ليستعيد الفلاحين الذين هربوا من الفقر والقهر والتجنيد الإجباري تلك الكوارث الثلاث اللاتي فرضهن محمد عليّ عليهم .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " مرجع سابق ص٥٢٩ ، ٥٣٠ .
(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " مرجع سابق ص ٧٩ .
(٣) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " مرجع سابق ص ٥٥٠ .

لقد كانت دوافع محمد عليّ للحرب في الشام المباشرة المعلنة تتلخص في رغبته في إرجاع الفلاحين المصريين (وكانوا نحو ستة آلاف) الذين هربوا من مصر إلى الشام تخلصاً من الضرائب وفرُّوا من الخدمة العسكريَّة . (١)

وقد أرسل محمد علي بالفعل حملة عسكريَّة إلى عكا وسوريا لتأديب أحمد باشا الجزار الذي رفض ردَّ الفلاحين الهاربين إلى ولايته ، واجتاحت الجيوش المصريَّة الشام وتحركت جيوش السلطان العثماني لردِّ محمد عليّ دون جدوى فعقدت اتفاقيَّة بينهما ، ولم تكن سوى هدنة يستعد فيها المتحاربان لجولة أخرى . (٢)

احتكار محمد عليّ الحاصلات الزراعيَّة

لم يكن الفلاحون الذين خوَّلهم محمد عليّ حق الانتفاع بالأراضي من اليسار بحيث يستطيعون أداء الضريبة نقداً في موعدها ، كما أن الحكومة من جهة أخرى كانت تعطي الفلاح أدوات الزراعة والمواشي والبذور التي يحتاجونها إليها قرضاً ، فكانت ديناً عليهم يجب أن يؤدوه مع الضرائب ، وهم كما قدَّمنا عاجزون عن أدائها نقداً لما كانوا عليه من الفقر والفاقة ، لذلك أذن محمد عليّ للفلاحين أن يؤدوا الضريبة صنفاً من حاصلات أراضيهم ، وأنشأ في المديريات شوناً (جمع شونة) لتُحفَظ فيها الحاصلات التي تُجْنَى من الفلاحين ، ومن هنا صارت الحكومة مالكة لمعظم حاصلات القطر المصري الزراعيَّة .

وكانت الحكومة تتولى بيعها للأهالي ولتجار الجملة من الأجانب الذين يصدِّرونها للخارج ، وتتولى هي أيضاً تصديرها لحسابها وبيعها في ثغور فرنسا وإيطاليا والنمسا وإنجلترا ؛ فربحت من هذا العمل أرباحاً طائلة ، فكانت هذه الأرباح مغرية لها باحتكار حاصلات القطر المصري والاتجار بها .

وذلك أن محمد عليّ قرر أن تحتكر الحكومة جميع الحاصلات الزراعيَّة بحيث يحظر على الفلاحين أن يبيعوها إلى التجار ، وفرض عليهم أن يبيعوها للحكومة

---

(١) د. عبد العزيز نوار وآخرون " تاريخ مصر والعرب الحديث " مطابع روزاليوسف ص ١٤٤ .
(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " مرجع سابق ص ٩٩ .

بأثمان تقررها هي ؛ فصارت الحكومة محتكرة لتجارات حاصلات القطر المصري بأكمله ، وهكذا تسلسل نظام الاحتكار ، فبعد أن تملَّكت الحكومة معظم الأراضي الزراعيَّة واحتكرتها بإلغاء نظام الالتزام واسترداد أملاك الملتزمين وإلغاء معظم الأوقاف ، احتكرت كذلك الحاصلات الزراعيَّة ، أي أن الحكومة صارت المالكة للأراضي الزراعيَّة ثم المحتكرة لحاصلاتها جميعاً ، فلم يكن للفلاح ملكيَّة على أرضه ولا على ما تنتجه !

قررت الحكومة إذن شراء الحاصلات من الفلاحين بأثمان تحددها هي ، وكانت تخصم من الثمن ما عليهم من الضريبة وتدفع لهم الباقي نقداً وصارت هي التي تتولى التصرُّف في الحاصلات وبيعها والاتجار فيها وتصديرها وشمل الاحتكار حاصلات القطر المصري بأجمعها كالقطن والأرز والغلال والقمح والنيلة والسكر والأفيون الخ .

وصار الفلاحون إذا احتاجوا للغلال للقوت يضطرون إلى شرائها من الحكومة ثانية وكثيراً ما يحدث أن ترفع الحكومة سعر البيع لتربح من ثمن البيع ، فتشتدُّ الضائقة بالناس وترتفع أسعار الغلال في الوقت الذي تفيض بها مخازنها .

ولا جَرَمَ أن هذه الوسيلة وإن كانت تعود على الحكومة بالمكاسب (زمناً ما) إلا أنها من الوجهتين الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة تشلُّ حركة التقدم الاقتصاديِّ ؛ لأن إجبار الفلاحين على بيع حاصلات أراضيهم للحكومة وتحديدها لسعر البيع ، عمل ينطوي على الظلم والإرهاق ، وفيه مصادر لحق الملكيَّة وحرمان المالك من الاستمتاع بحقه ، ومن الانتفاع من تزاحم التجار على الشراء ، ذلك التزاحم الذي ينجم عنه مضاعفة الثمرة للبائع ، كما أن العمل بمثل هذا النظام يقتل كل همَّة فرديَّة ويقبض أيدي الناس عن العمل ، ومن ثَمَّ يَحُول دون تقدم البلاد أدبيّاً ومادياً ، ويضرب على الشعب حجاباً من الفقر والجمود .

وقد ذكر الجبرتي احتكار الحكومة للغلال والسكر في حوادث ١٨١٢ وسنة ١٨١٥ وذكر في حوادث سنة ١٨١٦ احتكارها حاصلات الكتان والسمسم والعصفر والنيلة والقطن والقرطم والقمح والفول والشعير والأرز وذكر في حوادث مارس ١٨١٧ اشتداد أزمة الأقوات بسبب الاحتكار .

ولم يفت معظم كتاب الإفرنج انتقاد هذا النظام فيما كتبوه عنه ، فقال المسيو موريه : " إن هذا الاحتكار هو الجانب السيئ في تاريخ محمد عليّ " ، وقال المسيو مريو : " ولا حاجة بنا إلى الإطالة في عيوب نظام الاحتكار كما وضعه محمد عليّ ، لقد ربح الباشا منه أرباحاً طائلة ، لكنه أفضى إلى فقر الفلاحين وكاد يهوي بهم إلى المجاعة لولا ما اعتادوه من القناعة وشظف العيش . " (١)

موقف الإسلام من الاحتكار

حرَّم الإسلام الاحتكار، ووصف المحتكرين بما وصف به الطغاة المتجبرين ؛ لبيان أن من يمارسه من الطغاة الجبارين .

قال رسول الله ﷺ : " مَنِ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ " (رواه مسلم)

وقال تعالى : { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } (القصص:٨)

لقد اتَّفق فقهاء المذاهب الإسلاميَّة على أن الحكومة الإسلاميَّة مراقبة السوق وتطهره من المحتكرين؛ لذلك نجد أن الكلام عن الاحتكار في كتب الفقه يأتي ضمن الحديث عن الحسبة وواجبات ولي الأمر؛ لكونه يحتاج إلى تشريعات قانونيَّة مع التحريم والتخويف من العقوبة الأخرويَّة، وعلى الحكومة الإسلاميَّة إذا رأت في السوق محتكرًا أن تأمره بإخراج ما احتكر إلى السوق وبيعه للناس. فإن لم يمتثل فلها أن تجبره على البيع قهرًا وقسرًا ؟

يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل الأستاذ بجامعة الأزهر: " احتكار السلع الضروريَّة عمل يدل على الجشع والطمع، وقسوة القلوب، والتعاون على الإثم والعدوان، فهو من الكبائر التي حذَّر الإسلام منها وتوعَّد فاعلها بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة .

فقد روى مسلم في صحيحه ، أن النبي ﷺ قال: " مَنِ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ " أي مرتكب خطيئة .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " مرجع سابق ص٥٣٥ ، ٥٣٦ .

وروى أحمد في مسنده أن النبي ﷺ قال: " مَنْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْعَارِ الْمُسْلِمِينَ لِيُغْلِيَهُ عَلَيْهِمْ ، كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يَقْذِفَهُ فِي مُعْظَمٍ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ."

وروى ابن ماجة عن عمر بن الخطاب أنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: " مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ضَرَبَهُ الله بِالْجُذَامِ ، أَوْ بِالإِفْلاَسِ " .

هذا في شأن من احتكر طعاماً أو سلعة فما بالنا بمن احتكر اقتصاد مصر كلها !!

احتكار الصناعة

كان نظام الحرف والصناعات في العهد العثماني يقوم على شاكلة نظام الطوائف في أوروبا العصور الوسطى ، فكان هناك طائفة للنجَّارين ، وأخرى للحدَّادين ، وثالثة للبنائين ، ورابعة لصانعي الأحذية وهكذا ، وبمقتضى هذا النظام يمر العامل بمراحل محدَّدة حتى ينتقل من مستوى " الصبي " إلى مستوى " المعلم " وصاحب الورشة ، ولكلٍ طائفة " شيخ " ، والإنتاج كفائي ليس في ترتيباته التسويق الواسع ، ولذلك لم يحقِّق التراكم الرأسمالي الذي بإمكانه وحده إحداث تغيير تدريجي أو طفري في قوى الإنتاج وأساليبه . [١]

وفي عصر محمد على سرَى مبدأ الاحتكار من الزراعة والتجارة إلى الصناعة، فبعد أن صار محمد عليّ المالك الوحيد لأراضي مصر ، ثم التاجر الوحيد لحاصلاتها ، صار الصانع الوحيد لصنائعها ، والظاهر أنه رأى الاحتكار مما يزيد إيراد الحكومة لأنه فتح باباً للربح ، فعمد إلى احتكار الصناعة ، لكن هذه الطريقة أضرَّت بالحالة الاقتصاديَّة في مصر ضرراً بالغاً .

قال المسيو مانجان في هذا الصدد : " كان في البلاد صناعات يتولاها الأفراد ويربحون مما يبيعونه من مصنوعاتهم إلى أهل البلاد ، وما يصدِّرونه منها للخارج، كنسيج أقمشة الكتَّان والقطن والحرير وصناعة الحصر والجلود واستقطار ماء الورد وصبغ النيلة وغير ذلك .

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " مرجع سابق ص ٤٣ .

وكانت هذه الصناعات تُشَغِّل عدداً من السكان يربحون منها نحو ثلاثين ألف كيس كل سنة (١٥٠,٠٠٠ جنيه) ولكن محمد عليّ احتكر هذه الصناعات وأضاف أرباحها إلى حسابه وبعد أن كان الصنَّاع يستثمرون هذه الصناعات صاروا يعملون فيها لحساب الحكومة ، ويقبضون رواتب معلومة ، كعمال مأجورين ، وقال إن من نتائج هذا النظام أن كثيراً من صنَّاع النسيج فضَّلوا ترك صناعاتهم واشتغالهم بالزراعة وآثروها على الاشتغال عمالاً لحساب الحكومة والاستهداف لسوء معاملة موظفيها ، وأن المصنوعات في نظام الاحتكار قد هبطت جودتها عما كانت عليه حين كانت الصناعة حرَّة ولا غرو فإن الصانع الذي لا يعمل لحسابه لا يتقن العمل كما يتقنه لو كان ربحه إليه ، وقال إن احتكار الصناعات قد أضرَّ بالأهالي ؛ لأن الاحتكار من طبيعته أن يتلف مصادر الثروة ، ويحرم الصانع نتيجة كدِّه وتعبه " .

وقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٨١٦ ، ١٨١٧ احتكار الحكومة صناعة الغزل والنسيج وما أحدثه الاحتكار من الضيق وارتفاع أسعار المنسوجات ، وكيف أنه شمل " كل ما يصنع بالمكوك وما ينسج على نول أو نحوه من جميع الأصناف من إبريسم أو حرير أو كتان إلى الخيش والفل والحصير في سائر الإقليم المصري طولاً وعرضاً قبلي وبحري من الإسكندرية ودمياط إلى أقصى بلاد الصعيد " .

وذكر أيضاً في حوادث سبتمبر سنة ١٨٢٠ احتكار الحكومة للصابون وتجارته والبلح بأنواعه والعسل وصناعة الخيش والقصب والتلِّي الذي ينسج من أسلاك الذهب والفضة للتطريز والمقصبات والمناديل والمحارم وخلافه من الملابس . [1]

احتكار التجارة

انحصرت التجارة في مصر في العصر العثماني على التجارة المحلِّيَّة داخل الريف وبينه وبين المدن ، أما التجارة الخارجيَّة فقد انحصرت في أوسع نطاقاتها في تجارة Transit (المرور) حيث كانت مصر مَرْسًى كبيراً للتجارة القادمة من

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " ط ٥ دار المعارف ص٥٣٦ ، ٥٣٧ .

جنوب شرق آسيا والمتجهة إلى أوروبا والعكس ، ولو أن هــذه التجــارة قــد قــلَّ نشاطها مع كشف طريق رأس الرجاء الصالح . (١)

كان من الطبيعي وقد خضعت الزراعة والصناعة للاحتكار في عــصر محمــد عليّ أن تخضع التجارة أيضاً فقد احتكر محمد عليّ التجارة الداخليَّة فالحكومة هــي التي تشتري الحاصلات الزراعيَّة وهي التي تتولى التصرف فيهــا بــالبيع للتجــار الأجانب في الداخل أو الخارج ، كما كانت تحتكر تجارة الواردات من الخارج .

تراجعت طبقة التجار واضمحلَّ شانها لاحتكــار الحكومــة التجــارة الداخليَّــة والخارجيَّة ، وبالرغم من ازدياد متاجر مصر في ذلك العصر فإن ثمــرة التجــارة كانت تعود على الحكومة وعلى الوسطاء من الإفرنج الذين كانوا يتبــادلون وإياهــا حركة التجارة الخارجيَّة ، ولذلك اقترنت زيادة حاصلات مصر وتجارتها الخارجيَّة بظاهرة غريبة ، وهي تضاؤل الثروات الشخصيَّة ؛ فحينما كانت حاصلات مــصر أقلَّ مما وصلت إليه كان الأهالي أيسر حالاً ، ولما زادت الحاصــلات حــلَّ الفقــر محلَّ اليسر عند الأهلين ، وذلك راجع لنظام الاحتكار الذي فرضته الحكومة علــى حاصلات مصر . (٢)

والعجيب أن يبرر محمد عليّ سياسته القاسية الظالمة بقوله : " إن عليَّ أن أحكم شعباً أظهرُ صفاته الكسلُ والجهلُ وسوءُ النيَّةِ ؛ فإذا لم أحمله علــى العمــل بقــي عاطلاً " واستطرد قائلاً : " يجب أن نقود هذا الشعب كما يُقاد الأطفــال لأننــا لــو تركناه وشأنه فسيعود إلى حالة الفوضى . " (٣)

وهذه آفة كلِّ حاكم مستبد حكم مصر لا يفهم طبيعة الشعب المصري ولا يقــرأ تاريخه ليعرف النظام الذي يصلح معه بل يسعى إلى فرض نظامه عليهم ؛ فيتــرك

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " مرجع سابق ص ٤٣ .
(٢) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " ط ٥ دار المعارف ص ٥٥١ .
(٣) نقلاً عن د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسـيَّة المـصريَّة " مرجع سابق ص ٨٠ .

المصريون العمل المفروض عليهم ويحتالون على التهرب منه أو يتكاسلون في أدائه ، فحن شعب حرٌ أبيٌ لا يُكْرَه على فعل ما لا يرضى .

فعندما قرر محمد علي الاعتماد على المصريين في تكوين جيشه وجعلهم كوقود في حروبه التوسعيَّة وتكوين إمبراطوريته ، وأجبر المصريين على الالتزام بنظام التجنيد الإجباري الذي لم يكن موحَّداً لتجنيد الصالحين للجنديَّة ولم تكن مدة التجنيد العسكري محددة تحديداً واضحاً ، وكثيراً ما قضى الجندي أزهى سني شبابه ورجولته في الجيش حتى لا يعود إلى بلده إلا وقد أشرف على الشيخوخة – لجأ المصريون خير أجناد الأرض إلى التهرُب من الجنديَّة حتى أنَّ الأمهات كن يشوِّهن أطفالهن ، وكثيراً ما كان الرجال البالغون يقطعون سبابة أيديهم ، وفي مواجهة ذلك صدر منشور محمد علي للأقاليم في ١٢ مارس ١٨٣٣ جاء فيه " عرِّفوا كلا منهم أنه يجب ألا يشوِّه نفسه ، لأني سآخذ من عائلة كل من يرتكب هذه الفعلة رجلاً بدلاً منه " وكتب " جالينا " أحد أطباء محمد علي المرسل لاختيار رجال الخدمة العسكريَّة يقول : " إن الأحوال في البلاد من السوء بحيث أن جرجا التي كانت تضم ستاً وتسعين قرية لم يستطع توفير سبعة رجال لائقين للخدمة " .

وأمام هذا السيل المنهمر من تشويه الأجسام تهرباً من الجنديَّة لم يجد محمد علي مفرّاً من أن يصدر أوامره بتجنيد المشوَّهين ؛ فقد كان بأسيوط آلاي كامل من مجندين مشوَّهين فقد كل منهم عينه أو أصبعه أو أسنانه الأماميَّة .

ومن الثابت تاريخيّاً أن المصريين شعب ذو كرامة وغيرة ويعشقون الحريَّة ويهبُّون للدفاع عن بلادهم بكلِّ ما أوتوا من قوَّة إلا أن نظام التجنيد بالطريقة التي اتبعها محمد علي قد نفَّر الناس من التجنيد .[1] ومن الاشتراك في جيش ليست مهمته الدفاع عن الوطن وحرية أبنائه إنما الدفاع عن طموح حاكم مستبد يريد أن يكوِّن إمبراطورية خاصة يورثها أبناءه ويحرم المصريين من المشاركة في بنائها وإدارتها شئونها .

(١) نقلاً عن د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " مرجع سابق ص ٩٣ ، ٩٤ .

ولقد وقف علماء الحملة الفرنسيَّة على هذه السِّمة في الطبيعة المصريَّة الفريدة ورصدوا مظاهرها في سلوكهم .

يقول علماء الحملة الفرنسيَّة : " يبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمراً بالغ التناقض مع تقاليدنا حتى لنظنهم في البداية بُلَهاء أو معتوهين ؛ فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهل ؛ فأنت تراهم ممددين لجزء طويل من النهار على أرائكهم أو على حصرهم حسب درجة ثرائهم حتى تظنَّ أن ليس ثمة في هذه الدنيا ما يشغلهم إلا أن يملئوا ويفرغوا على التوالي نارجيلتهم الطويلة (الجُوزَة أو الشِّيشَة) ، وتبدو مُخَيِّلَتهم وكأنها قد تخدَّرت مثل أجسامهم لحدٍّ تخال معه – وهم في حالة التنويم الروحي هذه – أن سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير مجرد دهشتهم ، وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبيَّة البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كلَّ حساسية ، فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس – وحيث يمكنهم بذلك تركيزها – أكثر حدَّة كما أنها تعطي لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قادرين على الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلاً على ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقِّدة ، إن ملكة الانتباه ، والقدرة على التذكُّر تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلادة مطلقة ... ولنا أن نتساءل لماذا يكلِّف الفلاح نفسه كبير عناء – في بلد كهذا ليست الملكيَّة فيه سوى ضرب من الأوهام – كي يحسِّن من زراعته إذا كانت جهوده تلك لن تؤدِّي بالضرورة إلا إلى إثراء مُستغلِّيه وإلى انتزاع مغارم جديدة ؟ إن المصري يعرف حقيقة وضعه ، ويسيِّر نتيجة لذلك أموره . " (١)

أعرفت الآن لماذا لم تقم في مصر حضارة ناهضة بعد الحضارة الإسلاميَّة في العصور الوسطى حتى الآن رغم محاولات كثير من الحكام ذلك ؟

---

(١) علماء الحملة الفرنسيَّة موسوعة " وصف مصر " ج ١ مرجع سابق ص ٣٩ ، ٤٠ .

والعجيب أن معظم المؤرخين والكتاب يعدُّون نظام محمد علي الاقتصاديَّ نهضة اقتصادية كبرى للاقتصاد المصري رغم أنها لم تَعُدْ على الفلاحين والعمال والتجار بخير ؛ فالفلاحون هجروا أرضهم والعمال تركوا حرفهم والتجار كسدت تجارتهم!! وعندما يطبِّق جمال عبد الناصر نظام الاحتكار هذا باسم الاشتراكيَّة فيفقر الأغنياء ولا يغني الفقراء وتسوء أحوال الناس ، كما سنبيِّن ، فإن المؤرخين الناصريين والقوميين وكتَّاب المقررات المدرسيَّة يعدُّون اشتراكية عبد الناصر ، التي امتلك فيها كل الأراضي الزراعيَّة وسخَّر الفلاحين لزراعتها وتوريد محاصيلها نظير ما تقدمه لهم الجمعيَّة التعاونية من خدمات زراعيَّة ، وأمَّم الشركات والمصانع ؛ ففسدت إداراتها وتحوَّلت من شركات رابحة إلى عبء على ميزانيَّة الدولة ، يعد الناصريون كل هذا أكبر مآثر نظام عبد الناصر ويجعلون منه نصيراً للفقراء وظهيراً للفلاحين والعمال !!

إن المصري ليس عبداً أو حيواناً يعمل بالسوط ويقهر على فعل ما لا يرضى إنما هو صانع المعجزات عندما يؤمن بما يفعل ، ولو اهتمَّت المقررات المدرسيَّة بإبراز الشخصيّة المصريَّة الحقيقيّة وما يصلحها وما يفسدها لما تأخرت نهضتنا طوال هذه السنين لكن مع الأسف فإن كثيراً من المؤرخين خاصة كتَّاب المقررات المدرسيَّة لا يحفلون إلا بالحكام وحياتهم ولا يهتمون بالشعب وسماته ، ويؤيدون نظام الراعي ويبررون أخطاءه وإن ساءت أحوال الرعيَّة .

نظام الحكم في عهد محمد عليّ

في الدول الحديثة التي كان محمد عليّ يسعى ، بزعمه ، أن تكون مصر واحدة منها نظام الحكم فيها يتكون من ثلاث سلطات : تشريعيَّة ، وتنفيذيَّة ، وقضائيَّة

السلطة التشريعيَّة : وهي معنيَّة بصفة أساسيَّة بسنِّ القوانين اللازمة لعمل أجهزة الدولة المختلفة وتنظيم العلاقة فيما بينها وعلاقتها مع الهيئات والمؤسسات الأخرى وهي معنيَّة أيضاً بمراقبة صحة إنفاذ تلك القوانين ومدى الالتزام بها ، وذلك باستدعاء الوزراء والمسئولين لاستيضاحهم ومساءلتهم في حالة وجود إدِّعاء بتجاوزهم لتلك القوانين .

السلطة القضائية : هي سلطة الفصل في المنازعات المعروضة أمامها وتصدر أحكامها وفقاً للقانون كما أن القضاة مستقلون ولا يجوز لأي سلطة التدخل في شئون العدالة .

السلطة التنفيذيَّة : هي السلطة التي تنفذ الأحكام القضائيَّة والقرارات الإداريَّة ولها أيضاً سلطة اتخاذ قرارات وهذه السلطة ممثلة في أشخاصها الاعتباريَّة المعروفة بالوزارات والسلطات والمؤسسات التابعة لها وهي مَعْنيَّة في الأساس بتحريك وإدارة دولاب العمل العام بالدولة .

وإن واحداً من أهم أسباب تقدم ورقي الأنظمة الديمقراطيَّة وتميزها عما سواها سياسيّاً هو حرصها الشديد جداً على أن يتضمن دستورها بنداً ينظم العلاقة بين السلطات الثلاثة (التنفيذيَّة، التشريعيَّة، القضائيَّة) وعلى أن يتم التأكيد على مبدأ الفصل بينها واستقلاليتها وعدم تمدد وتدخل سلطة على حساب السلطة الأخرى.

ولكن محمد عليّ قد جمع في يده السلطات الثلاث ، ولم يترك لأحد أن ينازعه أي سلطة فجعل نفسه في مقام من لا يسأل عما يفعل ، وهذا مقام لا يكون إلا لله تعالى { لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء : ٢٣]

فأنشأ حكومة قويَّة قضت على الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في البلاد ، وبهذه الحكومة أمكنه أن يتم الإصلاحات التي فكَّر فيها ، فلم يكن المزارعون والتجار والملاك يأمنون على أموالهم وأملاكهم بل كانت تتخطفها المناسر وقطاع الطرق ، وحلَّ محمد عليّ محل قطاع الطرق واللصوص فستولى عن طريق قوانين الاحتكار التي سنَّها ، وحكومته التي شكَّلها على اقتصاد مصر .

يقول عبد الرحمن الرافعي : " ميزة حكومة محمد عليّ أنها وطَّدت دعائم الأمن في البلاد وبذلك أمكنها أن تقوم بالإصلاحات التي مرَّ بك ذكرها ، ولكن بجانب ذلك لا مندوحة عن القول بأن محمد عليّ لم يكن يتَّجه ذهنه قط إلى إنشاء نظام دستوري أو شبه دستوري بالمعنى المفهوم منه ، وهذه نقطة ضعف وموضع نقد شديد في تاريخه ، وما الهيئات التي أسَّسها إلا مجالس تنفيذيَّة كانت الكلمة العليا فيها له ، ومجلس المشورة لم يعمِّر طويلاً ، والظاهر أن ميوله النفسيَّة لم تتَّجه إلى

ناحية النظام الدستوري ، ولو أنه عني بهذه الناحية لأمكنه أن يعدَّ الأمَّة للاضطلاع بمسئوليات الحكم في عهده ، ولكنه لم يفعل ، وترك المسألة فوضى بين خلفائه والشعب ، فوقع التصادم بينهما في أواخر عهد إسماعيل وأوائل عهد توفيق حتى أفضى إلى الثورة العرابيَّة ثمَّ إلى الاحتلال الإنجليزي . " [١]

وهذا هو الفرق بين النظام الدستوري ودولة المؤسسات وبين النظم الدكتاتوريَّة ، فالنظام الدستوري لا يرتبط بشخص إنما بمؤسسات يديرها أشخاص وفق الدستور والقانون فإذا ذهبوا جاء غيرهم ليقوموا بدورهم ، ومن مزايا النظام الدستوري أنه تعاوني ديناميكي يطور نفسه ويغير من اتجاهاته ونظمه وسياساته وفق إرادة الشعب ، أما النظام الدكتاتوري فيرتبط بشخص الحاكم فإذا ذهب انهار النظام ، وانهارت الدولة وهو نظام استبدادي استاتيكي جامد .

عرفنا كيف جمع محمد عليّ بين السلطتين : التشريعيَّة ، والتنفيذيَّة ، فماذا عن السلطة الثالثة السلطة القضائيَّة .

أنشأ محمد عليّ سنة ١٨٤٢ هيئة قضائيَّة جديدة تسمَّى " جمعيَّة الحقانيَّة " جعل من اختصاصها محاكمة كبار الموظفين على ما يتهمون به في أعمالهم ، وتحكم أيضاً في الجرائم التي تحيلها عليها الدواوين ، وكانت بمثابة محكمة جنايات وجنح، وهي مؤلفة من رئيس وستة أعضاء منهم اثنان من أمراء الجهاديَّة واثنان من البحريَّة واثنان من ضباط البوليس . [٢]

لقد استبدل محمد عليّ المحاكم العسكريَّة بالمحاكم المدنيَّة ، وبدلاً من أن يحاكم المواطن المدني أمام قاضيه الطبيعي المستقل حاكمه محمد عليّ أمام قضاة عسكريين ينفذون أوامره ، وبذلك سيطر محمد عليّ على السلطة القضائيَّة أيضاً وضمها إلى السلطتين الأخريين .

كما أنشأ محمد عليّ محكمة تجاريَّة تسمى " مجلس التجارة " للفصل في المنازعات التجاريَّة بين الأهلين أو بينهم وبين الإفرنج ، وتتألَّف هذه المحكمة من

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " ط ٥ دار المعارف ص٥٢٤ ، ٥٢٥ .
(٢) نفسه ص٥٢٦ .

رئيس ونائب وباشكاتب ، وكاتب ، وثمانية أعضاء من التجار ، خمسة منهم من الوطنيين وثلاثة من الأجانب ، وكان بكل من الإسكندريَّة والقاهرة محكمة من هذا النوع .

وكان المديرون يجمعون بين السلطتين القضائيَّة والإداريَّة ، ولهم اختصاص جنائي واسع المدى يصل إلى الحكم بالإعدام ، ومن هنا جاء إسرافهم في الظلم والإرهاق . " (١)

لقد كان القضاء في عهد محمد عليّ جائراً لأنه الخصم والحكم في نفس الوقت فظَلَّمَ المواطنين واستباح أموالهم ودماءهم لحساب هيبة الحكومة وجشعها .

وإذا كان محمد عليّ غير راغب في إقامة دولة مؤسسات كالدول الأوربيَّة فعلى الأقل كان عليه أن يلتزم بالعهود والمواثيق التي قطعها على نفسه أمام القوى الوطنيَّة التي اختارته لحكم مصر فلقد تعهَّد أن يقيم العدل وأن يلتزم برأي الشورى، ولكن محمد لم يقم دولة دستوريَّة ولم يقم العدل فدالت دولته .

الأزهر في عهد محمد عليّ

والسؤال أين علماء الأزهر الشريف من كلٍّ ما فعله محمد عليّ ؟ أين هؤلاء العلماء الذين قادوا الشعب وطردوا الفرنسيين ، وقضوا على حملة فريزر (١٨٠٧) وخلعوا خورشيد باشا ونصَّبوا مكانه محمد عليّ وأخذوا عليه المواثيق أن يسير بالعدل ، وألا يُبْرِم أمراً إلا بمشورتهم ؟ أين هؤلاء العلماء ضمير الأمة من جَوْرْ واستبداد محمد عليّ .

يقول عبد الرحمن الرافعي : " العلماء الطبقة التي كانت لها في عهد المماليك النفوذ العظيم والتأثير الكبير في الأمَّة وقيادة أفكارها ، وكانت لهم الزعامة الأدبيَّة والسياسيَّة بين الجماهير ، وإليهم يرجع تدبير الحركات الشعبيَّة التي ظهرت على مسرح الحوادث السياسيَّة في عهد الحملة الفرنسيَّة ، وبعيد انتهائها ، وهم الذين أثاروا الشعب على حكم المماليك ثم الوالي التركيّ ، ولكن نفوذهم قد تضاءل في

---

(١) نفسه ص٥٢٦ ، ٥٢٧ .

عهد محمد عليّ وانحلّت زعامتهم .. فلم تقم لهم قائمة بعد نفي عمر مكرم زعيمهم وإقصائه من الميدان ، بل صاروا تبعاً للحكومة من غير أن يكون لهم أثر في سياستها أو في مشاريعها .

وفي الواقع أنهم لم يخلص لهم نفوذهم القديم بعد نفي عمر مكرم ، ولم يبق لهم إلا أثارة من الاحترام يسبغها عليهم انتسابهم إلى الدين والأزهر .

ومما زاد في تضاؤل نفوذ العلماء أن الأزهر ظلّ على نظامه القديم ولم يساير حركة التقدم والإصلاح التي نهض بها محمد عليّ ؛ فانتقل مركز الثقافة من الأزهر إلى المدارس والمعاهد والبعثات ، وانكمش العلماء ولم يشتركوا في حركة التجديد والإنشاء في مختلف نواحيها ، فعجزوا عن الاشتراك في حروب مصر أو في إدارة حكومتها أو في سياستها وأعمال العمران التي قامت بها ." (١)

ويرجع الطهطاوي سبب تخلُّف الأزهر إلى محمد عليّ الذي لم يُدْخل فيه العلوم الحديثة : الطبيعيَّة والحكميَّة .

يقول الطهطاوي : " ولو أنه (يقصد محمد عليّ) أعلى منار الوطن ورقَّاه لم يستطع إلى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوِّعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم يجذب طلابه إلى تكميل عقولهم بالعلوم الحكميَّة التي كبير نفعها في الوطن ليس ينكر " (٢)

وهكذا قضى محمد عليّ على مصر ورجالها : عامة وعلماء ، ولكن دولة الظلم قد تُحقِّق بعض الانتصارات وتستمر بعض الوقت لكن سرعان ما تنقلب الانتصارات إلى هزائم وتنهار أركانها وتنتهي إلى الفشل المُحقَّق ، وهذا مصير كل نظام عسكريٍّ مستبد .

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ } [يونس : ١٣]

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " عصر محمد علي " مرجع سابق ص ٥٤٨ بتصرف .
(٢) نقلاً عن عباس محمود العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مرجع سابق ص ٥٩ .

انهيار نظام الاحتكار والتدخلات الأجنبيَّة

كان من شأن سياسة الاحتكار التي اتبعها محمد عليّ في المجالات الاقتصاديَّة المختلفة أن تجلب عليه عداء الداخل والخارج ففي الداخل هجر الفلاحون أرضهم وأغلق الصنَّاع محالهم ، أما التجار فقد كسدت تجارتهم ، كما عادت الدول الأوربيَّة محمد عليّ بسبب حروبه التوسعيَّة وإغلاق أسواق مصر أمام البضائع الأوربيَّة ؛ مما أدَّى إلى تحالف الدول الأوربيَّة وعلى رأسها إنجلترا بالاتفاق مع السلطان العثماني على الإيقاع بمحمد عليّ وفرض تسوية لندن السياسيَّة في عام ١٨٤٠ التي نفذت بمقتضاها معاهدة " بلطة ليمان " وسقط نظام الاحتكار وبدأت المنتجات الأوربيَّة تدخل السوق المصريَّة ، وبدأت الاستثمارات الأجنبيَّة في التدفُّق على مصر ؛ وساد مناخ الحريَّة الاقتصاديَّة وإن كان لصالح الأجانب أكثر منه لصالح المنتج المصري.

أصبح المزارعون أحراراً في زراعة ما يشاءون من محاصيل وبالأسلوب الذي يريدونه ؛ فحدث تأخُّر وجمود في أساليب الزراعة ، كما أدَّى إلغاء نظام الاحتكار في الصناعة إلى قلَّة إنتاج مصانع الدولة بعد إغلاق معظمها . أما الصناعات الحرفيَّة الصغيرة فقد تدهورت وكسدت وذلك لعدم القدرة على منافسة الإنتاج الأجنبي الذي بدأ يغمر السوق المحليَّة ، أما التجارة فلم تتأثَّر كثيراً وإن تناقص دور التاجر المصري لحساب الوكالات الأجنبيَّة ، وقد فُتِحَتْ البلاد أمام الهجرات الأجنبيَّة ، واستند هؤلاء الوافدون إلى الامتيازات الأجنبيَّة التي كانت تعفيهم من الضرائب وتمنحهم الحق في أن يحاكموا أمام محاكم قنصليات بلادهم . [١]

وهذا الانهيار الذي حدث للاقتصاد المصري ناتج عن استغلال الحكومة المواطنين بدلاً من مساعدتهم بتدريبهم وتطوير أدواتهم وزيادة إنتاجيتهم وتسويق منتجاتهم ، فبسقوط نظام الاحتكار وقع الاقتصاد نهباً في اليد الأجنبيَّة التي استغلَّته ؛ لأنه لم يستطع أن ينافس المنتج الأجنبي ، فالحكومات عليها أن تساعد لا أن تستغل أن تنهض بالمواطنين لا أن تقهرهم ، أن تحفزهم لا أن تحبطهم .

---

(١) د. عبد العزيز نوار وآخرون " تاريخ مصر والعرب الحديث " ص ١٢٧- ١٢٩ بتصرف .

لقد أرغم محمد علي على هدم نظامه الاقتصادي عامة والذي اعتمد فيه على الأسلوب الاحتكاري وكان من أهم أسباب فشل مشروع نهضة مصر خلال هذا الوقت استحواذ محمد عليّ وحده على القرارات دون الشعب .

تمرُّد الجيش المصري ضد محمد عليّ

وحرصاً من محمد عليّ على استتباب حكم مصر له فإنه لم يشرك المصريين في جيشه خوفاً من ثورتهم عليه ، فعلى الرغم من الانتصارات التي سجّلها أبناء الفلاحين بأيديهم ودمائهم إلا أن محمد عليّ كان يحد من مناصبهم ، وكان يظنها مخاطرة منه أن يكون من أبناء الفلاحين قوّاداً أو ضبّاطاً عظام قد تكون لهم في حكم البلاد آراء. (١)

ومع حرص محمد علي بإبعاد المصريين عن الجيش إلا أنه حدث ضده تمرُّد قاده الضابط المصري لطيف باشا الذي كانت ولزملائه من الضباط المصريين مطالبهم، فانتهزوا فرصة وجود محمد على في بلاد الحجاز وأحدثوا لوناً من التمرُّد والاحتجاج الذي عاد محمد عليّ للقضاء عليه ، وكان مركزه من الحرج بحيث استدعى ابنه طوسون من البلاد الوهابيَّة فعاد مسرعاً لمعاونته تاركاً أمر النصر ضد الجيوش الوهابية تحت رحمة القدر ، وفي هذا دليل على خطورة موقف محمد عليّ في مصر ، وعلى أهمية هذا التمرد الذي يقوده ضابط مصري له مركزه المعروف في الجيش . (٢)

محمد عليّ ونظرية المستبد العادل

ورغم أن محمد عليّ يُعدُّ رائد النهضة المصريَّة الحديثة وأنه نقل مصر من غياهب العصور الوسطى التي كان العثمانيون يفرضونها على الشعب المصري إلى نهضة العصر الحديث التي كانت تعيشها أوروبا ، إلا أن هذا لا يمنع أن نذكر أنَّه كان ديكتاتوراً مُستَبداً حرم مصر الحريات وسار في المصريين سير الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق ، وأن عائد هذه النهضة لم يعد على المصريين الذين

---

(1) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ١٣٤ .
(2) نفسه ص ١٣٥ .

صنعوها إنما عادت على محمد عليّ ؛ فمستوى المعيشة عند الكثرة الغالبة من المصريين لم يرتفع عما كان عليه من قبل بل زاد سوءاً ، وضاع مجهود قوى الإنتاج البشريَّة من الفلاحين والصنَّاع لمصلحة مشاريع الوالي دون أن يعود جزء مناسب من هذا المجهود على المنتجين وتطوير مستواهم المعيشي والتعليمي والصحي ، فكون أن تصبح المزايا للحاكم وطبقته فقط على حساب بؤس المحكومين ، فهذا أسوأ ما في سياسات حكم مصر خاصة في هذا العصر . (١)

لقد ربط بعض المؤرخين وكتَّاب المقررات المدرسيَّة بين نهضة مصر في عهد محمد عليّ ودور الحاكم الفرد في صنع النهضة المأمولة في مصر ، وكان أثر هذه الرؤية خطيراً ليس فقط على تاريخ مصر في عهد محمد علي إنما امتدَّ أثره ليشمل العهود التالية لعصره .

فالمقرر المدرسي لمادة التاريخ عام ١٩١٦ للصف الثاني الثانوي تتصدره صورة محمد عليّ ، ويشغل عرض تاريخه ٩٣ صفحة وهي تمثل ٣٠ % من محتوى الكتاب البالغ عدد صفحاته ٣٠٤ صفحة ، كذلك نجد مقرر عام ١٩٣٤ للصف الثالث الثانوي قد خصص حوالي ٧٠ صفحة أي حوالي ٢٨ % من الكتاب من عدد صفحات الكتاب البالغ عدده ٢٤٥ صفحة لتاريخ محمد عليّ وحده ، وظلَّ الاهتمام بمحمد عليّ في المقررات المدرسيَّة حتى نهاية حكم أسرته ، فكتاب الصف الرابع الثانوي الصادر عام ١٩٤٨ خصَّص ٧٠ صفحة لمؤسس الأسرة الكبير وهي تمثل حوالي ٢٠ % من الكتاب البالغ عدده ٣٥٣ صفحة ومن الملاحظ أنه كلما تقدمنا نحو ثورة ٢٣ يوليو ومتغيراتها كلما قلَّت الصفحات المخصَّصة لتاريخ مؤسس الأسرة محمد علي .

لقد عظمت المقررات المدرسيَّة وكتب التاريخ قبل ثورة يوليو دور محمد عليّ وجسمته بغير حقيقته ، وجعلت منه مبدعاً لكلٍ جديد في أوانه ، خالقاً للأشياء من العدم ، متجاهلين أبسط المسلمات وهي تطور الأشياء من خلال اتصال الأحداث

---

(٣) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " مرجع سابق ص ٩٥ .

وسيولة انتشار الأفكار عبر الزمان والمكان ، ومنشأ ذلك اصطناع المؤرخين النظرة الأحاديَّة في التقييم التاريخي ، مستبعدين عمداً أو جهلاً النظرة الشموليَّة العلميَّة . (١)

لقد عَدَّ هؤلاء الكتَّاب محمد علي نموذجاً للحاكم المصلح الذي يبتهل المصريون إلى الله بأن يرزقهم مثله ليقيل عثرتهم ويبني نهضتهم ويقوي شوكتهم وبعد ثورة ٢٣ يوليو استبدل كثيرٍ من المصريين عبد الناصر بمحمد علي كرمز للحاكم القوي المصلح !! واستبدل كتَّاب المقررات المدرسيَّة إنجازات ثورة ٢٣ يوليو وقائدها جمال عبد الناصر بإنجازات الأسرة العلويَّة ومؤسسها محمد عليّ !!

إن مقررات التاريخ المدرسيَّة بعد ثورة ٢٣ يوليو قد حاولت طمس تاريخ الأسرة العلويَّة ونسبة إنجازاتها للشعب المصري لا لمحمد عليّ في مقابل إبراز الدور والوطني والثوري لثورة يوليو وقائدها أكثر من أي فترة أخرى من فترات تاريخنا الحديث والمعاصر ، وتجاوزت هذه الكتب حدود التحليل التاريخي تحت تأثير توجهاتها السياسيَّة . (٢)

وهكذا فإن تاريخ مصر يكتب على حسب هوى الحكام وبأقلام الموالين لهم من الكتَّاب والمؤرخين الذين يزينون للناس ، والأكثر خطورة طلاب المدارس ، سوءات الحكام ويجمِّلون وجوههم القبيحة ويهملون دور الشعوب المكافحة وحقوقهم المشروعة ومطالبهم المهضومة .

إن من الواجب أن يكون هناك حد أدنى من التاريخ الوطني المتَّفق عليه المبني على الحقائق والوثائق وفلسفة التاريخ الحقيقيَّة ، تاريخ وطني يمثل أساساً لا تبدله أوضاع الساسة أو حالة السياسة ، فغير مقبول ابتلاع واجترار رأي كل حاكم وتهويله حتى ولو طمس تاريخ شعبنا ، وما أكثر رغبات حكامنا بالذات في طمس تاريخ من سبقوهم من الحكَّام بغية إبراز ريادتهم وزعامتهم . (٣)

---

(١) نقلاً عن د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصريَّة " مرجع سابق ص ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) نفسه ص ٩١ .
(٣) نفسه ص ٨٢ .

ومن طول عهود القهر والاستبداد وغيبة الحقائق وتوجيه الحكام لكلّ وسائل الإعلام وتحويل المقررات المدرسيَّة إلى نشرات دعائيَّة استقرَّ في نفوس كثير من الناس أنه لا يُصلِح أمر مصر إلا دكتاتور عادل كمحمد عليّ وجمال عبد الناصر، والحقيقة أن الحاكم إن كان عادلاً فإنه لا يكون ديكتاتوراً ، فالعدل والاستبداد لا يجتمعان في شخصية واحدة ، وإلا جار أحدهما على الآخر .

والعجيب أن مشروعي محمد علي وجمال عبد الناصر قد فشلا بسبب تسخيرهما الشعب لتنفيذهما دون مشاركة حقيقية منه ، ولكن المؤرخين لا يردُّون فشل هذين الزعيمين لاستبدادهما وعدم فهما لطبيعة الشعب المصري الذي لا يُرْغم على فعل ما لا يريد ، كما بيَّنا ، إنما يَردُّون فشلهما لعوامل خارجيَّة ومؤامرات القوى استعماريَّة التي لا تريد لمصر خيراً وتجهض كل نهضة وتقضي على كل زعيم مصلح !!

إن الضعيف الجبان دائماً يحلم بزعيم قوي شجاع يستر وراءه ضعفه ، ويجبر به كسره ، وفي أوقات الهزائم والمحن يلتف الناس خلف كل ثائر بطلاً كان أو ناعقاً ، ويستحضرون صور زعمائهم الذين قالوا " لا " في وجه أعدائهم ، وبدلاً من أن ينتصروا للمبادئ ينتصرون للأشخاص الذين عبثوا بها !!

هذه هي عبادة الأشخاص التي تسود المجتمعات المتخلِّفة ، فهي تؤمن ببعض الزعماء إيماناً مطلقاً ، وتجعل من شعاراتهم قرآناً صالحاً لكل زمان ومكان !

ولا يكفي لبلوغ الأهداف مجرد طموح زعيم وإرادته بل لابد من تأييد حقيقيٍّ ومستمر تقوم به الأمَّة عن حب وطواعية ولهذا وجب أن يقوم تنسيق جيد وتوازن سليم بين الإرادة الشعبيَّة وبين تطلعات الزعيم وبدون هذا التوفيق وهذا التوازن يتعذر على الزعيم أن يمضي في طريقه قُدُماً ، فواجب الزعيم أن يلتمس دائماً مواطن القوَّة ويتعرَّف بيقين ما يملكه من إمكانيات ووسائل لتحقيق الأهداف إذ لا يكفي مجرد التطلع إلى السلطة ، ولا يغني كذلك الوصول إليها بل لابد أن تتوافر الوسائل والإمكانيات التي تضمن تحقيق الأهداف .

والهدف في ذاته لا يكفي ولن يكون له الفاعلية المنشودة ما لم تتوافر له الوسائل الملائمة وإلا تعرض الزعيم إلى انحرافات ومزالق يؤدي إليها الخيال والتوقعات التي لا تستند إلى أساس سليم ، وهذا من شأنه يؤدي إلى القضاء على الزعيم وعلى أمجاده. (١)

والشعوب المتحضِّرة استطاعت أن تستبدل بعبادة الأشخاص تقديس المبادئ، والكفر بالزعماء الذين أهدروها.

وأيقَنَتْ أن لكلٍّ زمان رجاله ، ولكل مرحلة قراراتها فما كان مطلوباً في وقت النضال من أجل الحرية – ربما – صار مرفوضاً في المراحل التالية التي تتطلب مراجعة النفس ، وإعادة تقييم الماضي بشخوصه وأحداثه.

ولنا أن نقرر مطمئنين أن النهضة المصريَّة التي تمَّت في عهد محمد عليّ كانت ستتحقق حتماً وربما بصورة أفضل مما تمَّت به ؛ فالحملة الفرنسيَّة كما بيَّنا قد أيقظت الشعب المصري ، كما أيقظت شعوب أوروبا : ألمانيا وإيطاليا وغيرهما .

وكان من الطبيعي أن ينهض الشعب المصري ليساير غيره من الشعوب وقد نهضت الأمَّة المصريَّة بالفعل فسبقت دول شرق أوربا جميعاً .

وحين هُزِمَت الدولة لم يستطع الشعب المقهور والمُقْصَى عن المشاركة في الحكم أن يقيمها بالسرعة اللازمة ، فمن المهم أن تنهض بالبلاد لكن الأهم أن تنهض بالشعوب سكان هذه البلاد لأن النهضة التي تقوم على رجل تسقط بسقوطه أما النهضة التي تقوم على شعب حر مشارك فلن تسقط بسقوط أي فرد من أفرادها مهما كان مركزه .

تقييم تجربة محمد عليّ في الحكم

لقد نهض محمد على بمصر نهضة عمرانيَّة مدنيَّة ماديَّة كالنهضة الأوربيَّة ، ولكنه لم يهتم بالجانب الروحيِّ المعنويِّ فقد غفل عن القيم الدينيَّة التي تدعو إلى الحق والعدل والعدالة الاجتماعيَّة فقد كان حكمه دكتاتوريّاً استبدادياً كالحكم العثمانيِّ

(1) محمد على الغتيت " العبقرية والزعامة السياسية " دار الشعب الطبعة الثانية ص ٢٩٩.

والمملوكيِّ قبله ، كما أجهد محمد عليّ الشعب بالضرائب التي كان يفرضـــها علـــى الشعب، كلما احتاج لتمويل أحد حملاته أو مشاريعه دون نظام محدد، شـــملت تلـــك الضرائب، الضرائب المفروضة على الأراضي والمزروعات والأفراد والماشية.

صحيح أن محمد عليّ بنى جيشاً مُقْتدِراً ، ولكن جيشه وحده لا يكفي ، صـــحيح أنه أوجد مصر الحديثة ، ولكنه لم يحسن توجِّيه الحيوية الكامنة في هـــذا الـــشعب العريق. لنا أن نقرر محاسن هؤلاء الناس ، ولكن علينا ألا نغفل الأخطاء الكبـــرى التي هددت كياننا .

ولقد وضع محمد عليّ زمام الوطن في يده ، كان في يده الجند والعتاد ؛ فبـــدَّده في سبيل مطامع خياليَّة مُجَنَّحَة ، وجمع في يده أراضي الفلاحـــين ؛ فلجئـــوا إلـــى العصيان المدني فأضربوا عن الزراعة ، وتكاسلوا عن بذل أي مجهود تذهب ثماره لطائفة معينة هم عائلة محمد عليّ ومن حولهم من العصابات الشركسيَّة والتركيَّة .

ولو أن محمد عليّ التفت إلى الشعب المصري وقوَّاه ، ووفَّر له القوت والرفاهية ولم اكتف بالتعمير والتمدن لكان اسمه في الخالدين ، لكنَّه بـــدَّد القـــوى ، وبعثـــر الجيش ، وضحَّى بالحريَّة وبالحياة في غير هدف وفي غير اتزان ؛ فأفقـــد بلادنـــا ذخيرة ضخمة من المال وذخيرة ضخمة من الرجال ، وذخيرة ضخمة من النفـــوس الحريَّة الأبيَّة ، أذلها أشنع إذلال .

لقد أفسد محمد عليّ رسالة التمدن لأنه أفقد البلاد كثيراً من الجهد والمال بغيـــر هدف واضح ، وبغير نتيجة سوى هذا الجانب المظهري مـــن تكوينـــه لدولـــة ذات مظهر عسكري برَّاق ، وسوى هذا التاريخ الذي يُروى فيبث الحميَّة فـــي النفـــوس المليئة العاطفة والحماس . (١)

وبهزيمة محمد عليّ وانهيار نظام الاحتكار تدفَّق الأجانب وبوجود الأجانب فـــي المجتمع المصري تدفَّقت مظاهر الحياة الأوربيَّة إلى مصر (أيام سعيد وإسماعيًل)

(1) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ١٦٩– ١٧١ بتصرف .

نظراً لميولهم الأوربيَّة الواضحة ، وقد ظهر ذلك في أحياء كاملة بالقاهرة والإسكندريَّة .

وعندما تولى إسماعيل الحكم كانت معظم المدارس التي أنشاها محمد عليّ قد أُغلِقت ولما كان توَّاقاً إلى جعل مصر تسير على نهج النهضة الأوربيَّة فقد وجد أن الوسيلة الأساسيَّة قي هذا تَكْمُن في التعليم ، وعلى هذا أعاد تكوين ديوان المدارس ليشرف على تأسيس المدارس اللازمة ، كما اهتم إسماعيل بتعليم البنات ، وبالتعليم الصناعيِّ والزراعيِّ والمحاسبة والمساحة .

وفي الوقت نفسه كثر عدد المدارس الأوربيَّة التي أقامتها الإرساليات الدينيَّة في مصر للبنين والبنات ، ولم يتوقف الأمر في عصر إسماعيل على الاهتمام بالتعليم في المراحل والتخصصات المختلفة بل انفتح المجال واسعاً لحركة ثقافيَّة متنوعة كان لها تأثيرها القوي في بناء شخصيَّة مصر الثقافيَّة ، وكانت بعثات محمد عليّ قد بدأت تؤتي ثمارها .

عمل إسماعيل على التخلص من قيود فرماني : فبراير ويونيه ١٨٤١ وسعى إلى تحقيق استقلال مصر تدريجيّاً واستعادة قوتها العسكريَّة ، ومن هنا بدأت القوى الأوربيَّة تدرك خطورة إسماعيل كما أدركت من قبل خطورة جدِّه محمد عليّ .

وفي سبيل تحقيق إسماعيل ما سعى إليه أنفق أموالاً طائلة للحصول على الفرمانات السلطانيَّة اللازمة ، ولما كانت خزينة البلاد لا تفي بالأموال المطلوبة فقد لجأ إلى الاستدانة من البنوك الأجنبيَّة الأمر الذي جعل مصر مدينة للأجانب ، وأكثر من هذا دخلت في دائرة من الأزمات الماليَّة والسياسيَّة مع القوى الأوروبيَّة انتهت بعزل إسماعيل ، وأشعلت الحركة الوطنيَّة ضد مظاهر التدخل الأجنبي ، وانتهى الأمر باحتلال انجلترا مصر .

***

الفصل السادس

النهضة في الحقبة الليبرالية

الثورات المصريَّة والنهضة

منذ أن احتلت بريطانيا أرض مصر عام ١٨٨٢ ما فتئت الدعوة إلى الجلاء والجهاد تستعر داخل القوى الوطنيَّة التي حاولت جهدها الخلاص والتحرير من نَيْر الاحتلال الأجنبي ، وكانت أول مفاوضة في سبيل الجلاء عام ١٨٨٥ ، وتظاهرت بريطانيا بالرغبة في تحقيقه وشغلت الرأي العام في مصر والخارج بهذه المفاوضات المسماة درومندولف والتي استمرت سنتين من ١٨٨٥ إلى ١٨٨٧ وانتهت بالإخفاق وبقاء الاحتلال قائماً .

فلما بُعِثَت الحركة الوطنيَّة على يد مصطفى كامل كان شعارها الجلاء الذي ظلَّ شعار الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل ، واستمرَّ الشعب ماضياً في جهاده في عهد محمد فريد .

ثورة ١٩١٩ والكفاح من أجل استقلال مصر

أعلن الرئيس الأمريكي " نلسون " مبدأ حق تقرير المصير ، أي حق أي أمَّة في الحصول على حريتها ، كما أعلن "تأليف عصبة الأمم" للقضاء على تحكيم القوَّة في أي نزاع لذا سعى الشعب المصريُّ بعد الحرب العالميَّة الأولى ليس فقط إلى التخلُّص من الاحتلال البريطاني إنما من الحكم العثماني أيضاً وذلك بعرض قضية مصر أمام مؤتمر الصلح الذي كان مقرراً عقده في باريس في ٢٨ يونيو ١٩١٩م من أجل التخلُّص من إنجلترا ، والدولة العثمانيَّة وتشكَّل الوفد المصري (سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي) واعترض المندوب السامي على سفر

هذا الوفد بحجَّة عدم تمثيله للشعب المصريِّ فسارعت طوائف الشعب على توقيع توكيلات ، لكن إنجلترا إذ عرفت التفاف الشعب المصري حول الوفد قامت باعتقال سعد زغلول وبعض أفراد الوفد ونفيهم .

لكن الشعب المصريَّ بمختلف فئاته وطوائفه قام بثورة عارمة اشترك فيها المسلمون والأقباط ، الرجال والنساء ، الفلاحين والعمال ، والطلبة والموظفين ، كانت جميع طوائف الشعب مُمَثَّلة في هذه الثورة الكبرى .

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

كان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ نتيجة طبيعيَّة لثورة الشعب ووقوفه خلف زعمائه المطالبين بالجلاء والدستور، ذلك التصريح الذي أعلنت فيه إنجلترا انتهاء الحماية البريطانيَّة على مصر وأن تكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة مع بعض التحفظات(1) وبهذا التصريح أصبحت مصر دولة مستقلَّة ذات سيادة ، كما أصبح من حق مصر اتخاذ الدستور نظاماً للحكم فيها مما أدخل مصر ولأول مرة مرحلة جديدة من حياتها السياسيَّة هي مرحلة الديمقراطيَّة التي تعني أن الأمَّة – لا الملك ولا غيره – مصدر السلطات ، ووضع دستور ١٩٢٣ الذي يجعل الأمَّة مصدر السلطات لكن الملك فؤاد استطاع أن يفرض بعض المواد في الدستور الجديد تتيح للملك سلطة حلِّ البرلمان المنتخب من الشعب دون قيد أو شرط ، كما جعل من حق الملك إقالة الوزارة ، وهذان الشرطان هما ما أفسدا الحياة الديمقراطيَّة في مصر إلى حد كبير .

معاهدة ١٩٣٦

بعد وفاة الملك فؤاد جرت انتخابات حرَّة نزيهة في ٢ مايو ١٩٣٦ وأسفرت عن فوز الوفد بالأغلبيَّة البرلمانيَّة .

---

(1) وهذه التحفظات هي : حق انجلترا في تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر ، و حقها في الدفاع عن مصر ، وحقها في حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات ، وحقها في التصرف في السودان .

في تلك الأثناء كانت الأجواء العالميَّة تنذر بحرب عالميَّة فقد كانت العسكريَّة الألمانيَّة قد وصلت إلى قمة قوتها ، وطمح هتلر النازي في اجتياح العالم كله ، وقام الحكم الفاشيستي في إيطاليا بغزو الحبشة ، لذا أحسَّت انجلترا بالخطر من هذين الماردين الجديدين : هتلر ، موسوليني لما لهما من رغبة استعماريَّة جامحة تساندها قوَّة عسكريَّة جبَّارة " لذا سعت إنجلترا إلى تغيير سياستها تجاه الوفد ، ومشت إليه تمد يد الصداقة ومد الوفد يده إليها لكي يكسب لمصر استقلالها ، بعد أن طالت شُقَّة الجهاد نَيِّفاً وخمسين عاماً وتشكَّلت هيئة للمفاوضات ضمت جميع رؤساء الأحزاب وذوي الرأي المستقلين وعقدت معاهدة ١٩٣٦ " (١) في ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ بوزارة الخارجية البريطانية .

وقد حقَّقت المعاهدة المزايا الآتية :

١- انتهاء احتلال مصر عسكريّاً بواسطة قوات إنجلترا .

٢- انضمام مصر لعصبة الأمم باعتبار مصر دولة مستقلَّة ذات سيادة .

٣- إلغاء الامتيازات الأجنبيَّة .

٤- تقوية الجيش المصري إلى الدرجة التي تمكِّنه من الدفاع عن قناة السويس بمفرده فإذا وصل إلى هذه القوة تجلو القوات البريطانيَّة الحليفة من مصر .

٥- سحب جميع الموظفين البريطانيين من الجيش المصري ، وإلغاء إدارة الأمن الأوربيَّة ، وخروج العنصر الأوربي من البوليس ، واعتبار مصر هي المسئولة عن حماية الأجانب .

٦- حرية مصر في عقد المعاهدات السياسيَّة مع الدول الأجنبيَّة ، بشرط ألا تتعارض مع المعاهدة .

٧- إرجاع الجيش المصري إلى السودان ، واعتراف بريطانيا بالإدارة المشتركة مع مصر والسودان .

---

(١) محمد شوكت التوني " أحزاب وزعماء " مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع ص ٤٢

٨- أن تسري المعاهدة مدة عشرين سنة .

على هذا النحو انتهت صفحة من نضال الشعب المصري من أجل الاستقلال الخارجي والداخلي .. وتحوّلت العلاقة بين بريطانيا ومصر من علاقة احتلال إلى علاقة تحالف . وقد فضلت مصر التحالف مع بريطانيا نظراً لأن خطراً مشتركاً كان قادماً في الطريق وهو الخطر الفاشي المتمثل في ألمانيا وإيطاليا . (١)

جلاء الإنجليز عن القاهرة والإسكندرية

وتحت ضغط الكفاح الشعبي المتزايد جلا الإنجليز عن قلعة القاهرة في ٤ يوليه ١٩٤٦ وسلّموها إلى الجيش المصري وأُنْزِل العلم البريطاني الذي كان يرفرف عليها طوال أربعة وستين عاماً ثم جلو أيضاً عام ١٩٤٧ عن المواقع التي كانوا يحتلونها في القاهرة والإسكندريَّة وضواحيها وانتقلوا إلى منطقة قناة السويس وقاعدتها .

مشروع صدقي / بيفن

كان إسماعيل صدقي لا يؤمن بالديمقراطيَّة ولا بالحريَّة إنما كان يؤمن بأن حكومة الأغلبيَّة ما هي إلا حكومة الرعاع وأن الأفضل للبلاد أن تحكم بطريقة الطبيب الذي يضطر المريضَ لتجرُّع الدواء المرير ، أو ببتر الساعد العزيز لكي يسلم باقي الجسد " لم يكن إسماعيل صدقي خائناً لوطنه ، ولا بائعاً للإنجليز بلاده ، ولكنه كان غير مؤمن بحكم الشعب للشعب ، وإنما يؤمن بنظرية " هيجل " نظريَّة القوَّة التي قام عليها حزب " النازي " في ألمانيا .. معاصراً لحكم صدقي باشا ، ثم حكم " الفاشيست " في إيطاليا قبيل ذلك ، أي حوالي سنة ١٩٢٣ ، عند قيام حركة " فيومي " التي قادها الصحفي " بنيتو موسوليني " والتي اعتنقها أيضاً "فرانكو" في أسبانيا ". (٢)

وفي عام ١٩٤٧ بدأ إسماعيل صدقي ، رئيس الوزراء حينئذ ، المفاوضات مع الإنجليز لتعديل معاهدة ١٩٣٦ ليحقق لمصر الجلاء ، ووحدة وادي النيل وهما

---

(1) د . عبد العظيم رمضان .
(2) محمد شوكت التوني " أحزاب وزعماء " الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع ط ص ٣٧ .

المطلبان اللذان كان أي مفاوض مصري يصرُّ عليهما ولا يرضى بهما بديلاً ومن هذه الثوابت بدأ صدقي " يفاوض إنجلترا لإجلاء قواتها عن قناة السويس وإعادة الوحدة بين مصر والسودان ".(١)

وسافر صدقي باشا إلى لندن هو ووزير الخارجيَّة إبراهيم عبد الهادي "وانتهيا إلى مشروع اتفاق وقَّعاه ووقَّعه مستر بيفن (وزير الخارجيَّة البريطانيَّة) بالحروف الأولى من أسمائهم وعُرِفَ من بعد بمشروع " صدقي بيفن " (٢) وكان ينص هذا المشروع على " الجلاء التام في سبتمبر ١٩٤٩ ". (٣)

وينص البروتوكول الخاص بالجلاء في هذه المعاهدة على " اتفق الطرفان الساميان المتعاقدان على أن الجلاء التام عن الأراضي المصريَّة بواسطة القوات البريطانيَّة يجب أن يكون قد تمَّ في أول سبتمبر سنة ١٩٤٩ م وأن مدينتي القاهرة والإسكندرية والدلتا يجب أن تكون قد أُخْلِيَت قبل مارس ١٩٤٨ م ". (٤)

وعرض صدقي المشروع على البرلمان الذي كان غالبيَّة أعضائه منتمية لأحزاب، ولما كان صدقي ليس صاحب حزب له الأغلبيَّة في البرلمان ، وأنه مُعَيَّن من قِبَل الملك ولم يتولَّ رئاسة الوزارة بانتخابات حرَّة كما تقضي بذلك التقاليد الدستوريَّة ، فإن غالبيَّة أعضاء البرلمان عارضوا مشروع صدقي بيفن على ما فيه من قرارات كانت كفيلة بتحقيق الجلاء التام للقوات البريطانيَّة عن كل أرض مصر والسودان في موعد أقصاه سبتمبر ١٩٤٩ .

الاحتلال مع الديمقراطيَّة أم الاستقلال مع الديكتاتوريَّة ؟

لقد آثر البرلمان المصري آنذاك إقامة حياة ديمقراطيَّة سليمة بما فيها من انتخابات حرَّة نزيهة ، تأتي بمن تأتي به من أحزاب إلى السلطة وعدم تدخل الملك في كل ذلك – آثر الشعب المصري الحياة البرلمانيَّة السليمة على جلاء الإنجليز.

---

(١) نفسه ص ١٧١ .
(٢) د. محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " دار المعارف ص ٢٧٢
(٣) عبد الرحمن الرافعي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " الدار القومية للطباعة والنشر ص ٣٤ .
(٤) عبد الرحمن الرافعي " في أعقاب الثورة المصرية " مرجع سابق ص ١٩٩ .

فإذا كان الجلاء يأتي على يد صدقي باشا المستبد المُعيَّن من قبل الملك ولم تأت بـه انتخابات حرَّة تمثل إرادة الأمَّة فلا للجلاء ، ونعم لحريَّة الأمَّة فـي اختيـار مـن يحكمها ؛ فالاستعمار سوف يرحل عاجلاً أو آجلاً لكن الذي يهم البرلمان هو نظـام الحكم في مصر فهذا هو الباقي .

عندما قرأتُ هذا قديماً كنت ألوم على برلمان مصر الذي ضحَّى بجلاء الاستعمار من أجل ترسيخ حياة ديمقراطيَّة سليمة لا يتلاعب بها الملك ؛ فقـد كنـت أرى أن جلاء الإنجليز سوف يمكِّن المصريين من إقامة حياة ديمقراطيَّة سليمة كـان يقـف الإنجليز حائلاً دونها ، وعندما أمعنت النظر في تاريخ مصر اللاحـق أدركـت أن أعضاء البرلمان كانوا مُحقِّين في ذلك تماماً .

فقد قامت ثورة ٢٣ يوليو وطردت الملك ، وأسقطت المَلَكيَّة ، وأقامت ديكتاتوريَّة عسكريَّة أجلَت الإنجليز ، ولكنها رسَّخت الديكتاتوريَّة التي قهرت الشعب المـصري نحو ستين عاماً تلك الديكتاتوريَّة التي ارتكبت في حق مصر مـا لـم يرتكبـه أي عدوان خارجي فقد شهدت مصر في ظل الاحتلال حياة شـبه ديمقراطيَّـة ولـولا استبداد الملك فؤاد وابنه فاروق لكانت نموذجاً يحتذى .

وبالقطع أنا أكره الاحتلال الأجنبي ولا أرضاه لأيِّ أمَّة فضلاً عن بـلادي كمـا أحب الحرية تعمُّ كلَّ البشر ولاسيما بلادي . ولقد تحرَّرت – تقريباً – جميـع بـلاد العالم من الاستعمار الأجنبي ، ولكن كثيراً منها مازال ترزح تحت نير دكتاتوريَّـة الحكَّام المستبدين من أبناء جلدتها .

ولقد توصَّل الضبَّاط الأحرار إلى هذه النتيجة وهم في حرب فلسطين توصَّلوا إلـى أن الحرب الحقيقيَّة في مصر ضد المستبدِّين فيها لا ضد الاحتلال الإنجليـزي الـذي ينعم في ظل هؤلاء المستبدِّين فكانت ثورتهم ضد الملك المستبد الـذي أفـسد الحيـاة البرلمانيَّة وانتهك الدستور، ولم تكن ضد الاحتلال الإنجليزي الرابض في مدن القناة.

لذا فلا عجب أن فضَّل كثيرٌ من علماء المسلمين السلطان الكـافر العـادل علـى السلطان المسلم الجائر .

لذا كان أعضاء البرلمان المصري برفضهم مشروع صدقي بيفن - الذي يُعدُّ أفضل من اتفاقية الجلاء التي سيوقّعها جمال عبد الناصر مع الإنجليز بعد سبع سنوات - يعبّرون عن رفضهم الحكم المستبد ، وتدخُّل الملك في سياسة البلاد وفرض رئيس الوزراء ووزرائه على الشعب ، إن رغبة أعضاء البرلمان المصري في حياة ديمقراطيَّة كانت مقدَّمة على قبول اتفاقية تحقق جلاء الإنجليز عن مصر إذا جاءت عن طريق صدقي باشا الفاشستي عدو الدستور ، وقالوا إن كان صدقي المفروض من الملك على الشعب قد حقَّق هذا الإنجاز فإنه بمقدور الوفد وهو يمثِّل الأغلبيَّة أن يتوصَّل إلى اتفاقية أفضل عندما يأتي إلى الحكم ويتفاوض مع الإنجليز.

لذا نظر أعضاء البرلمان إلى بنود هذه الاتفاقية بعين السخط التي تبدي المساوئ فطالبوا بالجلاء الفوري للقوات الإنجليزيَّة وقالوا " إن تقدير ثلاث سنوات أجلاً لإتمامه تقدير مبالغ فيه وأن الجلاء مستطاع في أقلٍ من ذلك بكثير " كما اعترضوا على اتفاقيَّة الدفاع المشترك بين إنجلترا ومصر والتي جاءت على النحو التالي : "اتَّفق الطرفان الساميان المتعاقدان على أنه في حالة ما إذا أصبحت مصر محلاً اعتداء مسلَّح أو في حالة ما إذا كان اشتبكت المملكة المتحدة في حرب كنتيجة لوقوع اعتداء مسلَّح على البلاد المتاخمة لمصر فإنهما يتخذان بالتعاون الوثيق وبعد المشاورة أي إجراء تتبين ضرورته ريثما يتخذ مجلس الأمن الوسائل اللازمة لإعادة السلم . " (١)

إن معاهدة الدفاع المشترك التي اعترضت عليها المعارضة مشروطة برضا الطرفين وليس فيها أي إلزام لمصر بضرورة فعل شيء دون إرادتها لأن لمصر حرية الاختيار في التعاون مع إنجلترا في الحرب حالة وقوع عدوان مسلح على أي بلد متاخم لحدود مصر ، ورفض مصر للتعاون مع انجلترا لا يعطي انجلترا الحق في إعادة احتلال مصر بل ليس أمام إنجلترا طبقاً لنصوص المعاهدة إلا الاحتكام إلى نصوص هيئة الأمم المتحدة .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " في أعقاب الثورة المصرية " مرجع سابق ص ١٩٦.

وهاك نص المادة السادسة من الاتفاقيَّة " كل خلاف على تطبيق أو تفسير نصوص هذه المعاهدة يكون قد تعذَّر عليهما (أي على مصر وانجلترا) حلُّه بمفاوضات تجري بينهما يصفَّى طبقاً لنصوص هيئة الأمم المتحدة ". [1]

وعليه فإن نفاذ المادة الخاصة بالدفاع المشترك لا يتم إلا إذا كان فيه مصلحة الطرفين وعليه فلا ضرر منه على مصر على الإطلاق ، وكان الغرض منه منع أي قوى استعماريَّة من احتلال مصر كما حاولت ألمانيا فعل ذلك في الحرب العالمية الثانية فانجلترا تخشى إن هي انسحبت من مصر أن تتعرض مصر أو البلاد المجاورة لها للاحتلال الألماني أو أية قوَّة أخرى معادية لانجلترا ، ولا ضير على مصر من جراء هذا بل على العكس إن هذه الاتفاقية ستكف أي يدٍ أجنبيَّة تفكِّر في الاعتداء على الأراضي المصريَّة والأراضي العربيَّة المجاورة لها .

وإذا قارنَّا هذه المادة بنظيرتها في اتفاقية الجلاء التي ستوقعها مصر في عهد الدكتاتوريَّة العسكريَّة يتبين لنا أنها أفضل بكثير منها فقد نصَّت اتفاقية الجلاء (١٩ أكتوبر ١٩٥٤) في مادتها الثالثة على : " تبقى أجزاء من القاعدة التي كانت للإنجليز في قناة السويس في حالة صالحة للاستعمال معدَّة للاستخدام وفي حالة وقوع هجوم مسلَّح من دولة من الخارج على أي بلد يكون طرفاً في معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربيَّة أو على تركيا تقدِّم مصر لبريطانيا من التسهيلات ما قد يكون لازماً لتهيئة القاعدة للحرب وإدارتها ، وتتضمَّن هذه التسهيلات استخدام الموانئ المصريَّة في حدود ما تقتضيه الضرورة القصوى للأغراض سالفة الذكر وفي حالة حدوث تهديد بهجوم مسلَّح من دولة من الخارج على أيدي بلد يكون طرفاً في معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو تركيا يجري التشاور فوراً بين مصر وبريطانيا ."

وسوف نرى أن النخبة المصريَّة والأحزاب قد رفضت هذه الاتفاقية حين وقَّعها جمال عبد الناصر .

([1]) نفسه ص ١٩٧.

ويندم حزب الوفد بعد ذلك لأنه ضيَّع فرصة الجلاء ، ولقد حاول بعد ذلك في مفاوضاته مع إنجلترا التي امتدت من مارس سنة ١٩٥٠ إلى سبتمبر ١٩٥١ أن يصل إلى اتفاقيَّة أفضل من مشروع صدقي بيفن لكنه فشل ومما جاء في هذه المفاوضات قول النحاس مخاطباً الفيلد مارشال سليم (رئيس أركان حرب الإمبراطورية البريطانية وأحد المفاوضين) " لقد اتفقتم مع صدقي باشا على أن يتم الجلاء التام في سبتمبر سنة ١٩٤٩ فكيف يمكن أن أقول للشعب المصري غير ذلك؟ وقد كنَّا ضد صدقي باشا في إرجاء الجلاء إلى ذلك التاريخ وطلبنا الجلاء الناجز " وقال في موضع آخر "ولو أن هذا الاتفاق – اتفاق صدقي/ بيفن – قد أبرم في ذلك الحين لما بقيت الآن (سنة ١٩٥٠) في مصر قوات بريطانية " وقال محمد صلاح الدين وزير الخارجيَّة المصريَّة في ذلك الحين " سبق للوفد المصري عندما كان في المعارضة أن رفض فكرة الدفاع المشترك وأجمع الرأي العام المصري على تأييده في هذا الرفض ، وانتهى الأمر بأن رفض أغلبيَّة المفاوضين مشروع صدقي بيفن من أجل الدفاع المشترك وذلك بالرغم مما تضمَّنه هذا المشروع من تقرير الجلاء الكامل بحراً وبراً وجواً . "[1]

إلغاء معاهدة ٣٦ وبدء الكفاح المسلح ضد الإنجليز

ونتيجة عدم توصُّل حكومة الوفد لاتفاق على جلاء الإنجليز عن مصر وضغط الرأي العام لتحقيق ذلك أعلنت حكومة الوفد في أكتوبر ١٩٥١ إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ وكان هذا الإلغاء إذاناً باستئناف الكفاح المسلح بين الفدائيين المصريين والجيش البريطاني وكان كفاحاً مريراً بذل فيه الفدائيون وجموع المواطنين التضحيات الكثيرة .

دعائم نظام الحكم قبل الثورة

كان نظام الحكم في مصر منذ توقيع معاهدة الجلاء سنة ١٩٣٦ يستند إلى ثلاث دعائم:

١– السفارة البريطانية مُمَثَّلة في المندوب السامي البريطاني.

---

(١) لمزيد من التفصيل الرجوع إلى عبد الرحمن الرافعي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " الفصل الأول " إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ والكفاح في القنال " .

٢- القصر مُمثَّلاً في الملك فاروق وحاشيته.

٣- الرأي العام المصري مُمثَّلاً في حزب الوفد.

وفساد الحكم في مصر قبل الثورة يرجع للإنجليز الذين لا يهمهم استقرار الحكم في مصر وللملك الذي كان يفرض أحزاب الأقلية الضعيفة حتى تعمل على تنفيذ رغباته ويقيل وزارة الأغلبيَّة التي كان الشعب يختارها وتعمل على تقدم المجتمع ورفاهيته ، وفي الفترات التي حكمت فيها وزارة الأغلبيَّة (وزارة الوفد) وهي سبع سنوات على فترات متقطعة قامت خلالها بأعمال عظيمة خدمة لمصر والمصريين كحرية إبداء الرأي ، وحريَّة الصحافة ، وحريَّة تكوين الأحزاب والجمعيات ، ومساواة جميع المصريين أمام القانون ، وحرمة الملْكيَّة ، وفصل السلطات الثلاث : التشريعيَّة ، والتنفيذيَّة ، والقضائيَّة ، فالسلطة التشريعيَّة يتولاها البرلمان الذي يضم ممثلي الشعب المنتخبين ، والسلطة التنفيذيَّة تتولاها الوزارة ، والوزارة ليست مسئولة أمام الملك إنما أمام البرلمان.

وبرغم الاحتلال الإنجليزي الغاشم وفساد الملك واستبداده إلا أنَّ الفترة ما بين ثورة ١٩ وثورة ٥٢ التي اصطلح على تسميتها " الحقْبَة اللِّيبراليَّة " كانت من أخصب فترات التاريخ المصري ثقافة وأعمقها فكراً ؛ فقد أتت النهضة العلميَّة التي أنشأها محمد عليّ ثمارها في هذا المُنَاخ المُفعَم بالحريَّة والديمقراطيَّة .

الطبقة الوسطى المصريَّة ودورها في العصر الحديث

الطبقة الوسطى هي التي تقع بين الطبقة العليا والدنيا. فالمجتمع يتوزع على ثلاث طبقات أساسية، وهي : الطبقة العليا المتحكمة في صناعة القرار ووسائل الإنتاج ، والطبقة الدنيا هي التي تقبع اقتصادياً تحت مستوى خط الفقر ، واجتماعيّاً على هامش الحياة من الفلاحين والعمال والحرفيين ، والطبقة الوسطى هي التي تتوفَّر لها بعض أسباب العيش الكريم من خريجي المدارس والجامعات وتأخذ على عاتقها تطوير المجتمع وتقدمه وحل مشاكله وتنمية موارده واستقراره كما هو الأمر بالنسبة للشرفاء من الكتَّاب ، الصحفيين ، الأدباء ، المثقفين من المحامين ، الأطباء، المعلمين ، والضباط وغيرهم . هؤلاء هم عماد الأمَّة وأساس تقدمها ورفاهيتها .

فحركات التحرر والاستقلال كانت من صنع هذه الطبقة ، كما أن عمليات التغيير السياسي والاجتماعي، في شكل ثورات وحركات ثقافيَّة تنويريَّة، كانت أيضاً من صنعهم .

والطبقة الوسطى في مصر ظهرت في القرن التاسع عشر ، وكان يمثِّلها أبناء الطبقة الدنيا الذين أتاحت لهم نهضة محمد عليّ التعليميَّة أن يُحَصِّلوا قدراً كبيراً من العلم والثقافة خارج مصر من خلال البعثات العلميَّة التي أرسلها محمد عليّ إلى أوربا للدراسة ، أو من تتلمذ على يدهم وعلى كتبهم المترجمة أو المؤلَّفة من أبناء المدارس والمثقفين .

وبالطبع بدأت الطبقة الوسطى صغيرة جداً ، ومع انتشار التعليم ، وإنشاء الجامعة، وازدهار الصحافة ، ونشأة الأحزاب زاد حجمها نسبيّاً ، وتُعَدُّ الحقبة الليبراليَّة هي العصر الذهبي لهذه الطبقة حيث قادت الأمَّة إلى المطالبة باستقلالها عن الإنجليز فكانت ثورة ١٩ وتصريح ٢٨ فبراير ، ثمَّ قادت الأمَّة لحياة سياسيَّة ديمقراطيَّة فكان دستور ٢٣ ونشأة الأحزاب ، وبرغم الاحتلال الإنجليزي واستبداد القصر حقَّقت الطبقة الوسطى نهضة علميَّة وثقافيَّة كبيرة كان روادها منارة الوطن العربي كله ، كما أنَّ بعض أبناء الطبقة الوسطى في الجيش المصري هم الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢، التي أجلَتْ الإنجليز وطردت الملك وألغت المَلَكيَّة،وأقامت الجمهوريَّة ، وقضت على الإقطاع وسيطرة رأس المال ، وأيَّدت الطبقة الوسطى الثورة في كلِّ هذا وباركته ، وعندما انقلب عبد الناصر وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة على الديمقراطيَّة والرئيس محمد نجيب المنادي بها انتفضت الطبقة الوسطى وأجبرت مجلس قيادة الثورة على إعادة محمد نجيب في مظاهرات مارس ١٩٥٤، وينجح عبد الناصر في الإطاحة بالديمقراطيَّة ومحمد نجيب وقمع الطبقة الوسطى بالحديد والنار ، ولكن نتيجة فشل نظام عبد الناصر في إقامة حياة ديمقراطيَّة سليمة وعدالة اجتماعيَّة حقيقيَّة وجيش وطني قوي مما ترتَّب عليه هزيمة يونيو ٦٧ التي كشفت للطبقة الوسطى خداع النظام وكذب وسائل إعلامه جعل الطبقة الوسطى تعيد حساباتها وتقيِّم تجربة عبد الناصر في الحكم

تقييماً حقيقيّاً وتهبّ للمطالبة بالحريَّة والديمقراطيَّة وتعارض نظام الحكم المستبد في مظاهرات فبراير ، ونوفمبر ١٩٦٨ [١] ولما بدأت سياسة الانفتـاح التـي انتهجهـا السادات بعد انتصار أكتوبر ٧٣ وتظهر سـلبياتها بعـودة الرأسـماليَّة المتوحِّـشة وتهميش الطبقة الوسطى ثارت الطبقة الوسطى في ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧على هذه السياسة وزيادة الأسعار ، وعندما كادت حكومات رجال الأعمال وعودة تحكم رأس المال أن تقضي على الطبقة الوسطى نهائيّاً هبَّت الطبقة الوسطى قويَّة فتيَّة وقـادت ثورتين متتاليتين : ثورة على الدكتاتوريَّة وفساد الحكم وتحكُّم رأس المال المستغل، وثورة على التنظيم الدولي للإخوان المسلمين الذي أراد أن يجعل مصر ولاية تابعة للتنظيم .

كانت المقررات المدرسيَّة في خلال هذه الحقبة الليبراليَّة تركِّز علـى الإنجـازات السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة التي تحقَّقت في تلك المرحلة متجاهلـة التـأثير السلبي للاحتلال الإنجليزي على الحياة السياسيَّة والاقتصاديَّة ، ونظام الحكم الملكي الذي كان يقيل وزارة الأغلبيَّة ذات الإنجازات الحقيقيَّة والتوجهات الوطنيَّة والشعبيَّة ويفرض حكومات أقليَّة تابعة له ومنفِّذة رغباته .

إن مقرر عام ١٩٤٨ للسنة الرابعة الثانوية يتوقف في معالجته التاريخيَّة قبل تـولي فاروق العرش ويتجاهل فترة حكم هذا الملك بالرغم من أنه كان قد مرَّ على توليتـه السلطة أكثر من عشر سنوات ولم تكن تلك عادة مقررات التاريخ المدرسي ، لقـد أراد المقرر أن يُبْقى على فاروق بعيداً نقيّاً في الوقت الذي أُظْهر والده الملك فـؤاده في صورة الملاك الطاهر الخدوم ، الذي لم يخطئ بـل أن حياتـه إصـلاح فـي إصلاح.

وفي هذا المعنى من الصعوبة بمكان قبول ما ورد في نفس المنهج المقرر مـن أن الملك فؤاد " لم يَأْلُ جهداً في العمل على تحسين حالة بلاده وشعبه " .

---

(١) لمزيد من التفصيل حول هذه المظاهرات الرجوع إلى كتابنا " متى يثور المصريون " الفصل الخامس " ثورات المصريين في التاريخ المعاصر " دار زهور المعرفة البركة .

لقد اهتمَّت المناهج المدرسيَّة بالتصريحات الرسميَّة والدعايات الحكوميَّة قبل ١٩٥٢، ولم تعالج الإشكاليات والقضايا الأساسيَّة في تاريخ بلادنا التي كانت تعاني معاناة جعلتها حبلى بتراكمات سياسيَّة حكمها ذلك الحبل الذي أوشك أن يؤدي إلى مخاض الولادة الطبيعيَّة للثورة التي كان من المحتمل أن تغيَّر أحوالنا وتحقق طموحات غالبيَّة شعبنا . (١)

وما تكاد ثورة ٢٣ يوليو تنجح ويستولي رجالها على الحكم ثم ينفرد عبد الناصر به حتى ينبري حاملو المباخر ومنافقو السلطة وطلاب الشهرة في شن حرب شعواء على كل ما تمَّ في الحقبة الليبراليَّة من إنجازات حقيقيَّة في خطاب دعائي ديماجوجيٍّ (٢) فجٍّ يسعى لاجتذاب الناس إلى جانب النظام الثوري الجديد عن طريق الوعود الكاذبة والتملُّق وتشويه الحقائق الثابتة .

لدرجة جعلت الناصريين المتأخرين أنفسهم ينتقدون هذا التزييف وتلك المغالطات في تناول الحقبة الليبراليَّة من جانب الكتَّاب ومؤلفي المقررات المدرسيَّة بعد ثورة ٢٣ يوليو .

يقول د. زكي البحيري أستاذ التاريخ الناصري : " إن تناول هذه الفترة قد امتلأ بالمرارة وسوء النيَّة مما قلَّل من حيدته ، ويرجع الأمر إلى أن ديماجوجيَّة السياسة قد انتقلت إلى العلم خاصة في التاريخ والأمور السياسيَّة وهذا مرجعه إلى اللاتاريخيَّة وانعدام الموضوعيَّة ، ولقد اعتمد القائمون على الثورة على الكلام الإعلامي دون التنفيذ . " (٣)

لقد شكَّك الكتاب الناصريون في كل الإنجازات السياسيَّة والاقتصاديَّة والتعليميَّة للحقبة الليبراليَّة لصالح الحقبة الناصريَّة التي قضت على كل الإنجازات التي تمَّت

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) الديماجوجي هو الشخص الذي يسعى لاجتذاب الناس إلى جانبه عن طريق الوعود الكاذبة والتملُّق وتشويه الحقائق ويؤكد كلامه مستنداً إلى شتى فنون الكلام وضروبه وكذلك الأحداث، ولكنه لا يلجأ إلى البرهان أو المنطق البرهاني لأن من حق البرهان أن يبعث على التفكير وأن يوقظ الحذر ، والكلام الديماجوجي يعتمد على جهل سامعيه وسذاجتهم واللعب على عواطفهم .

(٣) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٧١، ١٧٢ .

يقول د. زكي البحيري : " لقد يحلو للبعض أن يقول أن مصر بعد صدور تـصريح فبراير ودستور ١٩٢٣ – ممارسة ديمقراطيَّة حقيقيَّة ، وذلك مخالف لواقع تـاريخ مصر الفعلي ؛ لأنه لم يكن بالإمكان قيام حياة ديمقراطيَّة في حضور الاسـتعمار ، ثم أن الأحزاب السياسيَّة التي حصرت النشاط السياسي الظاهر في ملاعبها كانـت تمثّل قوى الإقطاعيَّة الرجعيَّة والرأسماليَّة الناشئة في أحضان ومشاركة الأجنبـي ، وتلك القوى لم تكن على استعداد لأن تقطع علاقاتها بالاستعمار ولا تحالفهـا معـه ومن ثمَّ زادت التناقضات الاجتماعيَّة والسياسيَّة بالطبع بصورة محسوسة بين تلـك القوى الارستقراطيَّة والبرجوازيَّة المحدودة العدد في مواجهة أكثر من ٩٥ % مـن السكان المنضوي في دائرة صغار الفلاحين والعمـال : زراعيـين وصـناعيين ، وصغار الموظفين ولم يكن غريباً في حضور هذه الأوضاع الاجتماعيَّة المتناقـضة أن يعبِّر التعليم عن الطبقة المالكة والشريكة في السلطة ومثقفيهـا وعـن الوجـود الاستعماري المتغلغل في كثير من شئوننا ، وأن تتأثر الحياة الثقافيَّة والفكريَّة بهـذا المناخ ، وأن ينعكس ذلك على خطط التعليم والتربيَّة وعلـى مقـررات المـدارس وخاصة التاريخ المصري باعتباره أساس في أي مكوِّن ثقافي للنشء والمجتمع " (١)

من إنجازات نهضة الحقبة الليبراليَّة

والآن نستعرض بشيء من التفصيل أهم الإنجازات التـي تمَّـت خـلال الحقبـة الليبراليَّة التي تعد بحق العصر الذهبي للطبقة الوسطى ليس ردّاً على الناصريين بل إظهاراً للحقائق وبياناً لإنجازات آخر نهضة حقيقيَّة شهدتها مصر .

في مجال السياسة والحكم

خلال الحقبة الليبراليَّة تحققت إنجازات في مجالي السياسة والحكم منها : صـدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ معلناً استقلال مصر ، وعقب إعـلان الاسـتقلال أصبح ملك مصر (فؤاد ومن بعده فاروق) يُعْرَف بملك مصر والسودان ، توقيـع معاهدة ٣٦ ، جلاء الإنجليز عن القاهرة والإسكندريَّة ، توقيع بروتوكـول جامعـة الدول العربية ، انضمام مصر للأمم المتحدة ، معاهدة صدقي بيفن ، تمصير قيـادة

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهـضة الشرق ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

الجيش ، توقيع اتفاقية مونتريه لإلغاء الامتيازات الأجنبيَّة ، تجنيب مصر ويلات الحرب العالمية الثانية .

في مجال التعليم والبحث العلمي

في هذه الحقبة الليبراليَّة أُنْشِئت جامعات مصر الكبرى : القاهرة ، الإسكندرية ، عين شمس ، وكانت لها مكانة كبيرة بين جامعات العالم وخاصة جامعة القاهرة التي كانت من أفضل جامعات العالم حينئذ [1]، كما تعدُّ ساعتها ثاني أقدم وأشهر ساعة علي مستوى العالم بعد ساعة بيج بين .

وكما أُنْشِئت في تلك الحقبة أعرق المدارس الثانويَّة : السعديَّة ، الخديويَّة ، السنيَّة، الخديو إسماعيل ، الإبراهيميَّة ، النقراشي ، الفسطاط ، مصر القديمة ، المعادي ، .... هذا في محافظة القاهرة ، وأمثالها الكثير في المحافظات والمراكز والمدن الكبرى وكانت تشتمل كل مدرسة بالإضافة إلى طرازها المعماري الفخم على : مسرح كبير تمارس فيه كافة فنون المسرح والتمثيل والإلقاء والخطابة ، وكان صاحب الفضل في اكتشاف معظم المواهب الفنيَّة الشهيرة في عالم الفن الجميل .. ، وملعب واسع تمارس فيها كل الأنشطة الرياضيَّة وكان معمل تفريخ المواهب الرياضية ، وحديقة جميلة ومنسقة كانت يتعلم الطلاب فيها فنون الزراعات المختلفة وتنسيق الحدائق والزهور ، ومعامل حديثة فيها كافة الأجهزة لإجراء التجارب العلميَّة المعمليَّة ، كما كانت تشتمل هذه المدارس على مطبخ يقدِّم الوجبات الساخنة للطلاب . لقد كانت مدارس الحقبة الليبراليَّة مدارس علميَّة بحق يشهد لها كل عباقرة مصر الأفذاذ الذين تخرَّجوا فيها على يد معلِّمين أكفاء لا همَّ لهم إلا التربيَّة السليمة والتعليم الجيِّد المتطوِّر .

---

(١) صدر تقرير علمي، أعده معهد التعليم العالي بجامعة جياو تونج بشنغهاي بالصين، تضمن قائمة بأفضل خمسمائةٍ جامعة على مستوى العالم خلال عام ٢٠٠٦ ، ولم يكن فيها أي جامعة عربيَّة في مقابل أنَّ إسرائيل احتلت المركز الثاني عشر بعدد ٧ جامعات من أصل ١٥ جامعة إسرائيليَّة ، وفي أحد الإحصائيات عن أفضل ٣٠٠٠ جامعة في العالم للعام ٢٠٠٦ كانت الجامعة العربية الأولى هي الجامعة الأمريكية ببيروت وترتيبها (١٢٩٥) وجامعة القاهرة كان ترتيبها (٣٩٠٢) !!

كلُّ هذا كان بالمجان فقد كان كل التعليم قبل الجامعي كله دون مصروفات ، والتعليم العالي بمصروفات زهيدة يُعْفَى منها المتفوِّقون وغير القادرين ؛ فقد تبرَّع الملك فاروق بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه لسداد مصروفات الطلبة الجامعيين غير القادرين ، ولمَّا تولى طه حسين وزارة المعارف في حكومة الوفد الأخيرة أطلق صيحته المدوِّية " التعليم كالماء والهواء " وكان لهذه الصيحة أثر كبير على المستوى الأكاديمي العالي وإقبال الكثير عليه ، خاصة بعدما أُعْفَى جميع طلاب التعليم العالي غير القادرين من سداد المصروفات .

وكما أنشئ في الحقبة الليبراليَّة : مَجْمَع اللغة العربيَّة ، مصلحة الأرصاد الجويَّة، مدينة فاروق الأول للبعوث الإسلاميَّة ، المجلس الأعلى للبحوث العلميَّة والصناعيَّة (المركز القومي للبحوث فيما بعد) . الجمعيَّة المصريَّة للدراسات التاريخيَّة ، صدور قانون حفظ الآثار ، معهد الوثائق والمكتبات ، المتحف الزراعي، نجاح د. مهندس بحري فؤاد بهجت في تصميم وإنتاج أول غوَّاصة صغيرة في العالم ، إنتاج أوَّل طائرة تدريب مصريَّة بمحركات توربينية .

إنشاء عيد العلم وتكريم الخريجين ، توزيع جوائز فؤاد وفاروق العلميَّة على المتفوقين (جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية فيما بعد) .

في مجال الفنون والثقافة

أنشئت الإذاعة الحكوميَّة ، إجراء التجارب الأولى لدخول التليفزيون ، معهد الموسيقى العربيَّة ، المعهد العالي للفنون المسرحيَّة ، معهد فن التمثيل ، كما ازدهرت الصحافة وتأصَّلت حريتها وصارت بحق سلطة رابعة ، كما زاد عدد المسارح ، ودور السينما ، وصارت مصر هوليود الشرق .

في مجال الاقتصاد والعمران

أنشئت مصانع المحلة الكبرى ، مصنع الغزل والنسيج ، المصانع الحربيَّة ، مُجَمَّع التحرير (وتكلَّف حوالي مليون ومائتي ألف جنية) ، بدء برنامج الصواريخ

المصري ، إنشاء قناطر الدلتا ، قناطر أسيوط ، قناطر إسنا ، قناطر إدفينا ، مشروع كهربة خزان أسوان ، حفر ترعة النوبارية .

في مجال الدستور والقانون والحريات

صدور دستور ٢٣ ، سبق الحديث عنه ، إنشاء مجلس الدولة ، صدور قانون السلطة القضائيَّة بشأن استقلال القضاء ، تطبيق القانون المصري على جميع المقيمين على أرض مصر ، صدور قانون محاكمة الوزراء ، قانون الكسب غير المشروع (من أين لك هذا ؟) ، مجمع محاكم الجلاء ، قانون كادر البوليس ، قانون تنظيم هيئات الشرطة ، مجلس أعلي للشرطة ، ديوان الموظفين (الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة فيما بعد) حريَّة الإضراب كانت مكفولة للجميع وتمَّ إحصاء ٥٥ إضراب لفئات مختلفة شملت حتى رجال البوليس والإدارة خلال الفترة ١٩٣٨-١٩٤٨ ، إنشاء نقابات : المحامين ، الصحفيين ، وممثلي المسرح والسينما (نقابة المهن التمثيلية) .

في مجال الخدمات الصحيَّة والاجتماعيَّة

الرعاية الصحيَّة كانت علي نفقة الدولة والعلاج كان مجاناً للجميع في المستشفيات الحكوميَّة ، إنشاء مجلس لمكافحة الفقر والجهل والمرض ، بدء مشروع الإصلاح الزراعي بتوزيع الأرض على الفلاحين في قرية كفر سعد بدمياط حيث أُعطيت كل أسرة (٦٠٠ أسرة) خمسة أفدنة من أراضي الدولة المستصلحة دون المساس بحقوق وملكيات ملاك الأراضي الآخرين ، إصدار قانون تخفيض ضريبة الأطيان الزراعيَّة علي صغار الملاك والمزارعين وإعفاء من لا تتجاوز ضريبتهم خمسين جنيهاً من الضرائب ، بنك التسليف الزراعي ، إنشاء سوق روض الفرج .

وفي الشأن الاقتصادي : بناء بنك مصر ، ومصر للطيران ...

من أعلام نهضة الحقبة الليبراليَّة

لذا لا عجب أن تشهد هذه الحقبة التاريخيَّة كوكبة من المُبْدعين في شتى المجالات لم تشهد مصر مثلهم فيما بعد ، ففي مجال الفكر الإسلامي : محمد عبده ، رشيد

رضا ، حسن البنا ، محمد فريد وجدي ، محمود شلتوت ، عبد الحليم محمود ، محمد الغزالي ... ، في مجال السياسة والقانون : سعد زغلول ، ومصطفى النحاس، أحمد لطفي السيد ، عدلي يكن ، عبد الخالق ثروت ، مكرم عبيد ، محمد نجيب الهلالي ، علي ماهر ، د. عبد الرزاق السنهوري ود.حلمي بهجت بدوي ...، وفي مجال العلم : مصطفى مشرَّفة ، سميرة موسى ، حسين فوزي ، علي إبراهيم... ، والفكر والثقافة والأدب : العقاد ، طه حسين ، إبراهيم مدكور ، نجيب محفوظ ، زكي مبارك ، أحمد أمين ، أحمد حسن الزيات ، عبد القادر المازني ، شوقي ضيف ، سهير القلماوي، مصطفى سويف ... ، في مجال التاريخ : عبد الرحمن الرافعي ، محمد شفيق غربال ، سليم حسن ، ... في مجال الشعر الفصيح: أحمد شوقي ، حافظ إبراهيم ، عبد الرحمن شكري ، إبراهيم ناجي ، علي محمود طه ، أحمد زكي أبو شادي ، ... وشعر العامية : أحمد رامي ، حسين السيد ، عبد الفتاح مصطفى ، أحمد شفيق كامل ، ... وفي مجال الموسيقى والغناء : سيد درويش ، رياض السنباطي ، محمد عبد الوهاب ، محمد القصبجي ، محمد فوزي ، أم كلثوم ، أسمهان ، ليلى مراد ... في مجال أدب الأطفال : كامل الكيلاني ، عبد التواب يوسف ، يعقوب الشاروني ... ، وفي مجال التمثيل والإخراج : يوسف وهبي ، نجيب الريحاني ، بديع خيري ، أمينة رزق ، علي الكسار ، جورج أبيض، زكي طليمات ، عزيز عيد ، زكي رستم ، ...

وهذه الكوكبة من المبدعين كانوا منارة العلم والثقافة ورواد التنوير ليس في مصر وحدها بل في العالم العربي كله ، هؤلاء كانوا قوة مصر الناعمة التي قادت العالم العربي علميًّا وثقافيًّا وسياسيًّا ودان لهم بالفضل والعرفان .

إن هذا التأثير المصري في الأمَّة العربيَّة في شتى ألوان العلوم والمعارف والفنون هو ما يسمى بالقوَّة الناعمة التي يقول عنها حسنين هيكل :

" الحق أننا عندما تحدثنا في مصر حتى قبل ثورة ٢٣ يوليو عن أفكار الاستقلال الوطني والمجالس النيابية، تكلمنا عن حريَّة.. تكلمنا عن دستور، فإن كل هذه الأفكار قد وجدت صداها في العالم العربي، ليس لأننا كنا راغبين في تصديرها..

ولكن لأن القاهرة تحوّلت بفعل ظرف تاريخي تسانده حقائق جغرافية إلى قوَّة، لكـن أية قوَّة ؟

أظن أن أفضل من وصف هذا النوع من القوَّة هو جوزيف مـاي، وهـو أسـتاذ أمريكي بجامعة هاربر، في كتابه المهم جداً عن القوى الناعمة. كنا نتحـدث عـن مناطق تمارس نفوذاً أكثر من قوتها العسكريَّة والاقتصاديَّة، لكن بشكل أو آخر لهـا نفوذ يتعدى الحسابات الماديَّة، والقاهرة كانت واحدة منها. كان مـاكميلان يحـدثني عن تأثير القاهرة وغيره آخرون.. فالقاهرة لها وضع خاص لم يتميز بـه غيرهـا بهذا الشكل، حتى قاهرة الملك فاروق وقاهرة الملـك فـؤاد. الموسـيقى والـسينما والصحافة في مصر قامت بدور أكثر ألف مرة ممـا يمكـن أن تفعلـه الـدبابات والأساطيل والمدافع في خدمة إمبراطوريَّة. ولكن على شرط أن ندرك أن هذه القوَّة ليست مسيطرة... هذا نفوذ مقبول ولكن غير مفروض، وبالتالي فإننا نرتكب خطـأً عندما نتصور أن ذلك مفروض.. أو أنه لنا بالحق الطبيعي خطأ شنيع جداً. نعـود لكلام البروفيسور ماى عن القوى الناعمة، فهو يقول إن التاريخ قد عرف نـوعين من القوَّة : القوَّة الصلبة وهى القوة التي تفرضها الإمبراطوريـات بقـوة الـسلاح، وربما الاقتصاد. أما القوَّة الناعمة: فهي القوَّة التي تستطيع أن تحدث تأثيرهـا دون وسائل العنف، فتتحقق بالنفوذ أكثر مما تتحقق بالغزو. " [١]

ورغم هذه الإنجازات إلا أن الكتَّاب الناصريين ومقررات المناهج المدرسـيَّة فـي الحقبة الناصريَّة لم تتعرض لها ولم تتحدث إلا عن الاحتلال الإنجليزي الذي سـخَّر موارد مصر لمصلحته ، والحكم الملكي المـستبد الفاسـد ، والأحـزاب الـسياسيَّة الرجعيَّة المتنافسة على الحكم .

***

([1]) محمد حسنين هيكل برنامج " مع هيكل " الجزيرة نت .

الفصل السابع

ثورة يوليو والنهضة

أسباب قيام ثورة ٢٣ يوليو

مع النهضة الثقافيَّة التي شهدتها مصر في الحقبة الليبراليَّة تطلَّع قادة التنوير ورموز الوطنيَّة ونخبة المثقفين إلى حياة سياسيَّة أفضل تستجيب لكل مطالب الجماهير : فلاحين وعمال ومهنيين الذين يرزحون تحت خط الفقر وقد فتَّحت النهضة الثقافيَّة عيونهم على حقوقهم السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة ولم يعد مقبولاً أن تظلَّ الحياة السياسيَّة في مصر على النحو التالي ، استعانة الملك فاروق بحكومات الأقليَّة التي لم تحقق إنجازاً حقيقيّاً ملموساً لمصر ، وإقصاء حكومة الأغلبيَّة التي كان يمثلها في ذلك الوقت حزب الوفد ؛ لذا استمر نضال الشعب المصري من أجل حياة دستوريَّة حقيقيَّة تعمل على إجلاء الإنجليز عن مصر ، وإجبار الملك على احترام الدستور ، والكفِّ عن نزواته التي فاحت رائحتها النتنة في كل مكان .

ونتيجة للضغط الشعبي المتزايد المطالب برحيل الإنجليز وإقامة الدستور ، وما حدث في حرب فلسطين من فساد وخيانة ظهرت جماعات لا تؤمن بالحياة البرلمانيَّة ولا بالأحزاب ، إنما تتبنى أفكاراً أيديولوجيَّة تؤمن بها وترى أنها هي السبيل الوحيد الصالح للبلاد والعباد ، من هذه الجماعات : جماعة الإخوان المسلمين، جماعة مصر الفتاة ، جماعة الحركة الديمقراطيَّة للتحرر الوطني "حدتو " الشيوعيَّة .

وهذه الجماعات كانت ترى أن الفساد في سنوات فاروق الأخيرة يضرب أطنابه في كل أجهزة الحكم حيث يتحكم في البلاد ملك مستهتر منغمس في الفسق والفجور تحوطه حاشية لاهمَّ لها إلا إشباع شهواتها ، وملء بطونها بالمال الحرام على

حساب الشعب البائس الفقير. والشعب المصري مطحون منهوب تحت الاحتلال البريطاني ، والعرش والمستغلين من الأجانب وأعوان الاستعمار من الخونة المصريين ، وأن إنقاذ شعب مصر من الاحتلال البريطاني والحكم الملكي الفاسد لن يتأتى إلا بثورة مسلَّحة يتولاها ويدبِّر لها المخلصون من الشباب في الجيش والشعب.

يقول اللواء جمال حماد [١] عن سوء الأحوال الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في مصر قبل الثورة : " كان سوء ملكيَّة الأراضي الزراعيَّة قد شكَّل ظاهرة الإقطاع الخطيرة في مصر قبل الثورة ، وأدَّى إلى خلل واضح في توزيع الأرض الزراعيَّة ففي الوقت الذي كان يملك فيه ١٢ ألف فرد فقط ثلث الأراضي الزراعية في مصر نجد أن حوالي ثلاثة ملايين فرد يملكون ثلثي هذه الأراضي الزراعية ، كما أن ٢٧ مالكاً من الأسرة المالكة وحدهم كانوا يمتلكون ١٤٣ ألف فدان ، وأصبحت الأغلبيَّة من الفلاحين من المعدمين واضطروا إلى العمل كمستأجرين صغار أو عمال زراعيين يعانون الفقر والحاجة لم يكن للعمال حقوق تحميهم من استبداد وتحكم أصحاب الأعمال فلا قانون للمعاشات ولا تأمينات اجتماعيَّة أو تعويضات محددة في حالة الإصابة ولذلك كان كبار الرأسماليين يبتزون عرق العمال ويستغلُّون جهدهم دون وجود أي قوانين لحمايتهم " [٢]

أسباب نجاح تنظيم الضباط الأحرار

لم يكن تنظيم الضباط الأحرار هو التنظيم الوحيد في داخل الجيش وخارجه فقد دفعت أحوال البلاد السيئة كثير من المخلصين من أبناء الوطن إلى تكوين تنظيمات سريَّة بهدف تخليص البلاد من المتسببين في شقائه ، وكانت وسائل هذه التنظيمات للوصول لهدفهم هذا تتمثل في اغتيال بعض الخونة والمفسدين ، أو كتابة منشورات تحريضيَّة ضدهم ، أو تنظيم مظاهرات ، أو تدمير بعض المنشآت .

([1]) جمال حماد : أحد الضباط الأحرار ، وكتاب البيان الأول الذي أذاعه السادات صباح ٢٣ يوليو ، وأحد أبرز مؤرخي ثورة يوليو .

([2]) اللواء جمال حماد " ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ " روز اليوسف ص ٢٣٦.

لكن هذه التنظيمات إذا استثنينا جماعة الإخوان المسلمين كانت قليلة العدد والعدة لا تملك الرؤية الشاملة – وإن حسنت نواياها – للإصلاح ، فهي وإن آمنت ببعض مبادئ الإصلاح فإنها لا تملك وسائل تحقيقها .

والحقيقة بعد حلّ جماعة الإخوان المسلمين واعتقال قادتها عام ١٩٤٨، واغتيال الشيخ حسن البنا زعيمها عام ١٩٤٩ ، لم يعد هناك تنظيم قوي يعوّل عليه في تغيير النظام القائم الذي لم يعد هناك أمل في إصلاحه .

التنظيم الوحيد الذي يمكن أن يعوّل عليه فعل شيء لهذا الوطن كان تنظيم الضباط الأحرار فقد كان يملك بعض الأفكار الإصلاحيَّة التي تتمثل في إصلاح الجيش وتطهيره من عناصر الفساد والمفسدين وإقامة جيش وطني قوي ، والقضاء على الاستعمار وأعوانه الخونة في وادي النيل . وكان التنظيم يملك تحقيق هذه الأفكار الإصلاحيَّة بما لديه من تواجد قوي بين القوات المسلحة تمكّنه من فرض رأيه ، واختيار من يمثّله ، كما تمكّنه من القيام بانقلاب عسكري إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك وكان وراء نجاح هذا التنظيم عدة عوامل أهمها :

١- حسن اختيار أعضاء التنظيم

إن السبب الأوّل لنجاح تنظيم الضباط الأحرار يرجع إلى حسن اختيار أعضاء التنظيم وخاصة أعضاء اللجنة التأسيسيَّة الذين تكوّن منهم مجلس قيادة الثورة بعد ذلك .

يقول الشيخ أحمد حسن الباقوري الذي عايشهم عن قرب حيث عيِّن وزيراً للأوقاف في حكومة محمد نجيب : (٧ سبتمبر ١٩٥٢) " أنا أؤكد للتاريخ أن كلّ أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا مجموعة قلّ أن يوجد ما يفضلها من خيرة الرجال عبر التاريخ . " (1)

إن كلام الشيخ الباقوري يعبِّر عن صدق وطنية هؤلاء الرجال ، وإخلاصهم في عملهم ، وإن كان فيه مبالغة .

---

(1) نعم الباز " ثائر تحت العمامة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٠٥

٢- شخصية جمال عبد الناصر

السبب الثاني في نجاح حركة الضبَّاط الأحرار يكمن في شخصية جمال عبد الناصر التي فرضت على كل الضبَّاط الأحرار احترامها وتقديرها ، والثقة فيها ، ولم يكن جمال عبد الناصر يمتلك شخصيَّة كاريزمية فحسب بل كان شعلة نشاط يتواجد في كل مكان يتطلبه التنظيم التواجد فيه ، فلا يوجد اجتماع يخص التنظيم إلا كان عبد الناصر أبرز أعضائه ، ولا يوجد مناقشة حول التنظيم إلا كان له رأي مُعْتَبر فيها ؛ فلا عجب أن ينتخبه أعضاء لجنة القيادة ثلاث مرات بالإجماع رئيساً عليهم أعوام ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٢.

يقول محسن عبد الخالق معللاً اختيار الضباط الأحرار لعبد الناصر رئيساً للجنة القيادة : " عبد الناصر كان قبل الثورة رجلاً ودوداً منصتاً طيباً ولهذا اخترناه ."(1)

٣- جماعيَّة القرار

السبب الثالث ، هو جماعية القرار فلم يكن هناك قرار مهم إلا وتناقش الضباط فيه مناقشة حرَّة يدلي فيها كلٌ بدلوه لا حَجْر فيها على رأي ولا مصادرة فيها لفكرة وهذا في رأيي أهم ما ميَّز تنظيم الضباط الأحرار فقد قام على الشورى داخل لجنة القيادة .

٤- شخصية محمد نجيب

السبب الرابع في نجاح حركة الضباط الأحرار هو محمد نجيب فعلى الرغم من أن محمد النجيب لم يكن يشارك في اجتماعات لجنة القيادة لدواعي أمنيَّة فإن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم كانا على اتصال دائم به والتشاور معه في كلٍ خطوة خاصة بعد أن اختير قائداً للتنظيم في يناير ١٩٥٢ كذلك فإن كثيراً ممن انضموا للتنظيم كان أكبر حافز لهم للانضمام للتنظيم وجود محمد نجيب على رأسه .

٥- منشورات الضباط الأحرار

---

(1) طارق حبيب " ملفات ثورة يوليو " مركز الأهرام للترجمة والنشر ص ٤٢

السبب الخامس ، منشورات الضباط الأحرار تلك التي روَّجت للتنظيم ، وعرَّفت الناس به .

يقول جمال منصور الذي كتب المنشور الأول : " وفي اليوم التالي بعد الظهر ذهبت كعادتي إلى شقيقي سعد وإذا بي ألمح العربة الأوستن السوداء تقترب من المصنع وتقف على جانب الطريق وينزل منها جمال عبد الناصر ويلقاني بين ذراعيه في عناق وهو لا يكاد يصدق ما حدث ويقول لي : ما كنت أتصور مثل هذا النجاح لأول منشور لقد أحدث مفعول السحر في قلوب الضباط وأنزل الرعب في قلوب المسئولين إن الناس كلهم يتحدثون عن " الضباط الأحرار " وعن هذه الحركة الثورية التي يعيشها ضباط الجيش . " (1)

٦- نجاح الضبَّاط الأحرار في انتخابات نادي الضباط

أما السبب السادس ، فهو انتخابات نادي الضباط والنجاح الساحق الذي حققه محمد نجيب مرشح الضباط الأحرار .

يقول محمد نجيب : " كانت انتخابات نادي الضباط هي الخطوة الفعَّالة في طريق ثورة يوليو ، وكانت أول تحد علنيٍّ لتنظيمنا السري ، وكانت الكلمة الأولى في ملحمة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. فقبل انتخابات النادي كانت اللجنة التنفيذيَّة لتنظيم الضبَّاط الأحرار تعتقد أنه ليس من الممكن القيام بالثورة قبل عام ١٩٥٥ لقد غيَّرت الانتخابات عقولنا وأحسسنا بقوتنا ، وأكدت لنا مدى ضعف الملك ونظامه " (2)

كل هذه العوامل تضافرت لتجعل من التنظيم قوة لا يستهان بها تهدد نظام فاروق المترهِّل . (3)

قيام ثورة ٢٣ يوليو

في الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٢ يوليو عقدت " لجنة القيادة " اجتماعها الأخير في بيت خالد محيي الدين الذي يقول عن هذا الاجتماع : " عرض زكريا محيي

---

(1) جمال منصور " في الثورة والدبلوماسية " مرجع سابق ص ٤٣

(2) محمد نجيب " كنت رئيسا لمصر " مرجع سابق ص١٠١

(3) لمزيد من التفاصيل حول : حالة مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو ، ونشأة الضباط الأحرار ، وعوامل نجاح تنظيمهم راجع كتابنا " آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة " دار غريب .

الدين الخطّة، وكانت الخطة بسيطة للغاية، ويمكن القول إنهـا اكتـسبت عناصـر نجاحها من بساطتها، وكانت تنقسم إلى مرحلتين:

١- المرحلة الأولى :

السيطرة على القوات المسلحة، وتحريك بعض القوات إلـى مبنـى القيـادة فـي كوبري القبة، وأن يتم اقتحامه والاستيلاء عليه، على أن يتم فـي الوقـت نفـسه، اعتقال بعض كبار ضباط الجيش والطيران، وقادة الأسلحة المختلفة، حتى نـضمن عدم تحريك أية قوات عسكرية للتصدي لنا.

٢- المرحلة الثانية :

إنزال قوات إلى الشوارع للسيطرة على عدد من المواقـع المدنيـة : الإذاعـة ، التليفونات ، قصر عابدين ... إلخ.

وكانت الخطة منطقيَّة فأنت لا تنزل الشارع إلا بعد التأكد من الـسيطرة الكاملـة على القوات المسلَّحة ، ولا تقوم بمواجهة فعليَّة مع رأس النظام إلا إذا تأكدت مـن تجاوب الجماهير معك عبر نزولك إلى الشارع .

تحدث حسين الشافعي في الاجتماع وأعلن أن سلاح الفرسان جاهز، وأن لـدينا (٣٢) ضابطاً جاهزين لتحريك قواتهم، وأننا نسيطر على (٤٨) دبابة و(٤٨) سيارة مدرَّعة، وعلى الكتيبة الميكانيكية وآلاي الخيالة: وتحـدثت أنـا لأقـرر أن قـوات الفرسان كفيلة بإنجاح الحركة، دونما حاجة لانتظـار وحـدات مـشاة، أو انتظـار وصول بقية كتيبة يوسف صديق . " [1]

وقبل أن تتحرك أي قوة من موقعها ، وقبل الخطوة الأولى في تنفيذ خطة الضباط الأحرار كان اللواء حسين فريد رئيس أركان حرب الجيش قد استدعى قادة الأسلحة والمناطق الحرة عدا اللواء محمد نجيب مدير المشاة وقتئذ لخشيتهم منه واعتقـادهم أنه العنصر الرئيسي المحرك للضباط الغاضبين إلى مؤتمر في العاشرة مساء بمبنى القيادة العامة للقوات المسلحة بكبري القبة .

([1]) خالد محيي الدين " الآن أتكلم " مرجع سابق ص ١٣٣، ١٣٤ بتصرف .

وقد تناسق عدم استدعاء محمد نجيب إلى المؤتمر مع خطة الضباط الأحرار التي كانت تقضي ببقائه في المنزل على أهبة الاستعداد دون أية حركة قد تثير الشبهات ضده ، إلى أن تنجح الخطة فيستدعى لتولي القيادة .

ولكن محمد نجيب علم من شقيقه على نجيب قائد قسم القاهرة بطبيعة موعد المؤتمر ، فأسرع بتبليغ ذلك شخصياً إلى عبد الحكيم عامر ، ونصحه بأن يتم اعتقال القادة المؤتمرين أثناء خروجهم حقناً للدماء . (1)

يقول خالد محيي الدين : " نجح نجيب في الاتصال بعبد الحكيم عامر ليبلغه بما حصل عليه من معلومات ، وكان نجيب صاحب فكرة الإسراع باعتقال القادة المجتمعين بكبري القبة أثناء خروجهم لشل سيطرتهم وإفشال أية خطة للتحرك المعاكس . " (2)

كانت ساعة الصفر لبدء التحرك الساعة الثانية عشرة ليلة ٢٣ يوليو وحدث خطأ بسيط ولكنه كان عظيم الأثر.

تصوَّر البكباشي يوسف صديق ساعة الصفر هي الحادية عشرة مساء وليست منتصف الليل . فحرَّك قواته واستطاع أن يستولي على مركز قيادة الجيش وينقذ الانقلاب من الفشل ، وينقذ الضباط الأحرار من المحاكمة العسكريَّة.

وهكذا سقطت رئاسة الجيش قبل أن تصدر قراراً باعتقال الضباط الأحرار وإجهاض انقلابهم .

وفي الوقت الذي كان يوسف صديق يستولي على رئاسة الجيش كان بعض كبار القادة قد أخذ تعليمات من حسين فريد للسيطرة على القوات وإحباط أي انقلاب عسكري مزمع قيامه ولكن تمكَّنت قوات الضبَّاط الأحرار من القبض على هؤلاء القادة واعتقالهم .

---

(1) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليه " مرجع سابق ج١ ص ١٩٧.
(2) خالد محيي الدين " الآن أتكلم " مرجع سابق ص ١٤٥.

بعد وصول محمد نجيب إلى مركز قيادته اكتملت مظاهر حركة الضباط الأحرار ، وبعد احتلال الوحدات مراكزها التي تحاصر بها المنطقة العسكريَّة وتعزلها تماماً عن القاهرة ، والسيطرة على الإذاعة حققت الخطة أهدافها في القاهرة .

بدأت القيادة العامة تتصل بالمناطق الخارجية في القنال والعريش لإبلاغ الضباط بانتصار الحركة ، ولم تكن التعليمات للمناطق الخارجيَّة تقضي بأكثر من محاولة عزل القيادات الكبيرة ، والسيطرة على الوحدات دون تحريكها ..

وكان الفصل في تحديد الموقف هو البيان الأول للحركة الذي أذيع على الشعب باسم اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة وقرأه بصوته البكباشي أنور السادات . (1)

عندما حضر محمد نجيب إلى رئاسة الجيش قبل فجر ١٩٥٢ لم تكن حركة الجيش قد تمَّ لها السيطرة بعد على الأغلبيَّة العظمى من وحدات الجيش ، فقد كانت هناك قوات كبيرة في قلب القاهرة لم تعلن عن انضمامها بعد ، وكانت قوات الفرقة الأولى مشاة في سيناء لا تدري شيئاً بعد عن هذه الحركة . أما قوَّات الإسكندرية فلم تكن قد سمعت بالمرة أية أنباء عن هذه الحركة ، وقد ثبت أنها لم تعلم بها إلا من البيان الأول ، وقد ثبت أن البيان الأول للحركة الذي صدر باسم اللواء محمد نجيب من دار الإذاعة كان هو العامل الحاسم في انضمام جميع قوات الجيش غير المشتركة في الحركة إلى القوات الثائرة .

إن مجرد إذاعة البيان الأول باسم محمد نجيب في السابعة والنصف صباحاً من دار الإذاعة معناه أن الرجل قد حمل على عاتقه مسئولية الحركة بأكملها تاريخيّاً أمام حكم التاريخ ، وجنائيّاً أمام الملك وحكومته ، وأصبح هو الرمز المجسِّد لها.

ويلاحظ أن البيان الأول لم يحمل صيغة انقلاب أو تغيير نظام حكم إنما مرتبطة بتحسين أحوال الجيش من الخونة والمفسدين الذين تسببوا في هزيمة حرب فلسطين

---

(1) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليه " مرجع سابق ج١ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧.

كما أنه يُطَمْئن الشعب أن الجيش سيعمل لصالح الوطن في ظل الدستور، ويُطَمْـئن الأجانب على مصالحهم وأموالهم .

وإلى هذه اللحظة لم يكن لدى الحركة – كما كان يطلق عليهـا حينئـذ – خطـط لطرد الملك ، وتحويل المَلَكيَّة إلى جمهوريَّة .

يقول حسنين هيكل : " اللي كان موجود في ذهن كل الضباط فـي ذلـك الوقـت قاصر على إصلاح الجيش من الفساد الذي استشرى فيه والضعف الذي سرى فـي أوصاله وتبدى في حرب فلسطين إلى جنب ما قيل عن صفقات السلاح والفساد اللي حصل فيها وما أدى إليه هذا الفساد من تأثير على القدرة القتالية للقوات " (1)

ما كادت جموع الشعب تسمع البيان الأول لقادة الانقلاب حتى غمرتهم الفرحة فقد كانت أحوال البلاد متردية وكانت صدور الناس تنطوي على خليط من القهر والظلم والغضب المكتوم والرغبة في التغيير لذا غمرتهم فرحة مظلوم نصره الله تعالى بعد حين.

وفي الساعة التاسعة صباحاً خرج من مبنى رئاسة الجيش اللواء محمد نجيب فـي عربة مكشوفة ، وعندما اخترق الموكب شوارع وسط العاصمة قابلتـه الجمـاهير المحتشدة بالتصفيق والهتاف ، وتحوَّل انقلاب الضباط الأحرار إلى ثورة شعبيَّة.

والسر وراء النجاح الشعبي الجارف بالإضافة إلى وجود محمد نجيب علـى رأس الثورة هو أن الثورة رفعت الشعارات التي كان الناس ينادون بها وهي "الدستور .. الحريَّة .. جلاء الإنجليز عن مصر والسودان " .

ولما اطمأنَّ قادة الثورة على التأييد الشعبي الجارف عُقِد اجتماع بمقـر كـوبري القبة برئاسة اللواء محمد نجيب وحضور معظم قادة الثورة وتقرر في هذا الاجتماع عزل الملك فاروق .

---

(1) محمد حسنين هيكل برنامج " مع هيكل " الجزيرة نت بتاريخ ٢/٢/٢٠٠٦.

يقول زكريا محيي الدين : " كانت مطالبنا قليلة ولكن موافقة الملك فـاروق علـى كل شيء أغرتنا بمزيد من المطالب حتى وصلنا إلى قرار إلغاء الملكيـة وإعـلان الجمهورية وترحيل الملك خارج البلاد . " (1)

الفرق بين فاروق ومبارك ومرسي في ترك السلطة

ذهب على ماهر بالإنذار إلى الملك فاروق ، وفي أثناء حديث علـى مـاهر مـع الملك فاروق قال فاروق لعلى ماهر إنه ليس جباناً وفي وسعه أن يقـاوم وأن لديـه من القوات الموالية أكثر مما لدى الضباط المتمردين ولكن على ماهر قاطعه قـائلاً بأنه لا يرضيه أن يعرِّض بلاده لحرب أهليَّة لا يعلم إلا الله ماذا ستجر على الوطن من ويلات ، وقَبِل الملك التنازل ." (٢)

وبرغم فساد حكم فاروق لكنه تمَّ في عهده وعهد أبيه نهضة علميَّة وثقافيَّة كبيرة ، وعندما قامت الثورة وطُلِبَ منه الرحيل رحل حفاظاً على مصر من حرب أهليَّـة ، ونفس الشيء يقال عن مبارك فبرغم فساد حكمه في السنوات العشر الأخيرة إلا أنه بعد قيام ثورة ٢٥ يناير وتأكُّده من تأييد الناس لها تنحَّى عن الحكـم حفاظـاً علـى مصر من حرب أهليَّة ، الشيءَ الذي لم يفعله محمد مرسي فبـرغم فـشل حكمـه الذريع في السنة التي حكم فيها الإخوان مصر إلا أنه رفض التنازل عن الحكـم أو حتى إجراء انتخابات رئاسيَّة مبكرة أو على الأقل إجراء استفتاء علـى بقائـه فـي الحكم ، وتمسَّك بالسلطة حتى أزاحته ثورة ٣٠ يونيه هو وجماعته ومع ذلك ظلَّـت الجماعة متمسِّكة بالسلطة طامعة فيها مقاتلة دونها بكل سلاح ، ودخلت في صـراع دامٍ مع الشرطة والجيش سالت فيه كثير من الدماء .

غادر فاروق البلاد يوم ٢٦ يوليو سنة ٥٢ وبعد يومين من رحيله عن مصر أعلن إيدن في وزارة تشرشل أن الحكومة البريطانية أبدت عدم رغبتها في التـدخل فـي شئون مصر .(٣)

---

(1) من لقاء فاروق جويدة بزكريا محيي الدين " من يكتب تاريخ الثورة ؟ " دار غريب ص ٤٨.
(2) صلاح منتصر " من عرابي إلى جمال عبد الناصر " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص : ٨٤.
(3) طارق حبيب ص : ١٠٥.

إلى هذا الحد فإن الضباط الأحرار يؤدُّون عملاً عظيماً لخدمة الوطن شارك في هذا الدور خَلْقٌ كثيرون من ضباط الجيش وبعض المدنيين – مثل علي ماهر ، السنهوري وسليمان حافظ وغيرهم .

هذا رد على من ينسب لعبد الناصر دور البطولة المطلقة في قيام الثورة ونجاحها أما بقية الضباط الأحرار فلم يكن دورهم يزيد عن دور الكومبارس الصامت !!

كان من أهم أسباب نجاح ثورة يوليو، أنها جاءت لتحقق رغبة جموع الشعب المصري في التخلص من الظلم والإقطاع والاستعمار، والعديد من المظاهر السلبيَّة التي ترتبت على فساد الحكم الملكي. ففي أواخر العهد الملكي، ساءت حالة البلاد واستشرى الفساد والمحسوبيَّة والتسيب الشديد، وأصبح التخلص من الملك وحاشيته مطلباً شعبيّاً ضروريّاً لأي إصلاح .

وجاءت الظروف الدوليَّة المواتية لتوفِّر مناخاً مناسباً قلَّل من حدَّة المقاومة الدوليَّة لنجاح الثورة، فقد خرجت الإمبراطوريات الاستعماريَّة من الحرب العالميَّة الثانية مُنْهَكَة القوى وغير قادرة على السيطرة على المستعمرات مترامية الأطراف، وبرزت الولايات المتحدة كقوَّة عظمى، تقود وحدها المعسكر الغربي، ويعتمد حلفاؤها عليها في توفير الدعم المالي اللازم لإعادة إعمار اقتصادهم المنهار .

وتاريخيّاً، لم يكن لأمريكا أطماع استعماريَّة مثل حلفائها، بل كان تدخلها في شئون الدول الأخرى مستتراً وبصورة أساسيَّة مرتبطاً بمصالحها ومصالح مؤسساتها. وبرز الاتحاد السوفييتي باعتباره القوَّة العظمى الأخرى في العالم، وكان الاتزان بين هاتين القوتين وخوف كل منهما من الأخرى، عامل استقرار يُحَجِّمُهما معاً ويحدُّ من أطماعهما الإقليميَّة. [1]

ثورة يوليو وحكم العسكر

هناك أخطاء كثيرة شاعت عن ثورة يوليو ، منها أن عبد الناصر هو صاحب الثورة ؛ فهو الذي أنشأ وحده تنظيم الضباط الأحرار وجنَّد كلَّ أعضائه ، وكل ما

([1]) " ناصر " شركة الأفق للبرمجيات التفاعلية ١٩٩٩ تصحيح ومراجعة تاريخية أ.د. رءوف عباس حامد.

قام به التنظيم من أعمال كانت بأمر من عبد الناصر وتحت إشرافه ، فما الضباط الأحرار إلا جنود في كتيبة قائدها ورئيس أركانها جمال عبد الناصر ، وجملة القول أن ثورة يوليو هي ثورة عبد الناصر .

والحقيقة غير ذلك تماماً ذكرنا جانباً منها عند حديثنا عن عوامل نجاح تنظيم الضباط الأحرار ، وقيام ثورة يوليو . (١)

الخطأ الشائع الثاني هو أن كلَّ إنجازات ثورة يوليو تنسب جميعها لجمال عبد الناصر بداية من قيامها وحتى انتصار السادس من أكتوبر ١٩٧٣(٢) رغم أن عبد الناصر لم ينفرد بالحكم إلا بعد أزمة مارس ٥٤ حتى وفاته في سبتمبر ١٩٧٠ ، أما قبل مارس ٥٤ فقد كان الحاكم الفعلي هو مجلس قيادة الثورة برئاسة محمد نجيب وكان القرار لا ينفَّذ إلا إذا حصل على موافقة الأغلبيَّة .

كيف يتخذ القرار في مجلس قيادة الثورة ؟

منذ نشأة تنظيم الضباط الأحرار وتنص لائحته الخاصة على أن الأمر لا يُقرُّ إلا إذا وافقت عليه أغلبيَّة الأعضاء حتى ولم يكن بينهم رئيس اللجنة التأسيسيَّة – جمال عبد الناصر – واستمرَّ هذا الأمر معمولاً به بعد نجاح الثورة وتشكيل مجلس قيادة الثورة وتولي محمد نجيب رئاسته ، وهذا سر نجاح الثورة ، ومجلس قيادتها ؛ حتى لا يستبد أحدٌ بالحكم ولقد جاء في بيان مجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ فبراير ١٩٥٤ – : " لم يقبل المجلس مطلقاً على أن يحيد عن لائحته التي وضعت قبل الثورة بسنين طويلة إذ تقضي بمساواة كافة الأعضاء بما فيهم الرئيس في السلطة ، فقط إذا

---

(١) يردد الناصريون دائماً أن عبد الناصر هو الذي أعدَّ خطة حرب أكتوبر ٧٣ (الخطة ٢٠٠) ودرَّب القوات المسلحة عليها ، وكان سينفذها فور انتهاء فترة وقف إطلاق النار المؤقت في ٧ نوفمبر ٧٠ ولكن القدر لم يمهله فتوفي قبل تحرير كل الأراضي العربية التي احتلت في يونيو ٦٧ وعندما تولى السادات الحكم أرجأ تنفيذ الخطة إلى أكتوبر ٧٣ وفشل في تنفيذها كما وضعها عبد الناصر واكتفى بحرب تحريك بدلاً من حرب التحرير ، وهذا الكلام كله عار عن الصحة ؛ فالحقيقة كما ذكرها قادة أكتوبر العظام أن الخطة ٢٠٠ التي تركها عبد الناصر خطة دفاعيَّة وليست هجوميَّة ، وأن خطة حرب أكتوبر (بدر) قد وضعها رئيس أركان القوات المسلحة البطل الراحل سعد الدين الشاذلي مع المشير أحمد إسماعيل وزير الحربيَّة وقد انتهت مناقشتها في سبتمبر ١٩٧٣ ، لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع الرجوع إلى كتابنا " نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي " مكتبة غريب .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول تنظيم الضباط الأحرار وقيام ثورة يوليو الرجوع لكتابنا " آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة " دار غريب .

تساوت الأصوات عند أخذها بين فريقين في المجلس فترجح الكفة التي يقف الرئيس بجانبها " (1)

وعليه فإن معظم ما تمَّ من إنجازات حقيقيَّة ، وليست شعارات أو إخفاقات رُوِّجــت على أنها إنجازات ، قد تمَّت في العامين الأولين من قيــام الثــورة (يوليــو ٥٢ – أبريل ٥٤) كما سنرى ، وسوف نذكر أولاً لماذا يحب كثير من الناس الآن جمــال عبد الناصر ، وما الإنجازات التي تنسب له ثمَّ نبيِّن نصيب مجلــس قيــادة الثــورة برئاسة محمد نجيب من هذه الإنجازات ، ثمَّ نذكر رأي بعض كبار المفكرين فيمــا قام به عبد الناصر من إنجازات ، ونتائج هذه الإنجازات على نهضة مصر ، وهــل يصح أن تطبق الآن أم أن الزمن قد تجاوزها.

ولقد ترددت كثيراً في تقييم التجربة الناصريَّة في هذا الكتاب ، وقد بسطت الحديث عنها في سلسلة كتب بلغت ستة كتــب بعنــوان " دروس سياســيَّة مــن التجربــة الناصريَّة" ، خاصة وأنَّ هذا الكتاب يتحدَّث عن حضارات مصر ونهــضاتها ، وأن النهضة المصريَّة قد توقَّفت بانفراد عبد الناصر بحكم مصر ، لكن نظــراً لإيمــان كثير من الناس : نخبة ، وعامة بالتجربة الناصريَّة ورغبتهم في إعادتها بعد ثــورة ٢٥ يناير ، وهم لا يدرون أن ثورة يناير ما قامت إلا لتنهي حكم العسكر المــستبد الذي جاءت به ثورة يوليو ولتؤسِّس نظاماً ديمقراطيّاً يحقِّق نهضة حقيقيَّة تستعيد بها مصر مكانتها التي يستحقها شعبها العظيم صاحب أقدم وأعظم حضارة في التاريخ.

وبعد أن هممت بذكر ملخَّص لكيفيَّة وصول عبد الناصر للحكم ، ونظامه الــسياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وجدت أن الموضوع سيطول ويخرج عــن موضــوع الكتاب فاكتفيت بمناقشة ما جاء في المقررات المدرسيَّة في مادة التاريخ التي كتبــت في الحقبة الناصريَّة ، وبذكر شهادات بعض كبار الكتاب في نظام حكم عبد الناصر وتقييم تجربته .

وهدفي في هذا الكتاب ليس محاكمة أشخاص أفضوا إلى ما قــدموا والله تعــالى حسيبهم ، إنما الهدف استخلاص العبرة التي تفيد في فهم الحاضر وتعين على اتخاذ

---

(1) عبد الرحمن الرافعي " ثورة ٢٣ يوليه " مرجع سابق ص ١٣٨.

القرار الصحيح في المستقبل وخاصة أننا في مرحلة انتقاليَّة وعلى مفترق طرق أدعو الله أن يرشد شعب مصر فيها سواء السبيل وأن يجنبنا الزلل وسوء المآل .

ثورة يوليو والنهضة

بنجاح ثورة يوليو انتهت الحقبة الليبراليَّة والنهضة الثانية في العصر الحديث وبدأت مرحلة الديكتاتوريَّة العسكريَّة التي فاقت حقبة محمد علي في استبدادها وحُرِمَت من إنجازيها : تكوين جيش قوي ، ونهضة علميَّة وثقافيَّة بل قضت ثورة يوليو على هذين الإنجازين .

فإذا كان محمد عليّ قد أقام نظاماً ديكتاتورياً مستبِدّاً استأثر فيه بالسلطات الثلاث: التشريعيَّة ، والتنفيذيَّة ، والقضائيَّة ، وأقصى فيه كل القوى الوطنيَّة التي جاءت به إلى الحكم ، وقضى على دور الأزهر الشريف وعلمائه ، وأقام نظاماً اقتصادياً احتكر فيه كل أنشطة الاقتصاد : الزراعيَّة ، والصناعيَّة ، والتجاريَّة ؛ فتحكَّم بذلك في رقاب الناس وأرزاقها ، كما بيَّنا ، ولكن يحسب له أنه بنى جيشاً قويّاً ، وأقام نهضة علميَّة وثقافيَّة حديثة .

أما ثورة يوليو وإن خلَّصت مصر من الاحتلال الإنجليزي البغيض ، والحكم الملكي الفاسد وقامت ببعض الإصلاحات وحقَّقت للشعب بعض المطالب في العامين الأولين من قيامها إبان حكم مجلس قيادة الثورة ، لكن ما إن وصل جمال عبد الناصر للحكم واستبد به وحده حتى أقام نظاماً فاشستيّاً احتكر السلطات الثلاث وكافة الأنشطة الاقتصاديَّة ووسائل الإعلام والثقافة واستعبد البلاد والعباد جميعاً ، وقضى على جيش مصر العظيم ، وأفسد نهضة مصر الناشئة، وأسَّس نظاماً عسكريّاً استمر نحو ستين عاماً تردَّت فيها الأحوال في شتَّى المجالات ، وأصبحت مصر أم الدنيا ومعلِّمة الأمم الحضارة عالةً على الغرب والشرق علميّاً واقتصاديّاً حتى قامت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ التي قضت على الحكم العسكري مُحتَكِر السلطة والاقتصاد والإعلام والتعليم والثقافة ومازالت مصر تجاهد في سبيل إقامة نظام ديمقراطي نهضوي .

أكبر جرائم حسني مبارك

إن من أكبر الجرائم التي ارتكبها حسني مبارك في حقِّ مصر وشعبها هو عدم الإفراج عن وثائق ثورة ٢٣ يوليو مما فتح الباب لأعوان الطغاة والمنتفعين

والمغرضين وأصحاب الهوى والمصالح الخاصة أن يـزوّروا التـاريخ ويزيّفـوا الحقائق ويروّجوا الشائعات .

وكان السادات قد شكّل لجنة " إعادة كتابة تاريخ مصر " في يناير ١٩٧٦ ووضع تحت أيديها جميع وثائق ثورة ٢٣ يوليو وشهادات من بقي حيّاً من صناعها وشهودها ، وعهد برئاستها إلى نائبه حسنى مبارك، ولكن حسني مبارك بعد ثلاث جلسات فقط ترك رئاسة اللجنة وعهد بها إلى د. صبحي عبد الحكيم، أستاذ الجغرافيا، رئيس مجلس الشورى لاحقاً .

وعندما انتهت اللجنة من أعمالها وقبل إعلان نتائج ما توصّلت إليه اغتيل السادات وتولى مبارك الرئاسة بعده ليدفن عمل هذه اللجنة ، ويئد جميع الحقائق التي توصّلت إليها ، بل أوقف الحملة التي استهدفت تصحيح ما شاب تاريخ ثورة ٢٣ يوليو من تزييف وتضليل في الإعلام المصري . [١]

ولقد طالب المؤرخ الطيار فكرى الجندي، أحد الأحياء القلائل من أعضاء لجنة المجلس الأعلى للقوات المسلحة بسرعة الإفراج عن كل أعمال لجنة إعادة كتابة التاريخ، التي تم دفنها منذ انتهائها من أعمالها قبيل عهد الرئيس السابق، حسنى مبارك، مضيفاً : من العار أن نضع القيود غير المفهومة أمام إتاحة التاريخ والتعلم منه . " [2]

دراسة حقائق التاريخ أوّل خطوات النهضة

وأُذَكِّر القارئ العزيز أن الأمم التي تقدّمت ونهضت ناقـشت تاريخهـا مناقـشة علميَّة، وبأكبر قدر من الحياديَّة ، وجنَّبت تـأثير العواطـف الهوجـاء والثـارات الشخصيَّة ، والمصالح الذاتيَّة في الحكم على الأحداث والأشخاص ، حتى تأخذ مـن ماضيها لحاضرها ومستقبلها ، ومن أخطائها ما يجنبها الوقوع فيها ثانية .

---

(1) صرَّح بذلك حمدي الكنيسي رئيس الإذاعة الأسبق في ندوة د. سيد كريم في أول التـسعينات وكـان المؤلف أحد المشاركين فيها .

(2) من حوار الطيار فكرى الجندي مع جريدة المصري اليوم ونشرته المصري اليوم بتاريخ الأحد ٢٠ نوفمبر ٢٠١١ .

كما أنهم لم ينظروا إلى زعمائهم نظرة تقديس وتأليه بل نظروا إليهم نظرة تمحيص وتقييم، فحكامهم بشر يخطئون ويصيبون عكس نظرة الشرقيين الذين يتفانون في زعمائهم أحياء ويقدسونهم أموات .

يقول د. حمادة حسنى (أستاذ التاريخ الحديث) : " الأساطير أكثر تشويقاً وأكثر ملائمة للعواطف والميول السياسيَّة أمَّا الحقائق التاريخيَّة فهي مزعجة بطبيعتها وإذا ما عرف المصريون تاريخهم من أمثال هؤلاء وبهذه الصورة المشوَّهة القبيحة فرحمة الله على ماضينا .

فإذا كان من حقٍّ السياسيينِ الدفاع عن نُظُمِهم السياسيَّة بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة فإنَّه من حقٍّ المؤرِّخين الدفاع عن تاريخهم الوطني بالوسيلة المشروعة الوحيدة وهى الحقيقة التاريخيَّة .

فالصحفي يقبل جزء من الحقيقة والسياسي يقبل نصف الحقيقة والباحث لا ترضية إلا الحقيقة كاملة فالمؤرِّخ والقاضي بحكم تكوينهما المهني منحازان لجانب الديمقراطيَّة ضد الدكتاتوريَّة والعدل ضد الظلم والتقدم ضد التخلف . "

ويقول فاروق جويدة : " ينبغي أن نتعامل مع تاريخ ثورة يوليو على أساس أنه تاريخ مصر وليس تاريخ عبد الناصر أو السادات أو محمد نجيب أو سعد زغلول أو النحاس . إن تنقية الكتابة التاريخيَّة من الأهواء والأغراض والمصالح هي نقطة البداية ؛ لأن المؤرخ راهب يجب أن يتخلَّص من كلٍّ غبار النزوات والشطط والرؤى الضيقة، ويهب نفسه لقيمة اسمها الحقيقة وهي أساس الكتابة التاريخيَّة." (١)

ومقياس شخصية الوطني المخلص لا تتَّضح تمام الوضوح إلا إذا حدَّد المعيار السليم لقوة ضبط النفس في تطبيق المبادئ والأهداف والمُثل والحرص على تحقيق مصلحة الأمَّة ، وليس الانتصار لشخص على حساب مصلحة الوطن ، وأن التقيُّد بالمُثُل يعني ضمان عدم تأثر المبادئ والأهداف بشخصيات الزعماء، أو بالهوى، أو بالمصلحة الشخصيَّة.

---

(1) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ٧٥ .

إن الضعيف الجبان دائماً يحلم بزعيم قوي شجاع يستر وراءه ضعفه ، ويجبر به كسره ، وفي أوقات الهزائم والمحن يلتف الناس خلف كلِّ ثائر بطلاً كان أو ناعقاً ، ويستحضرون صور زعمائهم الذين قالوا " لا " في وجه أعدائهم ، وبدلاً من أن ينتصروا للمبادئ ينتصرون للأشخاص الذين عبثوا بها !!

هذه هي عبادة الأشخاص التي تسود المجتمعات المتخلِّفة ، فهي تؤمن ببعض الزعماء إيماناً مطلقاً ، وتجعل من شعاراتهم قرآناً صالحاً لكلِّ زمان ومكان !

والشعوب المتحضِّرة استطاعت أن تستبدل بعبادة الأشخاص تقديس المبادئ، والكفر بالزعماء الذين أهدروها .

وأيقنَتْ أن لكلِّ زمان رجاله ، ولكلِّ مرحلة قراراتها فما كان مطلوباً في وقت النضال من أجل الحريَّة – ربما – صار مرفوضاً في المراحل التالية التي تتطلَّب مراجعة النفس ، وإعادة تقييم الماضي بشخوصه وأحداثه.

والشعب المصري وقد استردَّ حريته بعد ثورة ٢٥ يناير ، وثورة التصحيح ٣٠ يوليه أصبح قادراً على التفرقة بين الزعيم المتجرِّد المُخْلِص وبين الزعيم الذي يخفي وراء المبادئ شهوة السلطان والطموح الذي لا حدَّ له في السيطرة والتملك .

إن شعب مصر بعد أن ثار في وجه حكامه الطغاة يريد حكَّاماً تقاوم الاتجاه الغريزي للاستبداد لكي تناصر مصلحة الأمَّة ، وتصارع الشهوات الخاصَّة لتخضعها لمصلحة الشعب ، وتكافح الانحراف عن هذا النهج ، وتعمل على القضاء على محاباة الحاكم للمصالح الشخصيَّة ، وتصارع استغلال السلطة للمصلحة الشخصيَّة على حساب ثروة الوطن ومستقبله .

كما يجب على القارئ العزيز أن يتحلَّى بفضيلة التدبُّر والتفكُّر فيما يقرأ ، يقول عليّ رضي الله عنه: " إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبُّر فيها " [(١)]

([1]) ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى { إنما يخشى الله من عباده العلماء }.

لماذا يحب الناس عبد الناصر ؟!

وقد يسأل سائل لماذا هذا الحبُّ الجارف لجمال عبد الناصر وحقبته ؟ هذا الحب الذي لم يخبُ رغم مرور الزمن .

وكما توقَّع الأستاذ هيكل " فإن عبد الناصر بعيداً أخطر من عبد الناصر قريباً لأنه في غيابه قد تتحوَّل الناصريَّة من شخص إلى فكرة ومن فكرة إلى تنظيم".

ولقد رأينا التنظيمات العربيَّة المسلَّحة : حماس ، وحزب الله ، والحلف الإيراني السوري مِنْ ورائهما تتَّخذ من المبادئ والشعارات التي شاعت عن عبد الناصر نهْجاً لها (١) يظهر هذا في شعاراتهم التي يرفعونها ، أو في ممارساتهم التي يؤدُّونها، مثل شعار اللاءات الثلاثة (لا صلح ، ولا اعتراف ، ولا مفاوضات) مع إسرائيل. وشعار الاعتراف بإسرائيل خيانة ، وإقامة أيَّة علاقة بأمريكا عمالة، وشعار أن أي تسوية سلمية مع إسرائيل استسلام وانهزاميَّة ، وشعار أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، وأن كل المعاهدات التي وقَّعها الحكام العرب مع إسرائيل مجحفة يجب نقضها والخروج عليها .

لقد استقرَّ في ذهن هذه التنظيمات ، وكثير من عامَّة الناس أن التجربة الناصريَّة حقَّقت للأمَّة العربيَّة كل ما تتمنى دون أن تكبدهم مؤنة التفكير والعمل ، فإذا كانت إسرائيل هي عدوهم الأكبر في العالم ، فإن عبد الناصر كاد أن يرميها في البحر هي ومَن وراءها ، ورفض أية تسوية سلميَّة معها رغم إلحاحها في طلب هذا !

وإذا كانت أمريكا هي العدو اللدود للعرب فإن عبد الناصر هو الذي أذلَّ كبرياءها وحطَّم آمالها ، وقضى على هيمنتها !

وإذا كان العرب آفتهم الكبرى الفرقة والاختلاف فإن عبد الناصر هو الذي استطاع أن يجعل العرب أمَّة واحدة وقوميَّة واحدة تحت زعامته !

---

(1) رغم أنها أحزاب دينية ، والناصرية كانت حركة علمانية فليس للدين فيها علاقة بالمجتمع وقوانينه ونظام حياته ، وإنما هو طقوس تعبدية في المسجد أو في الكنيسة فحسب .

كل هذه الآراء التي شاعت بين الناس جعلت من جمال عبد الناصر رمزاً للمقاومة العربيَّة ضد الهيمنة الأمريكيَّة، وطغيان إسرائيل حليفتها الاستراتيجيَّة، لذا نجد صورة عبد الناصر مع كل عدوان أمريكي أو إسرائيلي على البلاد العربيَّة تُرفع، والحناجر باسمه تهتف : لو كان عبد الناصر حيّاً ما كانت أمريكا لتحتل أفغانستان أو العراق ، وما كان لإسرائيل أن تُبيد الفلسطينيين ، وتجتاح لبنان وغزة، وتهدد إيران وسورية ، وما كان، وما كان ...

كما أن أيَّ مُقاوِم لإسرائيل يُشبَّه بعبد الناصر، وأي عدو للإمبرياليَّة يقرن به وهناك حزبان ناصريان ،على الأقل ،في مصر: الحزب الناصري ، وحزب الكرامة، بالإضافة لحزب التجمع الذي يعتز بالتجربة الناصريَّة . كما أن بعض مرشحي الرئاسة السابقة ناصريون وبعضهم ذوو ميول ناصرية .

والحقيقة أن المفهوم الشائع عن علاقة عبد الناصر بالغرب – خاصة أمريكا وإسرائيل – ليس فقط مخالفاً للحقيقة والتاريخ وإساءة للتجربة الناصريَّة بإظهار عبد الناصر في شكل الطاغية الغاشم أو هتلر النازي – كما يصفه أعداؤه من الغرب – إنما أيضاً فيه إساءة لفهم حقيقة الصراع العربيِّ / الغربيِّ مما يؤثِّر سلباً على حسن اختيار السياسة الرشيدة التي يجب أن يتبعها العرب ليحققوا بها أهدافهم بعد سلسلة طويلة من التخبُّط الفكري ، والتمزُّق النفسي، والتخلُّف الحضاري ، والهزائم العسكريَّة.

ولو أن التجربة الناصريَّة بصفة خاصة وتاريخ الصراع العربيِّ / الغربيِّ بصفة عامة قد دُرست دراسةً سياسيَّةً موضوعيَّة ما تكررت أخطاء الماضي وما ظهرت تلك الزعامات العربيَّة التي تسبَّبت فيما نحن فيه من ذلٍ وهوان ، وفرقة وانقسام .

والحقيقة إن السرَّ وراء حبِّ الناس عبد الناصر يرجع إلى غيبة الحقائق وعدم الإفراج عن وثائق ثورة يوليو ، وكتائب الإعلام : المسموعة والمقروءة والمرئيَّة التي كانت مجنَّدة للدعاية للزعيم وأعماله ، وثلَّة الفنانين : مغنون وممثلون ورسَّامون ونحَّاتون ...الذين سخروا إبداعهم لإظهار بطولة الزعيم .

لقد فرض النظام الناصري العزلة الجبريَّة على المصريين وعقَّم مصر من أيَّة آراء معارضة لآراء الزعيم فعاشت مصر في الكهف الناصري الذي حجب عنها كل نقد داخلي أو وسيلة إعلام خارجيَّة كما عاشت مصر في ظل الاحتلال العثمانيين فمن

عاش في الحقبة الناصريَّة حُكِمَ عليه ، طوعاً أو كرهاً ، ألا يسمع ولا يرى ولا يقرأ إلا تسبيحاً وعظيماً للزعيم وإنجازاته وتخويناً وتشهيراً وتنكيلاً بمعارضيه .

وعندما تظهر الوثائق وتعرف الحقائق وتدرس المواقف حتماً سيتغير موقف النـاس من عبد الناصر وعصره .

مناقشة مقررات التاريخ المدرسيَّة في الحقبة الناصريَّة

وجاءت المناهج المدرسيَّة لتغرس في نفوس تلاميذ المدارس والجامعات أن جمـال عبد الناصر هو أوَّل حاكم مصري وطني حكم مصر منذ عهد الفراعنـة الأقـدمين وأنه حقَّق لمصر ما لم يحقِّقه لها كلُّ من سبقه من حكـام ، لقـد دأبـت المنـاهج المدرسيَّة وخاصة مادة التاريخ في الحقبة الناصرية وما بعدها على تعظيم كـل مـا قام عبد الناصر من أعمال وما اتخذ من قرارات وتبرير كل ما وقع فيه من أخطاء وما سبَّبه من كوارث ونسبة كلِّ إخفاقاته إلى نظريَّة المؤامرة الدوليَّة عليه رغم أنـه كان حليفاً استراتيجيّاً لأمريكا منذ قيام الثورة حتى عام ١٩٦٥ وعندما انقلب علـى أمريكا وانحاز بالكلِّية إلى الاتحاد السوفيتي انقلبت عليه أمريكا وكانت هزيمة يونيو ٦٧ . (١)

ودونك بعض ما جاء في المقررات المدرسيَّة التي درسـها الطـلاب فـي الحقبـة الناصريَّة .

لقد وضع طه حسين وآخرون كتاب قومي في عام ١٩٥٥ كـان خاصّـاً للثانويَّـة العامَّة ، وفي هذا الكتاب جاء الكلام عن ثورة يوليو من كتاب فلسفة الثـورة الـذي وضعه جمال عبد الناصر . (٢)

ولم تكتف المقررات المدرسيَّة بتدريس كتاب الزعيم " فلسفة الثورة " الذي صـاغه لجمال عبد الناصر مستشاره الصحفي حسنين هيكل بل راحت بمقدار ما تمجِّد فيـه وفي عصره تحقِّر من الحقبة الليبراليَّة التي نشأ الزعيم في ظلِّها وتعلَّم بالمجان فـي

---

(١) راجع كتابنا " أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء " دار غريب للطباعة والنشر .
(٢) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهـضة الشرق ص ١٧٢ .

مدارسها ، وتفتّق وعيه السياسي على كتابات مفكريها وأدبائها ، ووصل ، وهو ابن ساعي البريد ، إلى وظيفة مدرّس في الكليّة الحربيّة برتبة بكباشي (مقـدم) أركـان حرب أثناءها .

يقول د. زكي البحيري : " وبعد قيـام ثـورة ٢٣ يوليـو ١٩٥٢ أخـذ وضـع المقررات التاريخيّة المعاجلة لمصر الحديثة طابعاً اتسم أحياناً بالمبالغة في التنـاول التاريخي كرد فعل لطول فترة القهر على مدى عصور تاريخيّـة ، ولقـد تعـرَّض تاريخ مصر الحديث لحملة من سياط التعبيرات المطلقة السهلة تدفع الماضي إجمالاً وتظن أنها بذلك ترضي الحاضر ، ناسية أن الحاضر مهمـا كـان اختلافـه عـن الماضي ، ولد في أحشائه وبدأ فيه وبالتالي فإنه ليس هناك ذلك الانغلاق الكامل بين عهد بائد وعهد جديد حل محله ، ونتيجة لذلك ساد تصور سطحي خـاطئ تـاريخ مصر الحديث لم يبدأ إلا بعد قيام ثورة ١٩٥٢ وهذا إهدار لجزء هام مـن تـاريخ مصر .

إن الرغبة في إبراز الدور الوطني والقومي لثورة ٢٣ يوليو وللأحـداث التـي تلتها لا تعني على الإطلاق انتقاء أخطاء الماضي واعتبارها تاريخاً له وانتقاء مزايا الحاضر واعتبارها هي حقيقته ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن ننفـي أن المعالجـات التاريخيّة بعد ١٩٥٢ قد كشفت النقاب عن كثير من حقائق تـاريخ مـصر حـديثاً ومعاصراً .. (١)

لقد أبدى كتاب " تاريخ الإقليم المصري الحديث " للصف الرابع الإعـدادي لمؤلفـه محمد عبد الحميد سنة ١٩٥٩ إعجاباً بالثورة وإنجازاتها وكفاحها الـوطني فـذكر المقرر أسباب قيام الثورة والظروف الدوليّة المحيطة بها في ٣٣ صفحة ثم تطـرَّق إلى أوضاع مصر قبل ١٩٥٢ فأشار إلى فشل المفاوضات المـصريّة البريطانيّـة واستمرار الملكيّة الفاسدة ، وعدم تمكن الأحـزاب القائمـة ، وأشـكال الممارسـة النيابيّة، والحكومات الناتجة عنها من تحقيق الآمال الوطنيّـة فجـاء فـي المقـرر

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيّة المصريّة " مرجع سابق ص ٥٠ .

المدرسي أن " الأصل في ظهور الأحزاب قيامها على مبادئ خاصة للوصول إلى أهداف واضحة في الإصلاح الداخلي والسياسة العامَّة ، ووضع برامج مفصَّلة لذلك، ولكن للأسف تفرَّغت معظم الأحزاب المنحلَّة عن الوفد المصري الذي قام في أوَّل أمره يمثِّل الشعب كله ، ويدافع عن مصالحه واستقلاله ، وحدث هذا أثر خلافات شخصيَّة ، وأصبح الهدف الأوَّل لكل حزب الوصول إلى كراسي الحكم ، فأعماها هذا عن القيام بواجبها الأصلي فجاملت الاستعمار وتملَّقت القصر ، وأصبحت بمضي الزمن خاضعة لرغباته ومحقِّقة لنزواته ، ولو كان ضد الدستور أو على حساب الشعب . " (١)

وعن نفس القضيَّة جاء في كتاب التاريخ للصف السادس الابتدائي لسنة ١٩٦٠ مقولة نصها " تخلَّصت ثورة الضباط الأحرار من الملك الطاغية " والعبارة تدين بشكل قطعي النظام الملكي قبل الثورة .

ورصد نفس المقرر أهداف الثورة وهي :

١- التخلُّص من الاستعمار وأعوانه .

٢- القضاء على الإقطاع .

٣- التخلُّص من سيطرة أصحاب رأس المال على الحكم .

٤- إقامة عدالة اجتماعيَّة .

٥- إنشاء جيش وطني قوي سليم .

٦- إقامة حياة ديمقراطيَّة سليمة .

وينتقل كتاب تاريخ الصف السادس لسنة ١٩٦٠ لمعالجة التطورات الاقتصاديَّة فقد تمَّ إعلان قانون الإصلاح الزراعي في الملكيات الكبيرة والظلم الاجتماعي وسيطرة الأسرة المالكة ومن والاها ، ويسجِّل المقرَّر أنه تمَّ نزع ملكيَّة آلاف الأفدنة من الأسرة المالكة بعد تحديد الحد الأقصى لملكيَّة الفرد بـ ٢٠٠ فدان ، و٣٠٠ فدان

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٧٣ ، ١٧٤.

للأسرة كاملة ، ولقد أعادت الحكومة توزيع الأراضي المستولى عليها على صغار المزارعين فانتفع من هذا القانون نحو ١٧٠,٠٠٠ أسرة فلاحيَّة مما ساعد على رفع مستوى المزارعين ، وتطرَّق الكتاب في تحليله إلى ما أنجزته الثورة من مشروعات ساعدت على زيادة الرقعة الزراعيَّة . (١)

ولعلَّ واحدة من أهم الإنجازات التي تنسب لعبد الناصر توجهه لإرساء العدالة الاجتماعيَّة وذلك باتخاذ خطوات ذات طابع اشتراكي ، ولقد انعكس ذلك في مقررات تاريخ مصر في المدارس المصريَّة ، فكتاب الشهادة الإعداديَّة لسنة ١٩٧٠ أشار إلى القوانين الصادرة في مصر التي كانت تهدف إلى "تحقيق العدالة الاجتماعيَّة ، والتخلُّص من النظام الإقطاعي بإصدار قوانين الإصلاح الزراعي ثم قوانين يوليو الاشتراكيَّة عام ١٩٦١ بتحديد الملكيَّة بـ ١٠٠ فدان وتأميم كبرى الشركات والمؤسسات وتحويلها إلى قطاع عام ، تلك الشركات التي كانت تمثل استغلالاً واستنزافاً لموارد الشعب المصري " (٢)

ولم تجبنا المقررات المدرسيَّة الناصريَّة عن السبب وراء الهجرة الداخليَّة التي قام بها الفلاحون إلى العاصمة والمدن الكبرى رغم تملُّكهم لأرض الإقطاعيين ورفع مستوى المزارعين كما يقول المقرر المدرسي .

والحقيقة أن الإصلاح الزراعي ما هو إلا تطبيق لنظام الاحتكار الذي أنشأه محمد على وعمل على هجر الفلاحين أرضهم والفرار إلى الشام ، وكذلك فعل الفلاحون في عصر عبد الناصر هجروا أرضهم وفرُّوا إلى العاصمة والمدن الكبرى بحثاً عن لقمة العيش التي عزَّت عليهم في قراهم بالإضافة إلى استمرار حرمانهم من سائر الخدمات كما سنبيِّن لاحقاً ، ولكن المقرر المدرسي يحاول أن يوحي إلينا بأن الفلاح المصري في ظلِّ الإصلاح الزراعي قد عاش عيشة الفلاح الأمريكي !!

وأشار مقرر الصف السادس الابتدائي لعام ١٩٦٠ إلى ما أنجزته الثورة من التقدم الصناعي ، وكهربة خزان أسوان ، وإنشاء مصنع الحديد والصلب بحلوان ،

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٧٤، ١٧٥ .
(٢) نفسه ص ١٨٢ .

وإنشاء مصنع السماد ، ومصانع تكرير البترول وأدخلت صناعات جديدة كالورق ، وكاوتش العربات والأدوات الكهربائيَّة . (١)

ونترك للقارئ العزيز مقارنة ما أنجزته الثورة من مشروعات اقتصاديَّة وما تمَّ في الحقبة الليبراليَّة في نفس المجال وأغفلت المقررات المدرسيَّة الناصريَّة ذكره أو حتى التنويه عنه .

وعن الإصلاحات الاجتماعيَّة جاء بنفس المقرر أن الثورة " ألغت الألقاب والرتب المدنيَّة ، حتى تشيع المساواة " وفي التعليم " تمَّ تغيير اسم وزارة المعارف العموميَّة إلى وزارة التربيَّة والتعليم فأصبحت رسالتها تكوين المواطن الصالح " كذلك تمَّ " إنشاء المدارس في مختلف أنحاء الإقليم المصري ".(٢)

أما عن إلغاء الألقاب والرتب المدنيَّة وبصرف النظر أن هذا الإلغاء كان مما قامت به وزارة علي ماهر فإن الحقبة الناصريَّة شهدت أسوأ ما عرفته مصر من إساءة لاستخدام السلطة ، وقهر المواطنين من قبل رجال النظام وأهل الثقة الذين حرموا أصحاب الرُّتب المدنيَّة منها وتلقَّبوا هم بها ، أما عن شيوع المساواة بين المواطنين فهذا مما لا ينكره منصف فباستثناء رجال النظام ومن والاهم فإن سائر المواطنين كانوا سواءً في الظلم !! وقد شاعت في هذا العصر مقولة " المساواة في الظلم عدل " على أنها حكمة بليغة وفي الحقيقة أنها دستور الطغاة والمتجبِّرين في الأرض .

أما عن التعليم في العصر الناصري وتغيير اسم وزارة المعارف إلى وزارة التربيَّة والتعليم لتصبح رسالتها تكوين المواطن الصالح فإن مما اتَّفق عليه المفكِّرون والمهتمُّون بالتعليم أن انهيار التعليم في مصر وتردي مستوى المؤسسات التعليميَّة والمتعلِّمين وتراجع مكانة الجامعات والشهادات المصريَّة عالميّاً قد بدأ بعد ثورة يوليو وتولي أحد الضباط الأحرار وزارة التربية والتعليم .

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٧٦ .
(٢) نفسه ص ١٧٦ .

وعن مساهمات الثورة الأخرى تعرَّض مقرر الشهادة الإعداديَّة للتاريخ الصادر ١٩٥٩ للدور الوطني للثورة ضد الاستعمار ، فتحدَّث عن نجاح الثورة في إجلاء الاحتلال البريطاني عن مصر ، وإفشال حلف بغداد ثم يقول : " وبدأت القوى الغربيَّة تحيك الحيل ضد مصر ، وظهر أن هناك خطراً منتظراً وكان يجب إعداد جيش وطني قوي لمواجهة مخاطر الاستعمار والصهيونيَّة وأراد عبد الناصر تزويد الجيش بالسلاح من انجلترا أو الولايات المتحدة فرفضتا إلا إذا قبلنا الدخول في أحلافهما العسكريَّة ، فاتجهت الحكومة إلى الكتلة الشرقيَّة خاصة الاتحاد السوفيتي الذي زوَّد مصر بكل حاجاتها من السلاح " (١)

لقد اعتبر البعض أن ما جاء في المقررات المدرسيَّة عن الفترة المنحصرة بين ١٩٥٢ و ١٩٧٠ خاصة ما يتصل بالصراع ضد الاستعمار كان مبالغاً فيه وحمَّل هؤلاء حكومة الثورة مغبَّة ما وقع من أحداث أضرَّت ببلادنا وخاصة حرب ١٩٥٦ وما تلاها من موقف الغرب المعادي لنا .

في مقابل ذلك يرى الناصريون أن التوجهات المصريَّة خلال هذه الفترة لم تكن عشوائيَّة ولا خاطئة ، وأن حيل السياسة البريطانيَّة والامريكيَّة ضد مصر والأمَّة العربيَّة كانت دائبة في تآمرها خوفاً من أن يقوى العرب أو يتوحَّدوا مما جعل الغرب وإسرائيل في خطر ، لقد أرادوا استخدام بعض الأنظمة العربيَّة الرجعيَّة لضرب الحكومات الثوريَّة لكي تبقى الأمَّة العربيَّة مفككة . (٢)

إن من أوجب واجبات الزعيم الحق نحو شعبه توفير الدفاع عن حدود الوطن من أي عدوان خارجي يريد أن يعتدي على أرضه ، أو يهدِّد أمنه . لذا يجب أن يضع تقوية الجيش : تسليحاً ، وتدريباً ، وقيادةً نصب عينيه .

لكن هذا الواجب كان أبعد الأمور عن تفكير نظام الحكم الناصري إذ كانت مهمَّة القوات المسلحة قاصرة على شيء واحد لا ثاني له وهو حماية النظام الناصري وإن تعرض أمن الوطن للخطر !!

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٧٧ .
(٢) نفسه ص ١٧٩ .

وكان طبيعيّاً والحالة هذه أن تكون الهزيمة حليف هذا الجيش فلم يحقِّق أيَّ نصر في أيِّ معركة دخلها فقد هزم في حرب ١٩٥٦ ، ولم يستطع أن يحقِّق النصر على العصابات غير النظاميَّة في اليمن ، ولم يحافظ على الوحدة مع سوريا، ولم يصمد لبضع ساعات أمام الجيش الإسرائيلي حيث قُضِيَ عليه تماماً في ١٩٦٧.

إن الدارس لتاريخ حكم عبد الناصر يخرج بنتيجة مفادها أن أرواح جنود القوات المسلحة هي آخر شيء يفكِّر فيه عبد الناصر فمن أجل رفض أمريكا تمويل السد العالي اعتراضاً على سياسته المؤيدة للسوفييت والمعادية لأمريكا أمَّم قناة السويس واندلعت حرب السويس التي راح ضحيتها أكثر من ألف شهيد من القوات المسلَّحة غير شهداء المقاومة الشعبيَّة ، ومن أجل تضميد جراح زعامته الجريحة بانفصال سوريا عن مصر زجَّ بالجيش المصري في الحرب الأهلية في اليمن التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل والتي راح ضحيتها أكثر من عشرة آلاف شهيد ، ومن أجل الرد على بعض حكام العرب الذين عيَّروه بمرور السفن الإسرائيلية رافعة أعلامها في المياه الإقليميَّة لمصر وتستُّره خلف القوات الدولية قام بإشعال فتيل حرب ٦٧ بطرد هذه القوات وراح ضحية هذه الحرب ٢٥ ألف شهيد غير احتلال إسرائيل الأرض العربيَّة : سيناء ، الجولان ، غزة ، والضفة الغربيَّة ، ومن أجل إثبات أن ٦٧ لم تكن إلا معركة في حرب عوان قام بحرب الاستنزاف التي راح ضحيتها عشرة آلاف شهيد ! وأعداد الشهداء هذه وفقاً لإحصائيات حسنين هيكل التي أوردها في كتبه ،والحقيقة أن عدد شهداء كلِّ معركة من التي هزمنا فيها أكبر من ذلك بكثير .

ويجب أن نعي جيداً أن جميع الاعتداءات التي وقعت على مصر وعلى جيشها في العهد الناصري والتي اضطرت عبد الناصر إلى اللجوء إلى السوفييت – منذ العدوان على العوجة والكونتلا إلى هزيمة ٦٧ والاحتلال الإسرائيلي والروسي لأجزاء من أرض مصر مروراً بحرب السويس وحرب اليمن – هذه الاعتداءات لم تجلبها مصر كدولة لها تاريخ حضاري مجيد ولها حدود تاريخيَّة لا ينازعها فيها أحد، إنما الذي جلب كلَّ الاعتداءات الخارجيَّة على أرض الوطن وعلى القوات

المسلَّحة هي السياسة الناصريَّة التي حولّت الأصدقاء إلى أعـداء والأعـداء إلـى معتدين . (١)

ويعدُّ الناصريون ومؤلفو المقررات المدرسيَّة استجلاب عبد الناصر عـداء القـوى العظمى بطولة ، وريادة لمساندة قضايا التحرر الوطني ليس فـي الـبلاد العربيَّـة فحسب بل في العالم أجمع !!

ولم يسأل هؤلاء الناصريون أنفسهم هل كان في استطاعة مصر الخارجة لتوِّها من احتلال دام ٧٤ سنة كاملة ومن حكم يقولون عليه أنه فاسـد أن تلعـب دور قـوة عظمى جديدة تنافس أمريكا وروسيا على زعامة العالم ؟!

إن الواجب على رئيس أي دولة ناهضة السعي إلى كسب صداقة القوى العظمـى أو على الأقل تجنُّب إثارتها والالتزام بالحياد الإيجابي حتى يتفـرَّغ لبنـاء دولتـه وينهض بها نهضة شاملة تمكنها بعد ذلك من التأثير الفعَّال في السياسة العالميَّة .

ولكن عبد الناصر بدلاً من الاهتمام ببنـاء مـصر وإقامـة مؤسـساتها وتنميـة اقتصادها والاعتماد في كلِّ ذلك على الموارد الطبيعيَّة والبشريَّة لمصر والمصريين والتعاون في ذلك مع الدول العربيّة الشقيقة والدول الأجنبيَّة الصديقة فبدلاً مـن أن يسلك عبد الناصر هذا المسار الطبيعي للنهضة الحقيقيَّـة راح يلعـب دور الـزعيم الإقليمي القادر على التحكم في سياسة الشرق الأوسط أو على الأقل الوطن العربي ليجني المساعدات الأجنبيَّة ويحقِّق الزعامة الدوليَّة حتى على حساب نهـضة بـلاده واستقراره !!

لقد أدرك عبد الناصر أنه لكي يكون لاعباً أسياسيّاً في المنطقة فلا بد أن يُخْـضِع أكبر عدد من الدول الأسيويَّة والإفريقيَّة لنفوذه حتى يتمكن من حصد أكبـر قـدر ممكن من المساعدات الأجنبية .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول الأمن الخارجي في الحقبة الناصريَّة راجع كتابنا " نظـام عبـد الناصـر السياسي والاقتصادي والاجتماعي " دار غريب .

يقول كوبلاند [1] : " اعتقد ناصر أنه في ذلك الوقت الذي تصاعد ضغط "اتحاد المحايدين" على مصادر المساعدات الأجنبيَّة الرئيسيَّة – وهوي الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي – بصورة حسابية بسيطة ، فقد تضاعف ضغطه عليها بصورة هندسيَّة مُرَكَّبة وعلى سبيل المثال فعندما كان ناصر يضمن تأييد المصريين وحدهم له كانت قيمة المساعدات التي يتقاضاها منَّا (أي الأمريكيون) لا تتجاوز جَدَلاً "س" وعندما يضمن تأييد العالم العربي له فالنتيجة أحسن والقيمة تتضاعف وتغدو "$س^2$ " وفي حال وقوف العالم الإسلامي معه فإنه يحصل على مساعدات تبلغ "$س^3$ " وعند مؤازرة الدول غير الغربيَّة له (الإفريقية والآسيوية) فإنه يحصل على مساعدات قيمتها " $س^٤$ " . ولم نكن نشترط عليه أن يكون الناطق باسم جميع الدول الإفريقية والآسيوية أو جميع دول العالم الإسلامي ، بل كان يكفيه أن يبرهن لنا على أنه يملك زمام التأثير عليها حتى يتقاضى كامل أجره ومطلق تعويضاته . ولم نكن لننفرد في سلوك مثل هذا الطريق وحدنا بغية تنفيذ مآربنا ، بل كان السوفييت يشاركوننا في هذا أيضاً . فكنا وإياهم نفضّل الاستعانة بناصر لتنفيذ سياستنا وتحقيق أغراضنا بدل الاستعانة بغيره من زعماء : اتحاد المحايدين " مثل نكروما أو سوكارنو أو بدل مباشرة ذلك بأنفسنا . "(٢)

لم يكن عبد الناصر يطمح في أن يصير حاكماً لكلِّ العرب إداريّاً فهذا فوق طاقته وأكبر من إمكانياته إنما كان أقصى طموحه هو أن يكون في استطاعته توجيه سياسة الدول العربيَّة ، وأن يكون المتحدث الرسمي باسمها مع القوى الخارجيَّة دون أن يتحمَّل مغبَّة أن يكون مسئولاً عن إدارة شئونها الداخلية ، ولقد فشلت المحاولتان اللتان اضطر عبد الناصر فيهما أن يكون مسئولاً إداريّاً عن بلد آخر غير مصر كما حدث في الوحدة مع سوريا ، وحرب اليمن .

---

(1) لقد أثار الناصريون كثيراً من الشكوك حول كوبلاند وكتابه " لعبة الأمم " وصحة ما جاء فيه من معلومات ، ولكن حسن التهامي صديق عبد الناصر ومدير مكتبه السابق في حديث له مع عبد الناصر حول هذا الكتاب قد أكد أن عبد الناصر قد اعترف بأن كوبلاند قد أرسل له نسخة من هذا الكتاب لإبداء الرأي فيه قبل نشره وأن عبد الناصر لم يعترض على ما جاء في كتاب " لعبة الأمم " ووافق على نشره . راجع في هذا الموضوع كتابنا " أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء " دار غريب .

(2) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير . انترناشنال سنتر – بيروت ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

هذه هي حقيقة علاقة عبد الناصر بحركات التحرر في البلاد العربيَّة والإفريقيَّة ، لقد تمَّت جميعها بالتعاون مع القوى العظمى أمريكا وروسيا اللتان كانتا تسعيان لتحرير البلاد الآسيويَّة والإفريقيَّة من قبضة الاحتلال القديم : الإنجليزي والفرنسي وإخضاعهما لهيمنة الاحتلال الجديد : الأمريكي أو السوفيتي بالتعاون مع عبد الناصر ، ولكن كما هو الحال في تحالف الصغار مع الكبار أن الخاسر دائماً هم الصغار ، ولكن في حالتنا هذه كانت الخاسرة في النهاية هي مصر والوطن العربي.

ولكن ماذا تقول المقررات المدرسيَّة عن تدخُّل عبد الناصر في شئون البلاد العربيَّة والأفريقيَّة على حساب شئون بلاده الداخليَّة ؟

يقول د. زكي البحيري : " أعطت حكومة الثورة عناية فائقة ورائدة لقضايا التحرر الوطني في بلدان العالم العربي وأفريقيا والعالم كله ، وعن هذا الموضوع جاء كتاب الشهادة الإعداديَّة لسنة ١٩٥٩ أن سياسة مصر بعد الثورة تقوم على " مقاومة الاستعمار حيثما وجد وبأي صورة كان .. وتقاوم مصر الاستعمار الإنجليزي في عدن والمحميات وعمان وتقاوم الاستعمار الفرنسي في الجزائر ؟ " (١)

ويعترف د. زكي البحيري وهو الناصري بخطأ عبد الناصر في التدخُّل العسكري في شئون البلاد العربيَّة والإفريقيَّة على حساب أمن مصر الخارجي مما ترتَّب عليه هزيمة مصر في ٦٧ فيقول : " ولم يقتصر دور ثورة يوليو في مساعداتها لحركات التحرر على أفريقيا فقط بل امتدَّ هذا الدور إلى بلدان آسيويَّة خاصة البلاد العربيَّة ؛ فقد دعَّمت حكومة العراق بعد الاستقلال وأيَّدت الثورة اليمينيَّة بالجيوش والمال لمواجهة الرجعيَّة والاستعمار ، إلا أنه كان من الأنسب بالنسبة لمصر وقتها – كما يرى البعض – أن تقتصر على المساعدة بالمال والسلاح والتدريب لبعض الحركات التحريريَّة ، وخاصة فيما يتصل بالثورة اليمنيَّة ذاتها ، وذلك بدلاً من إرسال الجيوش التي لم تكلفها تكاليف باهظة فحسب ،

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٨٤ .

وجعلتها في صدام عنيف مع الاستعمار فقط بل أضرّت بمصر خاصة عندما خاضت حرب ١٩٦٧ .

لقد شنّت إسرائيل الحرب في ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ضد مصر والبلاد العربيّة المجاورة لها بهدف تقويض حركة التطوُّر والتحرر ، والتوحد العربي مستغلّة أنسب الظروف العربيّة والدوليّة المواتية لها ، فاستولت على شبه جزيرة سيناء في مصر ، واحتلّت هضبة الجولان في سوريا وضمّت الضفة الغربيّة لنهر الأردن وقطاع غزة الذي كان تحت الإدارة المصريّة " (١)

ويقول د. زكي في موضع آخر مقيماً التجربة الناصريّة : " لقد اعتمد القائمون على الثورة على الكلام الإعلامي دون تنفيذ في بعض الأحيان مثل " سنهزم إسرائيل " و" سنحطّم الاستعمار " إن عدم المشاركة الشعبيّة في قرارات الوطن المصريّة ، ومعاناة نظام يوليو من الحصار الاقتصادي والإعلامي ، وسوء الإدارة ، وتربُّص القوى الداخليّة والخارجيّة خاصة القوى الإمبرياليّة المتمثلة في الولايات المتحدة وإسرائيل ومن ارتبطت مصالحه بهما هو الذي أدّى إلى ضرب نظام ٢٣ يوليو تلك الضربة المدويّة عام ١٩٦٧ ولو أن مناوراتهما من أجل إسقاط هذا النظام الوطني المستقل لم تتوقف . " (٢)

إنجازات مجلس قيادة الثورة أم إنجازات عبد الناصر ؟

إن من أوجب المهام التي تؤديها الحكومات المتسمة بالفعالية تحسين مستوى معيشة شعوبها بأن توفر لهم سبل الحصول على الخدمات الأساسيَّة – كالصحة والتعليم والماء النقي والصرف الصحي والكهرباء والنقل – وفرصة الحياة والعمل في سلام وأمن .

وليس هذا تفضلاً منها على شعوبها بل واجباً عليها نحوهم ، ولكن النظم الدكتاتوريَّة تؤمن بأنّه لا حقّ للشعوب على حكامها إلا ما يتفضل به حكامها عليها تماماً كما هو حال السيد مع عبده .

---

(١) د. زكي البحيري " تاريخ مصر الحديث والمعاصر في المقررات المدرسيَّة المصرية " دار نهضة الشرق ص ١٨٦ .

(٢) نفسه ص ١٧١، ١٧٢ .

قصة منجزات الثورة في المشروعات الخدميَّة بدأت تظهر بوضوح بعد الصراع الذي اقتحمه عبد الناصر لينتزع من محمد نجيب الحكم لذا شرع أعضاء مجلس قيادة الثورة يتقرَّبون أكثر من الجماهير ليس فقط عن طريق الخطب بل عن طريق إنجاز بعض المشروعات الجماهيريَّة ليكسبوا تأييد الجماهير في صراعهم على الحكم مع نجيب .

يقول خالد محيي الدين : " اتفقنا على ضرورة الإسراع بمشروعات بناء المدارس والوحدات الصحيَّة في القرى كسبيل للحصول على مساندة جماهيريَّة في موجهة أية أخطار أو أية تحركات سياسيَّة مناوئة " (١)

وفي موضع آخر يقول خالد محيي الدين : " الاقتراب من الجماهير يتطلب عملاً متجهاً لتحقيق مصالحها ، أو على الأقل البعض من هذه المصالح ، وهكذا كان الإصلاح الزراعي ، ثم كانت النهضة الاجتماعيَّة التي كرَّست من أجلها الأموال المصادرة من أسرة محمد عليّ ، حيث تم بناء مدرسة ووحدة صحيَّة ووحدة اجتماعيَّة في كل قرية ، كانت مصر في ذلك الحين تبني مدرسة في كل يوم، وتبني وحدات صحيَّة على امتداد ريف مصر كله " (٢)

ويجب أن نتوقف قليلاً أمام ما ذكره خالد محيي الدين لنستخلص منه عدة نتائج مهمة :

١- إن أعضاء مجلس الثورة – في ذلك الوقت – لم تكن تهمهم مصلحة الجماهير إلا بقدر ما تقوي مكانتهم في السلطة ، فإقامة المشروعات الخدميَّة لم تكن حبّاً في هذا الوطن بل كان هدفها تقوية نفوذ مجلس قيادة الثورة ضد نفوذ محمد نجيب ! أو لكسب الجماهير بعد ذلك .

٢- لم تكن المشروعات الخدميَّة التي أقامتها الثورة تامة التجهيز مكتملة الإعداد إنما في الغالب الأعم هي مسميات على غير مسمى فالمدارس مثلاً قال خالد محيي الدين أنه بُني في كل قرية مدرسة ، وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه فقد ظلَّت قرى

---

(1) خالد محيي الدين " الآن أتكلم " مركز الأهرام للترجمة والنشر ٢٩٢ .
(2) نفسه ٣٢٦ .

كثيرة جداً محرومة من التعليم والصحة ، وعلى فرض صحة ما قاله خالد محيي الدين أن مجلس قيادة الثورة بنى في كل قرية مدرسة لكن ما هي صفات تلك المدرسة ؟ وما المنتج التعليمي منها ؟ الحقيقة أن كثيراً من هذه المدارس كانت أقل نفعاً من كتّاب القرية الموجود ؛ فهي مدرسة بلا إمكانيات ولا مدرسين مؤهّلين وسوف نعود للتحديث عن نظام التعليم بعد ثورة يوليو لاحقاً .

٣- إن الأموال التي بنت الثورة بها هذه المشروعات الخدميَّة لم تكن فائض إنتاج أو عمل إنما كانت جزءاً من الأموال المصادرة من أسرة محمد علي وتأميم البنوك ومصانع وشركات الأفراد .

٤- إن الذي قام بهذه المشروعات أعضاء مجلس الثورة في وقت أن كان القرار يؤخذ برأي أغلبيَّة الأعضاء وقبل أن ينفرد عبد الناصر بالحكم ويحل مجلس قيادة الثورة ، أو عندما كان عبد الناصر الأول بين متساويين على حسب تعبير هيكل .

يقول زكريا محيي الدين : " في الأعوام الأولى من الثورة خاصة عاميها : الأول، والثاني كنا ناقش القرارات قبل إصدارها ونقوم بالتصويت عليها ولكن بعد ذلك اختفى مبدأ التصويت وأصبح القرار في النهاية لشخص واحد حتى ولو اختلفنا حول هذا القرار . وعلى سبيل المثال فقد كان قانون تحديد الملكيَّة الزراعيَّة والإصلاح الزراعي من القوانين التي تمَّ التصويت عليها ، ولم يكن بيننا خلاف حول ذلك كما أن القرارات في بداية الثورة لم تكن تخضع لأفكار سابقة ، كنَّا نتعامل مع الظروف والأحداث التي نراها أمامنا وعلى ضوء هذا الواقع تكون القرارات والإجراءات التنفيذية . " (١)

والعجيب أن معظم المنجزات التي يفاخر به الناصريون وينسبونها لعبد الناصر وحده لا شريك له تمَّت في عهد محمد نجيب إبان أن كان رئيساً للجمهورية أو كان محمد نجيب قد خطَّط لإتمامها مع أهل التخصُّص لا أهل الثقة ، وما تم من هذه المنجزات بعد اعتقال نجيب جاء طفرة فجائية من أجل الدعاية السياسيَّة ولم يأخذ حظه من التخطيط المحكم ولا من الدراسة المتخصِّصة مما أفقده كثيراً من مميزاته

---

(١) من لقاء فاروق جويدة ، زكريا محيي الدين " من يكتب تاريخ الثورة ؟ " دار غريب ص ٤٨.

العمليَّة وإن كان قد أدى دوره في الدعاية للزعامة الناصريَّة ، وفي ذلك يقول محمد نجيب : " بعد قانون الإصلاح الزراعي ، فرضتُ قانون تخفيض إيجار المساكن بنسبة ١٥ % ، وألغيتُ الأوقاف – عدا الأوقاف الخيريَّة – وألغيتُ البوليس السياسي، ورفعتُ مرتبات الجنود من ٦٩ قرشاً في الشهر حتى وصلت إلى ٣ جنيهات ، وسعيتُ لتحرير الأزهر من قيود الارتباط بالحكم فأصدرتُ قراراً بحل جماعة كبار العلماء ، وبدأت مواجهة شرسة من أجل تحديد النسل ، وتخفيض حجم المشكلة السكانيَّة ، وسعينا لإدخال مياه الشرب والجمعيات التعاونيَّة والوحدات الصحيَّة في القرى ، وشدَّدنا العقوبة على الاتجار بالمخدرات ، وقرأتُ مقالاً للدكتور سيد عبد الواحد يتوقَّع فيه أن تحدث أزمة خانقة في المواصلات والمرور إذا لم نسارع بالتخطيط لمواجهتها ، واقترح د. عبد الواحد أن ننفذ مشروع مترو الأنفاق وطلبتُ من وزير المواصلات أن يناقش فكرة د. عبد الواحد لنرى كيف يمكن تنفيذها لكن ضاعت الفكرة بعد أن اعتقلتُ ، ولم يؤخذ بها إلا في الثمانينات ، وكنت من أنصار تنوُّع مصادر الدخل القومي ، وألا نعتمد على الزراعة كل هذا الاعتماد الكبير كنتُ مع التصنيع ، ولكن ليس مع هذا التصنيع الفجائي الضخم الذي دفعنا إلى إهمال الزراعة ، وتحولت مصانعه إلى دعاية سياسيَّة وخسائر اقتصاديَّة ، ولقد حددتُ في ١١ أكتوبر ١٩٥٢ سياستي الاقتصاديَّة أثناء اجتماعي في الغرفة التجاريَّة مع رجال الاقتصاد والمال والصناعة فقلتُ لهم : أولاً، العمل على الاستقرار الاقتصادي بتركه للمختصين ليدرسوه ويضعوا الأسس اللازمة له . ثانياً، العمل على تشجيع استثمار رءوس الأموال الأجنبيَّة ورءوس أموال الأفراد داخل القطر لتستثمر في الأوجه النافعة لتنمية الاقتصاد وتقويته ، كما نعمل على تشجيع الأفراد والهيئات ليزداد نشاطها الاقتصادي وبالتالي يزداد نمو الثروة القوميَّة وهذا هو الركن الأول من نهضتنا .

وبالطبع انقلبت كل هذه الأسس بعد أن أُقِلْتُ من الحكم ، فزع رأس المال الفردي، وأصبح العمال هم القادة ، ولم تعد هناك ضمانات للاستقرار أو للاستثمار ، كل شيء كان ينفذ بأسلوب الطفرة ، وضاع أهل الخبرة وجاء أهل الثقة ، ودخل الضباط كل المشروعات والمرافق . إن المشروعات التي أقيمت في الستينات كانت

بلا تخطيط ، وبلا كوادر تديرها ، كانت مباني بلا معنى ، وكانت دعاية لا ضرورة اقتصاديَّة .

ووصل التزوير في بعضها إلى حد الإعلان عن إنتاجها السنوي دون أن يفتتح المصنع أصلاً . حتى المشروع الضخم المسمى بالسد العالي كان الاهتمام بالجانب السياسي والدعائي فيه أهم وأكبر من الجانبين : الاقتصادي والفني ، كان لابد أن نقيم المشروعات المكمِّلة له وإلا فقدنا الكثير من المميزات التي كنا نتمتَّع بها قبل بنائه وهذا ما حدث فعلاً فجاءت مميزات السد أقل من عيوبه لقد كانت الدراسة الفنيَّة وجدوى مشروع السد العالي أمامنا وأنا لا أزال بعدُ رئيساً للجمهورية ونبتت في رأسي فكرة إرسال بعثات اقتصاديَّة إلى مختلف دول العالم بما فيها الدول الاشتراكيَّة للاطمئنان على إمكانيَّة تمويله بلا متاعب ، وأعددنا دراسة لكل مشروعاتنا وأرسلناها إلى مختلف الدول بما فيها الاتحاد السوفيتي ، وافتتحت بنفسي معرض ألمانيا الديمقراطيَّة التي أبدت استعدادها لتوريد مصانع كاملة لمصر ورصدت دخل المعرض كله للجمعيات الخيريَّة المصريَّة ، إنني كنت مؤمناً بضرورة مصارحة الشعب بكل شيء ؛ فالتحوُّل الاجتماعي بدون حرية خراب ، والتحول الاجتماعي بدون ديمقراطيَّة هبة من الحاكم يمكن أن يسحبها ، وفي كل قرار كنتُ أتخذه كنتُ ألجأ للخبراء وأهل المعرفة . إنني لم أكن أري إلا مصلحة مصر ، وفي سبيل هذه المصلحة ضحيتُ بكياني وأحلامي وأعصابي إن شعار "مصر فوق الجميع " كان شعاراً حقيقيّاً في عهدي ، ولكن الشعار انقلب تماماً في أيام أخرى تلت اختفائي من على المسرح . " (١)

وعليه فما قامت به الثورة من إنجازات كإصدار قانون الإصلاح الزراعي، على ما به من مآخذ، وإنشاء الكثير من المدارس، وإن كان على حساب جودة التعليم، وكذا إنشاء الوحدات الصحيَّة ، وكهربة خزان أسوان، والإعداد لبناء السد العالي، واتفاقية الجلاء . إلى آخر ما ينسبه الناصريون والقوميون من إنجازات لعبد الناصر وحده هي في الحقيقة إنجازات لمجلس قيادة الثورة الذي كان برئاسة محمد نجيب ولم يكن عبد الناصر إلا أحد أعضائه، وكان اتخاذ الرأي فيه بالأغلبية.

---

(1) لمزيد من التفصيل راجع الفصل الثالث عشر " بداية التحول الاجتماعي " من كتاب محمد نجيب "كنت رئيساً لمصر" مرجع سابق .

كما لا ينبغي أن نغفل دور الوزراء المدنيين والمستشارين الذين استعانت بهم الثورة في تحقيق هذه الإنجازات.

يقول أنور السادات : " كانت حصيلة أراضي العائلة المالكة المصادرة ٧٠ مليون جنيه أنفقناها على بناء الوحدات المجمَّعة والمستشفيات والمدارس في ريف مصر بحيث كنا نبني ٣ مدارس كل يومين ، وأذكر أننا بنينا في سنة واحدة قدر ما بُنِي في مصر من مدارس خلال ٢٠ سنة .

أنشأنا عند ذاك مجلسين ــ أحدهما للإنتاج والآخر للخدمات ، أما مجلس الإنتاج فقد بدأ عمله بمشروع "كيما" للسماد وعندما تعود بي الذاكرة إلى تلك الأيام أرى أمام عيني المهندس اليوناني الأشعث الشعر زائغ العينين الذي كان يتردد علينا في القيادة بالعباسيَّة في أي وقت وبدون سابق ميعاد ، كان اسمه على ما أذكر "دانينوس" وكان في كل مرة يقتحم مقرنا يتفوَّه بعبارات محمومة فحواها دائماً فكرة واحدة وهي أن النيل عند منطقة أسوان يجب أن يغلق بسد عالٍ .

كان تمسُّكه بالفكرة وإلحاحه عليها مما دعانا إلى أن نكلِّف مستشار المجلس (مجلس قيادة الثورة) المرحوم المهندس محمود يونس بدراستها ، وقد عاد إلينا بعد فترة ليقول إنه بعد الدراسة والمعاينة يرى ابتداءً أنها فكرة رائعة ، وهكذا نشأت فكرة السد العالي ، وليدة للإيمان والحماس والبصيرة كما تنشأ كل الأفكار العظيمة.

وفي سنة ١٩٥٣ بدأنا أيضاً إنجاز مشروع قديم ظلَّ يتلكأ بين حكومات الأحزاب المختلفة وهو مشروع كهربة خزان أسوان .. ولعل المشروع الذي غيَّر وجه المجتمع المصري والذي جعل ثورتنا ثورة حقيقيَّة لا مجرد انقلاب عسكري هو مشروع الإصلاح الزراعي ، فبعد أن ترك علي ماهر الحكم في سبتمبر ١٩٥٢ وتولى الوزارة محمد نجيب مباشرة كان أول عمل للوزارة الجديدة تحديد الملكيَّة الزراعية بـ ٢٠٠ فدان وللتاريخ فإن الذي صنع هذا القانون بجميع تفصيلاته هو المهندس سيد مرعي .. " [1]

([1]) محمد أنور السادات " البحث عن الذات " مرجع سابق ص ١٤٢ ، ١٤٣.

لاحظ ، عزيزي القارئ ، صيغة الجمع التي يتحدَّث بهـا خالـد محيـي الـدين والسادات والتي تدل على أن العمل كان جماعيّاً : مجلس قيادة الثورة مع الـوزراء والمستشارين المدنيين الذين لم تخلُ منهم أي وزارة حتى ولو كانت عسكريَّة .

الشرق وعبادة الفرد

ونسبة كلِّ إنجاز لشخص واحد فكرة قديمة أشهر من قام بها الشيعة مع علي بـن أبي طالب فنسبوا إليه علم النحو وعلم التفسير وعلم الفقه كما نسبوا إليه علم الفلـك والنجوم .

يقول العقاد عن انتحال غلاة الشيعة كل العلوم لعلي رضي الله عنـه: " فقلَّ أن سـمعنا بعلم من العلوم الإسلاميَّة أو العلوم القديمة لم ينسب إليه – أي لعلي رضي الله عنه – ، وقلَّ أن تحدَّث الناس بفضل لم ينحلوه إياه ، وقلَّ أن توجه الثناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه .

نحلوه ديواناً من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها إلا عـشرات مـن الأبيات تصح نسبتها إليه ..

ونحلوه علماً سموه " الجَفْر " وزعموا أنه علم النجوم والأزياج [١] الـذي يكـشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان .. " [٢]

وكما نسب غلاة الشيعة لعلي بن طالب رضي الله عنه كل فـضل نـسب غـلاة الناصرية لعبد الناصر وحده لا شريك له : الإعداد للثورة وإنجاحها ، طرد الملـك وإسقاط الملكية ، طرد الإنجليز وتحقيق الجلاء ، إصدار قانون الإصلاح الزراعـي والقضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال ، إلغاء الأحزاب والقضاء علـى فـساد الحكم ، إنشاء المدارس ، ومجانيَّة التعليم ، إنشاء كورنيش النيل ، إقامة المـصانع المنتجة والشركات الرابحة ولولا عبد الناصر لظـلَّ الملـك الفاسـد ، والاحـتلال الإنجليزي الغاصب ، وما تعلَّم فقير ولا عولج مريض ولا أُطْعِمَ مسكين فهو الـذي قضى على الثالوث الرهيب الجهل والفقر والمرض !!

---

(1) الزيج : كل كتاب يتضمن جداول فلكية يُعرَف منها سير النجوم ، ويُستخرَج بواسطتها التقويم سنة سنة " المعجم الوسيط .

(2) عباس محمود العقاد " عبقرية الإمام " ص ١١٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

والعجيب أن يؤمن بهذا الكلام ليس العامَّة فقط الذين نشئوا وتربوا وتعلموا في ظل الحقبة الناصريَّة (وهم غالباً الذين ولدوا في الفترة ما بين سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٦٥) إنما كثير من المتعلمين والمثقفين !!

يقول السادات عن الخدمات في العهد الناصري : " في سنة ١٩٦٥ كانت حالة البلاد الداخلية قد وصلت إلى مرحلة يرثى لها فعلي صبري كرئيس للوزراء لا يتخذ قراراً في أي شيء ؛ لأنه بطبعه يخشى المسئوليَّة وربما لهذا السبب وقع اختيار عبد الناصر عليه ؛ فعبد الناصر بطبيعته الديكتاتوريَّة كان يتطلب من رئيس وزرائه أن يكون مجرد مدير مكتب ينفذ أوامره وحسب ، وهكذا كان علي صبري فإذا أضفنا إلى هذا ميله الطبيعي إلى التجسس على الناس وتدبير المؤامرات والعمل في الخفاء لأدركنا سر تبرُّم الناس به ، فماذا يمكن للبلد أن تستفيد من حكومة هذا شأن رئيسها .

ومما جعل الحالة تزداد سوءاً أن مشاكل الخدمات عندنا من تليفونات ومواصلات وإسكان وخلافه أخذت تؤجَّل ابتداءً من سنة ١٩٦٢ على أساس حلها بخطط طموحة لم تكن قابلة للتنفيذ ، مما جعل هذه المشاكل تزداد وتتراكم سنة بعد سنة بحيث أصبح من العسير حلها ، وكان العذر الذي يتذرع به المسئولون في هذا أن الخدمات والمرافق يمكن التضحية بها في سبيل إقامة مصانع للإنتاج المشترك مع السوفييت .

في نفس السنة قطع جونسون المعونة الأمريكيَّة عن مصر فوضعنا في موقف حرج إذ كشف بهذا خططنا فقد كنَّا معتمدين على أمريكا في القمح الذي كنَّا نستورده منها بالجنيه المصري فيوفر لنا حوالي ٨٠ مليون جنيه إسترليني نستفيد منها في مشاريعنا . " [١]

إنجازات الأمس هل تصلح للتطبيق اليوم ؟

إن هناك بعض ما عدَّه الناصريون من إنجازات عبد الناصر بمرور الزمن اتَّضح أنها من كوارثه مثل التأميمات الجائرة التي تمَّت دون محاكمات عادلة مما أثَّر

([1]) محمد أنور السادات " البحث عن الذات " مرجع سابق ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

تأثيراً كبيراً على حجم الاستثمارات المصريَّة والعربيَّة والأجنبيَّة ، كذلك تخفيض إيجار المساكن ، والقضاء على ظاهرة " خلو الرجل " وهذان القراران قد تسببا في أزمة السكن التي ظهرت ابتداءً من السبعينات ومازالت مستمرَّة حتى اليوم، بسبب إحجام المستثمر المصري عن استثمار أمواله في مجال التعمير والبناء لارتفاع تكاليفه وانخفاض العائد منه .

يقول د. أسامة الغزالي حرب أستاذ السياسة والاقتصاد ورئيس حزب الجبهة الديمقراطية الليبرالي المصري : " بالرغم من الإنجازات التي تمتَّع بها الشعب المصري وقت عبد الناصر نتيجة الآثار المباشرة لكثير من القرارات الاجتماعيَّة الاقتصاديَّة ما لبث أن ظهرت آثارها السلبيَّة الفادحة في العقود والأجيال التالية ، فالتأميمات وبناء القطاع العام التي استمتع الشعب بثمارها في الستينات ما لبثت أن ظهرت آثارها السلبيَّة مع ترهُّل القطاع العام وتمكُّن البيروقراطيَّة منه ، وربما النتائج السلبيَّة أكثر وضوحاً في مثال السياسة السكانيَّة ، ففي أيام عبد الناصر استمتعت الطبقات الوسطى بالذات بتخفيض إيجارات المساكن والمدن والقضاء على ظاهرة " خلو الرجل " بالترهيب الإداري والأمني ، ولكن عيوب هذه السياسة لم تظهر إلا بعد ذلك حينما أحجم القادرون عن بناء المساكن ! ولم تستطع الحكومة وحدها مواجهة الطلب عليها مما نجمت عنه – بعد عهد عبد الناصر – واحدة من أسوأ أزمات السكن في مصر ، وما تزال بعض تداعياتها قائمة حتى الآن " [1]

وفي موضع آخر من كتابه عن عبد الناصر في ذكراه الثلاثين يقول د. أسامة :

" ظلَّ رأس المال الضروري للاستثمار شحيحاً وسالباً في آخر سنوات عبد الناصر ، وظل مستوى المعيشة لعامَّة الناس منخفضاً فزادت مثلاً نسبة فقراء الريف من ٢٣ % سنة ١٩٥٨ إلى ٤٤ % في أوائل السبعينات ، واستمرَّ الفقر متفاقماً في المدن أيضاً ، ولم يترفع متوسط الدخل الفردي إلا بنسبة ٢,٧ % سنويّاً وظلت تبعيَّة الاقتصاد قائمة بل ازدادت تفاقماً ، وظلَّت الصادرات المصريَّة في

---

(1) د . أسامة الغزالي حرب " جمال عبد الناصر قراءة جديدة في ذكراه الثلاثين " دار مصر المحروسة ص ٢٨

معظمها من المواد الأوليَّة مع فارق أن النفط أخذ مركز الصدارة محلَّ القطن ، وازداد العجز في توفير المواد الغذائيَّة محليّاً ، وتضخَّمت أعباء الدولة الماليَّة ، وظلَّت الزراعة عام ١٩٧٠ هي القطاع الإنتاجي الأكبر – باستثناء البترول والغاز – وتستوعب أكبر نسبة من الأيدي العاملة ٥٧ % ولم تتعدَّ حصتها من الناتج القومي ٢٨ % أي لم تعد الإنتاجيَّة الزراعيَّة سنة ١٩٧٠ أفضل مما كانت عليه عام ١٩٥٢ ، وأخيراً فقد طرأ ركود على الاقتصاد المصري منذ عام ١٩٦٣ لازمه حتى وفاة عبد الناصر .

غير أن أكثر الجوانب سلبيَّة في الخيار الاقتصادي لعبد الناصر قدِّمت باعتبارها فضائل وطنيَّة واجتماعيَّة في الستينات ، ونشعر الآن – ونحن في مقتبل القرن الواحد والعشرين – أن عكسها – بالضبط – هو المطلوب لنهضة الاقتصاد المصري .

ففي حين كان التخلُّص من المشروعات الأجنبيَّة والاستثمارات الأجنبيَّة من خلال التمصير علامة على الاستقلال الاقتصادي والعزَّة القوميَّة في ظلِّ عبد الناصر في الخمسينات فإننا اليوم نعي أن القدرة على جذب الاستثمارات الأجنبيَّة ، وعلى التفاعل الصحي مع العالم الخارجي هي العلامة الأكثر دلالة على قوة الاقتصاد وحيويته !

وفي حين كانت سيطرة الشعب على وسائل الإنتاج وهيمنة الدولة والتقليل من شأن القطاع الخاص علامة على السمة التقدميَّة للاقتصاد وعلى العدل الاجتماعي في الستينات فإننا اليوم نعي أن تشجيع القطاع الخاص ، والمبادرة الفرديَّة ، وضمان التنافس بين المشروعات ، وبعدها عن الاحتكار – هو الذي سوف ينعش الاقتصاد المصري ويدفعه إلى الأمام !

وفي حين سادت الخمسينات والستينات استراتيجية (إحلال الواردات) باعتبارها أداة لتلبية احتياجات الجماهير وتوفيرها بأسعار معقولة فإننا اليوم نعي أن التوجُّه نحو التصدير ، والاستعداد لما يستلزم من كفاءة إنتاجية وتسويقيَّة عالية (وليس مجرد الانكفاء على السوق المحلي) هو فقط ما سوف يهيئ الاقتصاد المصري للارتقاء إلى المستوى العالمي وتحقيق نقله له تتكافأ مع مستوى آمالنا وطموحنا .

وبمثل هذا المنطق الجديد يمكن أن نحقق الآمال والأحلام التي راودت عبد الناصر بشأن رفاهية شعب مصر وازدهار اقتصادها ، ولكن من خلال خيارات أخرى تختلف بالضرورة عما اختاره عبد الناصر منذ أربعة عقود ! " (١)

يقول فاروق جويدة عن إنجازات ثورة يوليو : " إن كل الإنجازات مهما كانت عظيمة تبدو هزيلة في ظل غياب حرية المواطن وإحساسه بالأمن ، وكل الشعارات البرّاقة لا تزيل لحظة خوف ، أو إحساس بالمهانة ، وكل ما قرأنا من أهداف ثورة يوليو وهي جزء عزيز من حياتنا تلاشى أمام تعذيب مواطن أو الاعتداء على حرمة بيت أو إنسان .

من هنا نأتي إلى جوهر القضية وهو أن الشرعيَّة الثوريَّة التي حكمت بها ثورة يوليو مصر ينبغي ألا يكون لها مكان الآن وأننا نتَّجه بالفعل إلى شرعيَّة دستوريَّة يجب أن نكملها بحيث توفر الضمانات لكل الأطراف حكاماً ومحكومين" (٢)

وإذا كان قانون الإصلاح الزراعي قد حصل على تأييد غالبيَّة مجلس قيادة الثورة وحدث نقاش مجتمعي حوله قبل صدوره فإن القرارات الاشتراكية ، والتأميمات الشاملة قد اتخذها عبد الناصر بطريقة فردية سرية بعدما استبد بحكم مصر .

يقول د. أسامة الغزالي حرب متحدثاً عن سمات الحكم الناصري الذي أهم ما يميزه : " الطابع الفردي في اتخاذ القرارات الحيوية وفي مقدمتها قرار التأميمات الشاملة عام ١٩٦١ الذي يعد حجر الزاوية في تغيير النظام الاقتصادي . وبداهة فقد كان التوجه نحو التأميمات الواسعة يلقى من الأساتذة ورجال الاقتصاد التقليديين، الذين رفض عبد الناصر آراءهم ويصاب المرء بالدهشة البالغة للطريقة التي أعدت وأعلنت بها القرارات الاشتراكية بدءاً من ١٩ يوليو ١٩٦١ كما يرويها أحمد حمروش : " صدرت هذه القوانين بطريقة الصدمة المفاجئة . اعتمد عبد الناصر في إصدارها على السرية ! لم يستشر فيها أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين ، وإنما عرض الموضوع للمناقشة في جلسة واحدة خاصة بالإسكندرية

---

(1) د. أسامة الغزالي حرب " جمال عبد الناصر ، قراءة جديدة في ذكراه الثلاثين " مرجع سابق ص ٥٦ ، ٥٧
(2) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " مرجع سابق ص ١٠٩ ، ١١٠ .

حضرها عبد الناصر ، وعامر ، والبغدادي ، وزكريا محيي الدين ، وكمال الدين حسين فقط ! " وغيرت هذه الجلسة مسار الاقتصاد المصري برمته لعقود طويلة تالية ! " (١)

وإذا كان من العجيب أن يتخذ عبد الناصر أخطر القرارات الاقتصادية بطريقة فردية وسريَّة فالأعجب وهو الأسلوب الإداري والأمني الذي تمَّت به عملية التحوُّل الاشتراكي ، والتي كان يفترض أن تتم في سياق تحوُّل فكري عميق، وبوجود كوادر " اشتراكيَّة " . ولكن التحوُّل تمَّ في وجود المفكرين والقيادات الاشتراكيَّة في السجون والمعتقلات ! وبدا وكأن التوجهات السياسيَّة والأوامر الإداريَّة كفيلة بحل المعضلات الاقتصاديَّة بما فيها ما سمي بـ " المعادلة الصعبة " أي زيادة الإنتاج مع زيادة الاستهلاك وزيادة الادخار ؟ (٢)

شهادات كبار المفكرين على علاقة ثورة يوليو بالنهضة

وسأكتفي في معرض الحديث عن علاقة ثورة يوليو بالنهضة المصريَّة بذكر شهادات بعض كبار المفكرين المصريين الذين درسوا ثورة يوليو وكتبوا عنها .

شهادة لويس عوض

يقول لويس عوض : " أنا لست ممن ينظرون إلى ثورة عبد الناصر ونظامه نظرة رومانسيَّة فيقولون أنهما لم يفعلا إلا خيراً ، بل أنا ممن يعتقدون أنهما مع ما جاءا به من خير كثير قد دمَّرا بعض أسس المجتمع المصري الراقية التي بناها المصريون خلال المئتي سنة الأخيرة نتيجة احتكاكها المباشر بالحضارة الأوربيَّة : كمبدأ القوميَّة المصريَّة ، ومبدأ الحق الطبيعي ، وكالحقوق والحريات الديمقراطيَّة : فصل الدين عن الدولة وفصل السلطات وسيادة القانون وسيادة الأمَّة على الحكومة وحرية الاجتماع والتفكير والتعبير والعمل والاختيار ، وحرية التنظيم والتمثيل والتوكيل السياسي إلخ وهكذا زعزعت الناصريَّة ، بعد خروج عبد الناصر منتصراً

---

(1) د. أسامة الغزالي حرب " جمال عبد الناصر ، قراءة جديدة في ذكراه الثلاثين " ص ٥١ ،٥٢ .
(2) نفسه ص ٥٢ .

في حرب السويس وبروزه كزعيم للعالم العربي ، إيمان المصريين بهويتهم المصريَّة وبشخصيتهم المصريَّة ، ومحت اسم مصر ودعت المصريين إلى فقدان أنفسهم في كيان سياسي أكبر هو كيان الأمَّة العربيَّة الممتدة من الخليج إلى المحيط، وبعد أن كانت العروبة في ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ أيام " فلسفة الثورة " مجرد دائرة من الدوائر الثلاث التي تقع مصر في تقاطعها وتستخدمها رصيداً لقواتها ولقوة المنطقة العربيَّة وأصبحت مصر مركز دائرة واحدة هي الوحدة العربيَّة . كذلك نسفت الناصريَّة أكثر الحقوق والحريات الديمقراطيَّة .

وبالمثل اقتلعت الثورة الناصريَّة بحلٍّ كافة التنظيمات السياسيَّة ، وتحريم كافة التجمعات المنظمة ، وتجريم كافة التجمعات غير المنظمة ، وإقامة حياتنا السياسيَّة على مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة داخل وعاء واحد تسيطر عليه الدولة ، هو هيئة التحرير ثم الاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي ، اقتلعت الثورة الناصريَّة حق الأفراد والجماعات والطبقات في التفكير السياسي وحريتها في العمل السياسي، وبذلك جرَّدت الثورة المصريين من حقوقهم السياسية وعزلت الشعب المصري برمته عزلاً سياسيّاً إلا من سار في مسيرتها بالولاء الشخصي . فقد كانت فلسفتها مبهمة وبرامجها غامضة ومناهجها متغيرة الظروف ، وبذلك ألغت الثورة الفرق بين الدولة والحكومة فغدت الدولة هي الحكومة والحكومة هي الدولة ، وألغت الفرق بين الشعب ووكلائه المعبرين عن إرادته لأنها جرَّدت الشعب من حقٍّ توكيله لممثليه السياسيين المختارين له قبل الثورة ، وأنكرت التعارض بين مصالح الطبقات الخ .

كذلك أعلن بعض الثوَّار أن " القانون في أجازة " ، والحقيقة أن نظرية القانون نفسها قد انهارت فتحول القانون من معيار موضوعي واضح يستمد من العرف العام ومن الضمير العام ومن المصلحة العامة إلى قرارات وإجراءات فرديَّة تقديريَّة تتخذ مستمدة من الظروف الموقوتة والاحتياجات الطارئة . وابتكر سوفسطائيو الثورة نظرية الفقه الثوري والشرعيَّة الثورية ليبرروا هذه الإجراءات والقرارات الاستثنائية بدلاً من أن يبصروا الحاكم بأن الفقه الثوري والشرعيَّة

الثوريَّة معناهما وضع فلسفة تشريعيَّة جديدة موضوعيَّة المعايير مستمدة لا من سلطات الحاكم التقديريَّة ولكن من العرف العام والضمير العام والمصلحة العامة للطبقات التي قامت الثورة لتردَّ لها أهليتها القانونيَّة وللغايات التي قامت الثورة لتحقيقها.

أما حرية التعبير فقد أصبحت عبارة بلا معنى في مختلف دساتير النظام الناصري بعد تحريم التنظيمات السياسية وتجريمها وبعد تأميم الصحافة ودور النشر ومختلف وسائل الإعلام وتتبيعها إما للاتحاد القومي – الاشتراكي وإما للسلطة التنفيذيَّة مباشرة (وزارة الإرشاد – الإعلام) .

وبتأليه الدولة اندمجت فيها السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية ومعها السلطة الرابعة (الصحافة) وغدت الأذرع الأربع للزعيم الذي تجسدت فيه إرادة الدولة . بل إن وظائف الجيش والبوليس اختلط بعضها الآخر بعد إعلان عضوية الجيش في تحالف قوى الشعب لأنه غدا بهذا مسئولاً مسئولية رسمية مباشرة عن حماية النظام الداخلي لأنه طرف من أطرافه . " (١)

ويختتم د. لويس عوض تقيمه لحكم عبد الناصر قائلاً : " ولأن عبد الناصر لم يُصَفِّ أعداء ثورته في الداخل وثبوا عليه حين وثب عليه الاستعمار من الخارج فأجهزوا عليه وعلى نظامه في ١٩٦٧ . وهو لم يُصَفِّ أعداء ثورته في الداخل لأنه لم يكن يعرف من هم على وجه التحديد بسبب فقره النظري وبسبب احتقاره أو خوفه من أصحاب النظريات وإسرافه في الاعتماد على الفطانة والإلهام وقد كان عنده منهما شيء كثير . ولكن الكثير نفسه غير كاف في أهم المواقف . كان يحسب أن أعداء ثورته هم الباشوات والبكوات وحدهم ، ولأنه ابن شرعي لطبقته المتوسطة الصغيرة ظنَّ أن مشكلات مصر تحل بتحويل كل المصريين إلى طبقة متوسطة صغيرة . ولأنه ابن لطبقته المتوسطة الصغيرة فهو لم يتشكك قط في قداسة الملكية الفردية ثم ارتكب الإثم الأكبر بأن جعل الدولة تنافس الأفراد في الملكية ، بعد أن اكتشف أنه بغير التنمية الضخمة لن يوزع إلا فقراً . ولأنه ابن

(١) د لويس عوض " أقنعة الناصرية السبعة " مرجع سابق ص ١٦٠ ، ١٦١ .

شرعي لطبقته المتوسطة الصغيرة أدرك بغريزته ، وربما بتوجيه من العارفين ، بأنه إذا لم يصدر ثورته إلى الخارج ، فسيضطر أن يعمقها في مصر يوماً بعد يوم. وحين رفض رفضت سوريا قبول صادراته الفكرية والاجتماعية ، عمق ثورته في مصر بالميثاق ، ولكنه لم يرسخها بل عاد إلى التصدير حتى يتجنب مزيداً من التعميق . لقد كانت القومية العربية ثم الاشتراكية العربية مهربة الموضوعي من مواجهة الفلاحين الحفاة ، قوام الريف المصري ، والعمال الكادحين ، قوام المدينة المصرية ، وملايين الفقراء الضائعين الذين لا ينتمون إلى ريف أو مدينة .

لهذا ترك عبد الناصر شعبه بعد ثمانية عشر عاماً من قيادته كما تسلمه من فاروق : نسبة الأميين فيه ٧٥ % ولهذا ترك عبد الناصر شعبه كما تسلمه من فاروق : متوسط الدخل القومي فيه نحو ٥٠ جنيهاً سنوياً للفرد الواحد ومتوسط الأمراض فيه نحو ثلاثة أمراض للفرد الواحد .

لهذا أمكن ضربه ولهذا يجري الآن ضرب ثورته على قدم وساق . البورجوازية تقول فيه : هذا كان عاقاً من أبناء طبقتنا . والبروليتاريا تقول فيه : هذا ليس ابناً من أبنائنا ولكنه كان يحسن الحديث إلى الفقراء . "(١)

شهادة فاروق جويدة

ويقول فاروق جويدة ، وهو ابن من أبناء ثورة يوليو، مقيِّماً فترة حكم عبد الناصر:" وجد شباب الثوار أنفسهم أمام وطن كبير حملت لهم الأقدار وربما المصادفة مسئولية حكمه ، وهم في الحقيقة غير مؤهلين بحكم السنّ والتجربة لكي يخوضوا تجربة في الحكم بهذه الضخامة . أن البلد الذي أصبحوا حكاماً له يملك تراثاً طويلاً من الحكم ويضم مؤسسات تشريعية وتنفيذية لها رصيدها وتجاربها الثرية ، كما أنه شهد تجربة ليبراليَّة تحمل بشائر طيبة للمستقبل تساندها صحافة وأحزاب ومناخ ثقافي يجعل من مصر تجربة رائدة بكل المقاييس في هذا الزمن.

ووجد ثوار يوليو أنفسهم ذات ليلة يحكمون أقدم دول العالم تاريخاً ، وأكبر دولة عربية وواحدة من الدول المحوريَّة بكل ثقلها السياسي إقليميّاً وعالميّاً وبجانب هذا كله فإن هذه الدولة كانت تعيش تجربة حضاريَّة متفردة عن المنطقة كلها منذ ما

---

(١) د لويس عوض " أقنعة الناصرية السبعة " مرجع سابق ص ١٦٨ - ١٧٠ .

يقرب من قرن من الزمان اقتربت فيها من روح العصر بكل نماذجه الحضاريَّة ابتداءً بدار الأبرا وانتهاءً بجامعة القاهرة مع جيش عصري متطور ، وحياة ثقافية رفيعة في فنونها ، راقية في أذواقها ، مترفعة في غايتها ، ومع الثراء الحضاري في الدولة بكل مؤسساتها كانت التجارب والخبرات المحدودة في سلطة القرار (لدى لجنة قيادة الثورة، ومن آل الحكم إليه) .

ومن هنا كان هذا التحدي الصارخ من سلطة القرار ورفضه الشديد لكل مقوِّمات الدولة دون مراعاة لما ينبغي أن يبقى ، وما يجب أن يزول ، وبدت الرغبة في التغيير في بعض الأحيان رغبة في تدمير كل شيء ابتداءً بالناس ، وانتهاءً بالأشياء، ولعل السبب في ذلك كله غياب الجانب الفكري في بدايات الثورة مما جعلها تتعامل مع الأحداث والمواقف بصورة عشوائية في أحيان كثيرة ينقصها الفهم والوعي والحكمة .

وكانت الأدلَّة التي تثبت هذا الاستنتاج كثيرة :

سقطت أجيال كاملة أبعدتها الثورة تماماً رغم أنها قدمت عطاء سخيّاً لهذا الوطن في مجالات الحياة ، وإذا كان هذا الإجراء له ما يبرره في العمل السياسي ، فماذا يُقال عن مجالات أخرى في الاقتصاد ، والعمل العام ، والأجهزة الإداريَّة ؟

وتم استبعاد هذه الأجيال وهي في كامل لياقتها الذهنيَّة والفكريَّة وقدرتها على العطاء ، وفرضت ظروف إبعاد هؤلاء أن تحل محلهم وجوه جديدة وللأسف أن هذه الوجوه التي سميت في ذلك الوقت أهل الثقة ، كان الكثيرون منهم يفتقدون القدرات والمواهب مما جعلهم عبئاً على العمل العام ، وهنا انتشرت جيوش أهل الثقة وتم استبعاد أهل الخبرة ، وشملت المحاكمات آلاف البشر وطالت الأبرياء وغير الأبرياء ولهذا يخطئ من يتصور أن التغيير هو بالضرورة نحو الأفضل إنه في أحيان كثيرة يحملنا للوراء .

تم تخريب تراث مصر وقصورها وبيوت أثريائها في هجمة شرسة لا أحد يعرف حتى الآن أين ذهبت ، وإلى أي الأطراف تسربت .. وقامت لجان الحراسات والمصادرة بأكبر عملية نهب لتراث مصر في فترة كان كل شيء فيها قد اختفى ، حدث هذا في مصر أم الدنيا بينما بقيت كل ثروات روسيا حتى الآن رغم أن ثورة يوليو كانت بيضاء ، وكانت ثورة روسيا بلون الدم .

كان أخطر الإجراءات التي شهدتها البلاد في أيام الثورة الأولى هو إغلاق أبواب الديمقراطيَّة ، وهو أخطر إجراء في تاريخ مصر الحديث حيث جاءت بعده توابع كثيرة ابتداءً بانتهاك حقوق الإنسان المصري ، وانتهاءً باستباحة ممتلكات الناس مروراً على مصادرة كل شيء ابتداءً بالفكر وانتهاء بالممتلكات .

كان الخلاف حول قضية الديمقراطية في مصر هو بداية الانقسام الحاد بين الثوار، ولو أن أنصار الديمقراطية (ويمثلهم محمد نجيب وخالد محيي الدين ويوسف صديق) في هذا الانقسام انتصروا لكان لمصر شأن آخر في ظل تجربة ديمقراطيَّة كانت تستحقها بجدارة .

لا نستطيع أن نسقط صدق نيات الضباط الأحرار عندما قاموا بثورة يوليو من حيث الأهداف والغاية، ولكن ما حدث بعد ذلك كان مجرد صراع على السلطة سرعان ما ألقى بنا إلى متاهات مراكز القوى والنفوذ والسجون، والمعتقلات والاتحاد الاشتراكي حيناً والقومي حيناً آخر والانتهازيين في كل الأحيان.

النقطة الثانية التي يتوقف عندها الإنسان وهو يتأمل الأحداث ويقرأ الشواهد أن المصادفة لعبت دوراً كبيراً في نجاح ثورة يوليو ، ولولا الساعتان اللتان سبق بهما يوسف صديق زملاءه (١) واستولى على قيادة الجيش لكانت هناك أحداث أخرى ، ساعتان من الزمن غيرتا مسيرة الزمن والتاريخ .

أما النقطة الأخيرة التي توقفت عندها محاولاً رصدها من البداية فهي قصة الصراع على السلطة ، ويبدوا أنه يبدأ مبكراً ومع الساعات الأولى لنجاح الثورة .

ولهذا كان من الضروري أن يختفي محمد نجيب بكل ما وصل إليه من شعبيَّة في الشارع المصري ، وقصة اختفاء نجيب مازالت حتى الآن مثار شكوك كثيرة لأن الرجل لم يستحق كل هذا الذي لحق به وأصابه ابتداء بخروجه من السلطة وانتهاءً بما تعرض له بعد ذلك .

([1]) الحقيقة أنها ساعة واحدة وليست ساعتين فقد كانت ساعة الصفر الثانية عشر ليلة ٢٣ يوليو ، ولكن يوسف صديق أخطأ وخرج بقواته الساعة الحادية عشرة ، ولقد أنقذ هذا الخطأ ثورة يوليو فتمّ القبض على القيادات العسكرية قبل أن تأمر بالقبض على الضباط الأحرار وقد عرفت أسماءهم (المؤلف) .

وكان من الضروري أن يختفي خالد محيي الدين ، ويوسف صديق لأنهما أصحاب فكر ، ولم تكن أولويات الثورة تعطي أهمية كبيرة لهذا الجانب ، وإن بقيت بعد ذلك تضعه في آخر القائمة .

ثم اختفى البغدادي ، وكمال الدين حسين ، وفي مرحلة لاحقة اختفى زكريا محيي الدين ، ولم يكن في الساحة غير أنور السادات وعبد الحكيم عامر ، وانتهت قصة عامر مع نكسة ٦٧ ليرث أنور السادات ثورة يوليو كلها رغم أنه كان أبعد الثوار عن مناطق الصراع ، وربما كان ذلك تأكيداً لذكائه الشديد .

حيث بقي حياته تقريباً بعيداً عن مرمى نيران الصراع بين رفاق السلاح حتى جاءته الفرصة مع رحيل عبد الناصر .

من هنا يمكن أن يُقال إن الثورة أكلت أبناءها واحداً واحداً .

اجتمعوا في البداية على محمد نجيب وشاركوا في عزله ، ثم بعد ذلك كان مسلسل سقوط الآخرين ، ولم يتعلم أحد منهم الحكمة من رأس الذئب الطائر." (١)

ويلاحظ أن جويدة يحرص على عدم ذكر اسم عبد الناصر في حديثه عن الصراع على السلطة ، ونسبة أخطاء حكم عبد الناصر للثورة وذلك يرجع لسببين في رأيي :

السبب الأول : الهجمة الشرسة التي واجهها فاروق جويدة عندما بدأ يفتح ملفات ثورة يوليو عام ١٩٩٩ من أهل ثقة عبد الناصر ، والجهلة بحقائق الأمور .

والسبب الثاني : هو حب جويدة لعبد الناصر فهو من ذلك الجيل الذي نشأ وترعرع في ظل النظام الشمولي الذي لم يروا فيه صورة لزعيم إلا عبد الناصر ولم يسمعوا فيه إلا التغني بأمجاده ، ولم يدرسوا من تاريخ العظماء في العصر الحديث إلا سيرة الزعيم الخالد .

والعجيب أن عبد الناصر هو العامل المشترك الوحيد في كل صراع على السلطة، فهو الذي دبَّر مؤامرة إضراب عمال النقل التي نفذها طعيمة والصاوي ؛ ليطيح بمحمد نجيب الرئيس الذي كسب للثورة تأييد العسكريين والمدنيين وقبل فاروق أن

---

(١) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " مرجع سابق ص ٨٥ – ٩٤ .

يتنازل له عن الحكم ويرحل ، كما أن عبد الناصر هو الذي تخلَّص من كل أعضاء مجلس قيادة الثورة المؤيدين لنجيب والمعارضين له بمساعدة عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة ، والذي خاض معه صراعاً على السلطة بدأ عام ١٩٦٢ وانتهى بنكسة يوليو ورحيل عبد الحكيم .

شهادة جمال حمدان

شهادة د. جمال حمدان على ثورة يوليو ورجالها : " بعد عصر المَلَكيَّة انتقلت مصر المعاصرة بدرجة أو بأخرى إلى النموذج الشرقي الاشتراكي الشمولي بنظام حزبه الواحد الديكتاتوري المطلق . سواء كنا اشتراكيين بالفعل كما جادل البعض ، أو انتقلنا من الإقطاع عبر مرحلة شبه اشتراكيَّة إلى الرأسماليَّة كما نظر البعض الآخر ، فالواضح أن مصر المعاصرة ، بينما استبقت جوهر النظام الاقتصادي الاجتماعي الطبقي بعد تطويره مع روح العصر نفسه قد أخذت من الاشتراكيَّة الاسم والواجهة أولاً وشكلاً ثمَّ مبرر الطغيان والحكم المطلق والشموليَّة ثانياً وأساساً.

ذلك أن من المؤسف أن النظام الذي ما قام إلا ليحقق للشعب العزَّة والكرامة التي حُرِم منها طوال تاريخه ، وكان شعاره التقليدي " ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد " لم يُحقِّق إلا عكس الشعار تماماً من الناحية العمليَّة . إذ لم يلبث أن انحرف ودخل في " عهد إرهاب " حقيقي ، فتورَّط في المصادرات والحراسات والاعتقالات بل والتعذيب بالجملة ، وتحوَّل بالتدريج إلى القهر والكبت والقمع وتنميط وقَوْلَبَة الفكر والعمل السياسي وَوَأْد الرأي الحر أو المعرض " بتجييش " الشعب كقطيع سياسي ، وذلك في تنظيم سياسي أحادي حديدي تحت اسم " وحدة قوى الشعب العاملة " أو تحت كنف ما سمي " كبير العائلة " المزعوم ولكن في الحقيقة لمصلحة قوى الحكم المسيطرة أو العميلة .

وفي إطار (أم إسار ؟) هذا القفص الحديدي الذي لم يسمح قط بالرأي الآخر أو المعارضة ، ثم " تعقيم " الشعب سياسيّاً ، فبينما لم يكن للشعب أي حق – رغم الشكل البرلماني الزائف – في النظام الإقطاعي قبل " الثورة " إلا حق المتفرج ، أصبح للشعب في ظل هذه " الثورة " الحق في أن يقول " نعم " وذلك كما وضعها ، ولكن بجدية تامة ، أحد الساخرين .

وهكذا تلخص التحوّل الجديد في معادلة محددة ولكنها محزنة وهي : من دولة بوليسية " وسيطة " تحكمها الشرطة إلى دولة بوليسية " عصريَّة " يحكمها الجيش ، أو من ملَكيَّة بوليسية إلى جمهورية عسكريَّة ، أو أخيراً من إقطاع مدني إلى إقطاع عسكري وبعبارة أخرى . فكما شخّص بعض منظري العهد فيما بعد ، انتقلت مصر من " أوتوقراطية " (حكم الفرد) الملَكيَّة إلى " مونوقراطية " (الديكتاتورية) الجمهورية في حين اختزل البعض الآخر الوضع كله في أنه مزيج من الفرعونية الجديدة والمملوكية الجديدة .

بل سرعان ما ظهرت أعراض عريضة وميول جامحة جانحة من مظاهر الملَكيَّة بل والإمبراطورية ، كأنما هي ملَكيَّة مؤقتة غير وراثيَّة غير مدنيَّة ، أي باختصار ملَكيَّة مُقَنَّعَة . فهذا ، مثلاً ، تكاد تقول أول " إمبراطور جمهوري " وهذا أول " ملك جمهوري " وهذا .. وهذا .. إلى آخره ، وتلك جميعاً هي بكل وضوح أعراض وأمراض الحكم المطلق وحكم الفرد . " (١)

شهادة رشاد رشدي

وإليكم الآن شهادة الأديب الكبير رشاد رشدي عن سياسة الحكم في عهد جمال عبد الناصر : " جاءت ثورة سنة ١٩٥٢ . وهنا طرأت على الحياة المصريَّة ظاهرة جديدة . فقد حلَّ الوهم على الحقيقة والجهل محل العلم ، أنا لا أتكلم عن إنجازات وسلبيات ثورة يوليو وإنما أتكلم عن ما هو أهم وأخطر . وهو المسار الجديد الذي سارت هذه الثورة فيه بالذات المصرية ، ماذا أسميه ؟ طريق التعمية ؟ طريق الأقنعة ؟ الطريق الذي يؤدى إلى لا طريق ؟ ربما كانت أفضل التسميات هي طريق الأوهام ولا أقول الأحلام . فهناك فرق بين الحلم والوهم . الأول قد يؤدى إلى تحقيق الذات . أما الثاني فيؤدى بالضرورة إلى ضياع الذات ... وهذا ما فعلته ثورة يوليو بالذات المصريَّة خلال عمرها الذي دام ثمانية عشر عاماً ...

فقد أوهمت الإنسان المصري بأنه يسمع ويعيش ويرى مالا وجود له في الحقيقة وكانت النتيجة أن تاهت الذات المصرية كما يتوه المسافر في الصحراء عندما يكون

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

رائده الوحيد هو السراب . ومع ذلك يؤكد له من يقوده أن السراب ليس خداع نظر بل حقيقة لا شك فيها .

الأمثلة كثيرة لا أعرف ماذا أختار منها وماذا أترك ؟ كانت هناك في الأول هيئة التحرير ثم الإتحاد القومي ثم الإتحاد الاشتراكي وكلها أجهزة صنعها النظام لتسانده وتحميه أي أجهزة قمع ووصاية على الناس. ومع ذلك كانوا يقولون لنا إن هذه الأجهزة التي لم يتدخل الشعب في اختيار أفرادها أو حتى في قبولها أو رفضها إنما هي بدائل للأحزاب بل إنها أفضل ما وصلت إليه عبقرية القرن العشرين في نظم الحكم الديمقراطي .

وكانت القوات المسلحة الباسلة تصاب بالهزائم الواحدة بعد الأخرى ومع ذلك كانوا يصورون للناس أن كل هزيمة من هذه الهزائم إنما هي في الواقع انتصار رائع وكنا نشك أحياناً ونصدق ما يقولون في أغلب الأحيان . فمن أين لنا أن نميز الحقيقة من الوهم . وكيف يتأتى لنا – وهذه هي الحال – أن نعرف من المسئول عن هذه الهزائم أو الانتصارات وكانوا يقولون لنا إننا قد تخلصنا من الاستعمار البريطاني وهذا صحيح وبذلك لم تعد لأية جهة أجنبيَّة أيَّة سيطرة على إرادتنا ولكنهم لم يكشفوا لنا أبداً عن المدى التي كانت فيه هذه الإرادة مرهونة بما يقرره الكرملين في موسكو .

وكانت عندنا اشتراكيَّة – هكذا كانوا يقولون – والاشتراكيَّة في جوهرها هي تكافؤ الفرص ولكن الفرص كانت فقط لعملاء النظام من التنظيم الطليعي وغيره من التنظيمات التي تضم أهل الثقة وتفضلهم على أهل الخبرة لا لسبب سوى أنهم يدينون بالولاء – لمصر – بل لمراكز القوى التي تسخرهم لبلوغ أغراضها . وكانت حرية الفرد مكفولة – هكذا كانوا يقولون – ولكن ما لم يقله أحد هو أن هذه الحرية كانت مكفولة بشرط وهو أن يصبح الإنسان كتمثال القرد الذي كانوا يضعونه على مكاتبهم الرسمية أعمى أصم أبكم أو يصبح في السجن لا لشيء سوى أن الجهاز البوليسي كان دائم الحرص على أن يوهم الحاكم أن هناك مؤامرة وإلا فمن أين يستمد هذا الجهاز سلطاته أو بماذا يبرر وجوده ؟ وكانت عندنا محاكم ومحاكمات – أي سيادة القانون هكذا كانوا يقولون – ولكن كانت الأحكام تصدر

مقدماً – أي قبل المحاكمة – وعندما تنتهي مدة الحكم ويخرج السجين إلى ا لنــور كانت تتلقفه أيدي الأجهزة البوليسية المتشعبة حيث ينقلونه إلى معتقــل يظــل فيــه مدى حياته إلى أن يموت ... وكانت حرية الصحافة من المفاخر التي تتــشدق بهــا مراكز القوى ولكن كان في كل دار صحيفة رقيب على الرأي بل وعلى الخبر حتى ولو كان خبراً ينشر في صفحة الوفيات مادام المتوفى شخصاً غير مرغــوب فيــه وكانت هناك أوهام حلَّت محل الحقائق وأقنعة لوجوه جميلة تخفى ما تحتها من قــبح وبشاعة ويافطات تعلن عكس ما تبطن . والنتيجة أن عاش الإنسان المصري تلــك الفترة من حياته غريباً عن واقعة فتاه عن ذاته أو فقدها وهذا أســوأ مــا يمكــن أن يصيب الفرد أو الأمة ." (١)

البيان الختامي للحقبة الناصريَّة

يقول د. حمادة حسنى (أستاذ التاريخ الحــديث) : " الــدول الأوربيَّــة أدانــت وجرَّمت كل الطغاة – كان شعوبهم يصفِّقون لهم بجنــون – (هتلــر وموســوليني وفرانكو وتيتو وسالاز ونكروما ... القائمة طويلة) وكل من يحتفي بهم بغض النظر عما حقَّقوه من انتصارات وانجازات ونحن نحتفي بديكتاتور غوغائي لم ينتصر في حرب واحدة ...

ديكتاتور مزَّق الأعراض وشتَّت القيم وسحق الإخلاص وأبعد الدين وقهر القانون وحطَّم الرءوس وضيَّع الذمم وأفسد الشعب والجيش وغيَّر مفاهيم الناس وأخلاقهــم واســـتخدم فـــي ذلـــك أداة بـــسيطة الـــشكل عظيمـــة الأثـــر الكربـــاج فعبد الناصر أحكم سيطرته التامة علي كل مؤسسات الدولــة وســلطاتها (الــسلطة التنفيذية ..الحكومة والسلطة التشريعيَّة.. البرلمان والتنظيمات السياسيَّة الهلاميَّة بدأ من هيئة التحرير (١٩٥٣-١٩٥٧) والاتحاد القومي (١٩٥٧-١٩٦١) والاتحــاد الاشتراكي (١٩٦٢-١٩٧٦) والتنظيم الطليعي (١٩٦٣-١٩٧٠) ومنظمة الــشباب والشرطة والجيش ...لم يبق إمامة إلا القضاء الذي اخترقه في البداية مــن خــلال

---

(١) د. رشاد رشدي جريدة الأهرام بتاريخ ٩/ ٥ / ١٩٧٩.

التنظيم الطليعي إلا أن الأغلبيَّة الساحقة من رجال القضاء لم يغريهم ذهب المعز ولم يرهبهم سيفه ...فدبَّر لهم مذبحة القضاء (١٩٦٩) بعد أن رفضوا الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي .

فعبد الناصر هو السبب الأساسي في حدوث الهيمنة الأمريكيَّة والصهيونيَّة على المنطقة فحكمه تميز بغياب مقوَّمات الدولة المدنيَّة وعلى رأسها احترام القانون واحترام حقوق الإنسان فالاعتقالات العشوائيَّة كانت تقوم على الشبهة وتقارير أعضاء التنظيم الطليعي ٠٠ وكذلك المحاكمات الصوريَّة وتحويل نصف المجتمع جاسوساً على النصف الآخر الأمر الذي أشاع الخوف في قلوب الشعب ومثقفيه هذا بالإضافة إلى عمليات التعذيب الجماعيَّة التي تعرض لها سجناء الرأي والتي لم تعرفها معسكرات النازي ، عبد الناصر مسئول عن كل ما جرى من انتهاك حقوق الإنسان والزج بعلماء مصر ومفكريها في السجون وتسليط زبانيته عليهم وهي مسئولية يتحملها أمام الله والتاريخ فالنظم الديكتاتوريَّة ليست نظم وطنيَّة بأي حال من الأحوال .

وفى كل عصور الانحطاط التي مرت بها البشريَّة شهد الإنسان ألوان من التعذيب والاضطهاد لأسباب دينيَّة أو سياسيَّة أو اجتماعيَّة أو فكريَّة ولكنة لم يشهد أبداً تعذيباً بدون سبب إلا لشهوة التعذيب إلا في عصر عبد الناصر وكل ذلك وصمة عار لعبد الناصر وعصره فقد كانت الجريمة لا تستهدف فقط من هم خلف الجدران لكنة الإنسان في مصر .

قال تعالى: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" .

فلم يقتصر الأمر على هذه المظالم والتي هي في تقديرنا سبب الهيمنة فحُكْم عبد الناصر بالجملة كان كارثة على مصر وعلى جميع القضايا القوميَّة التي تناولها فقد تناول قضية وحدة وادي النيل وانتهت بانفصال السودان عن مصر والملك فاروق حافظ تماماً على وحدة مصر والسودان بل إن النحاس باشا كان يعلن في وجهه الإنجليز تقطع يدي ولا تفصل مصر عن السودان وتناول عبد الناصر قضية الوحدة المصريَّة السوريَّة فانتهت بانفصال سوريا عن مصر وتدخل في اليمن فسجن الثوار

اليمنيين في السجن الحربي بالقاهرة وتسبب في قتل ١٠٠ ألف يمنى ٢٤ ألف جندي مصري (قتيل وجريح ومفقود) وتناول قضية تأميم شركة قناة السويس فانتهت باحتلال إسرائيل سيناء وخروجها منها بثمن باهظ هو فتح خليج العقبة للملاحة الإسرائيلية ومقتل ٥٠٠٠ ضابط وجندي وضياع صفقة الأسلحة التشيكيَّة تناول القضيَّة الفلسطينيَّة عندما كانت إسرائيل تحتل نصف فلسطين فانتهت باحتلال إسرائيل النصف الآخر من فلسطين ومعه غزة والجولان وجنوب لبنان وسيناء ومات عشرين ألف جندي مصري ولولا حرب أكتوبر ومبادرة السلام التي قام بها الرئيس السادات لكانت سيناء محتلّة حتى اليوم ولكن بفضل جهاز الدعاية الناصري الذي كان يقوده الدَّجال تحوّلت كل هذه الهزائم إلى انتصارات وقد كانت هذه الانتصارات الموهومة هي التي يتركز عليها الناصريين وباقي فلول اليسار حتى بعد أن عرف الشعب المصري والعربي حقيقتها وأصبح يدفع ثمنها غاليًا.

وعند وفاة عبد الناصر عام ١٩٧٠ كانت معظم القري المصرية لم تدخلها الكهرباء ولا مياه الشرب النقية والصرف الصحي وأغلب مساكن القري من الطوب اللبن لأن عبد الناصر صرف أموال طائلة علي صناعة مجده الشخصي الزائف وحروبه الخاسرة ولم تكن التنمية البشريَّة هي الهدف فكل مشاريع عبد الناصر (المصانع والسد العالي والمنشآت الأخرى) لم تتكلف أكثر من مليار جنية وصرف علي حروبه أكثر من ١٠مليار جنية بالإضافة إلى ٦٥ ألف جندي قتلوا في حروبه ولو صرف مليار واحد(بأسعار زمان) لحل مشكلة الصرف الصحي بالقرى ، وفى عهد عبد الناصر تم استيراد القمح لأول مرة من الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن كانت مصر مصدِّرة للقمح والقطن والمنسوجات في العصر الملكي والمدهش وهذا تاريخ عبد الناصر أن ترى من أنصاره جرأة عجيبة على أن يتحدثوا في المسائل العامة التي أفسدها هو منذ عام ١٩٥٤ . ولكن على أية حال فليس ذلك بمستغرب علي سيادتها وقد نشأت في جو سياسي كان يتاجر بالحروب الخاسرة ثم يملأ الدنيا بأننا انتصرنا والأناشيد والخطب النثرية ثم لا شيء بعد ذلك"

الجانب الروحي في السياسة الناصرية

قلنا أن الحضارة لها جانبان : مادي ، ومعنوي ، أو مدنيَّة (اقتصادية وعمرانية)، وثقافيَّة (دينية وأخلاقية) . وعرفنا من شهادات المفكرين عدم قيام ثورة يوليو

بمدنيَّة حقيقيَّة بل قضت على النهضتين السابقتين عليها : نهضة محمد علي ، والحقبة الليبراليَّة . فماذا عن الجانب الديني والأخلاقي في نظام عبد الناصر ؟

كان عبد الناصر عضواً في التنظيم الخاص للإخوان المسلمين وأنه أقسم على المصحف والسيف على فداء الدعوة الإسلاميَّة وعدم إفشاء أسرارها ، وأنه تعهَّد لجماعة الإخوان المسلمين قبل الثورة أنه إذا وصل إلى الحكم فإنه سيعمل بكتاب الله وسنة رسوله فعندما قال حسين حمودة (عضو جماعة الإخوان المسلمين ، وأحد الضباط الأحرار الأوائل) لجمال عبد الناصر إننا انضممنا للإخوان على أساس مبادئهم التي اقتنعنا بها وهي أن يكون الحكم بكتاب الله تعالى وسنة نبينا ﷺ فرد عليه جمال عبد الناصر : " اطمئن من هذه الناحية فما دام زمام الأمور سيكون في يدنا فسوف نحكم بالقرآن الكريم إن وفقنا الله في الاستيلاء على السلطة في مصر"(١)

وفي ذكرى وفاة حسن البنا في فبراير عام ١٩٥٤ قال عبد الناصر "نعم أذكر في هذا الوقت، وفي مثل هذا المكان كيف كان حسن البنا يلتقي مع الجميع ليعمل الجميع في سبيل المبادئ العالية والأهداف السامية، لا في سبيل الأشخاص ولا الأفراد ولا الدنيا .. وأُشهد الله أنني أعمل –إن كنت أعمل– لتنفيذ هذه المبادئ، وأفنى فيها وأجاهد في سبيلها".(٢)

ولقد صرَّح عبد الناصر في بعض خطبه أنه ليس شيوعيّاً وأنه يصلي ويصوم.

ومع ذلك كله فقد رمى بعض الإخوان المسلمين عبد الناصر بالكفر من جراء ما رأوه من تعذيب في السجون والمعتقلات ، وسارع مرشدهم حسن الهضيبي بتأليف كتاب " دعاة لا قضاة " ليذِّكر هؤلاء الناس بأن مهمَّة جماعة الإخوان المسلمين هي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وأنهم ليسوا قضاة كي يحكموا على عقائد الناس ، وتساءل بعض الناس هل كان عبد الناصر ماركسيّاً ؟ بعد أن أصدر عبد الناصر الميثاق ، وطبقَّ قوانين الاشتراكيَّة وولَّى الماركسيين أجهزة الدولة في

---

(١) حسين حمودة " أسرار حركة الضباط الأحرار و الإخوان المسلمون " الزهراء للإعلام العربي ص ٧٤ ، ٧٥ .
(٢) كلمة عبد الناصر في ذكرى وفاة حسن البنا نقلاً عن مجلة "التحرير" الصادرة بتاريخ ١٩٥٤/٢/١٦ العدد"٤٤" وهي إحدى صحف الثورة .

الإعلام والثقافة والصحافة . وردَّ عليهم حسنين هيكل بأن عبد الناصر كان متديناً ولم يكن يوماً ماركسيّاً .

وبَلَغَ عبد الناصر أن حسن التهامي صديقه ومدير مكتبه بعد الثورة يتهمه بالشيوعيَّة، وفي أحد لقاءاتهما نفى حسن التهامي هذا الاتهام، ودونك ما جرى بينهما من حوار يرويه حسن التهامي.

" قال عبد الناصر : أنت تقول عني أني شيوعي !!

فقلت له : وهل أنت تعرف نفسك شيوعي .. أنا في نظري جمال عبد الناصر هو جمال عبد الناصر لا شيوعي فقط ولا إخوانجي فقط ولا رأسمالي ولا غربي ولا شرقي أنت لا تعرف إلا نفسك ولا ترى في المرآة إلا جمال نفسه وأنا أسألك من الذي يقال ذلك عني كذباً ؟ " (1)

والحقيقة أنه ليس في إمكان بشر التفتيش عن عقائد الناس ورميهم بالكفر أو الإيمان فهذا من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، وإن من واجب الباحثين صرف همهم عن التفتيش عن عقائد الحكّام إلى مناقشة سياستهم ، وهذا ما التزمنا به في هذا الكتاب وغيره من مؤلفاتنا .

فإذا كان عبد الناصر قد حلَّ جماعة الإخوان المسلمين وقبض على كل المنتمين إليها فلم يكن هذا محاربة للدين إنما استئثاراً بالسلطة ؛ فقد قبض قبل ذلك على من نزاعه السلطة أو عارضه في حكم فضرب مجموعة المدفعيَّة وشتت ضباطها وألقى بزعمائها في السجن في ١٥ يناير ١٩٥٣ كما ضرب مجموعة سلاح الفرسان في أعقاب أحداث فبراير ومارس ١٩٥٤ وانتهى الأمر بإلقاء طائفة من أبرز الضباط الأحرار بسلاح الفرسان في السجن ونقل طائفة أخرى منهم إلى وظائف مدنيَّة وإبعاد الباقين عن سلاح الفرسان . كما أطاح بكل القوى السياسيَّة وحلَّ جميع الأحزاب السياسيَّة وصادر جميع أموالها .

---

(1) من حوار محمد الطويل مع حسن التهامي وقد ذكره محمد الطويل في كتابه " لعبة الأمم وعبد الناصر " المكتب المصري الحديث .

ونكتفي في بحث الجانب الروحي في السياسة الناصريَّة بما كتبه أحمد طعيمة في رسالته لعبد الناصر (1) : " سيدي الرئيس : لا أستطيع أن أمسَّ الموقف السياسي والاقتصادي أي الجانب المادي من حياة مجتمعنا دون أن أمس الجانب الروحي .

إن المتتبع لتاريخ مصر منذ عهد الفراعنة لتصيبه الدهشة فأثار مصر الفرعونيَّة منذ آلاف السنين لا تجد بينها إلا معبداً أو مقبرة في الوقت الذي لا نعثر على قصر واحد من قصور الملوك والأمراء فهي إما معبد يعبدون فيه الله أو الآلهة أيّاً كانت ، ومقبرة ينتظرون فيها البعث ليبدءوا حياتهم الأخرى ولم يتهموا إطلاقاً بترك أثر من آثار حياتهم الدنيوية إلا ما عثر عليه في مقابرهم لاستخدامهم بعد البعث في حياتهم الأبدية الخالدة ، فشعب مصر منذ وجد شعب فُطِر على الدين أي دين يصل إلى الله.

ثم كانت مصر أرضاً مقدسة للأديان السماوية الثلاثة فتأصَّلت فيها العقيدة وأصبحت تجري في دماء شعبها وتنساب في روحه جيلاً بعد جيل لا ينال منها مستعمر أو دخيل أو عدو لم تكن هزيمة التتار والصليبيين على يد المصريين إلا دفاعاً عن العقيدة والدين وانتصار كلمة الله .

وشعب مصر شعب طيب وذكي بالفطرة يعرف كيف يواجه ويقاوم وله أسلوب فريد مكنه على مر الأيام أن يهضم حضارات وأفكار فرضت عليه في بعض فترات التاريخ ولكنه كان يخرج منها دائماً كما هو مصريّاً في كل شيء وفي عقيدته .

وحينما أعلنتم في خطابكم التاريخي يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ ضرورة التمسك بأهداف الدين صفق الحاضرون والغائبون من الأعماق تصفيقاً اعتقد أنكم لمستم معناه لأنه لم يسبق له مثيل أو تعقيب على أي فقرة من خطابكم في هذا اليوم .

---

(1) بعد هزيمة يونيو طلب عبد الناصر من صديقه العزيز الوفي أحمد طعيمة أن يكتب له رسالةٍ يوضح لها فيها أسباب الهزيمة وكيفية الخروج من الكارثة التي حلت بالبلاد فكتب له طعيمة رسالة طويلة حلل فيها أسباب النكسة السياسية والاقتصادية والعسكرية والدينية .

فقد مرَّت على الشعب المصري فترة من الوقت خُيِّل إليه أن الدولة تتجه بعيداً عن الدين في طريق الشيوعية ، وكانوا لا يستطيعون مقاومة هذا الاتجاه لأنهم لا يملكون وسائل المقاومة له المباشرة .

ولقد قلت لسيادتكم في لقائي معكم يوم ٣٠ أبريل عام ١٩٦٥ أن الشعب مستعد للتضحية بدمه وحياته وماله ، مستعد للجوع والعري في سبيل دينه ووطنه ولكنه غير مستعد أن يتغاضى أو يغفر خطأً تافهاً جداً للحكومة ، أو يسكت عن نقص سلعة تموينية واحدة ولو لبعض الوقت طالما أنه يشعر أنه يجر إلى الشيوعيَّة جرًّا.

ولقد كان هذا هو أسلوب الشعب في المقاومة الذكيَّة دون أن يفصح عمَّا في نفسه؛ فقد أصبح وأمسى فرأى أجهزة الإعلام والثقافة والصحافة وقد وُضعَت في أيدي خريجي السجون والمعتقلات من الشيوعيين الذين كانوا يجاهرون بالإلحاد والدعوة له وسب الإسلام كمقال محمد عودة في صحيفة الجمهوريَّة .

وقد علَّل الشعب نكسة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ كما أوضحتم سيادتكم في خطاب ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ بأن الله أرادها درساً لنا يعلمنا ما لم نكن قد تعلمناه، ويذكرنا ببعض ما يمكن أن نكون قد نسيناه . وبأننا نسينا الله فأنسانا أنفسنا وأمكن منا إسرائيل .

ويروى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أوصى جيشاً بعث به إلى بلاد الروم وكان جيش الروم أضعافاً مضاعفة لجيش المسلمين في العدة والعدد فقال لهم : " احرصوا على رضاء الله وذكْره والتمسك بدينه وإلا كنتم والروم أمام الله سواء وتكون الغلبة للعدد والعدة للروم . "

هذا هو رأي الإسلام وهو رد واضح على تشكيك البعض بعد النكسة .

أليس الله مع المسلمين وعلى اليهود ؟

ألسنا على الحق وهم على الباطل؟

إذاً كيف كان الله مع إسرائيل ضدنا في هذه المعركة ؟

والحقيقة الإسلامية المجرَّدة إن الله لم يكن مع إسرائيل ، ولكنه أيضاً لم يكن معنا؛ إذ يقول الله تعالى { وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } وعن الرسول

صلى الله عليه وسلم عن بن مسعود رضي الله عنه قال : " وما نزل البلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة " .

لهذا أرجو يا سيادة الرئيس وألحُ في الرجاء لوجه الله والوطن أن كنتم تريدون نهضة حقيقية لهذا الشعب وترجون نصراً من الله قريباً بإذن الله أن نفكّر في الآتي:

١- أن يعتبر الدين الإسلامي مادة أساسيَّة في جميع مراحل التعليم حتى التعليم الجامعي.

٢- أن تشكِّلوا بجانبكم لجنة للدراسات الإسلاميَّة لتزودكم بأعظم نبع للتشريع في العالم من سير الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين أئمة الإسلام على أن يكونوا صفوة من الرجال الممتازين من رجال الدين والعلم والقانون .

٣- يجب تطهير جميع أجهزة الدولة في الإعلام والثقافة والصحافة من الشيوعيين البارزين فليس من المعقول أن يتصدر هؤلاء هذه المراكز في دولة دينها الإسلام ورئيسها جمال عبد الناصر ويتولى أمر الفكر والتوجيه لجموع الشعب المؤمن المسلم الذي يعلم أنهم ملحدون من خريجي السجون والمعتقلات.

وتنعكس هذه الصورة على الدولة بأكملها فتوصم بالشيوعية في الداخل والخارج دون مغنم إلا مغارم كثيرة تفوق الوصف والخيال في حساب الله وحساب الناس "[1]

الحقبة الناصريَّة وتغير السمات الأصليَّة في الشخصيَّة المصريَّة

لقد غيَّرت الحقبة الناصريَّة في السمات الأصليَّة في الشخصيَّة المصريَّة هذه التغيرات أدَّت إلى تراجع مشروع النهضة العلميَّة والثقافيَّة الذي وضع أسسه رواد النهضة في النصف الأول من القرن العشرين .

إن النظام الديكتاتوري لم يخرج لنا مبدعين حقيقيين ، فالإبداع خصم دائماً للدكتاتورية، وأن كلَّ المبدعين ظهروا في الفترة الليبراليَّة أما من نبغوا في

(1) لمزيد من التفاصيل راجع خطاب أحمد طعيمة لعبد الناصر المكتوب في كتاب " شهادة حق " الجزء الخاص بالدين ص ٣٧ – ٤٢ .

تخصصاتهم العلميَّة والمهنيَّة بعد عام ١٩٥٢، فيرجع ذلك إلى مجهودهم الشخصي، والتحاقهم بعد ذلك بالغرب الأوروبي، وليس إلى النظام التعليمي الذي جاء بعد عام ١٩٥٢.

كما أن أغلب المعتقلين، وهم بالآلاف، في سجون ناصر من خريجي الجـمعـات، وآلاف مثلهم هربوا من مصر لدول الخليج، في وقت كانت نسبة الأمية ٨٤%، وكأن عبد الناصر أصبح زعيماً على شعب " ما بيفكش الخط " .. الدكتور حسين كمال الدين الأستاذ بكلية الهندسة كان معتقلاً في سجن الواحات وقت بناء السد العالي، والروس واجهوا مشاكل هندسية في هيكل السد العالي.. فحاولوا الاستعانة بالخبرة الأمريكية، واتصلوا بهم، فأخبرهم الأمريكان أن هناك أستاذاً مرموقاً في مصر اسمه حسين كمال الدين، فأخبر الروس عبد الناصر وتم إخراجه من المعتقل، وأصلح المطلوب، وأرجعه عبد الناصر مرة أخرى للمعتقل ! " (١)

ولقد رصد د. محمد المهدي عدداً من العوامل الرئيسة التي أدَّت إلى تغيرات في السمات الأصليَّة للشخصيَّة المصريَّة في تلك المرحلة منها :

١- ثورة يوليو وما صاحبها من تغييرات جذرية (بعضها ايجابي وهو ما يتصل بالتحرر الوطني وطرد المستعمر , وأكثرها سلبي وهو ما يتصل بالحكم الاستبدادي البوليسي) أدَّت إلى تغيرات في البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، وهُـزَّت البنية القيميَّة حيث أشاعت قيماً استبداديَّة قهريَّة ، وأرست قواعد الاعتماديَّة على النظام ، والسلبيَّة ، والفهلوة ، وادِّعاءات البطولة الزائفة ، والسير وراء الزعيم بأعين مغمضة وأصوات هاتفة وقلوب مليئة بالحماس الجارف بلا دليل . باختصار أحدثت الثورة ورجالها تناقضات هائلة في البنية النفسيَّة للشخصيَّة المصريَّة .

٢- نكسة يونيو ١٩٦٧ , وقد كانت قمة التعبير عن خداع الذات والتسليم لزعامات كاريزمية بعيدة عن التخطيط السليم والموضوعية . حدث بعدها صدمة وتغيرات جذرية أخرى في الشخصية المصرية حيث راحت تبحث عن هوية دينيَّة

---

(١) د. حمادة حسني " ناصر الوجه الآخر " جريدة اليوم السابع بتاريخ ٢٠ / ٩ / ٢٠٠٨ .

بعد فشل الهوية القوميَّة الاشتراكيَّة التي نادى بها زعماء الثورة ومنظروها ، ومن هنا بدأت التيارات الدينيَّة المعتدلة والمتطرِّفة في مصر وامتدت إلى العالم العربي والإسلامي تحت وطأة المواجهة البوليسيَّة القاسيَّة لتلك التيارات . (١)

ولم ينته نظام عبد الناصر بموته إنما ظلَّ بعده حتى قيام ثورة ٢٥ يناير ، وإن كانت قد حدث له بعض التطورات ودخلت عليه بعض التعديلات لكنه ظلَّ في جوهره ثابت ، نعم أُصلِح حال الجيش فحقَّق انتصاراً مؤزَّراً في أكتوبر ٧٣ بعد الهزيمة المنكرة في ٦٧، ونعم حدثت إرهاصات ديمقراطيَّة وتعدديَّة حزبيَّة بعد ديكتاتوريَّة النظام واتحاده الاشتراكي ، ونعم تحوَّل النظام الاشتراكي الذي ساوى بين المصريين في القهر والفقر إلى انفتاح اقتصادي قسَّم المصريين إلى مُستغِلِّين ومُستغَلِّين أو " ناس بتكسب ولا تتعبشي وناس بتتعب ولا تكسبشي " على حد قول إسماعيل ياسين في منولوجه الشهير " متستعجبشي متستغربشي " .

نعم حدثت تغيرات ، شكليَّة ، في عصر السادات في النظام السياسي لكن ظلَّ نظام الحكم ديكتاتوريّاً وإن أحيط بديكور ديمقراطي ، وحدثت تغييرات ، جوهريَّة ، في الاقتصاد لكن لصالح رجال الأعمال ، والهلِّيبة ، والفهلويَّة لنصل إلى عصر مبارك آخر الصور المعدَّلة لنظام ثورة يوليو .

مصر في عهد مبارك

ولقد أدَّى نظام ثورة يوليو وحكم العسكر إلى ظهور أزمات سياسيَّة ، واقتصاديَّة، واجتماعيَّة وأخلاقيَّة وثقافيَّة ، ودونك أهم ما وصلت إليه حياة المصريين في نهاية حكم العسكر الذي أسسته ثورة يوليو .

١- في المجال الاقتصادي

الاقتصاديون المصريون يشكون من اختلال الهيكل الإنتاجي لصالح القطاعات غير الإنتاجية ، ومن اختلال هيكل العمالة لصالح نفس القطاعات ، ومن الاختلال المستديم في ميزانية المدفوعات ، وشدة الاعتماد على استيراد الغذاء ، ومن اختلال

---

(1) هذه الدراسة بعنوان " الشخصية المصرية " وقد نشرها د. محمد المهدي على شبكة الإنترنت.

توزيع الدخل واتساع الفجوة بين مستويات الدخول ، ومن انخفاض معدل الادخار والاستثمار ، ومن أنماط الاستهلاك وأنماط الاستثمار : فالاستهلاك منصرف إلى سلع ترفيهيَّة على حساب إشباع الحاجات الأساسيَّة ، والاستثمار منصرف إلى قطاعات يعتبرها الاقتصاديون غير منتجة . (١)

١- في المجال الاجتماعي

وعلماء الاجتماع يشكون من شيوع ما يسمى بالفساد أو التسيب وعدم الانضباط، ومن ازدياد حوادث العنف ، وظهور نوع جديد من الجرائم ، ومن تفكك الأسرة ، ومن انتشار قيم ماديَّة تعلي من قيمة الكسب السريع على حساب العمل المنتج ، وضعف روح التعاون والتضامن الاجتماعي ، ومن تدهور نمط الحياة في المدينة والقرية على السواء : المدينة تزداد تلوثاً وازدحاماً وضوضاء وقبحاً ، والقرية تتحول من قرية منتجة إلى قرية مستهلكة ، فالمباني السكنيَّة تزحف على الأراضي الزراعيَّة ، والأراضي الزراعيَّة يجري تجريفها وتفقد خصوبتها لإشباع حاجات استهلاكية بحتة ، كما يشكون من ازدياد تغريب الحياة الاجتماعيَّة ، سواء انعكس ذلك في أنماط السلوك اليوميَّة ، أو في اللغة المتداولة ، ومن انتشار تقديس كل ما هو أجنبي وتحقير كل ما هو وطني . (٢)

٣- في المجال السياسي

والمعلِّقون السياسيون يشكون من ضعف روح الولاء والانتماء للوطن ، وانتشار اللامبالاة بالقضايا القوميَّة الكبرى ، وانشغال الناس عنها بقضايا معيشية يوميَّة ، ومن غياب ما يسمونه بالمشروع الحضاري أو القومي ، ومن التخاذل نحو اعتداءات إسرائيل المتزايدة ، ومن ضعف الاهتمام بهدف الوحدة العربيَّة ، ومن ازدياد التبعيَّة السياسيَّة للغرب ، ومن زيف الديمقراطيَّة وعجز المعارضة عن المشاركة في اتخاذ القرارات الأساسيَّة . (٣)

---

(1) د. جلال أمين " ماذا حدث للمصريين ؟ " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١١ .
(2) نفسه ص ١٢ .
(3) د. جلال أمين " ماذا حدث للمصريين ؟ "مرجع سابق ص ١٢.

٤- في المجال الثقافي

ويشكو المهتمون بقضية الثقافة في مصر من شيوع ثقافة هابطة تهتم بالجنس وتستجيب للغرائز الدنيا ، ومن شيوع اللاعقلانيَّة في التفكير الديني ، واتجاه الحركات الدينيَّة إلى التمسك المفرط بطقوس وخزعبلات كانت بريئة منها في العشرينات والثلاثينات ، ومن تدهور مكانة اللغة العربيَّة ، ومن تدهور محتوى التعليم ، وانحطاط حال الجامعة ... إلخ (١)

وبعد أن استعرضنا ما حلَّ بالشخصية المصريَّة من تغيرات ، وما حل بالمصريين من أزمات إبان حكم حسني مبارك نحاول أن نرصد أهم الأسباب المباشرة لثورة ٢٥ يناير التي قامت لتسقط آخر النظام الذي أنشأته ثورة يوليو .

الأسباب المباشرة لثورة ٢٥ يناير

١- انقطاع الأمل وانتحار الحلم

من أهم أسباب قيام ثورة يناير بل أهمها هو انقطاع أمل الشباب في صناعة مستقبل مغاير للحاضر المحبط على كافة المستويات السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة فعلى المستوى السياسي ما زال الحزب الوطني يحتكر المجالس النيابيَّة والمحليَّة والسلطة التنفيذيَّة ومنصب الرئاسة لمبارك ولابنه من بعده ولا أمل في مشاركة أي من الأحزاب أو القوى الوطنيَّة لهم في أية مسئولية لا في الأمد القريب ولا البعيد . بعد التعديلات الدستورية التي تم حياكتها في ٢٥ مارس ٢٠٠٧ التي قصرت الرئاسة على الحزب الوطني وحده ، وأقصت الإشراف القضائي الكامل على الانتخابات مما ترتب عليه فتح الباب واسعاً للتزوير لصالح الحزب الوطني ورجاله وحرمان جميع القوى الوطنيَّة التي تتمتع بالكفاءة والنزاهة والإخلاص والتي تضع الجماهير فيها ثقتها – من التمثيل في مجالس : الشعب والشورى وحتى المجالس المحلية .

---

(١) نفسه ص ١٣ .

أما على المستوى الاقتصادي فهناك ١٦ مليوناً يقبعون تحت خط الفقــر المــدقع وفقاً لأرقام صادرة عن تقارير حكومية نشرت عام ٢٠٠٩ في الصحف والوســائل الإعلامية إلى جانب إحصائيات وأرقام الجهات الرسمية في مصر. (١)

وأوصدت حكومة نظيف باب العمل في وجه الشباب بعد أن أوقفت التعيين في الحكومة منذ ٢٠٠٦ ولم تفتح له مجالات عمل أخرى خارجه .

يقول اللواء أبو بكر الجندي رئيس الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء :

" نسبة البطالة في مصر وفقاً لمعايير منظمة العمل الدولية وصلت إلــى ٨,٩% خلال الربع الرابع من عام ٢٠١٠، وأن نسبة البطالة في مصر بلغــت ٥١ % مــن حملة المؤهلات العليا . " (٢)

وأكد د. صفوت النحاس رئيس جهاز التنظيم والإدارة " أن عدد العــاملين فــي الحكومة سيصل إلى ٧ ملايين بنهاية العام المالي الجاري ٢٠١١ مقابل ٦ ملايــين حالياً .

وأرجع هذا إلى فتح باب التعيينات مجدداً بعد الثورة، موضحاً أن هذا خلاف ما أصدره د. أحمد نظيف رئيس الوزراء الأسبق من تعليمــات واضــحة وصــريحة بوقف التعيينات بصورة كاملة وعدم تثبيت العمالة المؤقتة والخريجين منذ بداية ٣٠ يونيو ٢٠٠٦.

وقال "النحاس إن "نظيف" أجرى تحقيق معي بعد أن وافقت على تعيين خريجي معهد الصيارفة تطبيقا للحكم الذي حصل عليه هؤلاء الخريجون" (٣)

والملايين الستة المعيَّنين في الحكومة كثير منهم يعيشون تحت خط الفقــر فمــا يتقاضونه من جنيهات معدودة لا تفي بالحد الأدنى من متطلبــات الحيــاة الكريمــة

---

(1) نقلا عن جريدة الشروق المصرية .
(2) جريدة الشروق ٢٧/ ٧/ ٢٠١١.
(3) نقلا عن وسائل الإعلام المصرية .

بالإضافة إلى الإهانة التي يتعرضون لها في طوابير العيش ، وصفوف انتظار أنابيب البوتاجاز ، وتكدس المواصلات العامة ، والحرمان شهوراً طوال من تذوق البروتينات الحيوانية كاللحوم والدواجن والأسماك ومشتقات الحليب .

فإذا جئنا إلى السكن فالغالبيَّة العظمى من المصريين إما يعيشون في مناطق عشوائيَّة في المدن الكبرى أو في قرى فقيرة والمناطق العشوائيَّة والقرى تعيش حياة غير آدميَّة فهي محرومة من أبسط حقوق الإنسان وهي : الماء النقي ، والهواء النظيف ، والطعام الآمن ، والعلاج المتاح ، والتعليم الحقيقي ، والسكن الصحي .. مما جعل هَمَّ معظم المصريين الهجرة خارج البلاد فإن لم تكن بالطرق الشرعية لجئوا إلى الطرق غير الشرعية معرضين حياتهم وأموالهم للفناء فبعضهم يفضل الموت في قاع البحر على العيش على أرض مصر !!

٢- انتخابات ٢٠١٠

السبب الجوهري الأخر الذي دفع باتجاه ثورة يناير هو انتخابات مجلس الشعب ٢٠١٠ التي تمت في غيبة الإشراف القضاء الكامل عليها بعد التعديلات الدستورية ٢٠٠٧ التي أقصت الإشراف القضائي عن العملية الانتخابيَّة وقد مورس في هذه الانتخابات جميع أنواع التزوير مما دعا كل الأحزاب والقوى الوطنية إلى مقاطعة جولة الإعادة بعدما تبين أن التزوير أصبح سافراً وأن ورقة التوت التي كانت تستر عورة النظام قد سقطت . أقصيت المعارضة عن هذا المجلس ولم يبق فيه إلا الحزب والوطني وعملائه .

لقد شهدت مصر في عام ٢٠١٠ م انتخابات مجلس الشورى وانتخابات مجلس الشعب، وقد شهدت تلك الانتخابات عمليات تزوير وتزييف وبلطجة وعنف ورُشىً انتخابية واسعة النطاق، وكان الإقبال من الناخبين ضعيفاً جداً (وإذا كانت الأرقام الرسميَّة والتصريحات الرسمية تقول عكس ذلك كالعادة منذ ستين عاماً)، وتورَّع الناس المحترمين عن الترشح في الانتخابات أو حتى التصويت لما يشوب العمليَّة الانتخابيَّة برمتها من سلوكيات تنفر الناس من المشاركة، فضلاً عن أن الجميع يعلمون أن الانتخابات في مصر نتائجها معروفة مقدماً ومحسومة للحزب الوطني

بالضرورة، وأن عملية التصويت ما هي إلا ديكور سخيف وإسباغ للشرعية على ممارسات غير شرعية .

وفي الانتخابات الأخيرة تم استبعاد كل التيارات والرموز المعارضة والمستقلة حتى بدا مجلس الشعب بدون معارضة حقيقيَّة، وفقد القائمون على الانتخابات تلك الحنكة القديمة التي تميز بها من سبقهم من حبكة التزوير وإعطاء الفرصة لبعض المعارضين من باب الديكور وسد الذرائع وتحسين الصورة دولياً ، ويبدو أن شهيَّة الحزب الوطني انفتحت بشكل غير منضبط ليبتلع كل المقاعد غير عابئ بالصورة أو الشكل أو الديكور، وليذهب الجميع إلى الجحيم، ولقد شهد الجميع حرق واستبدال الصناديق بالجملة، وتسويد البطاقات لصالح مرشحي الحزب الوطني الحاكم ، واستبعاد الإشراف القضائي الحقيقي والمباشر لكي يتم التزوير بشكل سهل، ولكي يتم ذلك فلابد من الاستعانة بعدد كبير من البلطجية وأصحاب السوابق، وبلغ أجر البلطجي في اليوم الواحد ألف جنيه، ووظيفته هي ترويع الناخبين والسيطرة على محيط لجنة الانتخابات وتيسير عمليات التزوير .

لذا كان طبيعيّاً أن جميع البرلمانيين السابقين من الأحزاب والإخوان المسلمين الذين أسقطهم الحزب الوطني في الانتخابات الأخيرة كانوا في مقدمة من دعا إلى التظاهر يوم ٢٥ يناير ضد النظام المستبد الفاسد ، كما تصدروا هذه المظاهرات عند اندلاعها .

٣- سيناريو التوريث

قد يسأل سائل لماذا لجأ الحزب الوطني إلى التزوير السافر لانتخابات مجلسي الشعب والشورى رغم أن المعارضة السابقة لم تَحُل دون تمرير القوانين سيئة السمعة والإجابة ببساطة أن هذا المجلس هو الذي سيمرر الحكم من الأب لابنه من مبارك لجمال فلابد أن يكون جميع أعضاء مجلس الشعب ممن يصفقون لمسرحيَّة التوريث عند عرضها وقد سبق الانتخابات المزورة التعديلات الدستورية ٢٠٠٧ التي وضعت شروطاً للترشح لمنصب رئيس الجمهورية لا تنطبق إلا على شخص واحد في جمهورية مصر العربية هو جمال مبارك .

وكانت القوى الوطنيَّة تحلم باليوم الذي تتخلص فيه من سنوات طويلة من الاستبداد والفساد ومبارك إن عاش اليوم فلن يعيش للغد وقد بلغ من العمر أرذله لكن أن يرث جمال أباه في الحكم فهذا معناه سنوات أخرى لا يعلم إلا الله مداها من احتكار الحزب الوطني للحكم وثروات البلاد .

٤- بوليسية الدولة

الأصل أن يكون نظام الحكم في خدمة نظام الدولة وجموع شعبها ، ولكن منذ استبد عبد الناصر بحكم مصر عكس الأمر إذ جعل نظام الدولة وجماهير شعبها في خدمة النظام الحاكم وجمع كل السلطة في يده وحرم كل القوى والوطنيَّة من المشاركة فيها ، واستخدم كل صنوف العنف والقهر لتحقيق هذا فالاعتقال والتعذيب والفصل من العمل والمحاكم الاستثنائية ، والشرطة ، والجيش ، وأجهزة المخابرات، وأهل ثقة النظام في كل مواقع العمل كلها موجهة ضد أي شخص أو جماعة يختلف ، مجرد اختلاف ، مع النظام الحاكم .

وللأسف أصبحت هذه السياسة التي سنها عبد الناصر من ثوابت نظام الحكم في مصر ، وإن كان هناك اختلاف في النسبة وتنوع في الأساليب ، وإذا كانت الجماهير الغفيرة من المصريين في الحقبة الناصريَّة كانت مؤيدة للنظام الحاكم بفضل غيبة الحقائق ، وإخراس أصحاب الرأي ، وسطوة الإعلام الموجه ، وكاريزما الزعيم فإن الثورة التي شهدها الإعلام العربي والانفتاح على كافة الآراء والاتجاهات ، ومساحة الحرية التي أعطيت لأصحاب الرأي وعزوف الناس عن الإعلام الموجه ، وغياب كاريزما الزعيم ، والمنجزات الكبرى كل هذا أدى إلى فقدان مبارك ، خاصة في السنوات العشر الأخيرة ، لتأييد الجماهير مما ألجأه إلى إحكام القبضة الأمنية ، وتفعيل قانون الطوارئ المعمول به منذ هزيمة ١٩٦٧ هذا القانون الذي يعطي النظام الحاكم الحق في القبض على أي شخص ، وتعذيبه ، واعتقاله ، ومداهمة بيته دون إذن من النائب العام ، ودون تقديمه للمحكمة ودون منحه الحق في الدفاع ، ويظل هذا المتهم البريء شهوراً وسنوات ملقى في غياهب السجون دون محاكمة ودون أن يعرف أهله عنه شيئاً . وإن قدم لمحكمة يجبر على

الاعتراف بجرائم لم يرتكبها تحت التعذيب والتنكيل ، ولقد راح آلاف من المواطنين الشرفاء أصحاب الرأي أو المواطنين العاديين ضحية لقانون الطوارئ الجائر وجهاز أمن الدولة القائم على تنفيذه الذي أدخل الرعب في قلوب المصريين .

لكن لكل صبر نهاية ولكل احتمال حد فقد ضجَّ الناس من قبضة الدولة الباطشة وجهاز أمنها الطاغي ولم يعد لديهم قدرة على الصبر والاحتمال أكثر من ذلك .

٥- تصدير الغاز لإسرائيل

بدأت اتفاقية الغاز في ٣٠ يونيو ٢٠٠٥ حيث وقعت الحكومة المصرية اتفاقية مع إسرائيل تقضي بتصدير ١,٧ مليار متر مكعب سنويًا من الغاز الطبيعي المصري إلى إسرائيل، لمدة ٢٠ عامًا، بثمن يتراوح بين ٧٠ سنتا و١,٥ دولار للمليون وحدة حرارية، بينما يصل سعر التكلفة ٢,٦٥ دولار، كما حصلت شركة الغاز الإسرائيلية على إعفاء ضريبي من الحكومة المصرية لمدة ٣ سنوات من عام ٢٠٠٥ إلى عام ٢٠٠٨م .

وقد صدرت عدة أحكام قضائية تقضي بوقف تصدير الغاز لإسرائيل، أولها حكم محكمة القضاء الإداري في ١٨ نوفمبر ٢٠٠٨ بوقف قرار الحكومة بتصدير الغاز لعدة دول من بينها إسرائيل، وحدد قرار المحكمة سعر الغاز وكميته ومنع تغيير الأسعار لمدة ١٥ عامًا، بعد أن أقرت الحكومة آنذاك بأن سعر الغاز المصري المصدر لإسرائيل أقل بكثير من السعر العالمي .

وللمرة الثانية، يصدر حكم من محكمة القضاء الإداري في ٦ يناير ٢٠٠٩ باستمرار تنفيذ حكمها السابق بوقف تصدير الغاز بأسعار تقل عن الأسعار العالميَّة. لكن في ٢ فبراير ٢٠٠٩ قضت المحكمة الإداريَّة العليا بوقف تنفيذ حكم القضاء الإداري بمنع تصدير الغاز لإسرائيل وقبلت الطعن الذي تقدمت به الحكومة لإلغاء الحكم . ثم تحكم نفس المحكمة – الإدارية العليا - في ٢٧ فبراير ٢٠١٠، حكمًا نهائيًا وغير قابل للطعن، بعدم اختصاص القضاء بنظر الطعن على قرار الحكومة المصريَّة بتصدير الغاز المصري إلى إسرائيل، باعتباره عملاً من أعمال السيادة .

وكان تصدير الغاز لإسرائيل بسعر أقل من سعر التكلفة في الوقت الذي يتصارع المصريون على الحصول على أنبوبة بوتاجاز تلك الأنبوبة التي يصل سعرها في أوقات الأزمات إلى أكثر من ٥٠ عاماً – من أهم الأسباب التي فجرت ثورة ٢٥ يناير مع غيرها من الأسباب الأخرى .

٦- خالد سعيد

من أشهر ضحايا الدولة البوليسية خالد سعيد الذي توفي على يد رجال الشرطة في منطقة سيدي جابر في السادس من يونيو ٢٠١٠، بعد أن تم ضربه وسحله حتى الموت أمام عدد من شهود العيان .

ووفاة شاب آخر هو السيد بلال أثناء احتجازه في مباحث أمن الدولة بالإسكندرية، بعد تعذيبه في إعقاب حادثة تفجير كنيسة القديسين بالإسكندرية.

ويصل إجمالي ضحايا عنف وزارة الداخليَّة المصرية لنحو ٣٥٠ شهيد في آخر ثلاث سنوات، حسب تقديرات المنظمات المعنية بحقوق الإنسان .

مما دعا إلى إنشاء الناشط الالكتروني وائل غنيم (١) صفحة (جروب) " كلنا خالد سعيد " على شبكة الفيس بوك الذي جذب تعاطف مئات الآلاف من المصريين والذي دعا ، كما دعت أحزاب وجماعات ومنظمات وحركات أخرى ، إلى مظاهرات ٢٥ يناير لتحرير مصر من الفساد وإسقاط نظام الرئيس مبارك . كما كان للصفحة أو المجموعة دور كبير في التنسيق بين الشبان ونقل صدى المواجهات مع رجال الأمن.

فالثورة عندما بدأت يوم ٢٥ يناير كانت مكونة من الشباب الذين شاهدوا أو انضموا لصفحة (كلنا خالد سعيد) ثم تحولت إلى ثورة شاركت فيها جميع طوائف الشعب المصري.

---

(1) وائل غنيم شاب مصري يعتقد كثيرون أنه أبرز مفجري ثورة ٢٥ يناير ، قال عن نفسه، في تصريح صحفي، أنه "مناضل كيبورد"، في تواضع أمام من قدموا أرواحهم في هذه الثورة،اعتقل بعد قيام الثورة بيومين وأفرج عنه يوم ٧ فبراير .
شكك البعض في مسئولية وائل غنيم عن إنشاء صفحة " كلنا خالد سعيد " .

٦- الثورة التونسية

هي ثورة شعبيَّة اندلعت أحداثها في ١٨ ديسمبر ٢٠١٠ تضامنًا مع الشاب محمد البوعزيزي الذي قام بإضرام النار في جسده في ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ تعبيرًا عن غضبه على بطالته ومصادرة العربة التي يبيع عليها وقد توفي البوعزيزي الرابع من يناير ٢٠١١ نتيجة الحروق أدى ذلك إلى اندلاع شرارة المظاهرات في يوم ١٨ ديسمبر ٢٠١٠ وخروج آلاف التونسيين الرافضين لما اعتبروه أوضاع البطالة وعدم وجود العدالة الاجتماعية وتفاقم الفساد داخل النظام الحاكم. أجبرت هذه المظاهرات التي شملت مدن عديدة في تونس الرئيس بن علي على التنحي عن السلطة ومغادرة البلاد بشكل مفاجئ بحماية أمنية ليبية إلى السعودية يوم الجمعة ١٤ يناير ٢٠١١ .

وقد شجَّع نجاح الثورة التونسية القوى الوطنية المصرية على السعي لتغيير هذا النظام الفاسد ؛ فقد أعطتهم ثورة تونس أملاً في إمكانية التغيير السلمي للنظام الذي فقد شرعيته وزكمت رائحة فساده الأنوف . (١)

وبنجاح ثورة يناير وما أعقبها من ثورة ٣٠ يونيه يتطلع الشعب المصري إلى نظام سياسي ديمقراطي يحقق نهضة حقيقيَّة يشارك فيها كل الشعب المصري وتستعيد مصر مكانتها المفقودة ومركزها الشاغر الذي لا يملؤها سواها .

***

---

(1) لمزيد من التفاصيل حول ثورة ٢٥ يناير وعلاقتها بثورة يوليو الرجوع إلى كتابنا " دروس من ثورة يوليو لثورة يناير " دار زهور المعرفة والبركة .

الفصل الثامن

الثابت والمُتَغيِّر في الحضارة المصريَّة

في البداية يجب التفريق بين الثابت والمُتَغيِّر في مفهوم الحضارة ومقوِّماتها فليس كل مُتَغيِّر محمود ولا كل ثابت مذموم أو العكس ؛ فإن هذا يتوقف على طبيعة المُتَغيِّر والثابت فبالنسبة لمفهوم الحضارة إذا كان الثبات في الجانب المعنوي – عند أصحاب الحضارة الدينية السماويَّة كمصر – يكون محموداً في حين أن ثبات الجانب المادي " المَدَنيَّة " يعد مذموماً ؛ لأن ثبات مبادئ الدين الصحيح والخلق الرفيع وما يفرزانه من سلوك قويم لا يتغير بتغير الزمان والمكان فهذه قيم ثابتة غير نسبيَّة لن تقوم حضارة إلا بها مهما كانت مقوماتها الطبيعيَّة والبشريَّة ، أما المَدَنيَّة (الرقي في العلوم التجريبيَّة والتكنولوجيا والعمران) فهي متطوِّرة دوماً والثبات فيها تخلف ورجعيَّة .

وإذا طبَّقنا هذا المقياس على الحضارات المصريَّة ونهضاتها فإن ثبات مبادئ الدين القويم والخلق الرفيع وما ينبثق عنهما من عادات وتقاليد وثقافة يكون محموداً ، ولا يعد تخلفاً ولا رجعيَّة كما يحلو للعلمانيين اللادينيين والماركسيين أن يسمُّوه في مقابل أن ثبات الحياة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والعلميَّة والتكنولوجيَّة والعمرانيَّة يعد تخلفاً ورجعيَّة .

استمراريَّة الطبيعة الجغرافيَّة والمُناخ في مصر

ولعلَّ خير ما نفعل لتقصِّي واختبار قاعدة استمراريَّة الشعب المصري هو أن نتَّبع مظاهرها في مختلف الجوانب الطبيعيَّة والبشريَّة والمَدَنيَّة والثقافيَّة حتى نحدِّد الثوابت والمُتغيِّرات ، والسلبي والإيجابي في كلٍّ منها ، ويحسن أن نبدأ بمظاهر الأرض الطبيعيَّة أولاً .

يقول د. جمال حمدان في كتابه شخصيَّة مصر : " فإذا نظرنا إلـى مـصر أولاً فسنجد أن رقعتها الثانية المحدَّدة تقريباً لم تتعرَّض لتغيُّـرات أو تقلُّـصات خـلال العصور التاريخيَّة ؛ فمنطقة الوادي نهريَّة أساساً وليست سيسمية (زلزاليَّـة) بـأي درجة تذكر ، ولذا لم تعرف أي تغيرات نكبائية أو فجائية مما قد يصيب المنـاطق البركانيَّة أو الزلزاليَّة مثلاً .. وحتى إذا نظرنا إلى شبكة ترعنا الكثيفة المعاصـرة ، فليس من العسير أن نتعرَّف فيها على أجزاء وقطاعات من أصل قديم . فكثير مـن فروع الدلتا القديمة ، سواء أكانت سبعة كما يقول " هيـرودوت" و " سـترابو " أو تسعة كما يقول " بطليموس " ، إذا كانت قد اندثرت كفروع طبيعيَّة فقد تحولت إلـى ترع للري ويمكن بسهولة تحديد مساراتها ومجاريها في ترع اليوم .

إن التطوُّرات في جغرافيَّة مصر الطبيعيَّة تمضي بطيئة متثاقلة كما أن التغيُّرات التي طرأت على استغلال الأرض وعلى حياة الناس ربما لم تمس جوهر الأشياء . مثلاً سطح الأرض – وجه مصر نفسه – لم يكد هو الآخر يعرف تغيُّراً أساسـيّاً أو محسوساً في شكلها ومظهره العام عبر تاريخه الألفي الأخير . فالمنطقة بلا غطـاء نباتي طبيعي مذكور كما نعرف ، فلم تتعرَّض لما تعرَّضت له مناطق أخرى كثيـرة كعملية إزالة الغابات التاريخيَّة ولا عرفت مشكلة تعرية التربة وغير ذلك مما كـان له أكبر الأثر في تغيير طبيعة وشكل الحياة في تلك المناطق . (١)

وبعد أن تحدَّث د. حمدان عن استمراريَّة الطبيعة الجغرافيَّة المصريَّة وذكر أنها لم تعرف تغييراً يُذْكر تحدَّث عن استمراريَّة المُناخ المصري فقال : " وعلى الجملة يمكن القول بأن مُناخ مصر التاريخي أدخل في باب الاستمراريَّة منـه فـي بـاب الانقطاع .

وفي كل الأحوال فقلَّما كان لهذه التغيرات الطفيفة المفترضة ، إن وجدت ، أثـر محسوس على وادي النيل نفسه المستقلٍّ بنهره عن ضبط المُناخ المحلي أو الإقليمي

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٥٦، ٥٥٧ بتصرف .

المباشر ، ولقد ظلَّ نظام الحياة في الوادي أقرب إلى الثبات والاستمرار دون تغيـر ملموس أو انقطاع حاسم ، على الأقل منذ الفرعونيَّة حتى العصر الحديثة . (١)

استمراريّة الشعب المصري جنسياً وثقافياً

شعب مصر يعدُّ شعباً فريداً بين شعوب الأرض فبينما تعدُّ وحدة الجـنس لـشعب من الشعوب أسطورة فإنها بالنسبة للشعب المصري حقيقـة مؤكَّـدة فلقـد جـاءت الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة (علم دراسـة الإنـسان) لتؤكِّـد أن ٧٩ % مـن المصريين : مسلمين ومسيحيين يعودون إلى أصل جنسي واحـد وهـو المـصري القديم الذي شيَّد أوَّل حضارة عرفها البشر وأن الأجناس الأجنبيَّة أغلبها قد انقـرض كاليونان والرومان والمماليك والعثمانيين ...{ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ } [الحاقـة:٨] ومن بقي منهم ذابت دماؤه في نهر الجنس المصري الأصيل هذا من حيث الأصـل الجنسي ، أما من حيث التأثير الحضاري فلقد تفاعل المـصريون باسـتمرار مـع أجناس بشريَّة شتى أثَّر فيهم كثيراً ولم يتأثر بهم إلا بما يتفق مع طبيعته وشخصيَّته مما نتج عنه ذلك التشابه العجيب بين غالبيَّة المصريين المحـدثين وبـين أجـداهم القدامى .

يقول د. وسيم السيسي : " إننا شعب واحد.. من الناحية الجغرافيَّة، ونشرب مـن إناء واحد إلا وهو نهر النيل، ومائدة واحدة نتناول منها طعامنا وهي الوادي، ونحن كذلك شعب واحد من الناحية السياسيَّة، ويتجلي ذلك في حكومة لم ينفرط عقدها منذ ٦ آلاف سنة، وكذلك نحن شعب واحد من الناحية البيولوجيَّة وأول من أشـار إلـي ذلك هو فلندر اسبتري حين قال إن المشكلة في مصر ليس فـي غزوهـا.. وإنمـا المشكلة هي في الوصول إليها.. لماذا ؟! لأنك نادراً ما تجد شعباً متماثلاً في شـكله الظاهري، بل في طباعه وأخلاقه ومزاياه، مثل الشعب المصري. وقـد ظـلّ هـذا القول قائماً ومشهوراً حتى جاءت السيدة مارجريت كندل وهي عالمة جينيات والتي أجرت دراسة عن ثلاثة شعوب، الألمان باعتبار أن هتلر كان يعلن دائماً بأنهم مـن

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٦٤

أنقي الشعوب لأنهم ينتمون إلي الجنس الآري، فوجدت أن الجينات مختلفة وأن شعبها متباين تماماً ثم البحث الثاني عن اليهود.. وقد فوجئت بأن يهود الاتحاد السوفيتي يحملون نفس فصائل الدم، وجينيات شعب الاتحاد السوفيتي، ويهود انجلترا مثل بقية الشعب الإنجليزي، ويهود أمريكا مثل الأمريكان. إذن مسألة نقاء العرق اليهودي غير صحيحة .

لقد أعلنت أن الصدمة التي تلقَّتها من خلال بحثها الثالث ترتبط بالشعب المصري؛ إذ أخذت عيِّنات متعدِّدة من أسوان إلي الإسكندرية ومن الصحراء الغربيَّة إلي الشرقيَّة ومن المدن الكبرى والقرى والكفور والنجوع وعيادات الأطباء ومن المسلمين ومن المسيحيين. فكانت الصدمة الحضاريَّة أن المسلمين والمسيحيين، جيناتهم واحدة في ٧٩٪ من العينات التي أخذتها .

وهذا يؤكد ما ذكره «إستامب» من عشرات السنين حين قال إنه بالرغم من الغزوات الكثيرة التي مرت علي مصر عبر العصور، إلا انه كان تغيُّراً في الحكَّام ولم يكن تغيُّراً في جنسيَّة مصر لأن البحر المصري الكبير كان يذيب أيَّة جينات وافدة عليه .. إذن ما ذكره استامب وفلندر اسبتري ومارجريت كندل بالنسبة للشعب المصري ومن دور هذا التأكيد العلمي السابق الإشارة إليه.. وهو أننا شعب واحد تاريخيّاً وجغرافيّاً وسياسيّاً وبيولوجيّاً. وهذه هي عظمة مصر وسر قوتها. (١)

ويقول أدولف ارمان وهرمان رانكة : " في مصر وحدها دون غيرها نستطيع أن نرى نفس الناس طوال خمسة آلاف سنة : لم تتغيَّر فيها اللغة إلا مرة واحدة ، وتغيرت فيها الديانة مرتين وجنسيَّة الطبقة الحاكمة عدة مرات ولكن الظروف الطبيعيَّة للحياة بقيت ثابتة لا تتغير ، وهذا لم يحدث في التاريخ إلا فيما يتعلَّق بالشعب المصري " .

ويضيف المؤلِّفان : " لا يزال الشعب الذي سكن مصر القديمة يعيش بروحه الآن في السُّكَّان الحاليين لهذه البلاد ، لقد غيَّرت تقلُّبات التاريخ لغة البلاد ودينها ، ولكنها لم تستطع أن تغيِّر من مظهر هذا الشعب القديم . إن مئات الآلاف من

---

(١) من حوار أجراه صلاح صيام مع د. وسيم السيسي نشر علي بوابة الوفد بتاريخ ٢٠١٣/٧/١١

اليونان والعرب الذين استقرُّوا في البلاد لم يُحْدِثُوا فيها أثراً لأن البلاد قد امتصَّتهم وقد يكون من المحتمل أنهم تمكَّنوا من إحداث أثر في المدن الكبيرة التي استقرُّوا فيها مجتمعين ولكنهم في سائر البلاد – وبخاصَّة في الوجه القبلي – لم يُحْدِثُوا إلا أثراً ضئيلاً جداً فالفلاح الحالي لا يزال يشبه أجداده الذين عاشوا منذ خمسة آلاف سنة تمام الشبه مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالي قد أصبح يتكلَّم اللغة العربيَّة ويدين بالإسلام أو المسيحيَّة والذي يتجوَّل الآن في قرية مصريَّة من قرى الوجه القبلي يستطيع أن يرى أشكالاً من الناس يُخَيَّل للمرء أنها خرجت لساعتها من الرسوم الصور التي تغصُّ بها المقابر المصريَّة القديمة . " (١)

ويقول إليوت سميث : " منذ ١٣ قرناً اكتسبت مصر اللغة العربيَّة والدين الإسلامي دون أن تخضع لأي تغيير ملحوظ في الصفات البدنيَّة لشعبها " (٢)

ويقول هيرودوت : " والمصريون يتجنَّبون اتخاذ العادات اليونانيَّة وجملة القول إنهم يتجنَّبون عادات الناس جميعاً دون استثناء ، وهكذا يراعي سائر المصريين هذا العرف " (٣)

ويقول د. أحمد بدوي تعليقاً على كلام هيرودوت هذا : " ليس من شكٍّ في أنَّ المصريين القدماء قد كانوا من أكثر شعوب العالم اعتزازاً بماضيهم ومحافظة على تقاليدهم يرون ذلك من قواعد الإيمان .. الطبقة المُسْتنيرة من أهل العلم والمعرفة هم يومئذ من رجال الدين . (٤)

سر بقاء واستمرار الجنس المصري واختفاء الأجناس الأجنبيَّة

لقد وضع علماء الحملة الفرنسيَّة أيديهم على سر بقاء الجنس المصري واضمحلال وفناء الأجناس الأجنبيَّة الأخرى ، هذا السر يكمن في المرأة المصريَّة حاملة الجينات المصريَّة المجيدة والمحافظة على العادات والتقاليد المصريَّة

---

(١) " مصر والحياة المصرية في العصور القديمة " ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص ١ مقلا عن محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ص ٩٤ ، ٩٥ .
(٢) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ص ٩٦.
(٣) " هيردوت يتحدث عن مصر " ترجم الأحاديث عن الإغريقية د. محمد صقر خفاجة ، وقدَّم لها وتولى شرحها د. أحمد بدوي دار القلم ص ١٩٩ .
(٤) د. أحمد بدوي هامش كتاب " هيردوت يتحدث عن مصر " ص ٢٠٠ .

الأصيلة هذه المرأة التي أوقفت حياتها على بقاء الجنس المصري واستمراره عن طريق ما وهبها الله تعالى من خصوبة عالية وأمومة متدفقة وجَلَدٍ وصَبْرٍ نادرين .

يقول علماء الحملة الفرنسيَّة : " ويمكن للزوجة المصريَّة أن تصبح أمّاً في سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة وتظلُّ في سنواتها المقبلة تقدِّم الأدلَّة على خصوبتها المذهلة ومن الممكن لها أن تصبح أمّاً كل تسعة أشهرٍ ، ولكننا نستطيع القول لكي نقدِّم نسبة دقيقة بأن كل مصريَّة تتزوج تنجب طفلاً كلَّ ثلاثة أعوام ، ويقيم ذلك التقدير نوعاً من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن أو أولئك اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة أو اللاتي تجعلهن بعض الأسباب الخاصة عاجزات عن الإنجاب ، والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، بل إنه يعد بمثابة عار للمرأة ؛ لذا تلجأ السيدة العقيم إلى كل الوسائل التي تفرضها معتقدات النساء وخرافاتهن لكي تستطيع الإنجاب " (١)

ولقد استمرَّت الفلاحة المصريَّة على خصوبتها ورغبتها في كثرة الإنجاب حتى اليوم يقول عالم المصريات د. محرم كمال : " يحرص الفلاحون في القرى على الإكثار من الأولاد والنسل حتى تكون لهم أسرة كبيرة وذُرِّيَّة ، وهم يُبكِّرون في الزواج بدرجة يستغربها الكثيرون – فهذه عادة ورثناها عن المصريين القدماء قال الحكيم " آني " في وصيَّة إلى ابنه : " اتخذ لنفسك زوجة وأنت صغير حتى تعطيك ابناً تقوم على تربيته وأنت في شبابك وتعيش حتى تراه وقد اشتدَّ وأصبح رجلاً – إن السعيد من كثُرت ناسه وعياله فالكلٌ يوقِّرونه من أجل أبنائه " .

أليست هذه العبارات بألفاظها ومعانيها هي التي نسمعها كل يوم من أفواه المسنين من الفلاحين يوصون بها أولادهم ليل نهار ؟ " (٢)

ولا يتوقَّف دور المرأة المصريَّة في الحفاظ على الجنس المصري واستمراره على خصوبتها الشديدة وندرة عقمها وسعيها المحموم لعلاجه ، بل يتجلَّى في رعايتها لأطفالها من رضاعة وتربية وتنشئة تلك الرعاية التي تقوِّى عود الأبناء

(١) موسوعة "وصف مصر " الجزء الأول " المصريون المحدثون " تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب . الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٥٧ .
(٢) د. محرم كمال " آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية " الهيئة العامة للكتاب ص ١٨ .

وتنمِّي صلابتهم وقدرتهم على تحمُّل المسئوليَّة تلك التربية التي تعلَّمتْها من جـدَّاتها المصريات وحافظت عليها وعلَّمتها أولادها .

فالمرأة المصريَّة تحرص أشدَّ الحرص على إرضاع أبنائها من لبنها مدَّة لا تقـلُّ عن عامين بحال وقد تصل إلى خمس سنوات ، ولا تسمح مطلقاً لواحدة غيرهـا أن تربِّي أبناءها (١)ولا تتحمَّل أبداً بُعْد أبنائها عن حضنها ممـا يولـد علاقـة شـديدة الحميميَّة بين الأبناء والوالدين خاصة الأمهات . هذه العلاقة التي تجعل من الأبنـاء أغلى ما يعتزُّ به الوالدان ويضحُّون من أجله ، ويفتخرون به وتجعل من الوالـدين أهم ما يحرص الأبناء على حبِّه وطاعته والتفاني في خدمته ورعايته .

يقول علماء الحملة الفرنسيَّة : " ولا يصبح للمرأة المصريَّة مـن شـاغل – وقـد أصبحت أمّاً – إلا أن تعنى بطفلها ؛ فتضع فيه كل اهتمامها وتركز حوله عواطفها، ولا تستطيع أقوى الشدائد أن تدفعها لكي تتخلَّص من هذا العبء الذي تظلُّ فخـورة به طيلة تسعة أشهر ، بل أن طفلها المُرْتَقَب ينسيها آلام الوضـع ، فهـذا الكـائن الضعيف والعزيز هو تعويض لها عن آلام طويلة ، وكم هو جميل بالنسبة لهـا أن تقوم بواجباتها الطبيعيَّة ! إنها لن تسلِّم مطلقاً هذا الطفل الذي يـدين لهـا بوجـوده وجسمه السليم لعناية سيدة أخرى غريبة عنه ؛ فهي شديدة النهم لملاطفته الأولـى ، وهي كذلك تطعمه من لبنها ولا تخشى مطلقاً ما يعدها به هذا المولد الجديـد مـن متاعب ؛ فلقد قرَّرت أن تتحمَّل ذلك بسرور ولسوف تتحمَّل في شجاعة أيَّة مخاطر كبرى قد تتهددها ، لكنها لا يمكن أن تسمح له مطلقاً بأن يخلع على أخرى ببـساطة ذلك الاسم الذي يصنع لها سعادتها ومجدها اسم " أُمّ " الذي تغار عليه وتفخـر بـه لذلك لا تُعْرف في مصر هذه الأمراض التي تثير أحزان الأمَّهات الشابات اللاتـي يمتنعن عن إرضاع أطفالهن أما عمليات سكب لبن صدر الأم وغيرها من الأمـور التي تضعف صحة الأمَّهات فسوءات لا يعرفها الشرق . فكلُّ امـرأة هنـاك هـي مرضعة أسرتها .

(١) بخلاف ما هو معروف في الأمم الأخرى من دفع الأمهات أطفالهن إلى مرضعات ومربيات أُخريات، والسماح لهم بالتربية بعيداً عن أحضانهن . والأسف فإن هذه العادات الأجنبيِّة الدخيلة تسللت إلى كثير من الأسر المصرية خاصة الميسور منها مما نتج عنه تغيراً ملحوظاً في شخصيَّة المصري وإهداراً لكثير من قيم المجتمع المصري .

وهكذا يبدو أن العناية الإلهيَّة تقيم من التعويض بين المزايا التي توزِّعها على الشعوب فهذا هو المصري الذي ليست له نفس مباهجنا وملذَّاتنا أو نفس ميزاتنا الجسديَّة أو الروحيَّة التي تبعده عن أسرته يعرف أكثر منَّا معنى العواطف الطبيعيَّة فأطفاله هم كل شيء في حياته وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله ، ولربما كانت أحاسيسه أكثر تبلُّداً وأقلَّ تنوُّعاً لكنها أكثر نفاذاً وأكثر حقيقة ، وهو يدين بذلك إلى براءة عاداته وكذا إلى بساطة تقاليده . لقد وجدها كامنة في نفسه وفي ثنايا أسرته ، فليس ثمَّة من المرارة والندم العائلي ما يسمِّم مباهجه . " (١)

هذا هو سر بقاء الجنس المصري فريداً ، خصوبة المصريات العالية ، ووقف المصريين : أمهات وآباء حياتهم على تربية أبنائهم ورعايتهم ، هؤلاء الأبناء الذين يعتبرهم الآباء أعظم إنجاز يحققونه في حياتهم وربما كانوا مصدر سعادتهم الوحيد – بسبب المحن الكثيرة التي مرَّت بها مصر طوال تاريخها – لدرجة أنَّهم يفنون أنفسهم في أبنائهم فلا تنادَى الأمُّ إلا باسم ابنها فيقال " أم فلان " وكذلك الأب " أبو فلان " لذا لا عجب أن يَبَرَّ الأبناءُ آباءَهم ويتخذونهم قدوة حسنة وتمسَّكون بعاداتهم وتقاليدهم ، ويربُّون أولادهم كما ربَّاهم آباؤهم .

يقول هيرودوت : " ويتَّفق المصريون مع اللاكيديمونيين وحدهم من بين اليونانيين في أمر آخر ؛ عندما يقابل الشبان الشيوخ منهم يفسحون لهم الطريق ويتنحَّون جانباً وعندما يقبل عليهم الشيوخ يقومون من مقاعدهم ." (٢)

وهذه من القيم النبيلة التي ما زال المصريون يتَّبعونها ويحرصون عليها وجاء الإسلام فأكدها فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامت أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ " لَيْسَ منْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالمنَا حَقَّهُ " [رواه الحاكم بإسناده حسن]

فإذا جئنا إلى الأجناس الأخرى التي عاشت في مصر فإنها لم تهتد إلى هذا السر سر البقاء والاستمرار فاندثروا .

---

(١) موسوعة "وصف مصر " الجزء الأول " المصريون المحدثون " تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب . الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٥٨، ٥٩ .

(٢) " هيردوت يتحدث عن مصر " ترجم الأحاديث عن الإغريقية د. محمد صقر خفاجة ، وقدَّم لها وتولى شرحها د. أحمد بدوي دار القلم ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

ويفسِّر علماء الحملة الفرنسيَّة سر بقاء العنصر المصري واختفاء وذوبان العناصر الدخيلة عليه فيقولون : " يمكن القول بأن هذا الشعب (المصري) يدين بوجوده لخصوبة نسائه بينما يصعب على الأجناس الأخرى أن تستمرَّ على قيد الحياة في هذه البلاد وسوف نقدِّم الدليل على ذلك في الجدول الآتي عن حالة أهمِّ الأسر المملوكيَّة :

إسماعيل بك : لم يترك إلا بنتاً واحدة .

إبراهيم بك : له طفلان على قيد الحياة .

قاضي أغا : أنجب ١١ طفلاً ، بقي منهم ٤ على قيد الحياة .

مراد بك ، أيوب بك الصغير ، أيوب بك الكبير ، الألفي بك ، محمد بك المنفوخ، عثمان بك تبأس ، عثمان بك الشرقاوي ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسي ، عثمان بك الطمبورجي ، حسن بك الجداوي ، صالح بك ، إبراهيم بك الوالي ، محمد بك العبدولي ... **كل هؤلاء بلا أولاد .**

محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة على قيد الحياة .

علي بك الكخيا : له طفلة واحدة على قيد الحياة وذلك سليمان بك .

أحمد بك الكرارجي : لم ينجب على الإطلاق ونفس الشيء بالنسبة لعثمان بك حسن وكذلك سليم بك أبو دياب وقاسم بك .

حسن الكاشف الشركسي : لم يخلف سوى طفل أعمى .

محمد أغا : أنجب ٢٢ طفلاً لم يبق منهم على قيد الحياة سوى طفل واحد ضعيف البنية .

ومن هذا نرى كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون على قيد الحياة ضئيلاً ويمكننا من جهة أخرى أن نعد أسراً أجنبية أخرى كثيرة لم تكن بأسعد حظّاً من ذلك ، وهذا دليل على أن الوطنيين وحدهم في مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل . ويبدو أن طبيعة الطقس تلفظ بعناد الأجناس الغربية . " (١)

(١) موسوعة "وصف مصر " الجزء الأول " المصريون المحدثون " تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب . الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٥٩ ، ٦٠ .

الفلاح سر بقاء واستمرار الجنس المصري

عرفنا كيف حافظ المصري على سرٍّ بقائه واستمراره وعاداته وتقاليده ، ويعتبر الفلاح المصري أكثر من غيره من فئات الشعب محافظة على أصالته وأقرب هذه الفئات إلى المصري القديم بل نستطيع أن نقول مطمئنين أنه أنقى المصريين جنساً وأكثر المصريين محافظة ليس على جينات المصريين القدماء فحسب بل على العادات والتقاليد المصريَّة القديمة أيضاً .

يقول محمد العزب موسى : " الفلاح المصري إذن من أكثر العناصر ثباتاً واستمراراً في قصة مصر ، ولم يعد هذا فرضاً نظريّاً وإنما حقيقة علميَّة أثبتتها الدراسات التاريخيَّة والأنثروبولوجيَّة والفلكلوريَّة ولقد بدأت قصة الفلاح المصري مع فجر الحضارة في وادي النيل منذ ستة أو سبعة آلاف سنة واستمرَّت حتى الآن دون أن تنقطع تحت وطأة التغيرات الكبرى التي طرأت على مصر خلال تاريخها الطويل وأهمها انهيار الحضارة المصريَّة القديمة وضياع استقلال مصر السياسي ودخولها في كنف الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة وأخيراً انفتاحها على حضارة العصر الحديث فكل هذه التغيرات الكبرى لم تؤثِّر كثيراً في التكوين الجنسي والنفسي للفلاحين المصريين ولم تؤثِّر إطلاقاً في استمراريَّة حياتهم ولا ينبغي بالتالي أن تحول دون محاولة تقييم دورهم الحضاري المتصل . (١)

وإذا تقصَّينا جذور وأصول العباقرة والنابغين من أبناء مصر في العصر الحديث فإننا نجد أن جلّهم إن لم يكونوا كلهم من أصول ريفيَّة مصريَّة من رفاعة الطهطاوي إلى د. زويل ود. مصطفى السيد مروراً بعلي مبارك ، أحمد عرابي ، مصطفى كامل ، سعد زغلول ، مصطفى النحاس .. مصطفى مُشرَّفة ، سميرة موسى ، سليم حسن ، جمال حمدان .. محمد عبده ، محمود شلتوت ، عبد الحليم محمود ، الشعراوي ، محمد الغزالي .. العقاد ، طه حسين ، زكي نجيب محمود ، شوقي ضيف .. بنت الشاطئ ، نبويَّة موسى ، ملك حفني ناصف ... هذا مما تحتفظ الذاكرة بأسمائهم وغيرهم كثير ممن لا يحصيهم عد .

---

(١) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلا" ص ٩٨ .

كل عباقرة مصر نبتت جذورهم في قرى وكفور ونجوع مصر رغم الحالة البائسة التي وصلت إليها تلك القرى في العصور المتأخرة ، وخاصة المرأة المصريَّة .

الاستمرار الحضاري الثقافي

إن الجغرافيا التاريخيَّة التفصيليَّة كثيراً ما تكشف لنا عن ثبات واستمرار محقَّق ، بل ونادر ومثير أحياناً ؛ فقد يتتابع على نفس الرقعة بلا تحرج معبد فرعوني فكنيسة قبطية فمسجد إسلامي ، ولعل أبرز مَثَل مسجد أبو الحجاج بالأقصر الذي يحتلُّ ركناً عالياً من معبد آمون بالكرنك . وخلف هذا كله تظلُّ الحلة نفسها ، القرية، خليَّة متشابهة أساساً من البداية إلى النهاية ، خامة وشكلاً وتركيباً ، حتى بأبراج الحمام الشاهقة المضفرة شديدة التميز . (١)

الواقع إننا لا نعرف شعباً في العالم أجمع أشدَّ محافظة من الشعب المصري على تقاليده – فقد مرَّت على مصر أدوار مختلفة من التاريخ غيَّرت لغة البلاد وذكَّرت بالديانة المصريَّة القديمة ديانة التوحيد عدَّة مرات ، ولكن الغزوات التي توالت على مصر لم تستطع أن تغيِّر شيئاً مما ورثه الشعب المصري من التقاليد والمظاهر .

قد يكون من المحتمل أن آلاف اليونان والرومان والعرب والمماليك والعثمانيين والإنجليز الذين استقرُّوا في مصر قد تمكَّنوا من إحداث أثر ضئيل في المدن الكبيرة التي استقرُّوا فيها ، ولكن باقي البلاد التي تشمل آلاف القرى والكفور والنجوع بقيت محافظة على مصريتها وتقاليدها القديمة دون أن يعتورها نقص أو تأثير .

يقول د. محرم كمال : " الفلاح الحالي لا يزال يشبه أجداده الذين عاشوا منذ أربعة آلاف سنة تمام التشابه مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالي قد أصبح يتكلَّم اللغة العربيَّة ويدين بالإسلام أو بالمسيحيَّة ، أما ملامحه وطريقة معيشته وأدوات الزراعة التي يستخدمها والمنازل التي يسكنها والعادات التي يزاولها والتقاليد التي يسير عليها فهي مصريَّة فرعونيَّة في روحها وشكلها .

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ بتصرف .

فمازال الفلاح يعيش هو وماشيته في منازل مبنية من اللِّبن (١) كما كان يعيش الفلاح في العصر الفرعوني ، وما زال يستعمل في فلاَحة الأرض نفس المحْراث والمِنْجَل والمِذْرَاة وغيرها من أدوات الزراعة التي كان يستعملها أجداده الأقدمون ، وما زال يروي أرضه بالشادوف الذي كان يروي به الفلاح القديم أرضه به ، فإذا جمع محصوله من الحبوب وضعه في صوامع من الطين يقيمها فوق منزله كما كان الفلاح المصري القديم تماماً ، ومازال هذا الفلاح الذي نراه اليوم خَيْر خَلَف لسلفه العظيم في صبره وجَلَده يعمل في حقله طول ليله ويكدُّ طول نهاره دون أن يدركه كلل أو ملل ، وهو في وسط فقره يستعين عليه بروح المرح والدعابة ، ومازالت السِّلال والمقاطف والزكائب والحبال بل والأنوال التي يستخدمها في نسجه وكذا المغازل هي نفسها أدوات سلفه العظيم .

هذا الفلاح الذي وصفناه هو الذي حافظ علي ما ورثه من تقاليد وعادات ظلَّ يتلقفها من أسلافه ، وينقلها وديعة إلى خلفائه جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن حتى وصلت إلينا في صور مختلفة من المعتقدات " (٢)

هذه الصورة للفلاح المصري وأدواته وقريته ظلَّت لنحو نصف قرن خلا كما يبدو ذلك في أفلام : زينب ، الأرض ، الحرام ، والبوسطجي ، الزوجة الثانية وغيرها ، لكن هذه الصورة قد تغيَّر كثير من ملامحها الآن مع ما شهدته القرى المصريَّة من مَدَنيَّة حديثة في أدوات الزراعة والحصاد ووسائل المواصلات وبناء البيوت وأثاثها ، وما بها من أدوات منزليَّة وأجهزة كهربائيَّة .

وفي كتاب د . محرم كمال " آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية " طائفة كبيرة من العادات والعقائد المصريَّة القديمة الباقية في مصر الآن مثل : الإكثار من الأولاد والنسل ، التمسُّك بوظائف الحكومة ومداهنة الرؤساء ، كره الاغتراب والعزوف عن الهجرة ، الإسراف في الولائم والأفراح ، عادات الغناء الموسيقى والتصفيق بالأيدي ، السحر والعين والحسد والاعتقاد في الأيام السعيدة والمنحوسة،

---

(١) اللِّبن : الطوب الذي يصنع من الطين والرمل والماء مع إضافة نسبة قليلة من التِّبْن ثم يجفف تحت أشعة الشمس .

(٢) د. محرم كمال " آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية " الهيئة العامة للكتاب ص ١٠، ١١.

أدوات الفلاح ، النَّدب والتعديد ولطم الخدود وتلطيخ الرءوس بالطين ، تشييع الجنائز ، زيارة المقابر " الطلعة " ، الاعتقاد في أرواح الموتى ، نحر الذبائح عند باب المقبرة وحمل الزهور وسعف النخيل ، تمني الرحمة والنور للموتى في مقابرهم ، غسل ملابس الميت وصرف روحه ، الكلمات المستعملة في ألعاب الأطفال ، الأطعمة الوطنيَّة القديمة ، الكلمات المستعملة في الأغاني والأفراح والحفلات ، أسماء الأشخاص ، أسماء الشهور ، أسماء المدن ، كلمات لها أصل قديم ..

القرية متحف مصريٌّ قديم مفتوح حي

إن تمسُّك الفلاح المصري بدينه السماوي ، منذ فجر التاريخ وإلى اليوم ، وتحلِّيه بحسن الخلق وحفاظه على عاداته وتقاليده المعبِّرة عن توحيده لله وعمله الصالحات يعدُّ استمراراً حضاريّاً محموداً يجب الإبقاء عليه ، أما عدم تطوير أدوات إنتاجه ، وبناء مساكنه ، وتوفير الخدمات التي تكفل له الحد الأدنى من الحياة الكريمة فإن ذلك يعدُّ استمراراً للتخلُّف والرجعيَّة يجب أن يتوقَّف ويصحَّح .

لكن مع الأسف الشديد فإن علماء الحضارة المصريَّة ، والمفكِّرين يحتفون ببقاء واستمرار الجانبين معاً ؛ فيفاخرون بأن أدوات الفلاح المصري مازالت كما كانت على عهد المصريين القدماء : الفأس والمحراث ، والمنجل ، والشادون ... وشكل القرية : مساكنها ودروبها ومرافقها ... كما يفاخرون بتمسك الفلاح المصري بالعادات والتقاليد المصريَّة الأصيلة .

والحقيقة أنه يجب التفرقة بين الجانبين ففي حين أن حفاظ الفلاح المصري على شخصيَّته المصريَّة وعاداته الأصيلة يحمد له فإن إهمال حكَّامه على مر العصور تطوير حياته المدنيَّة وتوفير احتياجاته الأساسيَّة يعدُّ جريمة نكراء في حقِّ الفلاح المصري العظيم الذي حافظ على الجنس المصري نقيَّاً ، وعلى إنتاج الأرض الزراعيَّة المصريَّة ، وعلى الهويَّة المصريَّة كما سنبيِّن .

ولكن مع الأسف الشديد فإن هذا الفلاح العظيم الذي حافظ الجنس المصري والهويَّة المصريَّة أُهْمِل أشدَّ الإهمال وغُبِن أقسى الغَبْن فقد توقَّفت حياته المدنيَّة

والعمرانيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة عند عصر الدولة المصريَّة القديمة ؛ فلم تطوَّر حياته إنسانيّاً ، ولم يتحسَّن وضعه اقتصاديّاً ، ولم يرق شأنه اجتماعيّاً ، والعجيب أن يفاخر علماء المصريات والمفكرون المصريون بوضع الفلاح هذا بدلاً من أن يرثوا لحاله ويطالبون المسئولين بتوفير حاجاته الإنسانيَّة والخدمات الضروريَّة فإن السمات الماديَّة العامة للريف المصري منذ نحو نصف قرن (١) تكاد تطابق تماماً سمات الريف المصري القديم من حيث تخطيط القرية وشكل المنازل وطريقة الحياة اليوميَّة، والأدوات المستعملة في البيت وفى الحقل، وأسلوب الزراعة ! كأنَّ القرية المصريَّة أصبحت مُتْحَفاً حيّاً مفتوحاً لحياة المصريين القدماء ، كالآثار المصريَّة المنحوتة والمصوَّرة التي أقامها المصريون القدماء !!

يقول جمال حمدان : " " ومنذ فقدت مصر استقلالها السياسي ، تعاقبت عليها عشرات القوى الأجنبيَّة الحاكمة التي تمثِّل بيئات وحضارات مختلفة ابتداءً من البطالسة إلى الرومان إلى العرب بجميع أسرهم حتى الأتراك . ومع ذلك فإن كلّ هؤلاء الغزاة ، مستعمرين كانوا أم مُعَمِّرين ، تركوا نظام الحياة والإنتاج الأساسي في البلد دون أن يتدخَّلوا فيه على الإطلاق واقتصر دورهم على الإشراف والتوجيه العلوي أو بالأحرى على وظيفة جباية الخراج أو الجزية .

وبصفة خاصة فإنهم تركوا الري والزراعة وكل فنون الأرض والمساحة والتعمير في يد الفلاح يجري على نظامه النيلي الألفي دون أن يجرءوا على التدخُّل فيه أو أن ينجحوا في تطويره أو إدخال أي إضافة جذريَّة أو هامَّة عليه . ولو قد كان في استطاعتهم أن يفعلوا ، لفعلوا ، ولكن بقدر ما فرضوا أنفسهم على البلد من أعلى ، بقدر ما فرض البلد نفسه عليهم من أسفل ، فَتَقَوْلَبُوا به أكثر مما صبُّوه في قالبهم .

---

(١) إن كثيراً من الفلاحين المصريين الآن قد أثَّرت فيهم الظروف الاقتصاديَّة والحياة المدنيَّة ، ووسائل الإعلام وأجهزة التواصل الاجتماعي ؛ فاضطرتهم ظروفهم الاقتصاديَّة السيِّئة إلى هجر أرضهم – التي كانت عرضهم – والهجرة الخارجيَّة إلى بلاد الدينار والدولار أو الهجرة الداخليَّة إلى المدن الكبرى طلبا لسعة الرزق ، بل إن بعضهم أقدم على تجريف الأرض وبيع ترابها لمصانِع الطوب ، وبنى الكثير من الذين امتلأت جيوبهم وحقائبهم بالدنانير والدولارات بيوتهم بالخرسانة المسلحة على الأرض الزراعيَّة ، وأقاموا عليها مشاريع تجاريَّة لتصنيع وبيع السلع الاستهلاكيَّة الوافدة على مجتمعاتنا !
أما التغيير الآخر فقد كان التغيير الثقافي الأجنبي الوافد والذي روَّجت له وسائل الإعلام المختلفة والتليفزيون ، لقد أثَّر كل هذا في تغيير نمط حياة الفلاح وتغير سلوكه ولغته وثقافته وتآكل الموروث الحضاري الإنتاجي الأخلاقي الأصيل لصالح التقليد النفعي الاستهلاكي اللا أخلاقي المستحدث .

الاستثناء الوحيد بالطبع هو الحضارة الأوربيَّة الحديثة ، غير أن هذا شيء مختلف تماماً .

الحقيقة الثانية أننا أنفسنا حتى اليوم مازلنا نتَّبع كثيراً من أسس وتقاليد وأدوات الزراعة والإنتاج المصريَّة القديمة . ابتداء من الفأس والمحراث إلى ترع الري والمساكن والملابس .. إلخ أي أن كثيراً من عناصر الحضارة الفرعونيَّة الماديَّة والإنتاجيَّة ما زالت معنا حتى قلب القرن العشرين . وبعيداً عن أي دفاع عن التخلُّف ، فهذه الاستمراريَّة إن دلَّت على شيء فإنما تدل على وظيفة وتبيؤ الإنجازة الفرعونيَّة العتيقة ، وهي الرد المقنع على ما يستغربه أو يستنكره البعض من أن الحضارة الفرعونيَّة بعد أن سجَّلت قمة شامخة وبداية رائعة أصيبت بسرعة بالجمود والتوقف وتصلُّب الشرايين لآلاف السنين . (١)

والمبرر الذي يسوقه د. حمدان للاستمرار أسس وتقاليد وأدوات الزراعة والإنتاج المصريَّة القديمة غير صحيح فقد كان بوسع حكام مصر على اختلاف جنسياتهم وأزمانهم تطوير أدوات الزراعة والإنتاج وطرق الري والعمران بعد العصر المصري القديم تطويراً كبيراً ، ولكنهم حرموا القرية المصريَّة والفلاح المصري العظيم من أيَّة تطورات في الوسائل والأدوات ، في حين أولوا المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندريَّة كلَّ اهتماماتهم الاقتصاديَّة والعمرانيَّة ، وإن لم يكن في وسع حكام العصور الوسطى تطوير أدوات الفلاح ووسائله فما عذر حكَّام مصر في العصر الحديث في ذلك ؟! وما عذر حكام مصر في كلِّ العصور في فغبن الفلاح اقتصاديّاً والاستيلاء على فائض قيمة إنتاجه الزراعي والحيواني كما سنوضح لاحقاً.

ونحن إذ نعتز بالحضارة المصريَّة الأم وبالقيم المصريَّة الأصيلة لا يجب أن ظلَّ أسرى للحضارة المصريَّة الماديَّة ؛ فيجب أن نتعلَّم كلَّ جديد ونأخذ في أسباب العلم والتكنولوجيا حتى نعيد مجدنا التليد .

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٩١

والفلاح المصري لم يظلم فحسب سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً إنما ظلم أيضاً تاريخيّاً إذ أن المؤرخين لم يهتمُّوا بذكر حياة الفلاحين وعاداته وتقاليده ولا يكادون يذكرون شيئاً عنهم في كتبهم إلا إذا ارتبط ذلك بحادثة أو موقف لأحد الحاكم معهم.

إن المؤرخين لم يهتمُّوا إلا بالمدن الكبرى كالقاهرة والإسكندريَّة وأهملوا تاريخ مدن وقرى الأقاليم وخاصة أقاليم الوجه القبلي ، وقد انعكس هذا القصور على كتب التاريخ المدرسي في العصر الحديث .

علاقة الفلاح المصري بأرضه

ومن العجيب أن يظلَّ الفلاح المصري محافظاً على أرضه وإنتاجيته الزراعيَّة والحيوانيَّة رغم استغلال كثير من الحكام المحليين أو الخارجيين له ؛ فقد أُشْرِب قلبُه حُبَ أرضه كما أُشرب حب زوجته وأولاده فتفانى في الحفاظ عليها .

لقد أصبحت علاقة الفلاح بأرضه تشبه علاقة العبد بسيده فكما أنه لا حقَّ للعبد على سيده إلا ما يجود به سيده عليه فكذلك لا حقَّ للفلاح على أرضه إلا ما تجود به أرضه عليه وإن كان قليلاً بعد نهب الحكَّام معظمه ، وإن أردَّت الدقَّة فإن علاقة الفلاح بأرضه أشبه ما تكون بعلاقة الأمِّ المصريَّة بأولادها فهي تضحِّي بكل حياتها من أجلهم ولا تنتظر منهم المقابل ؛ لأنها تفعل ذلك بدافع الأمومة وهي غريزة طبيعيَّة تولد بها المرأة وهي أرقى وأصدق مشاعر الحب وربما هي المشاعر الوحيدة التي نجحت في كل اختبارات الحياة وصمدت تحت أقصى الظروف والضغوط .

صورة من حياة المصري القديم

لقد كان المصري القديم يعيش حياة كريمة لا ضيق فيها ولا غبن .

يقول د. أحمد بدوي : " والحقيقة أن حياة المصريين القدماء لم يكن فيها كثير من الضيق والشح ، وإنما كانت حياة موفورة الرزق مليئة بالخير ؛ فوجبة الفرد البسيط كانت من الخبز ، وشرابه فيها الجعة تكاد تشبه الوجبة الألمانيَّة الشعبيَّة . وأمَّا الوجبة الكاملة الغنيَّة فكان الطعام فيها من لحم البقر والطير كما كان الشراب فيها نبيذاً ، وكان نصيب العامل الكادح من الرزق في اليوم ثلاثة أرغفة وإبريقين من

الجعة ، وقد يزاد عدد الأرغفة فتكون أربعة أحياناً ، وفي صورة الحياة اليوميَّة – كما سجَّلها القوم بالرسم والحكاية – ما يدل على أنهم عاشوا عيشة راضية ؛ فهم قد أكلوا كثيراً وشربوا كثيراً ،وكان زادهم من الطعام والشراب حُلْواً طيِّباً . وأيسر النظر في صور موائد القربان أو ما يصاحبها من قوائم الطعام والشراب ، وما فيها من ألوان الخبز والفطائر ولحم البقر والطير ومن أنواع الشراب من الجعة والأنبذة ليدل في وضوح على أن أسلافنا في هذا الوطن المصري قد أحبُّوا الحياة واستمتعوا فيها بالطيبات من الرزق ولم يطمعوا من وراء دنياهم في أخرى تختلف عن أختها في شيء إذ كانت الأخرى في تصوُّرهم استئنافاً دائماً لدنياهم .. على أن كلَّ هذا لم ينسِ المصريين واجباتهم نحو وطنهم ونحو أنفسهم ولم ينسهم كرامتهم الإنسانيَّة ولم ينسهم احترام القيم الخلقيَّة والروحيَّة وفي آدابهم ونصائح الحكماء منهم حَضٌ على الاعتدال في استمراء لذَّات الحياة ولهوها ، ونهي عن الإسراف على أنفسهم في الحياة الدنيا ، وفيها تحذير من فقدان الوعي خشية عقدة اللسان ، أو فقدان توازن البدن الذي يؤدي حتماً إلى وقوع الضرر والأذى بأبدانهم فضلاً عن أهدار الكرامة."(١)

كانت هذه هي حياة عامَّة الشعب المصري ، قبل انهيار الحضارة المصريَّة ووقوع مصر تحت نير الغزاة والمحتلِّين الذين سخَّروا الشعب وخاصة الفلاحين لخدمتهم وحرموه من أبسط الحقوق الإنسانيَّة ، والعجيب أن الفلاح المصري رغم سطوة المحتلِّين وقسوة الحياة تمسَّك بأرضه وظلَّ يفلحها ويخرج ثمارها ولم يفكر في هجرها ، وإذا كانت الفلاَّحة المصريَّة حافظت على الجنس المصري فإن الفلاَّح المصري أبقى على أرضه ولم يهجرها في أحلك الظروف فظلَّ يحافظ عليها ويزرعها بنفسه ويعمل على زيادة إنتاجيتها وإن كان لا يعود عليه منها إلا ما يسد الرَّمَق .

أسباب تدهور حياة الفلاح المصري

ولا يتَّسع المجال هنا لتقصِّي عوامل تدهور الفلاح المصري تفصيلاً ، وكيف تحوَّل من إنسان حرٍّ يشعر بفرديَّته ويساهم بعبقريته في جميع مظاهر الحضارة من

(١) د. أحمد بدوي هامش كتاب " هيرودوت يتحدث عن مصر " ص ١٦١ ، ١٦٣

حوله إلى مجرد زارع للأرض يعيش على هامش الحياة يقتات الجهل والخرافات ويئن تحت سياط الظلم دون أن يثور أو يرفع صوتاً بالشكوى .

ولكن يمكن أن نجمل هذه العوامل في نقطتين رئيسيتين :

١- ظهور الإقطاع كنظام اقتصادي غالب وانهيار نظام الملْكيَّة الفرديَّة الذي عرفته الدولة القديمة ، وظل مركز الفلاح المصري يتدهور اقتصاديّاً وفكريّاً وقانونيّاً كلما رسخ الإقطاع واستقرَّت دعائمه حتى تحوَّل من إنسان حرٍّ مفكرٍ خلَّاق إلى عامل سخرة وتابع أرض .

٢- فقدان مصر استقلالها السياسي وخضوعها منذ منتصف الألف الأول قبل الميلاد لسلسلة لا تنتهي من الحكم الأجنبي فخضعت لاحتلال اللوبيين والأثيوبيين والآشوريين والفرس والإغريق والرومان والعرب والترك والعثمانيين وكان الفلاحون دائماً الذين يمثلون أغلبية الشعب وهم الذين يقع عليهم العبء الأكبر من الاضطهاد والاستنزاف المستمرين من جانب شتى ألوان الحكام والمحتلين وأدَّى ذلك بالتالي إلى زيادة تدهورهم ماديّاً ومعنويّاً.(١)

الحقب التي هجر الفلاح المصري أثناءها أرضه

والفلاح المصري أكثر الناس حبّاً لأرضه ، وصبراً في الشدائد ، ورضاً بالقليل ، وزهداً في متاع الدنيا ، وحفاظاً على العادات والتقاليد . كل هذا جعل الفلاح المصري مرتبطاً بأرضه ارتباط السمك بالماء لا يقدر على البعد عنها ولا يحيى بدونها ولم يحدث أن هجر المصري القديم أرضه إلا في حالات نادرة أشهرها :

١- إبان الاحتلال الروماني ، حيث هجر بعض المصريين أرضهم عقوبةً للرومان الطغاة الذين جعلوا أرض مصر سلَّة غلال لإمبراطوريتهم وأثقلوا كاهل الفلاحين بالضرائب ، وفوق ذلك حاولوا إرغامهم على تغيير اعتقاده المسيحي الأرثوذكسي إلى الكاثوليكي الملكاني مذهب الغزاة ؛ فهجّر الفلاحون أرضهم وفرُّوا بدينهم إلى الصحراء وسكنوا الأديرة تخلصاً من الاضطهاد الديني أو الضيق

(١) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلا" ص ١٠١، ١٠٢.

الاقتصادي أو استجابة لوحي مقدَّس أو حباً في العزلة ، حيث تخلُّوا عن عرَض الدنيا ، واهبين أنفسهم للتعبِّد والتنسك ، منقطعين لخدمة الإله . (١)

٢- أيام محمد عليّ ، عندما احتكر الأرض الزراعيَّة ووزَّعها على الفلاحين لزراعتها لصالح الحكومة وتوريد محاصيلها بالسعر الذي تحدِّده وهو سعر بخس واحتكرت الحكومة تجارة هذه المحاصيل وبيعها في الأسواق العالميَّة بأغلى الأسعار ، وفائض القيمة يصب في خزينتها ؛ فينفقها محمد عليّ على حروبه التوسعيَّة من أجل إقامة إمبراطوريته ؛ كما أصدر محمد عليّ قراراً بتجنيد المصريين إجباريّاً واقتحم عساكره القرى واختطفوا الفلاحين وجنَّدوهم قسراً ؛ فهاجر كثير من الفلاحين إلى الشام فراراً من الفقر والقهر ، والعجيب أن محمد علي جرَّد حملة عسكريَّة لإجبارهم على العودة !!

٣- بعد ثورة ٢٣ يوليو ، عندما استولت الثورة على الأراضي الزراعيَّة المصريَّة من أسرة محمد علي وكبار الملاك ووزَّعتها على الفلاحين وصنعت بهم ما صنعه محمد علي فقد أجبرت الثورة الفلاح على زراعة ما تريده من محاصيل وتوريده للدولة بالسعر الذي تحدِّده ، وهو سعر بخس ، كما احتكرت تجارته وبيعه في الأسواق العالميَّة بأغلى الأسعار وفائض القيمة ينفقه عبد الناصر على حروبه الخاسرة ، وزعامته الشخصيَّة ، والعجيب أن يتمَّ ذلك باسم الاشتراكيَّة التي ما قامت إلا بسبب استيلاء الرأسماليين على فائض القيمة دون العمال والفلاحين المستحقين لها (٢) ونتيجة هذا الغبن هجر الفلاحون أرضهم وقراهم إلى القاهرة والمدن المصريَّة الكبرى بحثاً عن لقمة العيش بعدما عزَّت عليهم في قراهم ، وهذا ما يسمَّى الهجرة الداخليَّة .

باستثناء هذه الحالات النادرة فإن الفلاح المصري ظلَّ متمسكاً بأرضه حريصاً على زراعتها وإنتاجيتها .

---

(١) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق . ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) فائض القيمة يراد به " الفصل بين الأجر المستحق عن العمل المبذول وبين ما يحصل عليه العامل من الأجر أو هو الزيادة التي يبتزَّها صاحب العمل من العامل نتيجة إعطائه أجرا لا يساوي جهده المبذول فإن معدَّل ما يقدِّمه العامل من جهد هو أكبر مما يناله من الأجر"، أو المقصود بها الشيء الزائد عن قيمة السلعة الحقيقة التي هي حق للعامل بينما يأخذها الرأسمالي كجزء من القيمة وفائضها يذهب له لا للعامل ". موسوعة المذاهب الفكريَّة المعاصرة ، موقع الدرر السنيَّة .

يقول محمد العزب موسى : " إن ذلك التمرُّس الطويل القديم بالحضارة هو الذي مكن الفلاح المصري من الصمود لعوادي الزمن والاحتفاظ بكيانه وتراثه الفولكلوري وخصائصه النفسيَّة والجنسيَّة رغم كل عوامل التدهور التي تجرَّعها حتى الثمالة ، كان هذا الصمود من جانب الفلاح المصري في أسوأ الظروف هو سر بقاء مصر رغم ما أصابها من محن ، فقد بادت الحضارة القديمة ولم يعد لها وجود ، ولكن الشعب الذي تشبَّع بها اكتسب مناعة كافية ولم يتلاش بانهيار حضارته وضياع استقلاله وانتهاء تفرُّده بل ظلَّ يقاوم الزمن مُلْتصقاً بالأرض والنيل ومُلتحماً بالمُناخ الطيب والسماء الصافية بينما تلاشت شعوب كثيرة أخرى عاصرت مصر القديمة . (١)

وعلى الرغم من أن الفلاَّحة المصريَّة هي التي حافظت على بقاء واستمرار الجنس المصري الأصيل ، وأن الفلاح المصري هو الذي حافظ على أرضه وأبقى على إنتاجها فإن الفلاح المصري : رجلاً وامرأة قد تعرَّض في عصور مصر المتأخرة لكثير من الغبن والتهميش والاستغلال .

الفلاح المصري ونظام الالتزام المملوكي/ العثماني

جاء في كتاب وصف مصر : " ثمَّة كثير من المزارعين الأحرار على ضفاف النيل قد أصبحوا مجرد فلاحين أُجراء ، أو عبيد مطحونين تحت وطْأة تلك الضرائب الباهظة ، يفلحون هناك وفي حلوقهم غُصَّة ، أراضي خصبة ، لكنهم لا يستطيعون أن يجنوا لها ثماراً ، فهذا الوادي الخصيب في الفيوم ، وتلك السهول الخصبة في الدلتا التي كانت غزيرة الإنتاج تحت حكم الفراعنة والبطالمة ، لا تنتج الآن بالكاد ربع ما كانت تنتجه في الماضي ، ومن السهل أن نلتمس أسباب ذلك التغيير المحزن ، لكننا لا ينبغي أن نبحث عن تفسير عند الطبيعة أو عند تقلُّبات الطقس مهما كانت عنيفة ، فالنهر على الدوام هو نفس النهر ، وفيضانه السنوي شأنه شأن الماضي يأتي كل عام ليروي الوادي ، فقط اختفى الأمل ، فما عاد يلهب حماسة الفلاح ولا عاد يستثير همته ؛ إذ هو يعلم الآن أن ثمَّة أجنبيًّا بغيضاً هو الذي سيحصل على ثمن عرقه هو ، نعم ، ماذا سيعود على الفلاح لو أنه عمل على

(٢) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلا" ص ١٠٣، ١٠٢.

إنماء محصولات جديدة ما دامت لن تعود عليه ولا على أولاده خيراتها ؟ إنه يبـذر البذور وهو حانق ، ويجني محصوله وهو خائف ويعمل جهده ليخفي عن نظـرات طغاته الجشعين قدْراً ضئيلاً من الحبوب يمكنه أن يحصل بها على بعض احتياجات أسرته العديدة ، فالفلاح في هذه البلاد البائسة ليس بمالك للأرض ، وليس بمقـدوره أن يكون ذلك ، إنه ليس بصاحب للأرض ، ولكنه قِنٌّ (عبد) لها منـذ ولادتـه ؛ يعمل لحساب تلك العصبة التي قهرت وطنه واستذلّته ، إنـه رقيـق الدونـة فـي إسبارطة القديمة ، وعبد المستعمرات الأمريكيَّة التعس !

يبلغ عدد القرى في كل الوادي ما بين ٢,٥٠٠ – ٣,٠٠٠ قرية كبيرة أو صغيرة .. وهناك بعض الأفراد يتسَمَّوْن باسم المُلْتزمين ، وهؤلاء هم الـذين يملكـون أراض هذه القرى امتلاكاً فعليّاً ، ويعنى الفلاحـون باقتـسام هـذه الأرض بيـنهم وبـين الملتزمين ، ولكن انظر إلى أي حد تضاءلت حقوق الفلاحين ، وإلى أي حد وصلت سطوة الآخرين !

إن مالك عدد معين من القراريط يحصل من الفلاح الذي يفلحها ضريبة ثابتة كانت قيمتها في الماضي محدودة ، وبخلاف هذه الضريبة قام الملتزمون بتحميل الفـلاح بعدد هائل من الضرائب والإتاوات لم تكن موجودة قط من قبـل ، لكنهـا بمـرور الأيام أصبحت ضرائب إجباريَّة واجبة الدفع ومسجَّلة ، وتُحَـصَّل بقـسوة بالغـة ، وتُسمَّى حصيلة كلّ هذه الرسوم التي ينظر إليها السكان باعتبارهـا نتيجـة لقهـر وطنهم : البراني ، ويُحَصِّل الملتزم مجموع هذه الضرائب ، ومن هـذه الحـصيلة يدفع الميري وهو الضريبة الثابتة والمقررة بموجب قـانون إداري قـديم ، وهـو يُحَصَّل باسم السلطان بواسطة الموظَّف الذي يمثِّله ، ويتحمَّـل المـصريون هـذه الضريبة أكثر مما يتحمَّلون الضرائب الأخرى ، إذ هي في نظرهم اعتراف بـسيادة السلطان ولأن لها طابعاً مشروعاً .

ويورِّث الفلاح لأبنائه حق زراعة الأرض التي في حوزته ، وعلى هـؤلاء أولاً أن يدفعوا نوعاً من رسوم التَّقلُّد ، ومع ذلك فنادراً ما يسددها الفلاحون بالرغم مـن أنَّ للملتزم حق تحصيلها ، وتبلغ هذه الضريبة ثلاثة أمثال عائـد الأرض المنزرعـة ، ويمكن للملتزم حسب تساهله أن يتنازل عن جزء منها أو يتنازل عنها كليَّة إذا كانت الأرض ضعيفة ، ولكن إذا رفض الفلاح المُورِّث أن يسدِّد هذه الضريبة بالرغم من

أوامر وتنبيهات المالك الملتزم فإن الأخير يستطيع أن يرغمه على ذلك بمنعه من استغلال الأرض التي كانت في حوزة أبيه ، فانظر إذن بأية طريقة وبأي ثمن يستطيع الفلاح المصري أن يورِّث أبناءه إرثه التعس .

ويمكن القول بأنه ليست للقانون المكتوب – على ضفاف النيل – إلا أهميَّة ثانويَّة ، بينما يرسم العُرْف أوامر وأحكام رجال القضاء كما أنه هو الذي يبرر تلك الابتزازات الإجراميَّة للرجال القادرين من كل الطبقات ، ونتيجة لهذه السوءة البربريَّة فإن الفلاحين يعيشون في شكل عبوديَّة أكبر مما ينبغي ؛ فأقدارهم تحت رحمة نزوات الملتزم الذي يستطيع حسبما يتراءى له أن يودي بهم إلى حالة من البؤس المفزع أو أن يهيئ لهم عيشاً رغداً ، إنَّ هذه الأوضاع الشيطانيَّة في مجموعها ليست أقل سوءاً من الأمور التي تستوجب نظاماً تشريعيًّا جديداً في مصر .

وللملتزم الحق أن يبيع التزامه ، وعندما يحدث ذلك يقوم الملتزم الجديد بدفع الميري بدلاً منه ، ويرث أبناء الملتزم الالتزام عن والدهم ، لكنهم لا يخلفونه إلا بعد موافقة الباشا ، وفي هذه الحالة يحصل هذا الضابط باعتباره ممثلاً للسلطان على جَعْل يصل إلى ثلاثة أمثال قيمة الفايظ السنوي غير مشتمل على البراني ، ويؤكد الباشوات هذه الضريبة بأن يدفعوا إلى بلاد القسطنطينيَّة جزءاً من عائد عقودهم هذه ، ويعدِّل الباشوات في معظم الحالات من المبلغ المفروض كضريبة إرث ، ويمارسون في هذا الخصوص نحو الملتزمين ما يمارسه هؤلاء نحو الفلاحين في نفس الظروف .

وفيما مضى كانت الأرض مملوكة لجَمْهَرَة من كبار الملاك ، لكن المماليك تخلَّصوا من هؤلاء حتى يقتسموا فيما بينهم أسلابهم ، وقد نتج عن هذا السلب أن أصبح أعضاء الحكومات المملوكيَّة يمتلكون كلَّ أرض مصر على وجه التقريب ، فكانوا يملكون على الأقل ثلثي الأراضي القابلة للزراعة .

وبرغم كل ذلك فسوف نقع في خطأ بيِّن إذا ما استنتجنا مما تقدَّم أنه ليست لدى المصريين فكرة صحيحة عن الملكيَّة الحقَّة ، إنهم يعرفون معنى هذه الملكيَّة الحقة بلا ريب ، ولكن كيف يمكنهم أن يتمتَّعوا بها ، بينما كل شيء هناك يعترض سبيل

سعادتهم ؟ فالعادات وطغيان الحكومات وجشع الملتزمين كل ذلك عقبات لا يمكن التغلُّب عليها ، لا مفرَّ من إصلاح تام بل يمكن القول بأنه لا بد من توزيع جديد للأرض ، ولو كان الفرنسيون قد استطاعوا أن يثبِّتوا أقدامهم في البلاد فليس من شكٍّ في أنهم كانوا سيصلحون من مساوئ هذا النظام ، وإذا ما حدث ووجد أبناء ريف مصر أنفسهم يعيشون في ظلِّ حماية القوانين فإنهم سيحصلون في وقت معاً على الأمل والهمَّة ، وعندئذ فكم من الثروات سوف تغلُّ هذه الأرض الخصبة المعطاءة التي استحقَّت ذات يوم اسم : مزرعة روما .

لكي نقدِّم فكرة تقريبيَّة عن بؤس الفلاحين فسوف نعتمد على شهادة المعلم يعقوب المباشر القبطي الذي أكد لنا أن ١٠ فدادين من الأرض في الصعيد تنتج خمسين أردبّاً من القمح من بذور خمسة أرادب ، كما أكَّد لنا بالمثل أنَّ الأقساط التي يدفعها الفلاحون للملتزم عيناً لا تقل مطلقاً عن ٣-٣,٥ أردب من الحبوب عن الفدان ، فإذا قمنا بخصم مصاريف الحرث والبذر نجد أنه لا يتبقى شيء على وجه التقريب لهؤلاء الفلاحين التعساء . (١)

الفلاح المصري ونظام الاحتكار العلوي

وعندما يأتي محمد علي لم يتغيَّر وضع الفلاح المصري كما ذكرنا بل ازداد وضعه سوءاً وذلك لأن محمد عليّ قرر أن تحتكر الحكومة جميع الحاصلات الزراعيَّة بحيث يحظر على الفلاحين أن يبيعوها إلى التجار ، وفرض عليهم أن يبيعوها للحكومة بأثمان تقررها هي ؛ فصارت الحكومة محتكرة لتجارات حاصلات القطر المصري بأكمله ، وهكذا تسلسل نظام الاحتكار ، فبعد أن تملَّكت الحكومة معظم الأراضي الزراعيَّة واحتكرتها بإلغاء نظام الالتزام واسترداد أملاك الملتزمين وإلغاء معظم الأوقاف ، احتكرت كذلك الحاصلات الزراعيَّة ، أي أن الحكومة صارت المالكة للأراضي الزراعيَّة ثم المحتكرة لحاصلاتها جميعاً ، فلم يكن للفلاح ملكيَّة على أرضه ولا على ما تنتجه !

---

(١) كتاب وصف مصر طبعة الهيئة المصرية العمة للكتاب ص ٢٠٢ – ٢٠٧ بتصرف .

وصار الفلاحون إذا احتاجوا للغلال للقوت يضطرون إلى شرائها من الحكومة ثانية وكثيراً ما يحدث أن ترفع الحكومة سعر البيع لتربح من ثمن البيع ، فتشتد الضائقة بالناس وترتفع أسعار الغلال في الوقت الذي تفيض بها مخازنها .

الفلاح المصري والإصلاحي الزراعي الناصري

وبعد قيام ثورة يوليو لم يفلح الإصلاح الزراعي في تحسين حياة الفلاح البائسة بل أضاف إلى فقره قهراً أشدَّ منه .

يقول أحمد طعيمة لعبد الناصر صديقه في الرسالة التي أرسلها له بعد النكسة بناء على طلب منه : " التعاون الزراعي بهيئاته وأنظمته وجمعياته هو مشكلة الريف الحقيقيَّة ، وأخطر ما في هذه المشكلة أنها قضت على كل ما قدَّمت الثورة من إصلاح اجتماعي كان يستهدف تحرير الأراضي وتحرير الفلاح من الإقطاع والإقطاعيين ليكونوا أسياداً للأرض ملاكاً لها.

فقد جاءت هذه الأنظمة فحولّتهم إلى عبيد لها بعد أن كانوا عبيداً للسادة أصحاب الأرض من الإقطاعيين السابقين فما شعر الفلاح إلا أنه قد استبْدلَ سيداً بسيد وقد كان يمكن لبعضهم في عهد الإقطاع أن يرفع صوته ضد إقطاعي أو آخر ولكن كيف الخلاص من عبودية تفرضها الدولة بحكم القانون وبشعار إنها لخدمته ولصالحه.

لقد آن لنا أن نرفع الوصاية والسيادة عن كاهل الفلاح المصري وأن تكتفي الدولة بدور الإرشاد والمعاونة ولا تصبح الدولة هي " المزارع والتاجر الوحيد " .

سيدي الرئيس : قبل أن أختتم كلمتي عن الموقف الاقتصادي لابد وأن أثير موضوعاً خطيراً بعيد الأثر والمدى في تكوين الفرد والمجتمع وهو تحرير لقمة العيش.(1)

والحقيقة إن دافع ضباط الثورة لإصدار قوانين الإصلاح الزراعي ، كما صرحوا هم بذلك ، القضاء على طبقة كبار ملاك الأرض وعناصر الأرستقراطية

---

(1) أحمد طعيمة " شهادة حق " حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ص ٢٧.

الزراعيَّة التي سيطرت على مراكز السلطة في عصر ما قبل الثورة، وبالتالي تأمين مسار الثورة على الصعيد السياسي ، ولم يكن هدفهم إصلاح حالٍ الفلاحين والمسمى الحقيقي لقوانين الإصلاح الزراعي هو الاحتكار الزراعي كما بينًا .

لم يطرأ على وضع الفلاح أيَّ تحسين بعد ثورة يوليو ؛ فقد ظلَّ محروماً من الماء النقي ، السكن الآمن ، الرعاية الصحيَّة ، الكهرباء ، التعليم الحقيقي ، الصرف الصحي ، سائل النقل والمواصلات ، حرية التعبير ، والثقافة العامة ، كما لم تتحسَّن الناحية الاقتصاديَّة ، والاجتماعية وغيرها من مقومات الحياة السليمة إن حياة الفلاح بعد صدور قوانين الإصلاح الزراعي الذي لم تتغير كثيراً عما كان من قبل بل ساءت بعدما أضيف إليها قهر النظام الحاكم .

ومما يؤخذ على الإصلاح الزراعي تسليم بعض المزارع الكبرى إلى زمرة من الموظفين الإداريين لا خبرة لهم بالعمل الزراعي بل ولا بإدارة المشروعات فأساءوا الإدارة وأساءوا الاستغلال ، وكان أن تدهورت هذه المزارع الكبرى بدلاً من أن تتطوَّر إلى وضع أفضل ، وأوفر إنتاجية وأقدر على الوفاء باحتياجات الناس المتزايدة.

كما كان من سلبيات الإصلاح الزراعي أيضاً إصدار تشريع تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر فصدر قانون يعسِّر معه المالك على إخراج المزارع من أرضه طالما أنه يقوم بسداد الإيجار الذي حددته الثورة بسبعة أضعاف أمثال الضريبة المفروضة على الأرض ، وقد كانت ضريبة هزيلة مما أفضي إلى أن أصبح الفلاح المستأجر هو المستفيد الفعلي من الأرض فقلَّ اهتمام المُلاك برعاية أملاكهم بواسطة ما كانوا يملكونه من معدات عصريَّة مرتفعة السعر لقلَّة ما بات يدرُّه عليه ذلك من عائد. (١)

يقول د. حلمي مراد (٢) عن الإصلاح الزراعي : " أولاً لا يجوز نزع للملكية إلا بتعويض ، ولو بتعويض مقسَّط على فترة طويلة ، النقطة الثانية إنه يجب أن يعطى الفلاحين الإمكانيات التي تمكِّنهم من زراعة هذه الأرض دون تدخل من جانب السلطة ، عملية أنهم ينقلون من عاملين أو شغالين عند كبار الملاك إلى عاملين أو

(1) د. ثروت عكاشة " مذكراتي في السياسة والثقافة " ج٢ الهيئة العامة للكتاب ص ٦٧٢ ، ٦٧٣.
(2) حلمي مراد أستاذ قانون ووزير في الحقبة الناصرية سابق .

شغالين عند هيئة الإصلاح الزراعي أي موظفين في الدولة ويعانون نفس المتاعب ولا يحصلون على حقوقهم كاملة ، يبقى ما غيرناش في الواقع شيئاً وذلك إحنا بنجد ثمن محصول القطن اللي كان وقتها المحصول الرئيسي اللي بتستولى عليه الدولة من الفلاحين أقل بكثير من السعر اللي بتصدر به الدولة ، هذا الفارق كان من حق الفلاحين ، ولكنه أصبح ضريبة مستترة مفروضة عليهم ، إذن هنا الفلاح ما تغيرش وضعه ، ولذلك إحنا بنجد القرى لا زالت في الصورة الاجتماعيَّة والعمرانيَّة والمعيشيَّة القديمة ما حصلش تحسن في المجتمع الريفي ، ويمكن هذا أوضح في الصعيد من الوجه البحري . " (١)

لكن الدعايات الناصرية الزاعقة صوَّرت لنا الفلاح كأنه يعيش في جنة النعيم بفضل الإصلاح الزراعي الذي أصدره جمال عبد الناصر ، ولم يتغيَّر وضع الفلاح اقتصاديّاً كثيراً حتى الآن برغم تمتُّعه ببعض الخدمات الحكوميَّة : مدارس ، وحدات صحيَّة ، كهرباء ، ماء نقي ، أدوات زراعيَّة حديثة ..

صورة حيَّة من حياة الفلاح في آخر العهد الناصري

ولو استعدتُ حياة الفلاح كما عايشتها في أواخر الستينات ومطلع السبعينات في محافظة سوهاج في قريتي " نزلة داود " فسنقف على ما وصلت إليه حالة الفلاح المصري من وضع اقتصادي وعلمي وصحي ومع ذلك يجاهد جهاد الأبطال ثالوث : الفقر والجهل والمرض ويتمسَّك بالقيم المصريَّة الأصلية متذرعاً بفضيلتي : الإيمان القوي بالله ، والصبر الجميل .

كان فلاح قريتي ينام بُعَيْد صلاة العشاء ويستيقظ هو وأولاده وزوجته وطلوع الفجر حيث يبدأ صياح الديكة وهديل الحمام ، وبعد أن يتناولوا الإفطار من الحريرة، أو الدشيشة ، أو الرشدة أو العصيدة ، أو البسيس كلٌ حسب قدرته الماليَّة، فالفقراء المعوزون يأكلون ، غالباً في الشتاء ، الحريرة وهي دقيق مخلوط بقليل من اللبن وإذا أضافوا إليه التمر صار عصيدة وإذا استبدل الدقيق بمجروش القمح أو الذرة الصيفيَّة صار دشيشة وبعد الطهي قد يضاف إليه السمن حسب الحالة

(١) طارق حبيب " ملفات ثورة يوليو " مركز الأهرام للترجمة والنش ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

الاقتصاديَّة ، أما إفطار الصيف فغالباً بعض قطع الجبن القريش أو الجبن القديم مغموساً في قليل من " المِش " مع أرغفة " البتاو " (١)

ويخرج الأب وأولاده من دورهم مع بزوغ الشمس أو قبل ذلك بقليل سائرين على الأقدام أو راكبين الحمير إلى الحقول على أكتافهم الفئوس وفي أيديهم عُقُل (٢) الماشية ، حيث يمضون وجه النهار في العمل والسعي والكد ، ولا يعودون إلا مع غروب الشمس وأحياناً بعده .

وفي الحقل يعزقون الأرض أو يبذرون البذور أو يسقون الزرع أو ينقونه من الحشائش الضارة أو من الدودة ، ويطعمون الماشية وبعد الظهر تأتي الزوجة أو أحد الأبناء الصغار يحمل الغداء مصروراً في منديل ، وغداء الفلاح عبارة عن جبن قريش أو لبن رائب أو جبن قديم وخبز بتاو إن كان فقيراً أو خبز القمح إن كان من الميسورين مع البصل أو الفجل أو بعض عيدان الحِلْبَة الخضراء يحضرها من حقله أو حقل جاره ، أما العَشاء فغالباً طبيخ يجني ثماره من حقله فعلى حافة الأحواض يزرع الفلاح البامية ، والباذنجان ، والفلفل والكوسة ، وفي أحواض خاصة يزرع الملوخيَّة ، والبطاطس ، والطماطم ، والفجل ، والبصل .. كما كان يزرع من الفواكه البرتقال واليوسفي والرومان والتين والجوافة والموز والتوت والنبق والجميز .. بالإضافة إلى النخل .

أما الفلاحة فتقوم بحلب المواشي قبل خروجها للمرعى واستبدال روثها الرطب بالتراب الجاف ، وتعمل من روث البهائم جِلَّة لتخبز بها ، وعند البناء يخلط روث البهائم بالطين والتبن وبعد أن يترك مدة ليأْسَن ويصبح طيناً لازباً يصنع منه الطوب اللبن الذي يبنى به البيوت أو يصنع منه الطبلية والمَكَبَّة والفرن والكانون والمسطبة والخَزَانة وصوامع الغلال ...

وإن كان الفلاح في العصور المتأخرة يحرق الطوب اللبن في " الكوشة " ليصبح طوباً أحمر أقوى وأصلب من الطوب اللبن ، كما أن الفلاَّحة بعد حلب اللبن ترقده في المِحْلاب (٣) ثم تضخه في القِرْبة وهي جلد ماعز معلَّق على ثلاثة قوائم من

---

(١) خبز يصنع من دقيق الذرة الصيفية مع قليل من الحِلْبة .
(٢) جمع عقال : حبل الماشية الذي تشد به .
(٣) المِحْلاَب : ماجور من الفخار .

الجريد ، ونتيجة خض اللبن يفصل الزبد عن اللبن ومن اللبن تصنع الجبن القريش والرايب ، وتستخدم الزبد في الطعام الذي هو إما طبيخ خضراوات أو فطائر ومخبوزات ومُعَجَّنات ، كما أنها تقوم بالخبيز والغسيل مرة أو مرتين كل أسبوع غالباً فالملابس لا تكاد تغسل حتى يستحيل لونها إلى لون الطين ، ولا يفلح الغسيل في تنظيفها تماماً إنما يخفف من قذارتها فقط فلم يكن هناك إلا صابون الغسيل الأسود الرديء فقط هو الذي تستخدمه الزوجة.

وفلاح قريتي أبعد ما يكون عن الأناقة إلا في المناسبات المهمَّة فقط فيخرج جلباباً جديداً وشالاً أو " تلفيحة تقيه برد الشتاء أو حر الصيف وربما حذاء يحتفظ بها للمناسبات فقط وهي قليلة كالأفراح ، التعازي ، السفر ، الأعياد ، أو استقبال زائر مهم . أما الأحذية فلا تكاد تُعْرف إلا في هذه المناسبات وسائر الأيام الحفاء هو الغالب على الكبار وهو السائد عند الأطفال والصبيان .

أما في غير هذه المناسبات فليس للفلاح إلا جلباب واحد يعمل فيه وينام فيه ولا تكاد تميز لونه من قذارته وسوء خامته .

أما التعليم فلم يكن معروفاً إلا في بعض الكتاتيب ولم يكن متاحاً لمعظم الناس لذا كانت نسبة الأمِّية مرتفعة جداً والنادر من حالفه الحظ وذهب إلى الكتَّاب ليحفظ القرآن أو أجزاء منه وليتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب .

ولم يُحْرم الفلاح من التعليم فقط إنما حُرم من كل وسائل الحياة الكريمة حرم من الماء النقي والرعاية الصحيَّة والكهرباء وسائر الحاجات الرئيسيَّة .

ولم تر بلدتي المدرسة النظاميَّة إلا في مطلع الستينات حيث تبرَّع عمدة البلد بدار صغيرة لتكون مدرسة وهي عبارة عن خمس غُرَف وفناء صغير . بدأ التدريس فيها بضع المدرسين هم أقرب إلى الأميين منهم إلى المتعلِّمين فضلاً عن كونهم معلِّمين تربويين يأتون بجلابيبهم راكبين حميرهم أو الأتوبيس القديم الذي لا يدخل بلدتنا إلا مرتين : في الثامنة صباحاً والرابعة عصراً ، وجميع من تعلَّم في هذه المدرسة من أقاربي خرجوا من الصف الخامس الابتدائي كما دخلوا لا يحسنون كتابة أسمائهم ، أمَّا الجيل الثاني من طلبة هذه المدرسة كانوا أحسن حظاً فقد بنت

الدولة في أوائل السبعينات مدرسة إعدادية في قرية قريبة منا (قرية بني حــرب) ومن أكمل التعليم ذهب إلى طهطا حيث توجد مدرسة رفاعة الطهطاوي الثانويَّة .

لقد تغيَّر هذا الوضع تماماً ولم تعد هذه الصورة موجودة للريف المصري إلا فــي أذهان العجائز وكبار السن فالفلاح اليوم يظل ساهراً حتى الــساعات الأولــى مــن الصباح أمام التليفزيون خاصة الشباب الذين بقوا في القرية ولــم يهجروهــا إلــى العاصمة والمدن الكبرى أو للبلاد العربية أو الأجنبيَّة كما أن الآلات الحديثة وفَّرت على الفلاح الجهد والوقت والمال فلم يعد يستيقظ إلا ضحى ولا يعمل بيده مستخدماً الفأس والمنجل والمحراث والساقية والنَّوْرج والمِذْراة بــل أصــبح يــستخدم آلات الحرث والحصاد ، وتغيَّر مسكنه فصار كمساكن المدن وملابسه صــارت حديثــة ونظيفة .

ومن المؤكَّد أن رواسب الفلاح المصري الحضاريَّة وذكاءه الفكــري واســتعداده الطبيعي للتطور عوامل كفيلة بإثمار أي جهد صادق للنهوض بالريف والفلاح إلــى مستوى الثورة التكنولوجيَّة الحاليَّة ، ولا شكَّ أن الريف المصري قد قطَع أشــواطاً هائلة إلى الأمام ، ولكن لابد من القضاء نهائيّاً على الآفات التقليديَّة الــثلاث التــي تهدم فلاحينا هدماً وهي : الفقر والجهل والمرض ، ولا بد مــن تغييــر الأوضــاع المادية في الريف بإحداث ثورة عميقة في أساليب الإنتــاج وعلاقاتــه ، وتــصنيع الريف وتخطيط القوى ولا بد من بذل جهد أكبر للنهــوض بــالفلاح ذاتــه ماديّــاً ومعنويّاً.

وعندما ينهار الستار الحديدي بين الريف والمدينة ســوف يــسقط معــه الفاصــم الوهمي بين الحاضر والماضي ، وسوف يعود الفلاح المــصري إلــى المــساهمة الإيجابيَّة في حضارة العصر الحديث كما كان يفعل أيام أمجاده التليدة . (١)

ماذا بقي من العادات المصريَّة التي ذكرها هيرودوت ؟

(١) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلاً" ص ١٠٥ .

في الكتاب الثاني من كتب " هيرودوت " التسعة الذي خصَّ به مصر التي زارها عام ٤٤٠ ق.م واستمرَّت زيارته لها أربعة أشهر كانت كلها في أيام الفيضان نجد الكثير من العادات المصريَّة القديمة التي مازالت حيَّة حتى اليوم أو على الأقل حتى العصر الحديث .

يقول هيرودوت : " والآن سأبدأ الكلام عن مصر في إسهاب لأنها – دون غيرها من بلاد العالم أجمع – تحتوي عجائب أكثر ، وآثاراً تَجِلُّ عن الوصف ، ومن أجل ذلك سأطيل الحديث عنها ؛ نظراً لأن مُناخ مصر منقطع النظير ، ولأن نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة باقي الأنهار ؛ ولذلك اختلف المصريون كلَّ الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم . " (١)

وما قاله هيرودوت هو محلُّ إجماع العالم وهو أن مصر بلد ليس له مِثْل ولا تقارن بها دولة فهي ، بحق ، أم الدنيا ومعلِّمة سائر شعوبها العلم والحضارة ونهرها أعظم أنهار الدنيا ، أما عن مُناخها فمنقطع النظير كما قال هيرودوت .

ثم يتحدث هيرودوت عن حياة المصريين فيقول : " والمصريون يتغوَّطون (يقضون حاجتهم) في بيوتهم ويأكلون في الطرقات ؛ معتقدين أن الضرورات القبيحة يجب أن تؤتى في الخفاء ، أما غيرها فتؤتى جهرة " (٢)

يرى هيرودوت من الغرائب في حياة المصريين أنهم يقضون حاجتهم مستترين في بيوتهم ، ويجاهرون بالأكل على المصاطب أمام منازلهم أو في حقولهم وأماكن أعمالهم ، وهذا من صور الحياة السليمة ومن الكرامة الإنسانيَّة وما يدل على ذوق هذا الشعب وكرمه . نعم إنه الذوق كل الذوق ، بل إنها صور تدل على المروءة الكاملة . فهيرودوت حين يعجب من ذلك لأنه لم يره عند غير المصريين إنما يرمي شعبه الإغريقي – على الأقل – بفساد الذوق وانعدام المروءة . (٣) وإذا كان

(١) " هيردوت يتحدث عن مصر " ترجم الأحاديث عن الإغريقية د. محمد صقر خفاجة ، وقدَّم لها وتولى شرحها د. أحمد بدوي دار القلم ص ١١٦
(٢) نفسه ص ١١٨
(٣) د. أحمد بدوي تعليقاً على كلام هيرودوت هامش الكتاب ص ١١٨ .

الغرب الآن يقضون حاجتهم في بيوتهم ويأكلون في الشوارع بالقرب من أعمالهم فالفضل يرجع إلى المصريين الذين علّموهم ذلك .

يقول هيرودوت : " ويقضي العُرْف عند سائر الشعوب بأن يحلق أقارب المصاب رءوسهم أثناء الحداد ، ولكن المصريين إذا نزلت بساحتهم محنة الموت يطلقون شعر رأسهم واللحية . وقد كانت لديهم حتى يومئذ محلوقة " (١)

والمصريون يحلقون شعر جسمهم نظافة وطهارة كما قال هيرودوت في موضع آخر ويتركونها حزناً على موتاهم وهو ما يفعله كثير من المصريين حتى اليوم .

وعن علاقة المصريين بحيواناتهم يقول هيرودوت : " ويسكن سائر الناس في عزلة عن الحيوانات ، أما المصريون فيسكنون مع حيواناتهم ." (٢)

وإلى اليوم يجعل الفلاحون حظائر حيواناتهم داخل بيوتهم ، ولسنا نستغرب من المصريين أن يُعْنُوا بالحيوان أكثر مما يُعْنى به غيرهم من شعوب الأرض فمصر كانت ومازالت تعتمد في بناء حياتها على الزراعة ، ولن يعيب المصريين أن يعنوا بحيوان الزراعة ويرعوه على النحو الذي رآه هيرودوت واستغربه (٣) فالحيوانات أصدقاء حقيقيون للفلاح المصري يحسن تربيتها ورعايتها ويعتز بها لما لها من أثر كبير في حياته فمن ألبناها يشرب ومن منتجات ألبناها ولحمها يطعم ومن جلودها يصنع كثير من احتياجاته وعليها يركب ويحمل أثقاله .

والله تعالى يقول : { وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [النحل : ٥- ٧]

وعن طعام المصريين يقول هيرودوت : " ويعيش الآخرون من الناس على القمح والشعير ، ولكنه عارٌ عظيم على من يعيش عليهما من المصريين إذ هم يصنعون

---

(١) نفسه ص ١٢٠
(٢) نفسه ص ١٢١
(٣) د. أحمد البدوي هامش " هيرودوت يتحدث عن مصر " دار القلم ص ١٢١

خُبْزهم من الذرة (١) وهم يعجنون العجين بأقدامهم ، فأما الطين فبالأيدي وبها أيضاً يرفعون الروث . " (٢)

وعن أهم الخضراوات التي يناولها المصريون مع الخبز يقول هيرودوت : " وقد بُيِّن على الهرم (الأكبر) بالحروف المصرية مقدار ما أُنفق ثمناً لما استهلكه العمال من الفجل والبصل والثوم " (٣)

وما زال المصريون عامة والعمال والفلاحين خاصة يكثرون من أكل البصل والثوم والفجل .

وعن تمسُّك المصريين بشريعة الله في ختان الذكور يقول هيرودوت : " وأعضاء التناسل يتركها عامة الناس ، على طبيعتها ، أما المصريون ومن أخذ عنهم فيمارسون الختان . ولكل رجل ثوبان وللمرأة ثوب واحد .. وكتابة الحروف والاتجاه في العدو يجري بها اليونان من اليسار إلى اليمين أما المصريون فمن اليمين إلى اليسار وهم إذ يفعلون ذلك يقولون إنهم يمينيون وإن اليونانيين يساريون. وهم يستخدمون نوعين من الكتابة ، إحداهما تسمَّى المقدسة (الهيروغليفية) والأخرى العامية (الديموطيقية). (٤)

ومازال المصريون إلى الآن مسلمين ومسيحيين يختنون أبناءهم صغاراً ، أما عن كون أن للرجل ثوبين وللمرأة ثوباً واحداً ، إن صحَّ ، فهذا لأن الرجل يعمل خارج

---

(١) نظن أن هيرودوت قد أخطأه التوفيق فيما فهم لأن المصريين قد عرفوا من الحبوب الشعير والقمح والذرة . فأما الشعير فقد كانوا يصنعون منه الجعة . وليس من شك في أنهم كانوا يأكلون من خبز القمح والذرة على السواء وإن كانت الذرة غذاء الطبقات الفقيرة من الفلاحين ومازال كذلك حتى يومنا هذا (١٩٦٦م) على أنَّ ذلك لا يمنع الفلاحين اليوم من أن يأكلوا من خبز القمح إذا وجدوه . د. أحمد البدوي هامش " هيرودوت يتحدث عن مصر " دار القلم ص ١٢٢

(٢) لا نريد أن نكذب هيرودوت فيما ذكر من أن المصريين كانوا يعجنون العجين بأقدامهم ، وإن كنا لا نكاد نتصور ذلك إلا في المخابز العامة . أما فيما عداها فلدينا من آثار المصريين وتراث حضارتهم ما يصوِّر عكس ما رأى هيرودوت . فأما العمل في الطين فنظن أنه كان يجري طبقا للظروف ؛ فبالأقدام إن كان كثيراً وبالأيدي إن كان قليلاً ، ومازلنا نرى ذلك في القرى حتى يومنا هذا فأما العمل في روث البهائم بالأيدي فما زال يجري في القرى حتى اليوم . د. أحمد البدوي هامش " هيرودوت يتحدث عن مصر " دار القلم ص ١٢٢

(٣) " هيردوت يتحدث عن مصر " مرجع سابق ص ٢٥٣ .

(٤) نفسه ص ١٢٤ .

البيت ويحافظ على ستر بدنه لذا يستهلك ثياباً أكثر ، بخلاف المرأة التي أكثر عملها مصونة في البيت ، أما الكتابة من اليمين إلى الشمال ، وأن هناك لغة رسميَّة لغة العلم ، ولغة العامة لغة الخطاب فمازال كائناً إلى يوم الناس هذا مع تغير اللغة والكتابة إلى العربية .

يقول هيرودوت : " وهم (أي المصريون) يزيدون كثيراً عن سائر الناس في التقوى . " (١)

والتديُّن سمة راسخة في الشعب المصري أصيلة متجدِّدة لا يكاد ينافسهم فيها شعب آخر فهم أوَّل الموحِّدين وحاملو رسالات السماء لشعوب الأرض منذ أقدم العصور حتى اليوم ؛ فالأزهر الشريف قِبْلَة علماء المسلمين السُّنَّة في العالم وشيوخه أئمتهم ، وكذلك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس في العالم .

يقول هيرودوت : " والمصريون أيضاً هم أوَّل من راعى السُّنَّة التي تحرِّم مجامعة النساء في المعابد ، كما تحرِّم دخولها بعد الجماع دون اغتسال وسائر الشعوب تقريباً – فيما عدا المصريين واليونانيين – يجامعون النساء في المعابد ويدخلونها بعد الجماع دون اغتسال ، إذ يعتقدون أن شأن الإنسان في ذلك شأن سائر الحيوان . وأضافوا أنهم يرون جميع الحيوانات والطيور على كافة أشكالها تتعاشر في معابد الآلهة وحرمها . فإذا كان ذلك العمل لا يرضي الإله فلماذا إذن تفعله الحيوانات . هذا ما يروونه ليبرروا به أعمالاً هي في نظري غير مُرْضِية "(٢)

وهذه الشعائر الدينيَّة لم يخترعها المصريون إنما تعلموها من الشرائع السماويَّة التي أنزلها الله تعالى على أنبيائهم وأخذها عنهم اليونان ، وهي التي جاء الإسلام بتمامها .

يقول تعالى : { وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ } [البقرة : ١٨٧]

{ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فاطهروا } [المائدة : ٦]

(١) نفسه ص ١٢٤ .
(٢) نفسه ص ١٦٦ .

يقول هيرودوت : " ويهتم المصريون كل الاهتمام بالقيام بسائر الشعائر المقدَّسة .. عندما يقدِّمون النذور إلى الإله الذي يُقدَّس يحلقون رءوس أبنائهم – الرأس كله أو نصفه أو ثلثه – ويقدِّرون الشعر بزنته فضة ويعطى هذا القدر من الفضة – مهما يكن وزنه – للحارسة التي ترعى الحيوان . " (١)

ومن ذلك ما يروى عن رسول الله ﷺ أنه تصدَّق بوزن شعر ابنه إبراهيم ذهباً ، وشبيه بذلك ما يفعله المصريون من أهل القرى حين يحلقون شعور أطفالهم عند ضريح السيد أحمد البدوي في طنطا وغيره .

وعن عادات المصريين يقول هيرودوت : " وهذه هي القوانين التي يتبعونها ؛ يشربون في أقداح برنزية (٢) ينظفونها كل يوم وكلهم دون استثناء يفعلون ذلك . ويلبسون ثياباً من الكتَّان ، ويهتمُّون جداً أن تكون دائماً حديثة الغسل ، وهم يمارسون الختان حبّاً في النظافة (٣) ؛ لأنهم يفضِّلون النظافة على حسن المظهر . وكل يومين يحلق الكهنة أجسامهم بأكملها حتى لا يتوالد بها القمل أو غيره من الحشرات أثناء قيامهم بخدمة الآلهة ، ويلبس الكهنة ثياباً من الكتَّان فقط وأحذية من البردي وغير ذلك من الملابس أو الأحذية محظور عليهم لبسها إلا قليلاً وهم يغتسلون كل نهار بالماء البارد ، ومرتين كل ليل"(٤)

وإلى الآن كثير من المصريين ، خاصة الفلاحين ، يشربون في أقداح البرنز أو الصفيح ويسمُّونها (الأكواز) ، ويلبسون القطن بدلاً من الكتَّان لأن القطن لم يعرفه المصريون إلا بعد الفتح العربي ، كما أن غالبية الشعب المصري إلى اليوم يفضِّلون النظافة على الأناقة فهم عمليُّون وليسوا مترفين ، ولم يمارس المصري القديم الختان حبّاً في النظافة فقط بل مارس الختان أولاً وقبل أي شيء لأنه شريعة دينيَّة سماويَّة أخذها عن أنبياء الله ورسله منذ فجر التاريخ ، كما أنَّ نجاسة الخنزير شريعة سماويَّة كذلك .

---

(١) نفسه ص ١٦٧، ١٦٨ .

(٢) إن المصريين حتى اليوم (١٩٦٦م) يشربون من أقداح البرنز أو الصفيح ويسمُّونها (الأكواز) . د. أحمد البدوي هامش " هيرودوت يتحدث عن مصر " دار القلم ص ١٢٤، ١٢٥

(٣) عرف المصريون الختان منذ أقدم عصورهم التاريخية وإن آثارهم ، منذ أيام الدولة القديمة ، لتثبت ذلك إثباتاً يكاد يبرأ من كل شك وأما الحكمة من الختان عند المصريين فقد كانت حرصاً على النظافة والطهارة ورعاية صحة البدن وإلى ذلك يشير هيرودوت كما يشير إلى سبقهم في ممارسة الختان . د. أحمد البدوي هامش " هيرودوت يتحدث عن مصر " دار القلم ص ١٢٢ ، ١٢٣،

(٤) " هيردوت يتحدث عن مصر " مرجع سابق ص ١٢٤

يقول هيرودوت : " والمصريون يعتبرون الخنزير نجساً ؛ لذلك إذا مسَّ مصريٌّ خنزيراً أثناء مروره به ذهب في الحال وألقى بنفسه في النهر دون أن يخلع ملابسه، كما أن رعاة الخنازير – ولو أنهم مصريون بمولدهم – لا يدخلون دون سائر المصريين أي معبد من جميع معابد مصر ، ولا يرضى مخلوق أن يُزَوِّج أحد هؤلاء الرعاة من ابنته ، ولا أن يتزوَّج منهم ، ولكنهم يتزاوجون فيما بينهم (١)

والخنزير محرَّم في الشرائع السماوية يقول تعالى : { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة : ١٧٣]

وحرمة الخنزير شاملة للحمة وشحمه وجلده . وإنما خصَّ لحمه بالذكر ، لأنه الذي يقصد بالأكل ، ولأن سائر أجزاء الخنزير كالتابعة للحمه . (٢)

والخنزير محرَّم في التوراة ، وفي الإنجيل يقول عيسى ابن مريم للحواريين : " يا معشر الحواريين لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير لا يصنع باللؤلؤة شيئاً ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريدها شر من الخنزير"

وبرغم أن المسيحية تبيح أكل الخنزير ولكن في ١ أغسطس ٢٠٠٧ نصح البابا شنودة بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسيَّة، أتباع كنيسته بعدم تناول لحم الخنزير، قائلاً : " إنه رغم عدم تحريم أكل هذا النوع من اللحم، فإن تناوله يتسبب في إصابة الإنسان بالعديد من الأمراض ، ولأنه من الحيوانات التي تتناول القاذورات والمخلفات غير النظيفة . "

والغالبيَّة العظمى من المسيحيين المصريين لا يأكلون لحم الخنزير كما أخبرني بذلك أصدقائي المسيحيين .

ويتحدَّث هيرودوت عن الاحتفالات المصريَّة فيقول : " ولقد سبق المصريون الشعوب إلى إقامة الأعياد العامَّة والمواكب العظيمة وعنهم تعلَّمها اليونانيون .. والمصريون لا يحتفلون مرة واحدة في السنة بعيد شعبي عام ؛ ولكن أعيادهم

(١) نفسه ص ١٤٥
(٢) د. سيد طنطاوي" التفسير الوسيط " ج ١ ص ٢٧٦ .

العامة كثيرة أهمها ذلك الذي يتحمَّسون جداً لإقامته في مدينة " بوباسطيس (تـل بسطة عند الزقازيق) .. وفي طريقهم إلى " بوباسطيس " يسلكون هـذا المسلك : يبحر الرجال والنساء معاً ويحمل كل قارب عدداً من الجنسين ويطبِّل بعض النسوة على الطبول التي بأيديهن ، وبعض الرجال يزمرون طوال الطريق أما باقي النساء والرجال فيغنون ويصفقون . " (١)

وصورة الاحتفالات المصريَّة القديمة تشبه تماماً احتفالات الفلاحين اليوم .

وعن علم المصريين وصحتهم يقول هيرودوت : " أما عن المصريين أنفسهم فأولئك الذين يعيشون في الأرضي المنزرعة (٢) يهتمون دون سائر الناس اهتماماً كبيراً بتمرين الذَّاكرة وهم ، في العلم ، يتفوَّقون كثيراً على كلِّ الشعوب التي خَبَرْتُها ، وهذه هي طريقة الحياة التي يتَّبعونها : مراعاة لصحتهم ، يتناولون في ثلاثة أيام متتالية من كلِّ شهر مُقيِّئات وحقن شرجية ؛ إذ يعتقدون أن جميع الأمراض تصيب الناس من الأطعمة التي تتغذَّى بها وهم – حتى بغير ذلك – أصحُّ الناس عامَّة بعد الليبيين ، وهذا يعزى – فيما أعتقد – إلى المناخ ؛ فهو غير متغير الفصول . (٣)

أما عن علم المصريين القدماء فهذا أضحى من المسلَّمات ، لكن اللافت للنظر هو ذلك الوعي الصحي لدى المصريين القدماء في الحفاظ على صحتهم بتناول المُقيِّئات والحقن الشرجية ، وهو ما تحرص عليه كثير من الأسر بصفة دوريَّة مع استبدال الشَّرْبة بالمُقيِّئات لتطهير المعدة وتنقيتها مما يفسدها ، وهذا بالطبع لا يغني عن وجود أطباء مهرة في شتى التخصصات .

يقول هيرودوت عن الأطباء المصريين : " وينقسم التطبيب عندهم إلى الفروع التالية : لكلِّ مرض طبيب متخصص فيه لا أكثر وبلادهم كلها غاصَّة بالأطباء ؛

---

(١) يقصد بذلك من يعيشون في الوادي ؛ حيث الأراضي التي تُزْرع على ماء النيل وما يتفرع منه من ترع وجداول تمييزاً لهم من البدو الرُّحل الذين يعيشون في الصحراء د. أحمد بدوي هامش كتاب " هيردوت يتحدث عن مصر " ص ١٨٢ .
(٢) " هيردوت يتحدث عن مصر " مرجع سابق ص ١٥٩– ١٦١ بتصرف .
(٣) نفسه ص ١٨٢.

بعضهم متخصص في العيون وبعضهم في الرأس وبعضهم في الأسنان وبعضهم في الأمعاء وبعضهم في الأمراض الخفيَّة (يقصد الباطنة) . " (١)

ومن عادات المصريِّ القديمة التي مازالت موجودة إلى الآن اتخاذ " الناموسيَّة " لتجنُّب لسعة البعوض في الأماكن التي يوجد بها ، وصناعة المراكب من شجر السنط .

يقول هيرودوت : " الذين يعيشون في المستنقعات كلُّ فرد منهم عنده شبكة يصيد بها السمك أثناء النهار ويستخدمها أثناء الليل كما يلي : يضرب الشبكة حول السرير الذي يستريح عليه ثم يتسلَّل داخلها وينام تحتها وإذا نام أحدهم ملفوفاً في رداء أو ملاءة من الكتَّان لسعه البعوض من خلالها بينما لا يحاول البعوض ذلك مطلقاً من خلا الشبكة . " (٢)

وعن صناعة السفن يقول : " ويصنع المصريون السفن التي تحمل البضائع من شجر السنط . " (٣)

وظلَّ المصريون طوال تاريخهم المديد يستخدمون شجر السنط في صناعة السفن لمتانته وشدته وكان من الحكم التي سمعتها صغيراً في بلدتي ثم اكتشفت أنها إحدى مربعات أحمد بن عروس هي :

خشب المراكب من السنط في البحر ياخد مهاجه (٤)

واجب على الحر يلزم الصمت أم الهلف (٥) ياخد مهاجه (٦)

ولا يكتفي هيرودوت بذكر نوع الخشب الذي يستخدمه المصريون في صناعة سفنهم بل شرح لنا كيفيَّة صناعة المصريين سفنهم وهي نفس الطريقة التي ما زال المصريون يصنعون بها سفنهم .

---

(١) نفسه ص ١٩٢ .
(٢) نفسه ص ٢٠٨ .
(٣) نفسه ص ٢٠٨ .
(٤) يتحمل هياج البحر وارتفاع أمواجه .
(٥) الخسيس عديم الأصل .
(٦) يهيج ويثور ولا يحكم كلامه .

يقول هيرودوت : " يقطعون من خشب السنط ألواحاً طول كل منها ذراعان تقريباً ويصفُّونها كما يُصَفُّ اللِّبِن (طوب البناء غير المحروق) ثمَّ يصنعون منه السفن على الوجه الآتي : يُعَشِّقون الألواح التي طول الواحد منها ذراعان حول أوتاد طويلة متقاربة جداً ، وبعد أن يبنوا هيكل السفينة بهذه الكيفية يمدُّون عوارض على أعاليها . وهم لا يستخدمون الضلوع بل يسدُّون الفواصل التي بالداخل بالبردي ويصنعون دَفَّة واحدة تدفع من قاع السفينة . ويصنعون الساري من السنط والشراع من البردي . "(١)

وعن فيضان النيل يقول هيرودوت : " وعندما يفيض النهر على البلاد تظهر المدن وحدها فوق الماء ؛ وتكاد تشبه الجزائر في " بحر إيجة " على حين تصبح سائر أجزاء مصر بحراً فلا يبدو منها غير المدن ، وأثناء ذلك لا ينتقل المصريون بمراكبهم في مجرى النهر بل في وسط السهل " (٢)

وظلَّ حال القرى المصريَّة هكذا حتى بني السد العالي فحمى مصر من فيضان النيل واختفت هذه المظاهر تماماً .

هذا مما جاء في كتاب هيرودوت عن حياة المصريين وما ظلَّ باقيّاً حتى يومنا هذا أو إلى وقت قريب ، وضربنا صفحاً عن الأخطاء التي وقع فيها هيرودوت فليس يفوتنا أنَّ ما حصَّله " هيرودوت " من علوم المصريين ومعارفهم ؛ بل وعاداتهم أيضاً قد كان ضئيلاً ضحلاً ؛ ذلك لأن رواته لم يتعدُّوا طوائف الأدلاَّء من بني قومه ، والبسطاء من كهَّان مصر . يضاف إلى ذلك أن المصريين في زمان "هيرودوت " قد كانوا غارقين في المحنة السياسيَّة والاجتماعيَّة إلى آذانهم ، وكان من حقهم أن يضيقوا بالأجانب عامَّة ، والإغريق منهم بخاصة ؛ إذ كان من هؤلاء المرتزقون في جيش البلاد ، وأصحاب الأمر والنهي في بلاط الحاكم ، لقد كان حال المصريين يومئذ أشبه بحال المصريين أيام الخديو توفيق ؛ فالحاكم في بلادهم لم يكن مصريّاً وإنما كان ينحدر من سلالة ليبيَّة ، وبلاطه يموج بالغرباء ، والمقدمون من عسكره ، وأمراء جيشه كانوا من الغرباء . فلا عجب إذن أن يضيق المصريون بالغرباء ، وأن يكون أشدهم ضيقاً تلك الطبقة المستنيرة من أهل العلم

(١) " هيردوت يتحدث عن مصر " مرجع سابق ص ٢٠٩ .
(٢) نفسه ص ٢١٠ .

والمعرفة ؛ وهم يومئذ من رجال الدين ، ولم يكن هؤلاء يملكون لأنفسهم ولا شعبهم من الأمر غير التذكير بالماضي ؛ يفاخرون به كل غريب ، ويوقظون بـه وعـي الشباب ، ويلتمسون لأنفسهم فيما كانوا يفعلون بعض العزاء . (١)

ونختم كلامنا عن الاستمرار الحضاري بقول د. محرم كمال : " وهكـذا تتـوالى أمام أعيننا في مصر الحديثة صور مختلفة يُخيَّل إلينا معها أن رسوم جدران المقابر قد تحوَّلت في لحظات إلى رسوم حيَّة و" تابلوهات " مجسَّمة تنبض بالحياة .

فنحن كما رأينا نعيش في نطاق تركة خلَّفها لنا القدماء تشدنا إليهـا سلـسلة مـن التقاليد والعادات ومختلف الأشياء التي تربطنا بها ربطاً وثيقاً لا تجـد إلـى فـصم عروته سبيلاً فنحن كما كنَّا دائماً أبناء للفراعنة (الصحيح المصريون القدماء ولـيس الفراعنة) وأنا بهذه التركة بكل ما فيها من محاسن وعيوب فخورين "(٢)

ويقول حسين مؤنس : " ولعل بلداً من بلاد الأرض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فإن مصر التي ولدت من نحو خمسة آلاف سنة لا زالت هي بعينها اليوم : لم يتغيَّر فيها الدين على طوال هذه الأحقاب إلا مـرتين (٣) ولم تتغيَّر اللغة إلا مرتين أيضاً وليس في هذا تعبير عن تغييـر جـوهري فـي سمات الشخصيَّة المصريَّة ويحولها إلى شخصية عربيَّة فاللغة قد تضيف ثقافـة أو معرفة لكن أبداً لا تغيير سمات الشخصيَّة على حين أن بريطانيـا مـثلاً لا يرجـع تاريخها إلى أبعد من ألفي سنة تغير الدين خلالها مرتين واللغة أربع مـرات علـى الأقل ، وأسبانيا يرجع تاريخه إلى ألفين وخمسمائة سنة تغير الدين خلالهـا ثمـاني مرات واللغة ست مرات . أما جنسنا فلم يتغيَّر في جملته خلال هـذه الأعـصر إلا تغيُّرات طفيفة ، في حين أن بلداً كإيطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيَّرت عنـصر السكان تغييراً هاماً أكثر من مرة . ونتيجة ذلـك أن طبيعـة الحيـاة فـي مـصر وجوهرها كما هي اليوم أيام الفراعنة " (٤)

---

(١) نفسه ص ٢٠٠ .
(٢) د. محرم كمال " آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية " الهيئة العامة للكتاب ص ٣٠ .
(٣) مصر لم تغير دينها فدينها الإسلام الذي هو دين كل الأنبياء { إِنَّ الـدِّينَ عنـدَ الله الإسـلام } [آل عمران : ٩] وأنها آمنت بكل الرسالات السماوية التي بُعث أنبياء الله ورسله بها لهداية شعبها ابتداء مـن إدريس حتى الرسالة المحمدية الخاتمة.
(٤) حسين مؤنس " مصر ورسالتها " ص ١٢٢، ١٢٣ .

الاستمراريَّة الحضاريَّة بين الثبات والتطور

يفسِّر بعض العلماء استمراريَّة الحضارة المصريَّة بشقيها : المدني والثقافي غالباً بشيئين :

١- ضخامة الإنجاز الحضاري المصري القديم الذي وصل إلى القمة قاطعاً الطريق أمام أي إضافة يمكن أن تضاف له في المستقبل .

٢- نمط الحياة المصريَّة المعتمد على الزراعة والاقتصاد الزراعي يورث الثبات وعدم التطوُّر والتحديث بخلاف نمط الحياة المعتمد على الصناعة فإنه يؤدي إلى التطور والتحديث .

يقول د. حمدان : " إن التفسير الأساسي للاستمراريَّة إنما يكمن في ضخامة الإنجازة الأولى بحيث قفزت في ضربة واحدة تقريباً قريباً من " سقف " البيئة ووصلت قرب أعلى آفاق إمكانياتها الحضاريَّة ، بحيث لم تكد تترك الكثير ليضاف أو يتغير فيما بعد .

هذا على طرف البداية والجانب الإيجابي ، أما على الاتجاه المقابل فإن "جوردون تشايلد" (عالم آثار أسترالي) مثلاً يجد كل شيء تقريباً في خلق الحضارة المصريَّة مركزاً بعنف في فترة التوحيد أو ما بعدها مباشرة ، وبعدها فكل شيء تقريباً هو مجرد استمرار فقط ، حتى الفنون التشكيلية ؛ أليس الملاحظ أن قمَّة فن النحت ، وربما العمارة أيضاً ، هي عصر الأهرام والأسرة الرابعة ، وبعدها حدث تدهور نسبي بالتدريج ؟ على أيَّة حال فإن تشايلد نفسه يرى أن نفس أسباب الطفرة الأولى لم تلبث في الغالب أن أصبحت هيَ نفسها ، وبطريقة ديالكتيكية (جدليَّة) ، أسباب الثبات وعدم التغير اللاحق . (١)

هذا عن التفسير الأول لثبات الحضارة المصريَّة فماذا عن التفسير الثاني ؟

يقول د.حمدان : " لا ننسى أن الزراعة والاقتصاد الزراعي ، التي تطغى تماماً على حضارة مصر ، أدَّعى بطبيعتها إلى قدر من المحافظة التي ترتاح إلى المألوف وقد تتهيَّب المغامرة والتجديد أو تنفر منها ، فتورِّث الاستمراريَّة . وقد

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٨٩ .

ربط البعض مثل " توينبي " (من أشهر المؤرخين الغرب في القرن العشرين) ظاهرة المحافظة المصريَّة بنظام النيل والري الصناعي وما يستدعيه من نظام مقرر مُطَاع .

هذا بينما ذهب البعض الآخر كالعقَّاد إلى طبيعة الزراعة نفسها مباشرة ، فأشار إلى أن أقدم عهد مصر الزراعيَّة بالحضارة أصَّل فيها حبَّ الأسرة ومكَّن للنظام البيتي وتعوَّد استقرار النظام أو الرتابة التي تشبه أن تكون ركوداً من طول ألفتها وتغري النفس بالاستنامة إلى الوضع السائد ضماناً من مغامرة الاقتحام والتمرد بما فيه من وحشة التوحد وانفراد العصيان . (١)

والحقيقة ، كما بينا في فصل سابق ، أن الحضارة المصريَّة القديمة كانت أمَّ الحضارات الإنسانيَّ قاطبة لأنها بنيت على العلوم السماويَّة التي أتى بها رسل الله وأقاموا بها الحضارة المصريَّة القديمة ، وقد بدأت كاملة متطورة فتمسَّك المصريون بها وحافظوا عليها خاصة في جانبها الثقافي والديني والأخلاقي ، ولم يجد حكام مصر بعد ذلك : مصريين ، وأجانب نُظُماً أفضل منها فأبقوا عليها ، ولم يحاولوا تغيير الجانب الحضاري الثقافي لتمسُّك المصريين به ، وكذلك لم يحاولوا تغيير الجانب الحضاري المَدَني إما لعجزهم عن الإتيان بأفضل منه أو لعدم رغبتهم في ذلك فالذي كان يهمهم هو المكاسب الماديَّة التي يجنوها من مصر ، والحضارة الهلينستيَّة القديمة والإسلاميَّة الوسيطة هما الاستثناءان الوحيدان اللذان طورا من الحياة المدنيَّة كما حافظا على القيم الدينيَّة السماويَّة .

فلم تكن الاستمراريَّة الحضاريَّة بشقيها : المادي والمعنوي ، أو المَدَني والثقافي في حالة استاتيكيَّة جامدة – خاصة في عصري الحضارة الهلينستية القديمة والإسلاميَّة الوسيطة – إنما كانت استمراريَّة ميكانيكيَّة متطوِّرة في جميع مقوماتها : الطبيعيَّة والبشريَّة والمدنيَّة والثقافيَّة .

يقول جمال حمدان : " أما عن نوعيَّة الاستمراريَّة فهي لم تكن مطلقة ولا كفَّت عن التطور والنمو فحتى الأساس الأرضي نفسه عرف التغير وإن كان محدوداً : اختزال فروع الدلتا نفسه وتغيرها المستمر ، تقلُّص مستنقعات الشمال وانحسارها

(٢) نفسه ص ٥٩٠ .

ثم نشأة البراري ، التغيرات الصغيرة الدائمة في انحناءات النهر واختفاء الجزر وظهورها .. إلخ

والتكوين الجنسي وإن لم يعرف قط ما عرفته بعض بلاد أوربا وآسيا من تغيير جذري فقد تلقَّى كثيراً من المؤثرات الخارجيَّة الثانويَّة التي لا يمكن إلا أن تكون قد عدَّلته في كثير من التدرج وإن يكن في قليل من التغيير . وأكثر من الاثنين الجانب الحضاري ، فإن انصباب المؤثرات الخارجيَّة أدخل دائماً الكثير من الأفكار والخبرات والإضافات الجديدة جدد شباب مصر أكثر مما جددت دماءها ... رغم الاستمراريَّة العريضة كانت مصر دائماً تتغير ولكن ببطء وتدرج وفي متوالية متصاعدة كالآتي : اللاندسكيب (١) أقرب ما فيها إلى الثبات ، يليه التركيب الجنسي بجرعات ضئيلة ، يليه المُركب الحضاري بإضافات متباعدة ولكنها هامَّة .

حقيقة الأمر إذن وهو صفوة القول أيضاً إن الاستمراريَّة المصريَّة لا تعني التكرار بقدر ما تعني التراكم فالاستمراريَّة المصريَّة إن كانت تعني شيئاً فإنما تعني إن القديم فيها لا يعيد نفسه فحسب ولكنه يضيف إلى نفسه الجديد أيضاً . استمراريَّة إن قلَّ فيها أن ينسخ القديم تماماً ، فإنه لا يتناسخ ، وكفى ، وإنما هو أيضاً يتحوَّر ويتطوَّر داخليّاً وخارجيّاً ، وإن وقع هذا وذاك بهدوء وئيد وتدرج أشد تؤدة .

لم تكن استمراريتنا محصلَّة سبق حضاري مبكِّر مضروباً في عزلة طبيعيَّة محكمة بعد ذلك ، ولا كانت بعد هذا وذاك مجرَّد اجترار حوصلي ، وإنما عمليَّة هضم بنَّاء وبناء مستمر .

ولعل أبرز ما يتضح هذا يتضح في الزراعة على وجه الخصوص ، تلك التي تمثِّل أيضاً العمود الفقري للحضارة الماديَّة واللاماديَّة المصريَّة بطبيعة الحال ، فتاريخ الفن الزراعي المصري ينقسم إلى عدة مراحل جيوتكنيَّة ، واحدة منها بعينها تحتل الجزء الأكبر من تاريخ مصر ، وتلك هي مرحلة الفن القديم ، ولكن هذه المرحلة إذا كانت قد خَضْرمت وأزمنت طويلاً وعاشت تاريخاً ألفيّاً مديداً ، فإنها لم تكن فراغاً بلا إضافات . فمصر كما نعلم أخذت منذ أيام اليونان بالطنبور والساقيَّة،

---

(١) لاندسكيب هو الجزء المرئي لمساحة من الأرض بما تحتويه من معالم طبيعيَّة من أشكال و هيئات أرضيَّة و كائنات حية من أنواع نباتيَّة و حيوانيَّة و بشر.

ومنذ البطالسة أدخلت الجاموس ، ومنذ الفرس الإبل والسمسم ، ومنذ العرب القطن والأرز .. إلخ (١)

نهاية الاستمرارية الحضارية المادية القديمة

ظلّت مصر كما بينًا محافظة على نمط حياتها ووسائل معيشتها مع تغيرات طفيفة في الجانب المادي من الحضارة : المسكن والمأكل والملبس وأدوات الزراعة والصناعة وسائر الحرف والمهن حتى بداية عصر النهضة الذي بدأه محمد علي فبدأ التغيير في الجانب المادي بشكل كبير ، وإن كان هذا التغير لم يغيِّر جوهر الشخصيَّة المصريَّة ، ولم يؤثر كثيراً في سماتها الأصيلة .

يقول حمدان : " إن الحضارة الأوربيَّة الحديثة منذ نهضة مصر في القرن الماضي قد جاءت لتضع إلى الأبد نهاية للاستمراريَّة الماديَّة القديمة ، استمراريَّة الحضارة التاريخيَّة ، بحيث أصبحت الاستمراريَّة تَمُتُّ إلى الماضي فقط كما تنصب عليه وحده ، تاركة مكانها نهائيّاً لانقطاع أكثر حدَّة وجذريَّة وتاريخيَّة ، لقد انتهت الاستمراريَّة المصريَّة الألفيَّة ، ومعها انتهت الحضارة الفرعونيَّة العتيقة .

ولهذا فنحن ننتهي مع " تونبي " إلى أن الحضارة الفرعونيَّة قد ماتت في مجموعها بعد تلك الاستمراريَّة النادرة والناضرة ، المحوريَّة والمحيرة ، التي سادت حضارتنا الماديَّة ورانت على تاريخنا الحضاري آلاف السنين . على يد من ماتت : الموت الطبيعي التاريخي البطيء من الداخل أو بالضربة التاريخيَّة القاضيَّة على يد الحضارة الأوربيَّة الحديثة لا ندري بالضبط ، ولو أن الأرجح كلاهما معاً ، وهذا على أيَّة حال ، ما ينقلنا من الاستمراريَّة إلى الانقطاع .

غير أننا ننتقل هنا إلى الانقطاع فإنما نقصد الانقطاع الحضاري بالطبع ، أي انقطاع الحضارة الماديَّة وحدها فقط مع دخول الحضارة الغربيَّة الحديثة . ولكن هناك من قبل ومن باب أولى لا يقل خطراً وحسماً وهو الانقطاع الثقافي مع دخول الإسلام والعروبة منذ أكثر من ألف سنة قبل الانقطاع الحضاري . (٢)

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٨٤ – ٥٨٦ بتصرف
(٢) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٩٢، ٥٩٣ .

وفي كلام د. حمدان نظر بالنسبة للانقطاع الثقافي المصري بالفتح العربي وانتشار الإسلام في مصر ؛ فالمصري القديم منذ فجر التاريخ كان موحِّداً ومتمسِّكاً بشرائع السماء فقد بعث فيه أنبياء كثيرون من لدن إدريس عليه السلام حتى الفتح الإسلامي ، كما بينا في فصل سابق ، كما أن مصر لم تأخذ بالتدين البدوي الصحراوي إنما طبعت الإسلام بطابعها المصري الحضاري ، وساهمت ، كما بينا، بجهد وافر في بناء الحضارة الإسلاميَّة .

أما النهضة الأوربيَّة فهذه بضاعتنا ردَّت إلينا فقد أقامت النهضة الأوربيَّة إنجازاتها على ما تعلَّمته من الحضارة الإسلاميَّة ، وفي الوقت الذي خضعت فيه مصر وكثير من البلاد العربيَّة الإسلاميَّة للاحتلال الأوربي في الأندلس ، والعثماني في البلاد العربيَّة نهضت أوروبا وطوَّرت كثيراً ما تعلَّمته من المسلمين .

والحقيقة أيضاً أنه ليس ثمَّة انقطاع حضاري حتى على المستوى المادي إنما حدث تغير كبير في بعض مظاهر الحضارة الماديَّة في الملبس والمأكل والمسكن وأدوات الزراعة والصناعة ، فمازال كثير من الفلاحين يتمسَّكون بمظاهر حياة أجدادهم القدماء في المأكل والملبس ويستعملون نفس أدواتهم ويستخدمون نفس آلاتهم ، كذلك كثير من الحرف اليدويَّة والمهن ظلَّت على ما كانت عليه .

وبقاء حياة الفلاح الماديَّة على ما كانت عليه مع التغير الحضاري الكبير ، المادي، الذي يشهده العالم والذي أخذت منه المدن المصرية الكبرى بحظ وافر ليس مدعاة للفخر إنما مدعاة للأسى ، كما قلنا ، والأسف فقد أهملت الحكومات المتعاقبة القرى والكفور والنجوع إهمالاً تاماً خاصة محافظات الوجه القبلي مما نتج عنه أن الفلاح المصري ، خاصة في محافظات الوجه القبلي ، الذي حافظ على أرضه وبقي محافظاً عليها وعلى إنتاجها ، وحافظت زوجته على بقاء واستمرار الجنس المصري ، هذا المصري الأصيل أضحى فريسة سائغة لثالوث الفقر والجهل والمرض ، ونحن إذ ندعو إلى التمسك بالقيم المصرية الأصيلة نرفض استمرار التمسُّك بأدوات وأساليب الزراعة القديمة ونمط الحياة التليد الذي تجاوزته النهضة المصريَّة الحديثة .

***

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- ميزان الحق (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) دار زهور المعرفة والبركة

٣- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٤- المدارس السلفية،جدليَّة النقل والعقل والمصلحة. دار زهور المعرفة والبركة

سلسلة كتب دروس سياسية من التجربة الناصرية

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو "" "" "" "" "" ""

٣- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي "" "" "" "" "" ""

٤- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي "" "" "" "" "" ""

٥- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء "" "" "" "" "" ""

٦- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية "" "" "" "" "" ""

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الاستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .

دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي .

دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) "" "" "" "" ""

٤- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن "" "" "" "" ""

٥- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة "" "" "" ""

٦-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية "" "" "" ""

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . "" "" "" ""

كتب عن الحضارة المصريَّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . زهور المعرفة والبركة

٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين فمن نكون ؟ زهور المعرفة والبركة

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " "" "" ""

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) "" "" "" ""

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) "" "" "" ""

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (٨ قصص) دار زهور المعرفة والبركة

* السلسلة النفيسة في ثورات مصر الحديثة (٥ قصص) " " " " " " " "

كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة في العالم

(١٦) كتاباً جامعة هارفارد رقم ١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١١) كتاباً جامعة استنافورد رقم ٣ في الترتيب العالمي للجامعات .

(٥) كتب جامعة كاليفورنيا رقم ٤ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١٠) كتب جامعة كولومبيا رقم ٧ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١٠) كتب جامعة برينستون رقم ٨ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة أكسفورد رقم ١٠ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١١) كتب جامعة ييل رقم ١١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة بنسلفانيا رقم ١٥ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٩) كتب جامعة واشنطن رقم ١٧ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة ميشيجان رقم ٢١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة كيوتو رقم ٢٢ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة تورنتو رقم ٢٤ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٢) كتابان جامعة إلينوي رقم ٢٥ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١٩) كتاباً جامعة كورنيل رقم ٢٩ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١١) كتباً جامعة دوكي رقم ٣٢ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة تكساس رقم ٣٦ في الترتيب العالمي للجامعات.

هذا بخلاف كتب المؤلف العديدة الموجودة في مكتبات الجامعات الأجنبية الأخرى غير هذه الجامعات .

كتب للمؤلف في مكتبات الجامعات العربية

(١) كتاب المكتبة المركزية جامعة القاهرة . مصر

(٢) كتابان جامعة الملك فيصل – المملكة العربية السعودية.

(١) كتاب جامعة الملك فهد – المملكة العربية السعودية.

(١) كتاب جامعة الإمام محمد بن سعود – المملكة العربية السعودية

(١) كتاب جامعة الحسين بن طلال– الأردن.

(١) كتاب جامعة اليرموك – الأردن .

(١) كتاب جامعة مؤتة – الأردن.

(١) كتاب الجامعة الأردنية للعلوم والتكنولوجيا.

(١) كتاب جامعة تكريت – العراق .

(١) كتاب جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان.

(١) كتاب جامعة الإمارات – الإمارات العربية المتحدة.

(٢) كتابان جامعة النجاح – فلسطين.

(١) كتاب جامعة الأزهر الشريف – جمهورية مصر العربية.

(١) كتاب كلية دار العلوم – جمهورية مصر العربية .

(٢) كتابان كلية التربية – جامعة المنصورة – جمهورية مصر العربية

(١) كتاب كلية الآداب – جامعة بني سويف – جمهورية مصر العربية

(١) كتاب كلية الزراعة – جامعة الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

(١) كتاب المكتبة المركزية - جامعة بنها - جمهورية مصر العربية

كتب للمؤلف في المكتبات العالمية والعربية

(١٢) كتاباً في مكتبة الكونجرس الأمريكية.

(٣) كتاب في مكتبة الإسكندرية.

(٣) كتب في مكتبات مبارك العامة.

(١) كتاب في مكتبة وزارة الشباب الإماراتية.

(١) كتاب في مكتبة المجلس الوطني اليمني.

(١) كتاب في مكتبة وزارة الخارجية أبو ظبي.

(٢) كتاب في مكتبة مسجد البيرة الفلسطيني.

-كتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية ، والأجنبية والمواقع الالكترونية.

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه " متى يثور لمصريون"

التليفون المحمول 01226406489 :

البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

محتوى الكتاب

الموضـــــــوع الصفحة

الفصل الخامس : النهضة المصريّة الحديثة

الموضـــــــوع | الصفحة

الفصل السادس : النهضة في الحقبة الليبرالية

الفصل السابع : ثورة يوليو والنهضة